

ثم ينزل الله حكمه فى هؤلاء فيقول :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَآزَقَابَتُمْ فُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ تَرَددُّونَ ﴾



وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه ، وهذا الاهتزاز يعنى وجود شك فى نفسه ، فيما أعد الله له فى الآخرة ؛ لأنه إن كان واثقاً فى داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إن استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر فى رأسه هل يذهب أو لا يذهب ؟ فما دامت الجنة هى الغاية ، فأي طريق موصل إليها يكون هو الطريق الذى يتبعه من فى قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن ؛ لأنه يريد أن يتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا فى نعيم فى الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل ، بل يريد النعيم الباقي الذى لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما : أن الشك قد دخل فى قلب الإنسان ، ومعنى الشك - كما نعلم - هو وجود أمرين متساويين فى نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه ، والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تهزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده ؛ لأنك إن جزمت بشيء لا واقع له فهذا جهل ، والجهل - كما نعلم - أن تعتقد أن

شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مسطرة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مسطرة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والامى ، فالامى الذى لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو متى عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين ، ولكن من الجهلة لأن الامى يحتاج إلى مجهود فكرى واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضى مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما فى عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة فى الواقع ، والجهد الثانى : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع فى الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التى تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدل عليها . وهو فى هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقيه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدل على ما اعتقده فى صغره بالتلقين .

إذن : فاعلم يقتضى أن تؤمن بقضية واقعة عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم ؛ تكون فى ذهنك نسبتان ؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجع نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننت أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ولو استقر في قلوبهم الإيمان البقيني بالله واليوم الآخر ، وأن مَرَدُّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن توضيحتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذي ينتظرهم في الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لما استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فسمنى هذا أن هناك ريبة في أمر ملاقاته في اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية ؟ ولأنهم يرتابون في هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شيء ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

إذن : فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يُصَقَّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صَقَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة في القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتناقش من جديد ، ولذلك سمَّوها عقيدة ، أى عقدت الشيء حتى يستقر في مكانه ولا يتزعزع .

إن الطفل - مثلاً - إن قَرُبَ يده إلى شيء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محترقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يتأفكها في عقله ليقول : لن تلمسنى النار في هذه المرة ، بل تستقر في ذهنه المسألة ، وتتقل من قضية حسية إلى قضية عقيدية لا نخضع للتجربة من جديد ولا يحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وفي آية أخرى يقول

سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]

والقلب هو محل القضايا التي انتهت من مرحلة التفكير العقلي ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التي لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلي . . أي من أو لا ؟ ، أي : لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال في مرحلة الشك الذي يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : ﴿ لَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليناقش من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر في مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعد الله لهم فيها من جزاء . ويشكون في لقاء الله في اليوم الآخر . ويدور كل ذلك في نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

ففي ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ، ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد والراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .



ولفائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال في آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذهاب إلى القتال لا يمكن أن يستعد في آخر لحظة . بل لابد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلاحه للقتال ، ووجود الطعام الذي سيحمله معه ، وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة ، بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعدُّ كشفاً للخصيرة المبيتة في أعماقهم بالألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع على نواياهم ، وما تُخفي صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا في أنفسهم . لذلك يقول :

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ ابِعَانِيَهُمْ فَتَبَطَّهٖمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وسبحانه ونعالي لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين في احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبت هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « تبطهم » أي جعلهم في مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدائية . والتببط : عملية نزوعية .

وأضرب هذا المثل دائماً - والله المثل الأعلى - أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإن مددت يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحسوز وردة مثلها ، فلما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالشرع يتدخل - فقط - في الأعمال النزوعية .

وكرهية الله لنزوعهم تجلّت في تببطهم وخذلهم وردّهم عن الفعل ، وزين لهم في نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ ؛ وذلك

لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله في التخلف ،  
وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾  
وإذا كان التشبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم : اقعدوا بإذن من الإرادة  
الإلهية . أو أن رسول الله ﷺ أذن لهم بالقيعود والتخلف لما استشف  
تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحى لهم بالقيعود ، فالحق هو القائل سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى  
بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُيِّنَ لما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن  
يتعدد القائلون ، فإله بتبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا ، والرسول ﷺ  
قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم :  
اقعدوا . وقرلهم بعضهم لبعض زين لهم القعود ، وهكذا أعطت كلمة  
واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفي عطاء عطاء ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تناسب مع الموقف .  
﴿ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والمقصود  
بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال  
والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التي تفرض  
عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصحح أن يرتضوها لأنفسهم .  
وفي موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٧]

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبطوا للقتال ، لكنهم ارتضوا  
لأنفسهم ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربي عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أَذْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَذْرِي

أَقَوْمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ<sup>(١)</sup>

والقوم تُطلقُ على الرجال دون النساء<sup>(٢)</sup> . ثم يبين لنا الحق حكمة الشبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير ، فتشيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة . وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفري ، فزنت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد في سبيل الله ، لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه وتعالى فيهم :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا  
خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ  
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾<sup>(١٧)</sup>

والخبال مرض عقلي يشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول : فلان مسخول ، أي : أنه يحكم في القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى : ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي : أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبليلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكانهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبي سلمى

(٢) ويُقَرَّرُ هذا قوله تعالى : ﴿لَا يَخْرُجُونَ مِنْ قَوْمٍ حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا خِيَرَاتِهِمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِهِمْ أَنْ يَكُنْ خِيَرَاتُهُمْ﴾ [الحجرات ١١] نلو كانت النساء من القوم لم يقل : ﴿وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِهِمْ﴾

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التي لم يُردّها الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشر ، كان سيفع لئلاّ أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ أي : أنهم كانوا سيُحدثون فُرقة بين صفوف المؤمنين ويُفترقونهم ، وسيُتغلغلون بينهم للإفساد ، لأن الخلال هو الفُرقة بين الشيئين أو الشخصين ، يُدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليُفترقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيُخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون في الفرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم ، ونقول : إن حروف البحر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكم" اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف ، قال الحق :

﴿وَأَصْلِبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (٧١) [ طه ]

هل كان فرعون سيصلب السحرة في داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف البحر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضينا في أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله في أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى "في" الظرفية ؛ ومعنى آخر في استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى : «أصلبكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصلب على الجذع ؛ أي : أنه صلبٌ عادي ، ولكن قوله تعالى : ﴿وَأَصْلِبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب في المصلوب فيه ، أى : أن جنود فرعون كانوا سَيَدُقُون على أجساد السحرة حتى تدخل في جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخف ، ولكن الصلب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغير حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ [١٣٤] [ آل عمران ]

أى : أن سرعتنا في العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن : فحين قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن في المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ ﴾ [٩١] [ الأنبياء ]

ولم يقل : يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إن سارعت إلى شيء كأنه لم يكن في بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعت في الخير ، فكأنك في الخير أولاً ثم تزيد في فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا أُضْغَوُوا خَلَالَكُمْ ﴾ نجد أن "أوضع" تعنى : أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشيت بخطى غير بطيئة وغير سريعة في نفس الوقت ، ولو نظرت إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتمهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخليل ، ولوجدت أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة في الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ، لأنهم كانوا سيهمسون في آذان المؤمنين بزين الباطل وهذا يقتضي بطئاً ، ثم يتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليضم معه بنفس العملية ، ولا بد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء في الوسوسة ، وسرعة في الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدق وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخيل في عقول المؤمنين ؟ ويفرقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَهْزِنُكُمُ الْفِتْنَةُ ﴾ أى : يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية في أعصابه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزئ به ، وهذا أوضح ما يكون في مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون في هذه المجالس بالذنب الشديد ، إن وجد بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يغرّوه بكل طريقة ، لكي يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيّرونه ويسفهون به ، ويسخرون منه ، ويدّعون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ، وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دلع الناس إلى الكذب ، والسارق يغري الناس بالسرقة ، والمرتشى يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وجد إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السرى ، فهم يضغطونه ويسخرون منه .

والمثال حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركى الصلاة، تحيدهم يحاولون السحرية منه ، فهذا يقرب له خلنى على جناحك ، وهذا يقول له مستهزئاً ، يجعلنا الله من بركاتك . ويؤيى لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المنعة الإيمانية يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَحْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْهَكُّونَ ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَبُوا فَكَهِنَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْهَكُّونَ (٣٤) عَلَى الْأَرْثِ يُنْظَرُونَ (٣٥) هَلْ نَوَبَ أُنْكُفَرُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦) [ الطغى ]

وهذه الآيات نعطيا صورة لما يحدث عندما يعم الفساد فى الأرض ، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون صحكات ستزول حتماً طُل الوقت أو قُصُر بتبعها عذاب فى الآخرة ، أما أهل الإيمان فهم يحشون الله فى الدنيا فيشبههم الله فى الآخرة ، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة .

إذن : بقوله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُكُمُ الْفِتْنَةُ ﴾ أي : إيهام من قُرُط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم ، يحاولون أن يمتدوكم فى دينكم حتى تنزلو إلى مستواهم ، تماماً كأعماط السوك التى يئنها من قبل

ثم يؤيى الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيمانى لن يكون فى متعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون ، فصحيح أنهم لم يحرخوا مع المؤمنين ، ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلِيَكُم مَّسَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَظِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعت لفلان ، أي : سمعت أدنى ما

قاله ، وسمعت من فلان ، أى . لصالح شخص آخر ، أى : من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو يتقلها إليهم .

إذن : السلام تأتى بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء اسافقين مما يحدث بليلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المسلمين للأفكار جواسيس لهم يقتلوا إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم . وهناك من المؤمنين من سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالحيل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت " اللام " فاصلة بين " سمعت له " أو " سمعت من غيره " لصاحبه ' ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى . ﴿ إِنَّا أَمَرْنَا فِيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً ﴾ (١٠٥) [ النساء ]

محدد السطحى التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائبيين ، خوفاً من ألا يقدر عليهم ، أو أن يزدادوا على إثمهم بسبب هذه الخصومة ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو . لا تكن لصالح الخائبيين خصيماً ، أى لا تتراعى عن الخائبيين أو تدافع عنهم

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عليمٌ بِالصَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيع لصالحهم ، كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

كَارِهُونَ ﴿١٨﴾



واحق سبحانه وتعالى يريد أن يُدكر المؤمنين بالوقائع السانقة التي ارتكبها  
الماضون والكفار نجاء الإسلام والمسلمين من مؤامرات على الإسلام ،  
ومحاولات للإيقاع بين المسلمين ؛ والتأمر عسى رسول الله ﷺ

وقوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا الصِّدْقَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْهَتَ الْبَاطِلُ﴾ له ﷺ دليل على تلك الوقائع  
السابقة (١) أما قوله تعالى ﴿وَلْيُؤْذِكُمُ الْبَاطِلُ الْأَمْوَارَ﴾ فتفسيره هو جعل  
أسفل الشيء عاليه ، وعاليه أسفله ؛ حتى لا يستتر منه شيء . وهذا مظهر  
مراه في الوقوف ؛ عندما تذهب عند الماكهي وتجد ما هو موجود في أعلى  
المكينة مُسْقَى بعناية ، فإذا اشتريت منه ملأ لك الكيس من انصف  
الردىء الذي أحماه أسفل القصص وهكذا يأتي لك بالأسهل أو بالشيء  
الردىء المكشوف عورته والذي لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه  
لك (٢).

وهكذا يفرض الماهقون حين يُقْلَبون الأمر على الوحوش المختلفة حتى  
بصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء . والنال  
الواضح . عندما تمرت قريش عسى رسول الله ﷺ ، وحاءوا من كل قبيلة  
شباب لمصريه صرية رجل واحد ليضيق دمه بين القبائل

لكن الحق سبحانه يأتي إلى كل هذه الفتن ويحولها لصالح المؤمنين ،  
ولذلك يقول جل جلاله :

(١) انظر : تصوير ابن كثير (٢/ ٣٦١) أم القرطبي فقد قال في تفسير الآية (٤/ ٢٠٨٣) : أي لقد  
ظنوا الإفساد والفساد من قبل أن يظهر أمرهم ، ويرى لوجهي بما سمعوا . وقال ابن جرير : رواه  
أثنى عشر رجلاً من المنافقين ، وذهبوا على شبه البدع ليهب العهبة ليهتكموا بالله ﷺ .  
(٢) وقد حرم رسول الله ﷺ هذا ، وحدث أنه ﷺ سر على صبرة طعام فأدس يده فيها . فقال أصيب به فلا  
تقال من هذا يا صاحب الطعام ؟ هذا أصابته السماء يا رسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام  
كي يراه الناس ؟ من عثر علي مني أخرجه مسلم من صحيحه (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢/ ٧١٢)  
والترمذي في مسنده (١٣١٥) عن ابن هريرة قال الترمذي : حدثت حسن صحيح .

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فالتأمر على رسول الله ﷺ ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدي إلى هجرته ﷺ من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لا يرسل رسولا ثم يحذله ، فما دام قد أرسل رسولا فلا بد أن ينصروه <sup>(١)</sup> ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبيعوا الفتنة ؛ لأن السائق من الفتنة انقلب عليكم وأدّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وهي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧١) ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَبَائِرُونَ ﴿ (١٧٣) ﴾ [اصافات]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَبَائِرُونَ ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيت قوماً مؤمنين النخموا بقتال قوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من حدود الله حقاً ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد احتل . ولذلك عليت أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً في عروة أحد ، عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه <sup>(٢)</sup> ، هنا احتل شرط من شروط الجندية لله وهو صاعة الرسول ﷺ ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله ﷺ وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لَهَانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين

(١) وفي هذا يقول حم وجل : ﴿ إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْآخِرَةِ ﴾ [غافر ٥١]  
(٢) عن البراء بن عازب قال : « لُتِبَ مُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ ، وَاجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جِشَاءً مِنَ الرَّمَاةِ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عِيبَ اللَّهِ بِنَجِيرٍ وَهَالٍ . لَا تَبْرَحُوا ، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ فَلَا تَعْبُرُوا » ولكنهم خالفوه ﷺ فوقع سبيهم فيلألى أسلمين . والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٤/٤) .

ويوم حينئذ حين اعتقد المؤمنون أنهم سيتصرون بكسرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أن أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك إذا رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الحدية الإيمانية قد احتل . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿وَكَايَ مَنْ شَىْ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّوْهُ كَثِيْرٌ فَمَا وَهَّوْا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَثَرُوا وَاللّٰهُ يُحِبُّ الصّٰبِرِيْنَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ اِلَّا اَنْ قَالُوْا رَبَّنَا اغْصِرْ لَنَا ذُلُوْبَنَا وَاَسْرَافَنَا فِيْ اَمْرِنَا وَثَبَّتْ اَقْدَامَنَا وَابْصُرْنَا عَلٰى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ ۝١٤٧﴾ [ال عمران]

إذن : فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الدوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث ولم يتصبر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك حلاً في إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّقُوْلُ اَتَذُنْ لِّيْ وَلَا تُفْتٰىۙ  
اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوْاۙ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ۬  
بِالْكٰفِرِيْنَ ۝٤٦﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه لعبارة : لا تفتنى بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر -والعباد بالله- ؟ إن كل ذلك وغيره - تجوز فيه فتنة . والقول : ﴿اتذن لي ولا تفتني﴾ ظاهره أنه أمر ،

ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر ، بل هو دعاء أو رجاء . وإن جاء من مساوي يقال : « مساو به » ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى ؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للمعل .

وكان بلجد بن قيس - وهو من الأنصار - قد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : ائذن لي ولا تعنني ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له نسيق في فتنة مخالفة أوامر رسول الله ﷺ (١) .

وقيل : إن هذا الأنصاري لم يكن به جلد (٢) على الحرب وشدائدها وقيل : إنه كان على وكم يحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وحشي أن يقتل بهن ، خصوصاً أن المعركة مستدور على أرض الروم ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائذن لي ولا تعنني ﴾ أوقعه في الفتنة فعلاً ؛ لذلك جاء قول الحق : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ وكان هذا الأنصاري سميماً ، وشكاً من عدم قدرته على السفر الطويل والحرب ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرون فالتارأحق بأشوار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

وفي آية أخرى قال سبحانه :

(١) انظر أسباب اسرول لبيوطي (ص ٩٤) وابن كثير في تفسيره (٢/٣٦٢) وقد كان أحد بن قيس

من أشراط هي سلمة

(٢) الجلد - لينة والقوة والمسير على القتال .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) [ التوبة ]

إذن ، فحجيم النار أشد فسوة وحرارة من نار الهتان <sup>(١)</sup> ، وحر الدنيا  
مهما اشتد أمرن بكثير من نار الآخرة وهي تحيط بالكافرين .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَأَنْ تَصِيبَكَ  
مُصِيبَةٌ يَنْقُلُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا  
وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾

وما يرل الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى كيف  
حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مخلقة ، أراد سبحانه  
وتعالى أن يزيد الصورة توضيحاً في إظهار الكراهية التي تخفيها قلوب  
المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَالْمَقْصُودُ بِحَسَنَةٍ هُنَا هِيَ : الْإِتِّصَارُ فِي الْحَرْبِ ،  
وَالنَّصْرُ فِي الْحَرْبِ هُوَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْمُنَافِقِينَ يَحْصِرُ فِي حَصُولِ الْمُؤْمِنِينَ  
عَلَى الْغَنَائِمِ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تَسُوهُ الْمُنَافِقِينَ وَتَحْزِنُهُمْ ؛ لِأَنَّ الْهَمَّ الْأَوَّلَ  
لِلْمُنَافِقِينَ هُوَ الدِّيبُ ، وَهُمْ يَرِيدُونَ الْحَصُونَ عَلَى أَكْثَرِ نَصِيبِ مَهَا . وَبِمَا  
أُنْهِمُ لَمْ يَحْزَنُوا لِلْجِهَادِ وَالتَّمَسُّوا الْأَعْذَارَ غَيْرَ الصَّحِيحَةِ لِلْهَرُوبِ مِنْ  
الْحَرْبِ ؛ لِذَلِكَ فَهُمْ يَحْزَنُونَ إِذَا اتَّصَرَ الْمُؤْمِنُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ حَيْثُذُنْ يَكُونُ  
لَهُمْ حَقٌّ فِي الْغَنَائِمِ . وَفِي هَذِهِ الْحَاثَةِ يَقُولُونَ : يَا لَيْتَا كُنَّا مَعَهُمْ ؛ إِذِنْ  
لَأَصَبْنَا الْغَنَائِمَ وَأَخَذْنَا مِنْهَا .

(١) وذلك قوله سبحانه ﴿ فَمَنْ أَلْفَلَقَ يَفْقَهُمْ خَلَقَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجْعَلُوا آمَانَتَهُمْ وَنَفْسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَقَالُوا لَا تَصْرُفْ هِيَ الْقَوْلُ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١]

أما إذا كانت الدائرة قد درت على المسلمين وهُزِمُوا في الحرب ، هذه سببة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقين يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة ، وسيقولون لأنفسهم لقد كنا أكثر رجاحة في الفكر واحتطك للأمر ، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا بما أصابهم . والمصيبة في الحرب تكون في : الأرواح ، والرجال والمال ، ولعتاد بالإصافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ تُصِيبْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ لَمْ يَرْحُورْ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا إن أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة ، وهي هنا الهزيمة في الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال ، بينما لم يحتفظ محمد وصحبه وحيشه . ثم يديرون ظهورهم لِيُخْفُوا مَرَحَتَهُمْ

وحين يقول الحق ﴿ إِنْ تُصِيبْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أى نصر للإيمان يحزن المنافقين في نفوسهم ، ويهين هذا القول قرآناً يُتلى ويُتَعَبَدُ به ويسمعونه بأذانهم ، بالله لو لم تحزنهم الحسنة التي ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك داعياً لأن يقولوا : نحن لم نخرج ولم نخرج ؟

بالله حين يعاجتهم القرآن بالكشف عن حبايا نفوسهم بالقرآن ، ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد ﷺ الغيب الذى فى قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعهم الحق على ذلك . ومع هذا أضمموا التعاق فى قلوبهم وبنظروا مَسَاءَةً تَحِلُّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وصحبه .

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا  
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١)

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير ، يكون بالنسبة له حسة ؛ وإن أتى من شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هي التواء هدف بعيد ، إذا تحقق الهدف وجاء بحير فهو حسة ، وإن جاء بشر فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة يس فيها عريم ، فإن اعتدى على واحد بالضرب مثلاً يصبح غريباً ، وتترك في قلبه حمة<sup>(١)</sup> عليه ، وغيبض منه ، وأرغب في أن أرد عليه وأثار لنفسه منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريب في المرض ؟ لا أحد .

إذن : بالمصائب نوعان ؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم فيه ، النوع الأول الذي يكون لي فيه غريم يمنى قلبى عليه بالحقد ، ويرعسا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا العريم ، يقول :

﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢١)

[ آل عمران ]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هي العفو ، والثالثة هي أن تحسن ؛ فتتقى إلى مقام من يحبه الله وهم المحسنون

(١) حمة : غيبض وبعده

وكذلك يقول الحق .

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَصِرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) [الشورى]

أى من صبر على ما أصابه ، وغضر لغيره وعدوه ، بالصبر والمغفرة من الأمور التى تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم فهى لا تحتاج إلى ذلك الجهد من الصبر ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ويجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا اللون من المصائب .

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٧) [النمل]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، وبذلك لم تستخدم دلام التوكيد، التى جاءت فى قوله تعالى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَصِرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) [الشورى]

ولابد أن نلتنف إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال :

﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث فى النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب ، ويتجدد كما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيماني ، فيأتى العفو ، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرج الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً من العقو .



ثم تأتي المرحلة الثالثة :

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٧٤)

[آل عمران]

أى : أن هذا إحسان يحبه الله ويعجزى عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتتال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العميد كلهم عيال الله ، واصبر لنفسك المثل - والله المثل الأعلى - ههنا أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب أثنى ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب ، لديك تربس على كنفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالا أو تشتري له شيئا لترصيه ، أى أنك تحسن إليه .

وما دما كلنا عيال الله ، فإن اجتراً عبد على عبد فطلمه فإله يقف فى صف المظلوم إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك أفلا يستحق فى هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتمع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم فى هذه الحالة إنما يحرم أن يكون هو الذى حدث عليه لاعتداء ليحصل على بعض من الخير

والحق هنا فى الآية التى نحن بصدد حواظرنا عنها يوصينا حين تأتى امصائب أن ترد على الكافرين ونقول :

﴿قُلْ لِي يَهْدِيَنَا إِلَى مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وهكذا تُرد المائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبر أمره ؟ فقد يحدث لى شيء أكرهه ؛ ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فإن ضربنى أبى لأننى أعمل مذكرتى ، أياكون ذلك عقاباً لى أم لصالحى ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذي سوف تحققه في الحياة إن ذاكرت ، فهذا العقاب لصالحك وليس صدك ، وكذلك لا بد أن تأخذ أحداث الله في كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا في معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير في دينهم ، وإلى أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها ، ولهذا انهزموا .

وهو المثل الأعلى ، فنحن نحدد الأستاذ - وهو يأخذ لكراصات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم - يعاقب للخطيء منهم ، وفي هذا تربية للتلاميذ .

إذن ، إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسببنا فاعلموا أننا نقف فيمن أجبرها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شيء مكتوب لنا لا علينا ، الذي كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل .

﴿ لَا غَلَبَ لَنَا أَمَّا وَرَسُولِي ﴾ (٦٦)

[ للمجادلة ]

هذا ونحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والترية ، لسير على المنهج الصحيح فلا تخرج عنه ، فالإنسان لا يربى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما باننا بحب الخلق بنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد في ثائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ، وبينهم ابنه ، فهو يتفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الخيران يلعبون الورق فقد لا يشتفت إليهم ، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ؛ لهذا من عبائهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أديماً وإما ثواباً وإما ارتقاءً في الحياة ، ولذلك فهو خير<sup>(١)</sup> ، ومن هنا كانت الآية

(١) عن صهيب الرومي قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابه ضرأ شكر فكان خيراً له ، وإن أصابه ضرأ صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢ ، ٣٣٣) والدارمي في سننه (٢/ ٣١٨) وأبو يعين في حلية الأولياء (١/ ١٥٤)

الكرمية ﴿قُلْ لَنْ يُغْنِيَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وما كتب الله للمؤمنين إلغا هو في صالحهم

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه : ﴿مَوْلَان﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسىء إلى من والاه ، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في قوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَرْكِلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن الله الذي آمنت به هو له قادر حكيم ، فإذا جرت عليك أمور فاحشها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، ها عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك ، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطي الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطي المؤمن مقومات حياته المادية والعسمة معاً وهذا المفهوم يعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يزدنا أو يخلصنا لأمر ما ، فإنه لو لم يزدنا أو يخلصنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يحصى المؤمن تجده سبحانه بلفته إلى خطئه ، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يشركه ؛ لذلك لا يقولن أحد : إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف في الإيمان وبالنسبة إليه ضعف في التوكل ولكن قل : إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك ، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك وما دام مولاك يحاسبك على أى خطأ ويصوبه لك ، فتق به سبحانه وتوكل عليه .

وعلى سبيل المثال : نفترض أن إنساناً اتكل عليك في أمر من الأمور ، ثم أخطأت أنت في هذا الأمر ، لا بد أن يأتي لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفي هذه الحالة ستجد نفسك ممتنة

بالثقة في هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه  
ويُصَوِّبُ لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تغفلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال :  
الجوارح تعمل ولقلوب تتوكل . فأتت تحرث الأرض وتصنع فيها البذور  
وترويهما ، وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على  
الله وتأمل في محصول وغير يهبته الروح ، فلا تأتي أفة أو ظاهرة جوية مثل  
مطر عزيز أو ريح شديدة ؛ فتصيح كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتي  
دعائك لله سبحانه وتعالى أن يحقق لك نتائج عملك

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلمون أنهم متوكلون على الله ، فنقول  
لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل  
القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الخي الذي لا يموت ، فلن  
يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد  
تتقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِمُكَ أو يُدْلِكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت

ويُبلغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الدين يفرحون في مصائب  
المسلمين ليكشف بهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أعياء . فبأنى  
قوله الحق

﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الْحَسَنِيُّ  
وَمَنْ تَرْضَوْنَ يَكُنْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ  
مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَّافَتَرْتَضَوْا إِنَّمَا مَعَكُمْ  
مُتَرْتَضُونَ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين ، ويهرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتى قول الحق سبحانه ليوضح إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال ﴿ لَنْ يَضُرَّكُمْ شَيْئٌ مِنْهُمْ ﴾ . فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد ربيع الباطل ، ولكن ذلك لصالحنا

وحاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿ فَعْرِضُوا ﴾ أى : تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا وبهايتكم أما نهايتكم واستدامه عذاب في الدنيا وفى الآخرة . وأسباب العذاب محتمة لكم في الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم في الآخرة ، ونتيجة تربصكم لكم أن يرى السوء نصيبكم ، وتربصكم لت يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إليكم ، إذن ونتيجة المقارنة ستكون في صالحنا نحن

وبعد أن بين الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الحيانة العظمى وهى الكفر والعياذ بالله ، ويبين أن كل كافر بالله لا يفعل منه أى عمل طيب ؛ لأن الكفر يحط أى عمل ، وإن كان لعملهم حبر يفيد الناس ، والحق يحازبهم مادياً في الدنيا ، ولكن ليس لهم في الآخرة إلا النار<sup>(١)</sup> . ويقول :

(١) عن أس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يطلع مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ، ويجزى بها في الآخرة . وأما الكافر فبعضهم يحسب ما عمل به في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها » أخرجه مسلم بن حبيب (٧٨٠٨) وأحمد في مسنده (٣/١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣)

﴿ قُلْ أَنفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ  
إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

إذن فشرط تقبل الله لأى عمل إنما يأتي بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل  
وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل  
لذلك صرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ  
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[ النور ]

ويعطى الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ  
عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

[ إبراهيم ]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا  
نُزِرَتْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾

[ الشورى ]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء بهمه فى قول الحق

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً  
يَرَهُ ﴿

[ الزلزال ]

فقد ساءل بعض من العلماء . أيجزى الحق سبحانه هؤلاء الكفار في الآخرة أم في الدنيا ؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ويقول : إن الحق يعطى في الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطى في الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفي قلبه الله . ولذلك فالذين يخسرون اتخذوا الأسباب المخلوقة لله بمحض الربوبية ينجحون في حياتهم . والذين يتقدمون دنياً في زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بها يعطيهم الله جزاء عملهم في الدنيا ، ولا يخس منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً .

﴿ وَتَدْعُنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن غَيْرِ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ۖ ﴾ [ المرقاة ]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذي يعمله غير المؤمن لا يُجرى عليه في الآخرة <sup>(١)</sup> ؛ لأنه عمل وليس في ناله الله ، فكيف ينتظر جرائده من لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجرى مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله وهذا أمر طبيعي ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس في يادك الله ، فلا تنتظر جرائده . إن عملت للإنسان أعطتك الإنسانية ، وإن عملت للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود في الدنيا ، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تعالى يوم القيامة تتجدد يد الله محدودة لك بالخير الذي قدمته .

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جلدان كان في أخيلية يصل الرحم ويضع المسكين ، فهل ذلك مانع ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يؤمن به » . رواه الترمذي في صحيحه (٢٦٤) وأحمد في مسنده (٩٣/٦ ، ١٢٠) وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/٥٠٥) من طريق آخر عن عائشة وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿ قُلْ أَعْمَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والطَّوع هو العمل الذي تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا يجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين «طوع» و«طائع» ، وكذلك نفرق بين هذا وبين العمل الذي تقوم به حين يحملك غيرك ويكرهك أن تفعله والأفعال كلها إما أن تكون بالطوعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه ولو كان الحق قد قال . أَعْمَقُوا ، طاعة لما قال : ﴿ لَنْ يُثْقَلَ بِكُمْ ﴾ ، لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا ﴿ طَوْعًا ﴾ يكشف أن ما يتفقونه هو أمر اختياري من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفضح نفاقهم ، وكان الواحد منهم يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة في المسجد ، ويصنع ذلك طَوْعَ إرادته ، خوفاً من اقتصاص نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هي طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تسع من طوع النفس فهي للمظهر وليس للعبادة

﴿ قُلْ أَعْمَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل الله يريد منهم أن ينعقوا فعلاً ، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول للإنسان : اصبر ، وذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فسترى متى هولاً كبيراً . وهذا مثل قوله تعالى .

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. (١٧) ﴾ [ الطود ]

وقوله تعالى .

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ .. (٤٠) ﴾ [ صلب ]



أَيُّ - أَنْكُمْ إِنْ صَرَعْتُمْ أَوْ لَمْ تَصْبِرُوا فَإِنْ ذَلِكَ لَنْ يَغْيِرَ شَيْئاً مِنْ ، الْخِرَاءِ الَّتِي  
سَوْفَ تَلَاقُونَهُ ، فَاأَمْرٌ سَوْءٌ . وَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾  
أَمْرًا ؛ لَكَانَ كُلُّ مَنْ عَمِلَ مَعْصِيَةً دَاحِلًا فِي الطَّاعَةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا  
يَشَاءُ . وَلَكِنْ هَذَا أَمْرٌ تَهْدِيدِي ، أَيُّ : اْفْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَأَنْتُمْ عَائِدُونَ إِلَى اللَّهِ  
وَمِنْ حَاسِبِكُمْ عَلَى مَا عَمِلْتُمُوهُ . وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا الْفِرَارَ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

وقوله تعالى : ﴿ اَنْفِقُوا ﴾ هو - إِدَبٌ - أَمْرٌ تَهْدِيدِي ؛ لِأَنَّهُ لَنْ يَجْدِيَكُمْ أَنْ  
تَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .

وكلمة ﴿ كُرْهًا ﴾ وردت في القرآن الكريم في أكثر من سورة ، فهي في  
سورة آل عمران ، وفي سورة النساء ، وفي سورة التوبة ، وفي سورة  
الأحقاف ، وفي سورة الرعد ، وفي سورة فصلت ، وقد ذكرت ﴿ كُرْهًا ﴾  
بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال الحفص . إن " كُرْهًا " بفتح  
الكاف و" كُرْهًا " بضم الكاف بمعنى واحد . يقول بهم : لا ، إن المعنى  
ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴾ (١٥)

[ الأحقاف ]

فالكُرْه هنا ليس للحمل ولا للوضع ، ولكن للمشقة التي تعانيها الحامل  
أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن  
البعض يقول . إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج في أن تحسن ولا أن  
تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها " سوف أحمل الليلة " ؛ لِأَنَّ الحمل  
يحدث دون أن تَعَيَّ هي حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل  
والمرأة . والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة  
الولادة ، ولا نستطيع أن نقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم . فكل هذا

يحدث إكراهاً بغير اختيار منها . ولذلك يقول لمن يقولون أن "كُرْهَا" بفتح الكاف و"كُرْهَا" بضم الكاف بمعنى واحد : لا ، لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريد الإنسان لأن فيه مشقة ، و"الكُرْه" بفتح الكاف هو ما به إكراه من الغير . إذن "كُرْهَا" بفتح الكاف تختلف في معناها عن "كُرْهَا" بضم الكاف<sup>(١)</sup>

الحق سبحانه تعالى يقول :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي : لن يقبل الله منكم ما تنفقونه . ولكن ما العرق ؟ لقد كان المهافون يدفعون الزكاة ويقلها الرسول منهم ولم يرخصها أدباً منه ﷺ ، فكل عمل يؤدي ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى . ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى ، فلب دعا له ورزقه الله الرزق ليعير بحل عن الزكاة ، وحارل أن يتهرب من دفعها<sup>(٢)</sup> ؛ فقل القول الكريم .

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فلما آتاهم من فضله جعلوا به وتولوا وهم معرضون (٧٦) فَأَعْتَبَهُمْ نَبَأًا فِي قُلُوبِهِمْ لِيَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَحَلُّوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴿

[ التوبة ]

(١) وإلى حد ذهب الفراء عند قال : إن الكُرْه ما أكرهت نفسك عليه ، والكُرْه ما أكرهك غيرك عليه . نقله ابن بطون في لسان العرب

(٢) وذلك أن ثعلبة بن حاطل الأنصاري أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً . فقال ﷺ : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا يطيقه . فقال ثعلبة : والذي يمضك بحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأؤتين كل ذي حق حقه . فقال ﷺ : اللهم برزق ثعلبة مالاً ، وتدرج به الأمر حتى يترك الصلاة والجمعة ثم مع الزكاة وقال : يا ثعلبة لا جرم . وبعد ما نزل آية التوبة (٧٥) أتى ثعلبة رسول الله ﷺ يرجوه أن يقبل صدقته فقال ﷺ : إن الله قد سمع أن أقبل صدقتك . جعل عبدة يحسن الثراء على رأسه . حديث طويل أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧٨٧٢) من حديث أبي أمامة . قال الهيثمي في المجمع (٣٢/٧) : « فيه على بن يزيد الألهاني وهو مشرك » . وانظر أسباب النزول لخواصدي (ص ١٤٥)

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يقبلها منه . وعندما توفي رسول الله ﷺ جاء ثعلبة إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبي بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يقبل منه . ومات ثعلبة في عهد عثمان <sup>(١)</sup> . هذا هو عدم الصلوة .

ولكن هناك في عهد رسول الله ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقبِلَتْ منه ، ولكن الله لم يقبلها منه . إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يقبله أو قد لا يقبله . إذن فالآية معناها : أن الله لن يقبل من هؤلاء المنافقين إيمانهم في الخير ولو نفسه الشر

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب في ذلك فيقول

﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا . كلمة الفاسق مأخوذة من "فنت الرطوبة" أي انفصلت القشرة عن النمرة وقشرة ليلح مخلوقة لتحفظ النمر . وعلمنا أن المعاني في التكليف الشرعي قد أخذت من الأمور الحسية ، ولهذا نجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين يفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التي انفصلت عن سياجها

فالذي يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الرنا يُعاقب على معصيته ، أما إن كان الإنسان مافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهب أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ، ها نقول . لا شيء يجور على شيء ، إن له ثواب إيمانه وعليه عقاب معصيته

(١) عثمان بن عفان الخليفة ، أنه ثعلبة فسأله أن يقبل صدقة ، فقال رسول الله ﷺ لم يقبلها ولا أبو بكر ولا عمر وإن أقبلها ! ولم يقبلها عثمان نظر أسباب النزول لواحدي (ص ١٤٥ ، ١٤٦)

إذن: فالفسق في هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الصاعة .  
ولكنه فسق من نوع خاص ؛ لأن هناك نفساً محدوداً وهو أن يخرج  
للإنسان عن مجرد تكليف ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله .  
ولذلك جاءت الآية للكرامة التالية

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ  
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ  
كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ ٥٤

إذن: فالفسق نوعان . فسق عام ، وفسق خاص . وقد يقول البعض :  
إنك إذا ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عبادتك لا تنمك .

وتقول : لا فما دامت القصة سليمة ؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه  
الصلاة والسلام وتصديقاً بالنتيجة ، فكل عمل عبادي ثوبه ، ولكل ذنب  
عقابه ؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة ، ولا يمكن أن يضع كل  
الشؤون في ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ  
جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف يال عقابها

وقوله الحق هنا ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ ﴾ ، هذا القول الكريم هو حجة للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفي  
هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا في خصوص الفسق ، وحدد الحق  
ثلاثة أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القصة ، ثم  
قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى ، ثم الإنفاق بكرامية .

ونعهم لمنع على أنه ردُّ الفعل إلى ما يتنفس العمل أو يمايه ؛ كأن يريد  
إسكان القيام فتقعده ، أى أنت رددت إرادة القيم إلى القعود ، وهو م  
بنافيه ، أو أن يحاول إسكان صرب أحر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت  
غيره من أن يعتدى عليه . إذن فلمنع مرة يأتى للفاعل ومرة للمفعول  
فأنت حين تمنع ريداً من الصرب تكون قد منعت العاص ، وحين تمنع عنه  
الصرب تكون قد منعت المفعول ، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذى  
يوجهه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك فى الإنسان وفى الرمان وفى المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة فى الإنسان تجد أن حياته تقوم على النفس  
والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذى لا يصبر الإنسان على التوقف  
عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن كتمت الزمير انتهت  
حياتك . وإذا منعت الهواء من الدجول إلى لرتين يموت الإنسان ، وإذا  
منعت خروج الهواء من الرتتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يتناقصه . فإذا حاول إنسان أن  
يضرِب شخصاً أحر وأمسكت يده ، رقلت له . سيأتى أنثاه أو إخوته  
أو عائلته ويصربونك ، حينئذ يمنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم  
كله لا يمكن أن يعيش فى سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل<sup>(١)</sup> ؛  
القرى يراجه قوياً ، والكل خائف من رد فعل اعتدائه على الآخر ولكن  
إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون  
المتحرك فيه قوى متوازنة تعيش فى سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد  
العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء

(١) ومن هذا يقول رب العزة سبحانه ﴿ رَاهِدُوا لَكُمْ زُرْعَاكُمْ فَتُؤْمِنُوا بِهِمْ وَلَا تَشْقُوا عَنْهُم بِالْعِيَالِ خُفْيَا ﴾ [الأحقاف : ١٠٠]  
وعذوكم وآخرين من قومهم لا تغفونهم الله بطعهم ﴿ [الأحقاف : ١٠٠]

لا يأتي من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوارداً على كل أجناب العمارة . ولكن لو فرغ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفزع الهواء من إثناء مغلق فيتحطم

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا تَهْمُ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لا يعنى أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قوله اللسان وتصديق الحسان ، فالإيمان محلله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم ، وأعطاهم نفس الحقوق الخادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " التي نطقوا بها ، ولأن ناصتهم قبيح ، فالحق سبحانه يميزهم بمثل ما فى باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً ويسكرو به باطلاً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً ، فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقولاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطَهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره

ونأتى إلى السبب الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ والكسل . هو السراخى فى أداء المهمة . إذن فهم يصلون رباً ، فإن كانوا مع المؤمنين وتؤدى للصلاة قاموا مثقلين . وإن كانوا حيث لا يرههم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلوكهم ملىء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : ﴿ وَلَا يُقِيمُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ ﴾ والسقمه هى بطل ما عندك من فصل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً

أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع ، لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد اقوى والضعيف ، الغنى والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك في حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لا بد أن يحصل كل إنسان على قدر طاافته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من باع عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فانت تأخذ حاجتك من ثمرة طاعتك ، ثم تقىء عن عيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة في الحياة ، والصحيح يعطى المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغنى يعطى الفقير من ماله ما يعينه على الحياة والقادر على الحركة يعطى من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكامل

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ، لأن انفى اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش في مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار وهذا هو التأمير الصحيح للتقادر وتعنى ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا يشعل القفس خوفاً من الأحداث المتغيرة ، وإن مات فلن يحوج عياله ، وإن فتر الغنى سوف يجد المساندة ، وإن مرض الصحيح سوف يجد العلاج .

إذن - فالنفقة أمر ضرورى لسلامة المجتمع ، ونجد أن اسوق توصف بأنها باقة ، وهى التى يتم فيها بيع كل السلع وشراؤها فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشتري اشترى ، يد فالحركة فيها متكاثرة وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشتري ، فإما أن تأخذ مالا نقدياً مقابل ما بعت ، وإما أن تدفع مالا ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشتري السلع بثلمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتى له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمتقين العذاب الباطني في الدنيا، والعذاب  
الترافع امام الكل في الآخرة ، وبين لهم أن إيمانهم طوعاً أو كرهاً لن يأتي  
لهم بالخير .

ولكن من يطر إلى المتأقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا  
يلتفت الإنسان الباطر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد  
يقول إنسان : إن الله قد قال .

﴿الْعَالِ وَالْبُيُوتِ رِيشَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦)﴾ [الكهف]

ويقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية .

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً (٤٦)﴾ [الكهف]  
والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥)﴾ [التعاس]

والله يخاطب رسوله ﷺ ، وفي صي هذا لخطاب خطاب لجميع  
المسلمين ، وما يقول الحق سبحانه

﴿فَلَا تَتَّبِعْ أَموَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ  
اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْخَيَاطَةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ  
وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾

وياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم يقولون  
كيف يكون عذابهم في الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعميم  
يعنى استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكبك إن نظرت



بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً في عذائك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتصقاً إلى النعمة ويلهيانه عن النعم . وإن لم يلتصق الإنسان إلى النعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد في الحياة الدنيا قد يكونان سببين في أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله في الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذي لا يؤمن باليوم الآخر ، فالدنيا هي كل شيء له ، وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقل : لئن فاتني الدنيا فلي عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يجمع عن المؤمنين به فتنة النعمة التي تلهي عن النعم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدك على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً ، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب في نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نحجب بـ عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم ، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة . ﴿ لَا ﴾ فقال .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافر أو المنافق بالمال والولد ، فذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليغلب بهما في الدنيا والآخرة . فقال .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْهَا ﴾ ، واللام هنا في " لِيُذْهِبَ عَنْهَا " هي لام تدخل

على الفعل واسمها "لام لعاقبة" . وهي تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد نكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما نكون عكس الذى قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَالنَّمِطَةُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا ...﴾ (٨) [انقصوا]

هل النقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد النقطه ليكون قرة عين لهم ، ولكن لذى حدث كان عكس ما قصدوه ساعه قيامهم بفعل الالتقاط ، بدلاً من أن يصح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون ، بل كان مسبباً لى زوال ملكه ، إذن هذه هى لام لعاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا من طاهره رغبة فى الثيب ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة من التقرب إلى الله ألهمهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق فى العذاب . ولم يرد الحق العذاب لهم ، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أن يدخلوا فى العذاب . والعمل غير الشرعى من تسمية ائال أو إرضاء لأولاد هو الذى أوصدهم إلى العذاب .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [أول ألوان العذاب] أن تلهيهم تلك النعم عن النعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصبرون فى عداه مع المؤمنين بمنهج الله ، ويحافظون إعلان هذ العداه ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ فى طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون

ويتساءلون <sup>(١)</sup> . هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خباياها ؟  
وكانوا في خوف أن يفتضح أمرهم ، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً : كانوا يحاقنون من أن يدخل الرسول ﷺ في حرب ؛ لأنهم ما  
دمرو قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون سذل المال ، وأن يذهب أولادهم  
الذين يلعبوا س القتال مع جيش المسلمين ، وكانوا يقولون بينهم وبين  
أنفسهم : ما لنا نذل المال ونصحب بالأولاد في سبيل ما لا نؤمن به وهم  
مخشاعهم تلث يحتلقون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلثون بداء رسول الله  
طبعاً في أجرة أو النصر . وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب . عندما يخرج هؤلاء المنفقون إلى إحدى  
الغزوات ، فهم يحاقنون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبي  
النساء ، فيكونون في عذاب نفسي طوال الرحلة إلى الغزوة وفي أثناء  
الحرب

ولون ثالث من ألوان العذاب أن عاهد المال يجمع المال من حرام ومن  
حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتي ، والذي يكسب  
حلالاً يكون واصح الحركة في الحياة ، والذي يكسب حراماً هو لص يحاف  
أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش في عذاب اليم دائم من أن يأتي يوم  
يكشف الله سره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه احتلس ، أو أنه زور  
وريف . أو أنه فعل شيئاً يحقّره هي أعين الناس أو يُعرّضه للعقوبة ؛ كأن  
يكون قد تاجر في المخدرات أو في الأعراض أو في غير ذلك ، وخوفه  
من انكشاف أمره يجعله يعيش في عذاب دائم وصراع مستمر .

(١) قال تعالى : ﴿ يَحْزَنُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ يَقُولَ عَلَيْهِمْ سُورَةُ تُبَعِّثُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ فِي أَنْهَذَا مَخْرُجٌ مَا  
يَحْزَنُونَ ﴾ [التوبة ٦٤] قال مجاهد يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله ألا يفشي عيبنا سرنا  
هذا . وقال ابن عباس : كان المسلمون يسبون هذه السورة المخدرة ، لأنها حشرت ما في قلوب المنافقين  
بأظهره . انظر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٦) والقرطبي (٤/ ٣١٢)

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام بضرب هذا المثل : أنت إن أعجبتك شيء في بيت جارك ، وصليته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن إذا أعجبتك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأمن في النهار ولا أمام الناس ، بن تأمن ليلاً وتحرس على ألا يراك أحد . ولا تدخل من باب الشقة ، بل تظل تدور وتخطط لتحذ متفذاً تدخس منه دون أن يراك أحد . وتصنع خطة للمسقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد ، فإذا شعرت وأنت تفقد الخطة بصوت أقدام تتزعج وتحري لتحتبىء وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك اتزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال لحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يرمى أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه في تربيته فيرسل في الامحانات . ويقتل مال في الإعاق بلا وعى . فكلما أعطته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه ، ويكون العذاب الأكبر حيم ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيمرض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفي عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة <sup>(١)</sup> مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلى بالغيظ ، وعندما تودى لقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته <sup>(٢)</sup> فلم يصبر إلى أن يعتسل من الجبابة ، بل صارع إلى الحرب

(١) هو : حنظلة بن الراحب عبد عمرو بن صبيح الأوسى وكنية أبيه أبو عامر ، رحنظلة من أهل الصفة  
(٢) جاء في مستدرک الحاكم (٢/٢٠٤) أن هذه كانت أول ليلة له مع زوجته ، وترك جثتي في أحشائه وبعد عام ٤ هـ مو عبد الله ، أصبح من أعلام التابعين وشجعانهم ، ولأه أهل المدينة أمرهم فقاتل جيش يزيد بن معاوية قتلاً شديداً حتى قتل عام ٦٣ هـ انظر الأعلام للزركلي (٤/٩٩)

مع رسول الله ﷺ واستشهد في المعركة . ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظله ، مع أن هذه المسألة تكون سرّاً بين الرجل وروحه لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخسر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُعسّ حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل<sup>(١)</sup> ، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس عُتلاً من الشهادة ، وإنما هو عُسل حتى لا يُقبل الشهيد على الله وهو حُتَب ، رأى الرسول ﷺ ما حدث حنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى روضة حنظلة وسألها . ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت : إنه عندما سمع نداء القتال ، خرج بدون عُسل<sup>(٢)</sup> . وتأمل كيف ركب الملائكة لنُغسل شهيداً هو ابن عدو الله ورسوله . وكيف يكون هذا عَيْطاً في قلب الأب .

وقصة أخرى - سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبي - والده عبد الله بن أبي - كان زعيم المنافقين في المدينة ، وهو الذي انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة<sup>(٣)</sup> . ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ ، يظلمون منه الإذن بقتل والده بن أبي ، انظروا إلى الإيحاء . فيها هو الأب يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويقول له . يا رسول الله إن كنتَ أمراً

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في شهادته أحد : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنه في دماثهم ، ولم يعصوا ولم يصل عليهم . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٤٤) وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذي (١٠٢٦) وابن ماجه (١٥١٤) والسناني (٦٢/٤) في مسهم . وقد أخرج حماد في مسنده عن جابر أيضاً (٢٩٩/٣) : لا تغسلوهم ذلك كل جرح أو كل دم يموج مسكاً يوم القيامة وبم يصل عليهم .

(٢) أخرجه أبو يعيم في حلية الأولياء (١/٣٥٧) والحاكم في المستدرک (٣/١٠٤) وصحيحه والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٤٦) والبيهقي في سننه الكبرى (٤/١٥) أن رسول الله ﷺ قال : إن صاحبكم يعني حنظلة - لتغسله الملائكة . فاسألوه أنه ما شئت ، غُسلت صاحبه فقالت : خرج وهو حُتَب حتى سمع الهاتمة فقال ﷺ : لعلك غُسلت للملائكة .

(٣) قال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوراء بين المدينة وأحد . انخرط عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وقال : ادعهم وعصاني ( يقصد محمداً ﷺ ) ، ما تدري علام تقتل أنفسها أيها الناس ؟ فرجع عن اتبعه من قومه من أهل الصفاق والريب . انظر سيرة النبي لابن هشام (٨/٣)

يقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ، حتى لا ألقى قتله من المسلمين وفى قلبى عل<sup>١</sup>  
عبيه<sup>(١)</sup> وعندما يسمع الأب أن به يطلب أن يكون هو قاتله ، أليس هذا  
عذاباً فى قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المقروص  
أن يكونوا نعمه يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً فى الدنيا ؟

ولكن غير المؤمنين لا يتمتعون إلى واجب النعمة ، ولا إلى الجزاء الذى  
ينتظرهم فى الآخرة ، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التى تؤكد أن الإنسان  
خليقة الله فى الأرض ، وأن الله قد أعدّ لأرض بكل ما فيها من إمكانيات  
ومن خيرات لتكون فى خدمة هذا الخليفة ، أى أنه أقبل على عالم كامل  
من كل شىء ، معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

وبذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « خلقت الأشياء  
من أحلك ، وخلقك من أجلى ، فلا تشغل بما هو لك مما أنت له » .

أى لا تشغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة  
كبيرة ، فيجد المائدة مُعدة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا  
يحييه ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا  
الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على  
صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول انشغل بالنعمة ،  
والثانى : لم يتسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدّها له .

ومثال آخر . إن الصحة هى من أثمن النعم . أما الممرض فإنه أقسى ما يمكن  
أن يصاب به الإنسان ، لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم  
الحياة ، أما الممرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (مُتَّبِعِينَ الْأَمْرَ مِنْهَا الْأَمْرُ) [المتقربون] بحو المعاطة وعراه لاس  
بجاء

يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون من معية النعمة ، يكون في معية المنعم وهو الله سبحانه . ولذلك يقول في حديث قدسي .

«عبدى فلان مريض فلم تعدنى فيقول له : يا رب وكيف أعوزك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له : أما علمت أنك بسوء عبادته لوجدتنى عنده» (١)

قولوا لله : أيقظ أى مريض عندما يعرف أن لصحة كنف نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأثر بالله يخفف عنه الآلام . لكنت للأسف تجد الإنسان غير منطقي مع نفسه ، فالعالم خلق من أجل الإنسان والإنسان خلق ليعد الله . ولكنك تراه لا يلتفت لما خلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التى خلقت به . وقد كان من المنطقي أن يتشغل بما خلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول . إن الزمن حاضر وأزلى وأبدى . والأزلى هو القديم بلا بداية والأبدى هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر : هو ما نعيش فيه .

والوجود الذى تراه أمامك خلقه الحق سبحانه وجب الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «يمكن الوجود» : لأن كل وجود يحتاج إلى مؤجد هو وجود ممكن ، وسيأتى له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى مؤجد فهو وجود

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرحمت فلم تعدنى قال : يا رب كيف أعوزك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مريض فلم يعدنى أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟» الحديث .

لا ينتهى أى: أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى .  
ولذلك فهو وجود أرلى قديم بلا نهاية ، وأبد باق بلا نهاية ، وبذلك فهو  
يحرح عن الزمن .

نأتى بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أى التى بها موجد ، وهى كل ما  
فى الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التى يعيها بعض  
الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا  
عنده خلق الله السماوات والأرض ، أى ليس لها وجود بلا نهاية . ولكن  
كان وجودها بداية . إذ فى نفسها ليست أزلاً ، وهى ليست أبداً لأنها تنهى  
يوم لقامة .

ولذلك لا يجتمع فى قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا ، لأن الله أزل  
وأبد ، والديس لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هى بمقدار  
عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها  
وحتى إذا أخذنا الدنيا فى عمومها فإن لها بداية ونهاية ، فكيف يمكن أن  
يجتمع فى قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية  
ونهاية ؟ لا يجتمعان

ولذلك قال شيخنا الرمخشري<sup>(١)</sup> رضى الله عنه : ما دام هذا الكون فيه  
وجود ، يكون الوجود . إما واجباً ، وإما ممكنأ . ولوجود الواجب لله  
وحده . ولوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا  
للحق سبحانه وتعالى

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر الرمخشري من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة ، ولد فى دمشق  
عام ٤٦٧ هـ . أشهر كتبه : الكشف فى تفسير القرآن - أساس البلاغة كان معترلى المذهب .  
٥٣٨ هـ الأعلام للزركلى ( ١٧٨ / ٧ ) .



فلذا قلنا: إن هناك وجوداً فيه أول وليس فيه أبد ، نقول إن هذا مجتمع عقلاً؛ لأن الذي لا تكون له بداية لا تكون له نهاية . أى يكون دائماً او جرد

إذن . فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس به أزل ، أى: له بداية وليس له نهاية . ونقول: إن هذا مجتمع في اثنتين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية هي تاريخ خلقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يبعث مرة أخرى ، إما أن يخلد في النعيم ، وإما أن يُعَذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإما يخلد - والعياذ بالله - في النار

وكذلك الآخرة لم يأت رسمها بعد . إذن فهي لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية في الجنة أو في الشر . إذن: فالإنسان والآخرة اشتركا في شيء واحد ، ولا بد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذي يأخذ لدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذي يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ من لا بداية له ولا نهاية له . والذي عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذي سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الخصبية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿وَأِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ﴾ [العنكبوت]

نعرف أن الحياة الحقيقية هي في الآخرة وليست في الدنيا ؛ لأن العبادات هي أى شيء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً إذا أردنا أن نصنع كرسيًا . فالغرض من الكرسي أن يجلس عليه . إذن: نكل الكراسي مهما اختلفت أشكالها وألوانها بها عاية واحدة وهي أن يجلس عليها . والإنسان غايته

لا بد أن تكون متساوية . وما دُمنا أفراداً لجس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هي ؟ أهى الصحة ؟ بعضنا مريض أهى القدرة ؟ بعضنا عاجز . أهى طول العمر ؟ بعضنا عمره فى الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وبما عدا ذلك فنحن مختلف إذن فلا بد أن نلتفت فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ولنهى الله ، وعليها أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه لنهاية

والحق سبحانه وتعالى يقول فى الآية التى نحن بصدد خواصها منها :

﴿ فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَرْفَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَمَا يَسْتَضِئُ مِنْ شَرِّهِمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ۚ فَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

﴿ ترهق ﴾ أى نخرج بصعوبة ، ماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها **■** . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذى ينتظره خير يعوق كل الذى سيتركه كمثل إنسان يعيش فى كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتى له الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر أما صاحب الدنيا فمثل الذى يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعه الموت <sup>(١)</sup>

(١) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . »

قلت : يا مولى الله أكرهية الموت ؟ فقلت : نكره الموت . فقال : « ليس كذلك . ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجسه أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وبسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه . » أخرجه مسلم عن صحيحه (٢٦٨٤) والترمذى فى مشيخته (١٠٦٧) وقال : حسن صحيح .

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا لقابلية إلى الحياة الخالدة الناقية ، ومن  
النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبب ، فنحن في  
الدنيا لا بد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثل : أنت إن أردت أن  
تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يمد لك غيرك ، وإن أردت أن  
تلبس فلا بد لك من أن تصنع لك القماش ويحكى الثوب . ووراء كل نتيجة  
توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذي يزرع ، والذي يحصد ،  
والذي ينقل إلى المطبخ أو إلى المصنع ، والذي يطبخ الدقيق أو ينسج  
القماش ، أما في الآخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يحضر الشيء  
عليك ثالث نعمة أمامك ، أليست هذه حياة نعيم ؟

إذن ، والذي تنزع أساريه ساعة الموت هو المؤمن <sup>(١)</sup> ، والذي ينقبض  
وجهه وينسحق عندما يأتيه ملك الموت هو الكافر والعاصي ، لأنه سينتقل  
من نعيم حتى ولو كان سبياً إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام علي رضي الله عنه : يا إمام ، أريد أن أعرف نفسي أنا  
من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام عليّ رضي الله عنه : أنت من أهل  
الدنيا ، فاجعل جواب هذا السؤال عندي وجعل جواب السؤال عنك أنت ، إن  
كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل  
عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .

أي : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته ترحاباً وتحيّة  
وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك في  
الغاية ما يجعله لك أجراً في الآخرة التي تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه

(١) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن تمت رحته في لقاء الله تعالى يوم الموت  
يوم سروره وفرحه وأمنه وحرره وشره . ( انظر : إحياء علوم الدين ٤ / ٤٦٥ )

أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ، لأن معطى لهدية يزيدك في ديارك . وما دُمتَ تفرح بذلك أكثر من فرحت بالدى يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنـب .

ويقال : إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه مسحة مستريحة يقول إن هـذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض يهر يثبت بالأمل في أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع . لكن الأمر يختلف ساعة الاحتصار حين يعلم الإنسان أن الموت يتحلله وأنه ميت لا محالة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

ويرى ما كان محبوباً عنه في الدنيا . حيث يستعرض أعماله . فإن رأى شريط الحياة حلواً متبرأ ، ابتسم وانفرجت أساريره (١) فيقبض على هذا الرضع أما من امتلأت حياته بالسوء والمصاى فوجهه يسوء وتنقبض أساريره فيقبض على هذا الرضع . وهذا ما سميـه الخاتمة ، ولحظة لاحتصار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ لحائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً ، أما التلميذ المجتهد فيكون مبسماً متفرج الأسارير .

وفي ساعة الاحتصار يدخل الدهن من أى شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى نورة شعوره ، وبؤرة الشعور هى المكان الذى إن استقر فيه شىء فإنه لا ينسى أبداً فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة ،

(١) الأسارير هى الخطوط التى فى الجبهة من التكرقيب ، فإذا ضحك الإنسان انفرجت هذه الخطوط دليلاً على مراحه وسروره

أن هناك سؤالاً سيأتى فى جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر فى شيء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة ، لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير ، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة إذن فساعة الالتقاط هذه حيث لا شيء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتى بخاطر آخر إليها إلا إذا ترحل الخاطر لأول عنها

ولذلك إذا سمعت شيئاً وحفظته من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشيء . كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر ينافض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته حيرة أشرق وجهه وانفجرت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسود وجهه والعياذ بالله

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرْهَقُ أَنْعُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول : أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتى ساعة الموت والمعنى الثانى . أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ، لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَخْلِفُونَ بَيْنَهُمْ لِيَجْزِيََكُمْ وَمَا لَهُمْ مِنْكُمْ

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْشِقُونَ ﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعَصَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها بقعة عليهم ، وأراد الحق

سبحانه وتعالى أن يشحطنا ضد المارقين وأن يجعلنا يحذر عنهم كل الحذر ،  
ويصرب لنا لئلا باليمين ، واليمين لا يعلق بها الإنسان عادة إلا بعد شبهة  
إنكار . فهذا جئت لإسنان بخمر وصدقته فأنت لا تصطر لأن تحلف له .  
ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لثريل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت  
حين تروى الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفت

وبكى لماذا يحلف المارقون دون سابق إنكار ؟

إنهم يسمعون القرآن الذى ينزل من لسماء مملوءاً بالمضب عليهم ، وهم  
يشعرون فى داخل صدورهم أن كل مسلم فى قلبه شك من ناحية  
تصرفاتهم ، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى يصدقهم المؤمنون <sup>(١)</sup> ، والمؤمنون  
قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، فى صدورهم ؛ فلا يصدقون ما يقوله  
المنافقون ، حتى يأخذوا حذرهم ويكونوا بمسجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من  
أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى  
ولو حلفوا .

ولو لم يُعطِ الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدقوا قَوْلَ المنافقين بقراءة  
اليمين . وبماداً حلف المنافقون ؟ لقد حنموا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم  
فى مظاهر الشريعة يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها  
يقين أو صدق .

وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فماذا يحصلون ؟ نقول . إن هذا  
هو تناقض الذئاب ، وأنت تجد المؤمن غير متناقض مع نفسه ؛ لأنه مؤمن  
بقلبه ومؤمن بذااته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد ملكات تناقض فيه ،

(١) وفى ذلك بقول عمر و جل : العذر : بأنهم جنة ففعلوا على سبيل الله إنهم به ما كانوا يفعلون [المنافقون] [٢]  
جنة أى رقابة

والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه ، لأنه يملئ صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه ، صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يفعله ظاهراً وما في قلبه

أما المنافق فتتناقض ملكاته فهو يقول بلسانه : " أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " . لكن قلبه يناقض ما يقوله ، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا يصدق رسالة رسوله ﷺ .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة « المنافقون » :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١)

[الممتحنون]

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ، وهو أن محمداً ﷺ رسول الله ؟ يقول إن الحق أراد أن يوضحهم ، فهم قد شهدوا بألستهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . ووضح الله ما في قلوبهم وأوضح أن ألستهم تكذب ، لأنها لا تنقل صدق ما في قلوبهم .

إذن : المتناقض يعيش في تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر ؛ لأن الكافر يعلن عداؤه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه أما المنافق فهو ينظر بالإيمان ، فنامن له ويكون إيذاؤه أكرس ، وقدرته على العَدْوِ أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... ﴾ (١١٥)

[النساء]

وبحق يعلم أن تناقض لدات هو الذي يشعب الدنيا كلها ، ويبين لنا  
المتبى هذه القضية ، ويشرح كيف أنها أتعب شىء فى الوجود ، فيقول .

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى

عَدُوَّ لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَةٍ تُدُّ

هذا هو تناقض الملكات حين نجد عدواً لك ، وتحكم عليك الظروف أن  
تصادقه . وهو ذلك بقول شاعر آخر :

عَلَى الدُّمِّ نَشَأُ مُجْمَعِينَ وَحَالًا

مِنْ الْخَوْفِ حَالُ السَّجْمِ عَلَى الْحَمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض فى المجتمع الذى يجعل الناس  
يوجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كُنَّا نَـوَالِيًا مِنْ تَنَاقُضِ ذَاتِنَا

مَتَى نَصْدُقُ الْأَقْوَالَ بِاللِّسَنِ اسْخَوْفِ

إذن . فالنامقون يحلمون بأنفسهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك فى  
ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم فى حقيقتهم ، فهم فى قلوبهم ليسوا  
منكم

ويكمن الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزُقُونَ ﴾ والفرق  
معه : الخوف ، أى أنهم فى مزع دائم ، ويحلفون أن يقتضخ أمرهم  
يعزلهم مجتمع لإسلام ويحاربهم محاربتة للكفار . ويشردهم ويأخذ



أموالهم ويسئ بساءهم وأولادهم إذن : فالتوف هو الذي جعلهم يحلفون  
كذباً وحقاً من التصاح أمرهم ؛ وبذلك قال الحق لرسوله ﷺ عنهم :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَهُمْ فِي لَحْنِ  
انْقَوْلٍ... ﴾ (٢٠)

ومى هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإن بدا القول  
على ألسنتهم جميلاً (١)

ثم يقول الحق جل وعلا :

﴿ لَوِ يَجِدُواكَ مُبْتَغًى أَوْ مَفَرًى أَوْ مَدَّخَلًا  
لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (٢١)

والمبتغى : هو ما سجا إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون ، وكذلك  
المخارة وهي الكهف في الحقل والمدخل . هو شئ يشبه القف تحت الأرض  
تدخل فيه بمشقة ولثواء ، إذن . فهناك ثلاثة ملاحى : بقرون إليها إن  
وجدوا في المعركة ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . وهم  
يتصنون الذهاب إلى مكان بعيد ؛ ليسوا بالإسلام على ما هم فيه من مشقة  
انقتال ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين ؛ لذلك تجدهم في  
حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد .

(١) وفى هذا يقول تعالى من خافين في رداءاتهم تعذبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴿ [الأنفال : ٢٤] ﴾  
قال الكلبى : المراد عيب الله بن أبى وجدة بن قيس رعتب بن قشير ، كاتب لهم أجسام ومظرو وخصاكة .  
أما لحن القول المذكور فى آية سورة محمد ، أى : لتعرفهم بأسماءهم فى معنى الكلام وهو قوله ودلائله  
غير النفاذ

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَوْ إِلَيْهِ وَهَمُ يَجْمَعُونَ﴾ **﴿** فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر لحق أوصافهم ، وعهودهم التي نقضوها ، وحلصهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض ملكاته ، ذلك التناقض الذي يورثه الشقاء ؛ لأن كل واحد منهم يُظهرُ غير ما يظن ويخاف من انكشاف أمره . فيظل مضطرباً لأن ما بداخذه يتناقض مع واقع حياته

إن هذه الحالة هي عكس حالة المؤمن الذي يعيش حياة منسجمة ؛ لأن ما في قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذي يعيش فيه ، وكذلك فحالة المنافق تختلف عن حالة الكافر ، فالكافر قد أعلن الكفر لدى في قلبه بلسانه أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان . ولذلك فهو في تعب مستمر من أن يتكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما في قلبه ؛ لأنه يَكِنُّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً .

والإنسان إذا اضطرب أن يمدح من يعاديه وأن ينظاير له بالحب ، فإن هذا السلوك يمثل ثقلًا نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا يرى أن المنافقين يُتَمَبِّونَ أنفسهم قبل أن يُتَمَبِّوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذي يتظاهر بأنه كريم ، وكلما أفتق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يديحه في نفسه ويسبب له آلاماً رهبة . وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن ثم لمحذ المنافقين حين يريدون أن يُنْفِثُوا عما في صدورهم ، فهم يحتلون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين ؛ ليُطْهَرُوا ما في نفوسهم من حقد وغل وكراهية لهذا الدين ، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمين فيه ، أو معارة في الخيل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعون أحد ،

أو مُدْخِلًا وهو المكان الضيق الذي لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة .  
هم إذن يحشرون عن مكان يغيبون فيه عن سَمْعِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْصَارِهِمْ لِيُخْرِجُوا  
الْكُفْرَ مِنْهُ ، لِحُبُوسِهِ فِي صُدُورِهِمْ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لَوْ يُعَذِّبُونَ مُلْجَأًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْخِلًا أُولَئِكَ إِلَهُهُمْ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾  
﴿وَلَوْ﴾ أى . انطلقوا إليه وقد شعلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أى  
شئ آخر ، ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ والجماح هو أن تعقد السيطرة على انفرس  
الذى تركه ، فلا تقدر على كَسْحِ جماحه أو التحكم فيه ، فيسطلق  
سرعة ، وحين يقاها هذا عن الإنسان فهو يعنى الانطلاق بسرعة إلى المكان  
الذى يقصد إليه ولا يستطيع أحد معه ، وإن تعرض له أحد دفعه بعيداً  
ليسطلق في طريقه بسرعة

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين في أى معركة . فمجرد بدء  
القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى مِثَالَةِ (١) الحذر ،  
ولا يطيرون الاستشهاد ، ولكنهم في هذه اللحظة التى يبدأ فيها القتال  
يحشرون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو معارة يخشرون فيها ، أو مُدْخِلًا فى  
الأرض يحشرون فيه بصعوبة ليحميهم من اقتات . فإذ انتهت المعركة  
خرجوا ليضمموا إلى صفوف المؤمنين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف  
يفتتلون فى سبيل دين لا يؤمنون به ؟ ولذلك كنت تجدهم فى المدينة إذا  
تودى لمجاهد فهم أول من يحارل الهروب ويلهبون للفناء النبى ﷺ طائسين  
التحلف عن المعركة ، ويقول الواحد (٢) منهم

﴿ ائْذِنْ لِي وَلَا تَقْتُلْنِي ... ﴾ (٤٩)

[التوبة]

(١) المِثَالَةُ هى قتال العساك وهم فوق حيادهم دون الروى إلى الأرض

(٢) هو جده بن تيس ، وقد سبق الكلام عليه فى تفسير الآية المذكورة

وفي لصدقة يحاولون التشكيك في توزيع الصدقة وكيف يتم ؟ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾

وإذا جئوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النيل من رسول الله ﷺ بغرض إيداعه ولزمه ، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أدْنُ قُلْ أدْنُ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْمُؤْمِنُونَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٦)

[التوبة]

هذه بعض صفات المنافقين التي يفضحهم الله بها بكشفها للمؤمنين وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لقمائنهم وفصائحتهم . فقال فيهم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ (٥٨)

[التوبة]

كلنا أيضاً نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُحْمَةٌ ﴾ (٦)

[الهمزة]

فما هي الهمزة وما هي اللحمة ؟

«الهمرة»: هو من يعيب في الآخرين عيباً جهاً وسحر منهم حفنة ، ويكون ذلك بإشارة من عيه أو بأى حركة من جوارحه ، ومثال هذا حين تكون هناك مجموعة من الناس جاسين ، ويحاول أحدهم النّس من أحد الحصرر حمية ، فيعمز بصرف هينه لإسان آخر ، أو يكون باللسان همساً في أدن إسان أو بأى طريقة أخرى ، المهم أن يُشار إلى العيب بطريقة حمية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللّمة فهم العيّاون في غيرهم في حضورهم فهناك القوي الذي يكثف العيوب بشجاعة وصراحة وهو اللّمّاز ، أم الضعيف فهو يعيب حفية وهو الهمّاز . واللّمة تطلق على من يعيب كثيراً في الناس .

وهمة لمة ، من صيغة لمالة "فُعلة" وبدل على كثرة فعل الشيء .  
تقول "فلان أكّلة" بضمّة على الألف -أي: يأكل كثيراً . وفلان ضحكة -بضمّة على الضاد - أي: كثير الضحك .

إذن: فاللمزة هي كثرة العيب في الغير ، وهي تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

واحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ واللمر كما عرفنا هو البحث عن العيب ، وهو هنا مذكور في شيء هو الصدقات . وكان بعض من المنافقين يعتبرون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيرون أن ينحب لغنى ريشقى في الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيرون التشريع نفسه ؟ أم يعيرون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيرون حثّ الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيرون الطريقة التي يتم

بها صرف الصدقة للفقراء ، وأن بعضهم يُعطى كثيراً وبعضهم يُعطى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيرون في كل هذه الأمور أو بعضها .

إذن : فاللزم إما أن يكون في التشريع ، وإما أن يكون في كمية الصدقات أو في طريقة الصرف ، والحادثة التي وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت في مصرف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير ، وهو رأس الخوارج ، وهو ابن ذى الحويصرة ، وقال : أعدل يا محمد . فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! ومن يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله إنك لى فيه أصرب عنه . فقال رسول الله ﷺ :

« دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز سرقبهم . يرمقون من الإسلام كما يرمق السهم من الرمية يُنظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر في قنذه فلا يوجد فيه شيء . سبق القرث والدم . آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة . أو مثل البصعة تدردو ، يخرجون عني حين فرقة من الناس » (١)

(١) لا يجاوز سرقبهم أى لا يجاوز حلقهم وحناجرهم فلا يصل إلى قلوبهم . والترافى جمع توافؤ .

وهي العظم بين شرة البحر والرفقة

الرمية أى الشيء الذى يضاف بالسهم إذا رمى صاحبه

النصل الجزء الذى بالسهم

- الرصاف : مدخل النصل من السهم

- النضى : السهم بلا نصل ولا ريش

- القرث : ما فى داخل الكرش من عضلات

- البصعة : قطعة اللحم

- تدردر : تحرك وتضطرب .

قال أبو سعيد الخدري : فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ،  
وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك  
الرجل - أي الرجل الأسود - فالتمس فوُحِدَ فأتى به ، حتى بطرت إليه على  
نعت رسول الله ﷺ الذي نعت (١)

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْزُك فِي الصَّدَقَاتِ  
فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخِفُّونَ ﴾ أي : أن هؤلاء  
الناس إن أعطوا من الصدقة كانوا راضين مهلئين ، وإن لم يُعْطُوا منها ملأ  
قلوبهم السخط ، وبدأوا باللمز . إذن هناك كمية لمطاة لهم من الصدقة  
كانت هي أساس اللمز

ومثل هذا قد حدث في عزوة حنين . فقد وزع رسول الله ﷺ الغنائم  
على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

ولما لم يُدْخِلِ ﷺ الأنصار في هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك ،  
فجمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم :

« أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ أَنْتُمْ بِرَسُولِ  
اللَّهِ ؟ الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتِ مَمَاتَكُمْ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَ  
الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ » (٢)

وها بكى الأنصار ، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم ،  
سيعودون بصحبة رسول الله ﷺ وقد يعطى رسول الله ﷺ حديث عهد  
بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطى لتأليف القلوب ،  
وقد يعطى لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٦١٦٣ ، ٦٩٣٣) ، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة حديث (١٤٨) من

حديث أبي سعيد الخدري واللفظ لمسلم

(٢) حديث صحيح من تخريجه مراراً كثيرة

ولذلك كانت لرسول الله ﷺ ملاحظة في توزيع الصدقات ولغنائم ، قد لا يلاحظها أحد . وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله ﷺ ؛ لأن سلركه هر لحكم ، ولا بد أن نقبله

ففي الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش بالألا يعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام <sup>(١)</sup> ، هذا الصلح أثار غضب عدد من المؤمنين وقالوا برسول الله ﷺ . أترضى بالدنية في ديننا؟ أي كيف تعطيتهم هذه العهود وهي مجحفة بالنسبة لنا ؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انفل وأرد أن يقسو في الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : أأنت على حق يا رسول الله ؟ فقال له أبو بكر : أرم غررك يا عمر - أي اعرف مكانك - إنه رسول الله <sup>(٢)</sup> . وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقرة أدت إلى فتح مكة ، قال أبو بكر رضى الله عنه . ما كان نصر في الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

(١) لهذا الصلح شروط أخرى ذكرتها كتب السيرة والتفسير

١ - أن يرجع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا يدخلون مكة معتمرين هذا العام

٢ - يعودون العام التالي للاعتدال ولكن بدون سلاح لا السيوف في أعصاف فيقيم بمكة ثلاثاً ويخرج

٣ - هدنة مدة عشر سنوات

٤ - من ذهب إلى المسلمين من الكافرين مسلحاً رجلاً أو امرأة رد إلى الكفار

٥ - من جاء من المسلمين إلى الكفار مريد أن لم يردوه إلى المسلمين

وحديث صلح الحديبية حديث صحيح طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) من

حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وأخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٥) من حديث سهل

ابن حنبل

(٢) قال عمر بن الخطاب ، أتيت بي الله ﷺ فقلت أأنت بي الله حقاً؟ قال ، بلى قلت أأنت على

الحق وصلونا على الباطل؟ قال بلى قلت - فلم تعطى الدية في ديارنا؟ قال إني رسول الله

ولست أعصيه ، وهو باصري قلت أأليس كنت محمدنا أنا منأتي البيت فطرف به ؟ وذهب

عمر إلى أبي بكر فقال له نحو هذا ، فقال ، أبو بكر أيها الرجل ، إنه لرسول الله ، وليس يعصى ربه ،

وهو ناصر ، فاستسبب يعزبه هو الله إنه على الحق (فتح الباري ٥ / ٣٣٢) . أي ، استمسك بأمره

واترك المخالفة له ﷺ



ولكن المسلمين في هذا الوقت لم يُحفظ فكرهم مما بين محمد وربه ؛ لأن العباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يَهْدِي نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عاندين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى :

﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مِنْجَلُهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعِرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَى الَّذِينَ أُعَذِّبْنَا أَلَدِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [المنح]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على عِلَّة قبول صلح الحديبية وعدم اقتال مع المشركين في هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون في مكة يكتسبون إيمانهم ويعيشون في مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو عَصِموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله ﷺ لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة في قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم في الإيمان الموجودين في مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون في ناحية والكفار في ناحية لأعذب الحق الكفار بأيدي المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن : فقد علم رسول الله من ربه سرّاً ولم يُعْلِنه إلا لوفته ، رعم تعجل من كانوا معه ﷺ

ومثل هذا يحدث في حياتنا ، فقد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته وعلى هذا المؤمن ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون في عدم الإجابة خبر لا يعلمه . وأن من رحمة الله أنه لم نجب هذه الدعوة ، مثلما تحمى بث الشاب من أن يحمل سلاحاً ؛ خوفاً من أن يتهور في أي مشاحرة ، يقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حماية له ، ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدي إلى عواقب وخيمة .

وحين تدعو الله ولا يجيب دعائك، فثق أنه سبحانه يحميك من نفسك ؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم . فقد تدعو بشيء تحسبه خيراً والله سبحانه يعلم أنه شر . إذن . فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها (١) .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يُلْمُوكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخِفُّونَ ﴾

والسخط هو : عدم الرضا في القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال جرقوص بن زهير لرسول الله ﷺ : اعدل يا محمد . أي : أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا لذاء في المجتمع الإيمانى فهو جل وعلا يعطى الدواء الذى يحمى المجتمع من هذا الساء ، وهؤلاء الناس كانوا

(١) عن أبي سعيد الخدرى أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إسم ولا طيبة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء منها . قالوا : إننا نكفر . قال : الله أكثر » أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٣) وإسنادهم في مستدرکه (٤٩٢/١) وصححه والطبرانی في المعجم (٩٢/٢)

يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا سخطوا ، إذن فموازينهم مُحْتَلة ، وليست موازين حق ثابت ، بل هي موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هي موازين ثابتة يعادل فيها الإنسان حتى مع أعدائه (١)

ولكن هؤلاء الناس تختلف أفعالاتهم باختلاف مصالحتهم ، إذا أخذوا رضوا ، وإذا متعروا سخطوا ؛ لأن ميرانهم هو المصلحة الخاصة العبيدة عن كل عدل .

وهنا يأتي الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ مَا آتَاهُمْ ﴾ مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا ؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن به عطاء في المسح وعطاء في المع . فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق حسن وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك . ورسول الله ﷺ حين منع الغنائم عن الأنصار في حين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهذا أكبر وأسمى من العنائم ، وقد لهم رسول الله ﷺ :

(١) وفي هذا يقول سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة ٧١] .

« المحيا محياكم، والممات مماتكم . لو سلك الناس شعباً وسلك لأصهار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار » (١) .

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون في الجمع إتياء

الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهو عز وجل المشرع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلغ والمنفذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرضاء عمل قلبي كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعي هو : ﴿ وَقَدْ لَوْا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ فكان الرضاء عمل القلب ، والتعبير عن الرضاء عمل اللسان ، وما دامرا قد احتسبو الأمر عند الله ، فالله هو الذي يرضى ، وفي عطائه خير وفي معه خير . ولذلك يجد الطيبين من الناس إن غلبوا على أمرهم بقويون : إن لنا رباً ، أى : إياك أن تفهم أنك حين معتنى أو أخذت حفي بأن اعتدبت عليّ ستمضى بهذا القبل دون عقاب ؛ لأن لى رباً يعار عليّ ، وسبحانه سيعوضني أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته منى قسراً ؛ نعمة عليك .

وبذلك فاهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم . وفي أن الله هو الفادر على أن يعوض أى شىء يفوت .

وبوصح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول ﴿ سُبُّرْتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل ؛ لأنه يعطى الإنسان قبل أن يكون قادراً على عساده . حتى وهو فى بطن أمه لا يقدر على شىء ، فإذا كنت فى الدنيا قد فكرت بالعقل الذى خلقه لك الله ، وعملت بالطاقة

(١) حديث صحيح منق من صحيحه مراراً

التي خلقها لك الله ، وفي لأرض التي خلقها الله ، فإنك في بطن أمك لم تكن قدراً على أي شيء . وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحب في كون ملى بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تؤخذ فيه حيراً وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعت الشمس ، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهي المطر ؛ إن توقفت هلك كل من في الأرض . ولنلمس أثر ذلك حين تأتي مواسم الجفاف في أي منطقة من اعالم ، ونرى كيف يهلك كل شيء ؛ الررع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا في عالم أغيار ، والقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً عدداً ، والقوى يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله ؛ يأخذها وقتها يشاء ، ونرى القوى الذي كان يفتك بيده ويؤذي بها غيره ويذل الناس بها . براء وقد أصابت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتشعل إذن : ففقدرة أي إنسان ليست دنية فيه ، بل هي من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شيء في الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَيُرِيْنَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّٰهِ رَاغِبُونَ ﴾ ويقال : رغب في كذا أي أراده ، ويقال : رغب عن كذا ، أي ترك هذا الأمر . ويقال : رغب إلى كذا أي سار في الطريق نحوه . وهنا قال الحق : ﴿ إِنَّا إِلَى اللّٰهِ رَاغِبُونَ ﴾ ومع ذلك إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنبر عن عطاء الآخرة ، فالدينبر ليست كل شيء عندك ؛ ما دمت راغباً إلى الله الذي سيعطيك نعيماً لا حدود له في الآخرة . ولذلك فرغبنا في الله كان يجب ألا نجعلنا نخطط على نعيم فائنا في الدنيا ؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا في الآخرة .

وَرَادَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَبَيِّنَ مَصَارِفَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَعْرِفَ هَؤُلَاءِ الرَّاعِبُونَ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ وَيَتَعَرَّفُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، وَلْيَتَبَيَّنُوا هَلْ هُمْ يَسْتَحِقُّونَ الصَّدَقَةَ أَمْ لَا ، فَقُلْ جَلْ جَلَالُهُ :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ  
عَلَيْهَا وَالْمَوْلَفَةِ فَلَوْ لَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرِمِينَ وَفِي  
سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ ﴾

وعندما نسمع كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ فافهم أنه يُرَادُ بِهَا الْقَصْرُ ، فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّمَا الرَّجُلُ زَيْدٌ ، أَيْ ، أَنْكَ قَصَرْتَ الرَّحُولَةَ عَلَى زَيْدٍ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّمَا الْكَرِيمُ حَاتِمٌ ، تَكُونُ قَدْ قَصَرْتَ الْكَرَّمَ عَلَى حَاتِمٍ . وَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ مَعْنَاهَا : أَنَّ الصَّدَقَاتَ مُحَصَّرَةٌ فِي هَؤُلَاءِ وَلَا تُتَعَدَّاهُمْ .

فَمَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَصَرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمُ الصَّدَقَةَ ؟ وَمَا الْمُرَادُ بِهَا بِالصَّدَقَةِ ؟ هَلْ هِيَ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ أَوْ الزَّكَاةُ ؟

نَقُولُ : مَا دَامَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ حَنَدَ لَهَا مَصَارِفَ فَهِيَ الزَّكَاةُ ، وَلَسَائِلُ أَنْ يُسْأَلَ : لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الزَّكَاةَ وَهَالِ الصَّدَقَةِ ؟

وَنَقُولُ : أَلَا تَرَى - فِي الْمُجْتَمَعَاتِ غَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُلْحَدَةِ - أَنَّ مِنْ إِنْسَانٍ مَنْ يَفْكُرُونَ فِي إِثْبَاءِ مَوْسِسَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ لِرِعَايَةِ الْفُقَرَاءِ ؟ إِنْ عَطَفَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَخِيهِ الْإِنْسَانِ هُوَ أَمْرٌ غَرِيزِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهِمَا جَمِيعاً ، وَلِذَلِكَ

كان يجب أن معهم أن لركاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للركاة بأنها صدقة : لأنها تأتي تطوعاً من غير إكراه وعير الملزم بالتشريع ، ويحسن القادر بالسعادة وهو يعطى لعبير القادر ، وهي غريزة وضعها الله في خلقه ليخفف من الشقاء في الكون

وما يقول الحق ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وقد احتار العلماء في ذلك ، فقال بعضهم إن الفقير هو الذي لا يجد شيئاً فهو مُعْدِم والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا في ذلك إلى نص قرأى في قوله تعالى :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي ابْحَرٍ ۝﴾ [الكهف]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شيء يمكنونه . ولكن العائد الذي تأتي به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لا يملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذي يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول في هذا الجدل به فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . الفقير والمسكين . وكلمة "فقير" معناها الذي أتعبت الحياة فَخَّار طهره أي فترات طهره ، وحاله يعنى للتعبير عنه ، والمسكين هو الذي أذهلته المسكنة .

ثم يأتي بعد ذلك : ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي . الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها في بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان

بجمعها وهو فقير ، أو من كان يجمعها وهو غير محتاج . وقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولوقلنا . إن غير المحتاج يعمل في جمع الصدقة لا يحب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوئاً من التفضل ، وما دام العمل تفضلاً لمن يكون بنفس الكفاءة التي يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر . وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقه دكى تشبث ، لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتي إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة للإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالى الذى يوزعها . وفي هذا مصححه لمجتمع المسلمين كنه . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذل أحد أمام أحد ، وفي هذ حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعانى من انكسار يده السفلى .

ومن يعطى بغير بيت المال قد يكون فى عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك من أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو داهب إلى رجل غنى ليأخذ منه الصدقة ويصأب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغنى هذا الفقير وهو يأتى لى أباهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فتعالى على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلاف بين غنى وفقير فلى يقول الغنى للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا ، أو يقول أولاد الغنى لأولاد الفقير . لولا أبونا لمستم حرواً .

إذن . فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظم أن يمنع طغيان المعطى ، ومنع أيضاً - ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطى . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالى فلا غصاصة ؛ لأن كل المستحقين تحت ولايته مسئولون منه



ثم يأتي الحق إلى فئة أخرى فيقول : ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يتميلهم ، أو على الأقل أن يكفوا آدايم عن المسلمين . وكان المسلمون في الرمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدررون على حماية أنفسهم . وعثما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة ، منع الخلفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة ؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحى الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب في ثات الزكاة <sup>(١)</sup> .

وقول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾ يشير سؤالاً . هل يؤلف القلب ؟ . يقول : نعم ، فالإحسن يؤلف قلب الإنسان السوى ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوى ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وفي الرقاب﴾ ومعناها العبيد الذين أسروا في حرب مشروعة . وكانت تصفيه الرق من أهداف الإسلام ؛ بذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . وبعض من الناس يدعون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبل المعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعنق ليصفي الرق ، فجعل من فك الرقبة كسارة لبعض الدروب <sup>(٢)</sup> . وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد وقد برل القرآن وقت أن كانت مصابع الرق متعددة .

(١) استقط عمر سهمهم من الصدقات لما رأى من إعرار الدين . وهو أيضاً قول الحسن البصري والشعبي وخيرهم وقال الرمري لا أعلم مسلماً في ذلك . وقال ابن العربي : إن قرى الإسلام بالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم انظر تفسير القرطبي (٢/١٠٦) .

(٢) وهذا مثل فتل المؤمن خطأ ، قال تعالى : ﴿من قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقه مؤنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا﴾ [النساء ٩٢] وكذلك كسارة اليمى قال تعالى : ﴿فكفارة إحصاء عشرة مسكين من لو سطا ما قطعوا أطبكم لو كسرتهم أو تحرير رقه...﴾ [المائدة ٩٠] .

وكان من المعتاد في تلك الأيام أن المدين الذي يعبر عن سداد ما عليه من دين ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فعلتُ جناية ، فالجاني يأخذ العفو من المجنى عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرق شيء فإن السارق لا يعاقب ، بل يعطى أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأنبياء يستعبدون الصغار ، فيحفظون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم في سوق الرقيق ، وهكذا كنت مابع الرق في العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً في أوروبا ولى آسيا وفي أفريقيا ووجد أيضاً في أمريكا . إذن : كنت هناك متعددة للرق ، ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق ينرايد ، وجاء الإسلام والعالم عرق في الرق ، لماذا ؟

لأن الرق في ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج لإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عاجها على مراحل ، تماماً كتحرير الخمر حين بدأ التحريم بالمع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ۖ ﴾ [الباء]

ثم حرمها تحريماً قطعاً (١)

(١) مخرج الخبر ثلاث مراحل

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ۖ ﴾ [البقرة]

٢ - ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ۖ ﴾ [النساء]

٣ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ۖ ﴾ [البقرة]

فهو أنتم مشهود (٢) . الثالثة ]

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإعلاق مصادر الرق وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولي الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم اسبعاد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دين أو غير ذلك ، فقد أعلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المنصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة ، فالذي يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف ميثاقاً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يريد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبته<sup>(١)</sup> .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿ ١٢ 〉 فَكَرَّ رُكْبَةً ﴿ ١٣ 〉 ﴾ [البند]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لنصفية الرق حتى ينتهي في سموات قليلة ، ثم وصح بعد ذلك ما يُنهي الرق مطلقاً ، وإن لم يُنهِ شكلاً .

فإذا كان عد أي سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده ، فلا بد أن يُلبسه بما يلبس ، ويُطعمه بما يطعم ، فإذا كُتبه بيعته<sup>(٢)</sup> . وهكذا أصبح العارق متلاشياً بين السد وعبده .

وحين ألغت بعض الدول الإسلامية الرق بالقبول ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعيش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن

(١) وفي بعض النسخ يقول ثقة \* من أعتق رقبته مسلمة أعتق الله بكل عبده منه عسراً أم من النار حتى تفرجه بمرجه \* متفق عليه من حديث أبي هريرة . أخرجه البخاري (٦٧١٥) ومسلم (٢٥٠٩)

(٢) من أبي در أن رسول الله ﷺ قال \* هم إخوانكم - حينهم الله تحت أيديكم ، ليس جعل الله أعباء تحت يده فيطعمه بما يأكل ، وليلبسه بما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يعبئه ، فإن كلفه ما يعبئه فليعبه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم في صحيحه (١٦٦١) .

حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوى شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا صَنَعْتُمْ أَنْفُسَكُمْ . . (٢٦) ﴾ [ النساء ]

نقول : امهم عن الله ، فهذا الأمر لا يسرى إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة في الحرب ، أى كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت في الأسر ، والذي يسرى على الرجل في الأسر يسرى عليها ، ثم من أى مصدر ستعيش وهي في بلد عدوة لها ؟ إن تركها في المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها . كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكَبِّتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجست أصبحت روجة حرة وأولادها أحراراً<sup>(١)</sup> ، وفي هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقى الزكاة : ﴿ وَالْعَامِينَ ﴾ والغارم . هو من استدان في غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدينه . ولم يجهله صاحب الدين كما أمر الله في قوله تعالى .

﴿ فَظَنُّوا إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ . . (٢٨) ﴾ [ البقرة ]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دينه ، وفي هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدين . لكن لماذا هذا التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذي لا يجد ما يسد به دينه حتى لا يجعل الناس يقبضون من الكرم وعن إقراض الذي يمر بعسر ، وبذلك يبقى الميسر

(١) وهي ما يسمى في الشرع « أم ولد » ، وهي الأمة بعد حرة إذا ولدت من سيدها ، وبه أن يستمتع بها ما دام حياً ، فإذا مات فهي حرة . انظر بين الأوطار ٩٦/٦ ٩٩ .

في اجتماع ، وتبقى نجدة الناس لناس في مساعة العسرة ، فلا يمنع أحد عن إعطاء إنسان في عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة . أو : أن لغارم هو الذي أراد أن يصحح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بعض الخلاف ودفع المبلغ ، ثم تسوء حالته ، لأنه عزم هذا المال بنحو إيمانية ، فتقول له . حد من بيت مال حتى يشبع في النفوس تصفية الخلاف وإشاعة الحب بين الناس . إذن : لغارم هو المستدين في غير معصية ولا يقدر على سداد الدين ، أو المتحمل لتكلفة إصلاح ذات البين بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه . ﴿ وفي سبيل الله ﴾ يقول جمهور لعقهاء : إنها تنطبق على الجهاد<sup>(١)</sup> ، لأن الذي يصحح بماله مجاهداً في سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضحى بماله ، وعندما يصحح بماله أو النفس في سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة أنك إذا أنفقت المال جهاداً في سبيل الله دخلت الجنة ما أنفقت

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلغ ومنهج يحقق ، والجهاد في سبيل الله أسوة لعباده المؤمنين . والأسوة في الإسلام هي التي تُقويه وتثبت في النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقي بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله متجاوز عنه بأصعاف أصعاف ما أعطيت .

(١) قال القرطبي من الحرس (٤/٣١١٠) ﴿ وفي سبيل الله ﴾ هم الغراء وموضع الرماط ، يعطون ما يعطون في غروهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعمار .

﴿وَلِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف السر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات<sup>(١)</sup> .

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والركاة : ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا ديمهوري وهذا ططاوي ، إلى آخره حسب البلد الذي هو منه . ولكن لنعرض أن إنساناً متى في الطريق في غير بلده وإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح . ابن السبيل ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لابد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإن وحد الإنسان من يعينه في هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفراشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافر ليرداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة ، وقد يكون غنياً وبكته قد يفقد ماله في الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أي مفاجأة قد تجعلهم في عسر ، فالذين سافروا سياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يوفقوا أوحب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا في الأرض ليروا آياته ، وليبشروا لوزق ، إذن . هابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة ، ولا يجد ما يعود به إلى بلده .

ثم يقول الحق سبحانه . ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي : أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب ، والعامرين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

(١) قال الربيدى في شرحه لإحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٠) « فيخرجها فيب عليها مكارم الأخلاق من غير اعتبار صفت من أوصاف للخيريين ، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان حتى الشجرة براها ثوب عطساً ، فيكون حده في يشرى لها ما يسيبها به من مال الركاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله »

رُبِّهِ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وَاللَّهُ هُوَ  
وَأَجَبَ الْوُجُودَ وَخَالَقَهُ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَكَرَّمَهُ فَجَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .  
وَقِيلَ أَنْ يَخْلُقْ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ أَعَدُّ لَهُ الْكَوْنُ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ ؛ الْأَرْضُ  
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ وَالنَّجُومُ . ثُمَّ جَاءَ الْإِنْسَانَ إِلَى  
الْكَوْنِ ؛ لِيَجِدَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أَعَدَّ لخدمته خاضِعاً لَهُ ، فَلَا يَوْجِدُ جِنْسَ مِنَ  
الْأَجْنَاسِ يَتَأَبَّى عَنْ حُدُودِ الْإِنْسَانَ ، فَلَا الْأَرْضُ إِذَا رُغِيتْ وَلَهْصَتْ بِبُيُوتِ  
الزَّرْعِ ، وَلَا الْحَيَوَانَ الَّذِي سَجَرَهُ اللَّهُ حُلَّ جَلَالِهِ لخدمَةِ الْإِنْسَانِ يَتَأَبَّى عَلَيْهِ ؛  
فَالْحِمَارُ تُحْمَلُهُ السِّبَاغُ وَالْقَاذُورَاتُ فَلَا يَرْضَى ، وَتَنْظُمُهُ وَتَجْمَلُهُ مَطْلِيَّةٌ تَنْقَلِكُ  
مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ فَلَا يَتَأَبَّى عَلَيْهِ .

وَمَا دَامَ سُبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ ، فَهُوَ أَدْرَى بِمَنْ خَلَقَ ، وَبِمَا يَصْلَحُهُ وَمَا  
يُفْسِدُهُ . وَاللَّهُ الْمِثْلُ الْأَعْلَى يَحْسُ بِعَرَفِ أَنْ الْمُهَنْدِسَ الَّذِي يَصْنَعُ آلَةَ إِنَّمَا  
يَضَعُ لَهَا قَانُونٌ صِيَانَتُهَا . فَمَا بَالَا بِخَالِقِ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَدِّدِ الْمَشَاعِرِ  
وَالْأَطْوَارِ ؟ إِنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لَا يَقْنِصِي عِلْماً فَقَطْ ، وَلَكِنَّهُ يَقْنِصِي أَيْضاً  
حِكْمَةً ، لِأَنَّكَ قَدْ تَعْلَمُ ، وَلَكِنْكَ لَا تَسْتَخْدِمُ الْعِلْمَ فِيمَا تَعْمَلُ ، كَانَ تَعْلَمُ  
قَانُونِ صِيَانَةِ آلَةٍ مَعِيَةٍ ثُمَّ لَا تَطْبِقُهُ وَتَحْدُودُ أَنْ تَأْتِيَ بِقَانُونٍ مِنْ عِنْدِكَ ؛ لِلذَّكَاءِ  
فَلَا يَدُ مَعَ الْعِلْمِ مِنْ حِكْمَةٍ لِيَضَعُ الشَّيْءَ فِي مَوْضِعِهِ السَّالِمِ . وَلِلذَّكَاءِ قَالَ  
الْحَقُّ سُبْحَانَهُ . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصَّدَقَاتِ تَقْنِصِي مُتَصَدِّقاً وَهُوَ الْمُعْطَى ، وَمُتَصَدِّقاً عَلَيْهِ  
وَهُوَ مُسْتَحِقُّ الصَّدَقَةِ أَوْ الَّذِي يَأْخُذُهَا ، وَمُتَصَدِّقاً بِهِ وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي  
تَصَدَّقُ بِهِ ، إِذِنْ فَهَذَا ثَلَاثَةٌ عَنَّا صِرَ الْمَتَصَدِّقُ ، وَالْمُتَصَدِّقُ عَلَيْهِ ،  
وَالْمُتَصَدِّقُ بِهِ

قَدْ يَسْأَلُ بَعْضُ النَّاسِ : لِمَاذَا خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ  
بَعْضَهُمْ قَادِرًا وَبَعْضَهُمْ عَاجِزًا ، وَهَذَا يُعْطَى وَهَذَا يَأْخُذُ ، وَلِمَاذَا لَمْ يَجْعَلِ  
الْكُلَّ قَادِرِينَ ؟

نقول . إن مفردات التقابل في الأشياء تجعلها متكاملة ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكَمَّل للنهار ، والنهار مُكَمَّل لليل ولو لم يُخلَقا معاً متكاملين ، لاختلَّ التوازن في الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَتِيكُمْ بِظُلُمٍ تَكُونُونَ فِيهِ أَفْلا تَبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) [ القصص ]

إذن : فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظلمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَمْ الإنسان ويستريح فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا يرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون : لا بد أن تساوى المرأة الرجل ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان ، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكون من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، وينضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) ﴾ [ الليل ]

كان الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساويان متكاملان ، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ سَأَلْتُمْ لَشَى (٤) ﴾ [ الليل ]



أى كُُلُّ له مهمة فى الحياة ، واقتضت حكمته سبحانه فى حق الكون أن يجعل كل شىء يخدم الإنسان ؛ الخدماء يخدم الإنسان ، وكذلك البسات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستجيباً لمنهج الله وعبادته . وكذلك اقتضت الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تشجيب للإنسان ، حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذَلَّلاً بمدراتهم هم ، بل بقدره الله سبحانه وتعالى ، لأن الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ ۖ ﴿٦﴾ إِنَّ رَأْيَهُ اسْتَعْيَى ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

فتجد مثلاً الجمل بضعماته يتقاد لطف صغير ، بينما الثعبان الصغير على دقة حجمه لا يجرق الإنسان أن يقرب منه

وفى الوقت نفسه ، فإن هذه الحكمة تقتضى أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من دأب الإنسان . ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرّون على الكسب ، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هى هبة من الله ، ولست فى ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية فى الإنسان ما وُجد عاجز ولا بد أن يفهم كل قوى أن قوته هبة من الله يمكن أن نسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسبيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون فى الكون ليلفتوا لأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يعتر الأصحاء والأنوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصى ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين ، فمن الذى يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذى يقوم بتسليك الباصات ؟ ومن الذى يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرعى أحد أن يقوم بالأعمال السليطة والمرعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد فى إصلاح المحارى ، لذلك قد ترى من يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسد المحارى ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتى من هذا العمل

ولكن أبهى هذا الحاح على م هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُداول بين الناس ، وكل واحد له عرس وله مأتم . وثأتى أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هى مصدر الرزق الوبير ، وهى التى يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا فى الجامعات وأهلوا للمناصب ، لكنهم أقل دحلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى مواهب متعددة التى تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبني بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن للإنسان أن يملك هذه المواهب كلها فى وقت واحد . فلا بد أن نتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش بل ونجد أن الإنسان قد يتخصص فى عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال ' باب الشجار محلّع ' ؛ لأن الأبواب الأخرى التى يصنعها مرتطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صنعها ، أما باب هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيافته .

ولا بد أن يعرف لإنسان أنه ليس أصيلاً في الكون ، بل مستخلف فيه ، لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً في الكون . وراك أن تفهم أن المعطى مُعَصَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُنصَّل على المعطى ، بل هما متعادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر . ما أنك في نعمه فتشكر . وإما أنك في محنة فتصبر . وعندما تأمل العنى المستخلف في النعمة نجد أنه قد أخذ النصف الذي يخصه كشاكر ، وحُرم من النصف الآخر الإيمان وهو الصبر ، ولذلك يأتي الإسلام له بنشرع يأخذ منه بعضاً من ماله الذي حصل عليه بعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطى بعضاً من فائدة عمله للعاجر عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره ، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طُفَّ منهج الله أخذنا نصف الصبر ونصف الشكر . وعلى العاجر عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجدد الغنى وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسأل عن الفقراء ليعطيهم

وكثيراً ما يرى إنساناً عزيزاً في أزمة ، ويجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال .

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَسْطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

[الفرقة]

ومع أن المال مال الله فقد احرم سبحانه عمل الإنسان لدى يأتيه بالمال ، وطب من أن يعطى بعضاً من أحواله المحتاج ؛ ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر

سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأد الذي يعطى المال للمحتاج يقرض الله ، وله المثل الأعلى ؛ كالأب الذى يعطى مصروها لأولاده ، فيضعه كل منهم فى حصالته ، ثم تأتى للأب أزمة مالية ، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما فى حصالاتهم ، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك يجد الأب قد أحترم ما وهبه من المال لأولاده ؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى أحترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله ، وطلب منه أن يقرضه .

وهى هذا ميزة للغنى والفقر ، فالغنى بأحد ميرة وشرف أنه أعطى لله ، والفقر أخذ ميرة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير فالغنى ليس له ركن فى إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغنى والغنى حين يعطى جزءاً من ماله فهو يستغنى عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغنى عن الشيء وتستغنى بالشيء . والحق سبحانه وتعالى مستغنى عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى العنى صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغنى عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان

والمثال الذى أقوم به دائماً ، يوضح ذلك لنفرض أن رجلاً عبده جعل من ذهب وثناء فى صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فهى فائدة جل الذهب هذا ؟ إنه لا يسوى شيئاً . إذن فالمال ليس غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يجمع الغنى ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعدد إلى المال وظيفته فى أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشتري بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه فى أكمل ما ينفعك ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة في العمل ، حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجد فائض من مال للزكاة .

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذي يكبه الإنسان في الدنيا ماء الإنسان ، حتى يعمل كل ما على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله وعندما يريد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لا تحب أن يفارقك المال لرائد ، وفي الوقت نفسه تحرم على أن تنفق فيما ينفعك ، فبرشلك الحق إلى إتفاق بعض المال في خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لأخرك .

إذن : فأنت محتاج إلى انصديق ببعض من المال الزائد لتحسن آخرتك والفقير محتاج إلى بعض من المال الرائد عن حاجتك ليعيش . فكلكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى أحترم عمل الإنسان ، فحعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل .

وعلى سبيل المثال : إن عشر الإنسان على كثر فزكاته عشرون في المائة <sup>(١)</sup> . وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هي عشرة في المائة <sup>(٢)</sup> . أما إذا كان ورق الإنسان من عمل يومي كالتجارة ، فالزكاة هي اثنان ونصف في المائة ، ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان في عمله قلَّت الزكاة . وكلما قلَّ عمل الإنسان فيما يكسب ، زادت الزكاة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك .

(١) زكاة الفطر هو ما يسمى بزكاة الزكاة ، ويدقار ﷺ ١ وفي الزكاة الخمس أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبي هريرة . والزكاة هو ما ركز في باطن الأرض من معدن وأحجار وغير ذلك

(٢) في هذا تفصيل ، فالقدر الذي يجب إخراجه يختلف باختلاف السقي ، فما سقى بنون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج (أي ١٠٪) أما إن سقى بالآلة أو بماء مشري ، ففيه نصف العشر (أي ٥٪) ، ودليل هذا قول رسول الله ﷺ : « فيما سقى السماء والعيون ، أو كان عشرين العشر ، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه البخاري (١٤٨٣) عن ابن عمر .

هالذي يبني عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ،  
ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد  
إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات  
الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها  
لانتهاه أجله .

إذن : فالمجتمع كله يستفيد من بناء اعمارة ، حتى ولو لم يكن في مال  
صاحبها أن يهد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذي  
يأتي بالمال ، وينسون أن الله هو الذي ييسره لهم ، ويُمكنهم منه . وبلغتنا  
سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تلتف الزرع وتُصَيِّعُ تعب من قاموا  
بالحرث والبذر ولَسَقَى ؛ لعلنا ملتفت إلى أن كل شيء يتم بإرادة الله ،  
وليس بالأسباب وحدها

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، بلغتنا أيضاً لفئة أخرى فيبارك في  
زرع في بلد آخر أو مكان آخر ، فهذا هلك محصول القمح في دولة ،  
كادت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشتري هؤلاء من  
هؤلاء ، أو ترسل لسول التي جاءها محصول وفير إلى الدول التي هلك  
فيها الرزق كمعونة أو إعانة ، وبذلك تتعادل سبل الحياة

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطانا القدرة ،  
ولا أحد يستطيع أن يعطي القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى . فالقدرة  
المطلقة هي لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّرُ بعضاً من أثر قدرته إلى  
خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِزَّ إنساناً آخر في حَمْلِ شيء ثقيل  
لا يستطيع صاحبه أن يحمله .

وَفَرَّقْ بَيْنَ أَنْ تَسْرِعَ أَنْتَ بِأَثَرِ قُوَّتِكَ ، وَبَيْنَ أَنْ تَهْبِطَ الْعِيرَ هَذِهِ الْقُوَّةُ .  
فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء .

المال - إذن - لا ينفق بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء الدافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال . إذن . المال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم . ولذلك يعتبر به الإنسان . والمثال أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، فمجدهم يحرصون على لقاء الأب في أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقى الأيام . أما إذا كان المصروف في كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم في كل يوم

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما في صدور الناس ؛ ولذلك يُلهم القادر إلى ضرورة أن يُخرج بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب .

ومعنى يعيش في عالم أغبار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً . ولذلك نجد القادر يمتلىء بالقلق إن رأى عاجزاً . وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ۖ ... ﴾ (١٤) [التوبة]

إذن : فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التي قد تصيبه ، وتزكّي الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة غزواً وريادة وإن بدت في ظاهرها على أنها نقص فالمائة جيه " تصبح سعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهي عكس الربا الذي قد نصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه ريادة ،

(١) هذا مال فقط ، وليس معناه أن من معه مائة جنيه يجب فيها الزكاة ، فزكاة المال له نصيب محدد قدره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عنها الخمول

ولكنه يحق كل خير ، وظاهر الرِّكَاء أنها نقص ، ولكنها في حقيقتها ثناء .  
ولسماء أن يترقى الشيء في مراتب الكمال ، فينمر طهارة ، وينمر نزكية ،  
وينمر بالريادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على  
ضروريات الحياة وكمالياتها ، فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما  
طال ، قصير . ولا بد أن يأتي يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . في هذه  
المنطقة يكون ما كُتِبَ من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى  
آخرتك إلا ما أنفقت في سبيل الله ، أي أن ما أنفقت هو ما يبقى لك في  
عالم الخلود لا يفارقت ولا تفارقه . وشاء الحق أن يضاعف لك الجراء  
والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ : يقول ابن آدم : مالي مالي . وهل لك يا ابن  
آدم من مالك إلا ما أكلت فأأسيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت  
فأنقيت ؟<sup>(١)</sup>

إذن : فالذي يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن  
يتعدى به مجرد الوجود في الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن  
يمشق المال - إذا أراد أن يقيه - عليه في الصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال  
للسيدة عائشة رضي الله عنها : « تصدقي بلحمها » . وكأيت السيدة عائشة  
رصوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكنف ، فتصدق  
بلحم الشاة كلها ، وأبقت قطعة من لحم الكنف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وأحمد في مسنده (٢٤/٤٦) والترمذي في سننه (٢٣٤٢) والسنن في سننه (٢٣٨/٦) عن عبد الله بن الشخير .



والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟  
قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قومي أبقيتها كلها  
إلا كتفها »<sup>(١)</sup>

ودلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقي . وما أبقيته لهما هو  
الذي سيفي . وهكذا سمي رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذي يحب صحة ماله في الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه  
صدقة للفقير والمحتاج . ليسارك الله له في الدنيا ، ويجره خير الثواب في  
الآخرة . وقد سأل رجل الإمام علياً رضي الله عنه : أريد أن أعرف هل  
أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال الإمام علي كرم الله وجهه :  
اجواب عندك أنت ، لا عدي ، انظر إذا دخل عبيك من يعطيك ، ودخل  
عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؟ أيهما تحب ؟ إن  
كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من  
يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسانتك إلى  
الآخرة ، وأم من يعطيك فيزيلك من الدنيا ولا يعطي آخرتك شيئاً

ونقول للذي يحب المال اجعل حبك للمال يقيه لك فترة أطول من  
عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هي المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما  
الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك بكن لك خيراً في الآخرة .

ويديل الحق الآية بقوله . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي . أنه سبحانه  
وتعالى يضع الأشياء في موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١١)

[ الملك ]

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد بن مسدد (٥٠/٦) والترمذي (٢٤٧٠) وقال هذا حديث  
صحيح وأخرجه أبو يعقوب بن خزيمة (٢٣/٥) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال  
الرسول ﷺ ما بقي منها إلا قلب ما بقي منها إلا كتفها قال « بقي كلها غير كتفها »

وأما الحكمة فيدبر بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين عني وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فاصد في الدين ، لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قصاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فسق كل واحد ما في شيء ؛ أنا أنقن شيئاً ولا أعرف الباقي ، وغيري يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقي فأكون في حاجة إلى عمل غيري ، وغيري يحتاج عملي ، وبذلك يصير الربط بيننا ربطاً حاجة وربطاً رزق ، لا ربطاً تفضل وتطوع .

إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخلق بقدر ما تتطلب الخلافة في الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نوع ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النوع ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوي مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة ، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد ونوفيقهم ، ثم البركة في الرزق وغير ذلك

إنك لو وضعت لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ نجد أن مجموع كل إنسان في النهاية يتساوى مع مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملك المال ولا يخرجوه منه ركة أو صدقة ، مماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمي روال السعة عن هؤلاء ولكن إن عادت بعمه القادر العني على من لا نعمة عنده ، بهذ يجعل العاجز الفقير مُحِباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ العني

القوة ، حُرْمُ العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله في تلك النعمة سبعود على الفقير بعض منها .

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من العس ، فقد يأخذها تلصصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهه ، أو ربما دسعه الخلد والحسد إلى أن يقتله أو يثأمر على قتله .

إذن فالركاة في المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها وهي ضرورة من ضروريات الحياة . ولذلك رأينا القادرين في المجتمعات التي لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شُرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك نجد في معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذي فرضها هو الحق سبحانه بقوله . ﴿ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

وقد تُفرض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لا يحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشفى بها مجتمع القادرين من مجتمع لعاجزين ، ويخرج من يقول : نكس تأمروا شرهم لاند أن يعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

وهكذا نجد أن تشريعات الشر لا تأتي إلا بعد أن يشفى المجتمع لفترة صويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

من الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب  
للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء . ولذلك شرع الدين ورُتب أحكامه  
لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع .  
وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛  
لذلك كان من بين أسمائها ، « السورة المحمودة » ؛ لأن المنافق ربما يستر  
كفره ، ويضغظ الله هذا الكفر بأن يحمر عليه ليخرجه . والله المثل الأعلى  
قالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من  
صفات المنافقين الكثير .

لقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ اٰذُنٌ لِّي .. ﴾ (٤٩) [التوبة]

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ .. ﴾ (٧٥) [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقٰتِ ... ﴾ (٥٨) [التوبة]

ولذلك يسمونها " مآهم اتوبة " . وهذا بين الحق صورة جديدة  
للمنافقين وتصرفاتهم فيقول :

﴿ وَمِنْهُمْ اٰلِیْنَ یُوْذُوْنَ النَّبِیَّ وَیَقُولُوْنَ هُوَ اٰذُنٌ  
مَّلْ اٰذُنٌ خَیْرٌ لَّكُمْ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَیُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِیْنَ  
وَرَحْمَةً لِّلَّذِیْنَ ءٰمَنُوْا مِنْكُمْ وَالَّذِیْنَ یُوْذُوْنَ رَسُوْلَ اللّٰهِ هُمْ  
عَنَابُ اَیْمٍ ﴿١١﴾ ﴾

وتعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد البؤة ، وكان بعض الكفار  
يقرلون ما حكاه القرآن على أنفسهم :

﴿ النَّهْمُ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ  
أَوْ إِنَّا بِعَذَابٍ إِلَيْهِمْ ﴾ (٣٢) [الأنفال]

وهذا دعاء من لا عقل به ، ولو كانوا يعقلون لقالوا ، إن كان هذا الحق  
من عندك فأهبطنا يدرب إليه ، أو اجعلنا تؤمن به . ولكم من قرط حقدهم  
وضلالهم ، تمس العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول  
الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه (١) :

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم  
السادة ، وهم أصحاب الصد الذين يخافون أن يلحق بهم هذا السبي  
نفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الصغفاء . والصغفاء - كما  
نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين  
يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل  
خوف الصغفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من  
الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل : أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ،  
وعمر بن الخطاب وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء  
قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم

﴿ وَمَا تَرْكُ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا ﴾ (٢٧) [هود]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣١١٧/٤) : هذه الآية نزلت في عتاب بن بشير ، قال : إنما محمد  
أذن يقين كل ما قيل له . وقيل : هو نزل في الحارث . قاله ابن إسحاق .

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة ، أما قبل لرسالة فكان في بطر  
الجميع هو : الأمين والصادق والمؤمن .

ومن العجيب أنهم ، بعد أن نزل الوحي ، كانوا لا يستأمون أحداً مثلما  
يستأمون محمداً ﷺ ، فإذا كن هناك شيء ثمين عند الكافرين المعارضين ،  
ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض  
لا يفسره إلا وثوقهم في أخلاقه ﷺ ورغم ذلك كانوا في غيظ وكمد ؛  
لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القاتل ما جاء على ألسنتهم  
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٢١)

[ الرخوف ]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن ، بعد أن اعترفوا بسلوكهم  
بأمانة محمد ﷺ ، ولكنهم اعرضوا على اختيار الحق سبحانه له ، وعموا لو  
كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم (١) ورد الحق سبحانه عليهم :  
﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا ... ﴾ (٢٢)

[ الرخوف ]

وفي هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم في اختيار  
من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذي يختار . وهو  
الذي قسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وإذا كان لأحد  
نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر  
أو من فواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

(١) القرينان هنا مكة والطائف وقد اختلف العلماء في تحديد الرجل العظيم المقصود . فسي مكة  
الوليد بن المغيرة أو حنيفة بن ربيعة ومن الطائف عروة بن مسعود أو عمير بن عبد المطلب ، قال ابن  
كثير في تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » .

وهما يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن ، فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر في المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فيأذئ النبي رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالته الخير ، إذن : فمن الطبيعي أن يكون للنبي أعداء .  
واحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَسِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... ﴾ (٦٦) [الأنعام]

بل إن كل من يحصن من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأحياء التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه في مبرات النبوة ، وكل من له أعداء وبفسوم بهداية لناس إلى منهج الله ، يقول لا تنتزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثل إيذاء المنافقين له ﷺ في عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أَعْدَى ﴾

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة . فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هي التي يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيباً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث «أذن» ، ونسمى اللص الذى يتعدى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جراحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معومات ، وتحرنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نحمد الحق سبحانه يميناً على خلقه ، فيقول:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [الحل]

والشكر لا يكون إلا على انعمة ، فكان وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطت العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أطلق على الإنسان اسم جراحه من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجراحة هى العمدة فيه ، فكان قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ هو سبب للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : «احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف بفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يصدق كل شيء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يحصى القوم الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامة «فلان ودنى» أى يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله . ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر يهتدى أهل الأرض ، إذن : فهو خير للناس كلهم وحتى إذا



أخذنا كلامهم في أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير بهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أَذُنٌ خَيْرٌ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحي . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاوٍ له ، وإن كان عمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن بغيضة ؛ فإنها الكمال كله في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من حلقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التي استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض .

فإذا كن المتأفقون قد قالوا (هُوَ أَذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذي تعمونه عليه ، فهو قد يسمع بسوءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويمفر عنكم

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تزفونه وترهقونه ؟

وفي اللغة ما يسمونه " القول بالموجب " ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمَلٍ آخر ، فإن كان هناك إنسان بكثرة الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلت عليك ، ويرد عليه أنت أثقلت كما على <sup>(١)</sup> بأياديك ، أي أن أفضالك عسى كثيرة . وإن قال لك واحد : أنا طولت عليك ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت على ، أي : أعطيتني نعمة بأنك أسعدتني بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال .

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكان أدبه تتحكم في كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به . وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١) الكاهل هو ما بين كفى الإنسان

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تحاه من يسمعه ، وقالوا . إنه ﷺ ﴿ أَدْنُ ﴾ ، ورد الحق سبحانه ﴿ قُلْ أَدْنُ خَيْرٌ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ، لأن "أَدْنُ" عندهم غير ﴿ أَدْنُ ﴾ التي أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض الصميين . إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أَدْنُ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمعين والاختيار . لكن لتلفت إلى أن الحق قد قال ﴿ أَدْنُ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاع وطبقه ، وما سمعه من الناس ، عرضه على منهج الله ، فإن وافق المنهج فله ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أَدْنُ للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتي من رسالته إلا الخير لمن اتبعه

ولكن ماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى . أَدْنُ خير للمؤمنين ، وقال ﴿ أَدْنُ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ؟ ، لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدت المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار . فكان رسول الله ﷺ لا يوضح مافقاً ، إلا إذا فصح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد في سبيل الله ، ويطلبون الإذن بالعودة . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلمون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يوضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ، لأن تحلفه الكريم أبي أن يوضحهم أمام الناس . أم الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً :

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لذيئ الحق إذ . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَدُّ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف لرسول أنه أدن سماعة والله يقول : إنه أدن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب " ، أى أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير والمثل أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على السنة المتأقنين حين قالوا

﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .. ﴾ (٨) [الناقلون]

كانوا يفصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون وواقعهم الحق سبحانه وتعالى عني ما قالوا ؛ نعم سيُخرج منها الأعز الأذل . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال -

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (٨) [الناقلون]

فكان الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم . ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أى : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصوده هنا أن تريد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل تماماً كما يأتي الخارص لسجين يشعر

بطمأ شديد وبلع في طلب كوب ماء فيقول له الحارس سأحضر لك كوب الماء ، وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سيال ما يريد ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يصرعه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض من يد البداية إحضر كوب الماء .

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يريد ذلة المنافقين ، فوافهم على أن رسول الله ﷺ "أذن" ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال

﴿ أَذُنٌ حَيْرُنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم .

إذن : فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ . أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه . ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا ونلاحظ أن هناك احتلاماً بين قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وبين قوله عز وجل : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فبالسبب للإيمان بالله جاء بالبلاء في قوله : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وبالسبب للمؤمنين جاء باللام في قوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى : يصدق بوحوده ، المنافقون كفره بالله ، ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين . أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم حظ الرجعة إن كانوا يروون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لصاعت هيبتهم تماماً وإن فكر أحدهم في ترك التصاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة في ذلك ؛ لأن أحداً لم

يصدقهم . ولكن أراد ﷻ أن يستترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷻ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة ولباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى ، ﴿ رِيزْصُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت من آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون

﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . . ﴾ (٧) ﴿ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى صدقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول . أمّا بالله . فأنت تعنى أنك قد امتت بالدات بكل صفات الكمال فيها ، وحين تقول . آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون

ومادة "أمن" تدور كلها حول الأمن ولطمأينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعددة . مثلاً تقول : "أمنت الطريق" أى : أطمأنتت إلى أنه لن يصيبى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام بنبيه :

﴿ قَالَ هَلْ مَكُّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ . . ﴾ (٦٤) ﴿ [يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فتم يرعوا الأمانة . فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه امن اللازمة . أم المتعددية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . . . ﴾ (١) ﴿ [قرش]

والخوف متعدد في أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من محاطر الطريق ، إذن : فالأس هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه في الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة .

وقوله تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات ، وإيمان بالمهج ، وإيمان بسبع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكان الإيمان هنا قد تعددت جوبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثاني . وقوله سبحانه ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال "أمتي أمتي" <sup>(١)</sup> وهو رحمة لهم في الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذي يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتي بالخير ، والرحمة إنما تأتي باتقاء الضرر .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿شُعَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٧)﴾

[الاسراء]

الشعاء يعني أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتي المرض ، فكان رسول الله ﷺ يشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم رقاية فلا يصيبهم شر في الدنيا ولا نار في الآخرة

ويتساءل بعض الناس : لقد قل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ والمنافقون قد آمنوا بالسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فغيزلهم في جهنم .

(١) حديث الشعاء حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) ومسلم في صحيحه (١٩٤١) من حديث أبي هريرة أنه ﷺ يأتي تحت العرش ليبيع ما جرداً ثم يبيع الله عليه من محابه وحسن الثناء عليه شيئاً لم يمتعه على أحد قبله . ثم يقال ، يا محمد أربع رأسك ، سل نعطه ونشفع فنسمع ، فأربع رأسى فأقول : يارب أمتي أمتي

ثم يقول سبحانه وتعالى

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لم يكن بالمراحمية ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ من المنافقين في قلوبهم وفيما بينهم في مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلُمُّون في الصدقات ، ويقولون : إنه أدُّ ، ويحلفون له كذباً يصلُّونه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتي الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ  
أَعْلَمُ أَن يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ 'يحلفون' ، ولم ترد مادة 'يحلف' في سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفي سورة النساء مرة ، وفي سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما في سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفي سورة القلم جاءت 'حلاف' ، حتى إن سورة التوبة سميت 'سورة يحلف' <sup>(١)</sup> ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿يحلفون﴾ في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ وفي هذا إصرار من المنافقين على الخيـب كذباً ، وهو ما يوضح غيابهم وعدم قطعـهم .

(١) هذه السورة لها أسماء كثيرة فهي : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والخاصرة ، لأنها حلفت عن اللوم للمنافقين . وقال حذيفة : هي سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها بشقيقة . وقال الطحاوي بن يزيد : كانت تدعى طيغرة ، ويقال لها : السورة ، ويقال لها : البعثة ، لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان في علوم القرآن لمرزكشي (٢/١٦٩) .

وأيضاً يقول الحق .

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنَرْضَوْا عَنْهُمْ .. ﴾ (٩٥) [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ، أى فى المستقبل ، أى . أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولما كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن كان سحلف ولكنا لم نحلف . ولكنهم ورغم مرور الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة "حلف" هى القسم أو اليمين . وحين نتمس فى القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على ايمين لصدقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة :

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴾ (٨٩) [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين : يكون الحلف كذباً ، لأن لبي يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل "حلف" فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَطْعُمْ كُلَّ حَلِافٍ مَّهِينٍ ﴾ (١١) [الأنعام]

الحلف هنا مقصود به القسم لكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلْقَسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم ﴾ أى . أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمتأقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقبة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يرضوه ﴾ إذن . فهم يحلفون لترضوا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو



لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفت من عدالته أبداً

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرضى الله في كل معاملة له مع البشر ؛ ويستفي رضاه ويحاف من غصه ؛ ذلك هو المؤمن الحق

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ وكان القاسم اللعوى على حسب كلام البشر أن يقول : والله ورسوله أحق أن ترضوهما . وشاء الحق أن يأتي بها ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن لرسول ﷺ لا يأتي بالقرآن من عنده ، ولكنه رضى من عند الله . ورضا الرسول هو اتباع المتبع الذي فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ الدِّينَ يُبَاقِيُونَكَ إِنَّمَا يُبَاقِيُونَ اللَّهَ ... ﴾ (١)

[ الفتح ]

ويقول سبحانه

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. ﴾ (٢١)

[ ان عمران ]

ويقول سبحانه

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴾ (٨)

[ النساء ]

إذن فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد .

بذن يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فلما يرضى الله يرضى الرسول ﷺ ، وما يعصب الله يُعْصَبُ الرسول <sup>(١)</sup>

(١) وقد جاء هذا في حديث سفيان عنه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . أخرجه البخاري (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥)

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا يجعل أحداً مع الله ، وإنما يجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعدم ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله . « وقعت على الخير »<sup>(١)</sup> انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذي يثنى على رجل يقف أمامه : إني لا أتوب إلى محمد ، وإنما أتوب إلى الله .

وعول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ كُنَّا نَؤْمِنُ بِأَيِّ : إِنْ كَانَ إِيْمَانُهُمْ حَقِيقَةً ، وَلَيْسَ نِفَاقًا .

إذن نحن لا نطلب لرضا من خلق الله ، ولكن بطلبه من الله . ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وجد الضمير ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما<sup>(٢)</sup>

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُكَادِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
قَاتِلُهُمْ فَإِنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ

الْعَظِيمُ ﴿ ١٢ ﴾

(١) عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ : « عرف الحق لأهله » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/٣) قال الهيثمي في المجمع (١٩٩/١٠) وفيه محمد بن منصوب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح وقد ضعف الحفاظ العراقي إسناده الحديث في تخريجهم للإحياء (٢٢٠/١)

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه أفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبي ثلاثة تفسيرات ثم قال : « وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه في رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله . ﴾ [ النساء : ٨٠ ] وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية رقب ، ثم يقول : « عرف وأما حرف : مرضى إليه فلا بأمرنا إلا بحير » . انظر تفسير القرطبي (٣٦١٩/١)

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، ففهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم ، فإذا قلت لإنسان : أَلَمْ تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتحلُّف هذا الإنسان عن العلم

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أهلها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموه وألا تزول عن خواطرهم أبداً . وسبق أن قلنا إن الاستفهام فيه نهي ، والهمزة همزة استفهام ولم تأت للنهي ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النهي يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان أَلَمْ أكرمك ؟ كأنك أكرمه عدة مرات وهو منكّر لذلك

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ، لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ ﴾ ما معنى يحادد ؟ يجد في الريف أن أهل الريف يصنعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذي يوصل بين حق وحق ويسمونها حساً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله في جانب وهم في جانب ، وبذلك لا يعيشون في معية الله ولا يعملون بعبدة الإيمان به سبحانه ولا يطفون مسجده بل يجعلون حداً بينهم وبين ما أمر به الله

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا : ﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعني : يعادي ، وقالوا : بمعنى يشاقق ، أي يجعل نفسه في شق والله ورسوله ودينه في شق آخر . أو يحارب دين الله فيكون هو في وجهة ودين الله

في وجهة أخرى<sup>(١)</sup> وهناك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد"،  
فحد السيف هو الجزء المقاطع منه الذي يفصل أى شئ بقطعه إلى جزئين ،  
فكان الذي يحادد هو من يحارب مبهج الله ورسوله فهو لا يكفر بالله  
فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليحمل خلق الله يكفرون أيضاً

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً في جانب  
الإيمان ، ولا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . ولأحكام الشرع تسمى  
حدوداً ، أى : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به  
الحقوق والأوامر

ومبهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهي ، لأن منهج الدين  
كله في "افعل" و "لا تفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن  
يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ... ﴾ (١٦٧)

[المائدة]

ويقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ... ﴾ (٣٧٩)

[المائدة]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللطمين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و ﴿ تَقْرُبُوهَا ﴾  
ويقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهي فلا  
تقترب من المنهى عنه

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من  
الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال :

﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ... ﴾ (١٩)

[الأعراف]

(١) وقد جمع بين كثير هذه المعنى كلها في تفسيره دلاية فقال : " أى شاق وحاربه وحالعه وكان في  
حد والله ورسوله في حد " انظر تفسير ابن كثير (٣٦٦/٢)

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمر الخنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغواء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما مظهر الشجرة . وقد تعريهما راثحتها . وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربن من هذه المعريات كنهن فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكتم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَلْصَابُ وَالْأَوَّلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... ﴾ (٩)

[المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أى : لا تقرب أى مكان فيه خمر<sup>(١)</sup> ؛ لأن وجود الإنسان فى مكان فيه خمر قد يوحى إليه بتناولها . وقد يجد من الخالسين من يحاول إغواء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن . فالحق سبحانه يريد أن يقى النفس المزمه من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها

ويقول سبحانه فى أدب الاعتكاف :

﴿ وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ . ﴾ (١٨٢)

[البقرة]

المهى عنه هنا هو المباشرة . أى : إن تواجدت الزوجة مع زوجها فى المسجد ، فليس فى هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الروح<sup>(٢)</sup> ، ثم

(١) ومن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله الخمر وشاربها ومأقربها وبائعها ومبتاعها ومعاشرها ومعتصمها وحاملها وناقلها إليه . أخرجه أحمد فى مسنده (٩٧/٣) وأبو داود فى سننه (٣٦٧٤) والحاكم فى مستدركه شامداً وقال ولم يخرجاه والطبرانى فى الصغير (٢٦٩/١)

(٢) لأمر الملقى عليه عند العشاء أن اعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً فى مسجده . ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثب فيه ولا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الحاجة أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشمل بشيء سوى عتكافه ولا يعود ليرى لكن يسأل عنه وهو ملو هو طريقه . انظر تفسير ابن كثير (١/٢٢٤)

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل :  
فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فلا تقربوها ... ﴾ (١٨٧) [البقرة]

إذن : ههنا نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، مطلوب من المسلم ألا يقرب  
منه ، أى : لا تكن أنت ونشئ الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل  
عليك أن تتعد عن المكان ؛ لأن لمعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن  
الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها

أما فى الأوامر ؛ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فلا تعتدوها ﴾ . وعلى  
سبيل المثال . إن نشأ خلاف بين لزوجين وفشلت كل محاولات الصلح  
بينهما ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقِمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ  
حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ... ﴾ (٢٢٩) [البقرة]

إذن : فى الأوامر يقول الحق ﴿ فلا تعتدوها ﴾ ، وفى النهى يقول  
سبحانه : ﴿ فلا تقربوها ﴾

وهما فى الآية التى نحن بصدد حواظنا عليها ينذر الحق سبحانه وتعالى  
الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِىَّ حَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ  
الْحَرَى الْعَظِيمُ ﴾ والإمداد هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظروهم ليس  
هو العذاب الحسى فقط ، ولكنه عذاب فيه حرى وهوان ، مثلاً بعض  
الناس قد يتحمل ويشجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذي يعمدهم الله به في الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه حري  
وهو . ويتمثل الحزى في أن التكبر في الدنيا يأتى إلى الآخرة ويهاد أمام  
الخلق جميعاً ، ويكفى خيراً أن يكون في النار . والمؤمنون الذين تكبر  
عليهم في الدنيا يعيشون في نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها  
حسرة

ثم يوضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ  
تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي أَخَشِى اللَّهَ مَخَرَجٌ  
مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦١﴾

والحذر معناه الامتنع لئلا يدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال :  
يقال من يسافر في طريق محموف بالأخضر ، نخذ حذرنا وأنت تدير في  
هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً  
يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع لعرق . إذن فالحذر هو  
الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن ، ما كانت السورة تنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون  
ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم : لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ،  
ولأن آيات سابقة نزلت تضع ما يحبثونه في نفوسهم . فهم دائماً تحائفون  
من أن تنزل آية جديدة توضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليهم بما في نصوصهم ،  
ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يحشون أن يخرج ما في  
بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم -  
محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضي أو بالمستقبل ،  
فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه  
من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتي في المستقبل ،  
فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو  
حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن في القاهرة فنحن  
لا نعلم ما يحدث في الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هناك كل هذه  
الحجب في القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمثلة  
كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِحِجَابِ الْقُرْبَىٰ إِذْ قُصِّيتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ  
الشَّاهِدِينَ ﴾ (١٤)

[النصر]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (١٥)

[النصر]

فكان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضي ،  
ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ  
هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٦)

[هود]



وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقل ، فقال :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَانَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ ۖ ﴾ (١٤٧) [الفره]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة<sup>(١)</sup> ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة - وأيضاً مال الحق من أمثلة كشف حجب المستقل .

﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ (١٤٨) [الفره]

وقد نزلت هذه الآية ولستمون يلافون عدائاً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا ؟<sup>(٢)</sup>

وعندما حدثت عزرة بدر قال عمر صدقت يا ربى ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجب المستقل حين قال : ﴿ غُيِبَتْ الرُّومُ ۚ ﴾ (٢) فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون (٣) فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويتجدد ففرح المؤمنون (٤) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (٥) [الروم]

أى أن الله تبارك وتعالى أعصى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث سنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الرزمكي : « السير هنا يستمر » لأن ذلك إنما يزل بعد توليهم - ( ما ولاهم ) ، حجب من ليس إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال ، انظر البرهان فى علوم القرآن (٤ / ٢٨٠)

(٢) ذكر ابن كثير فى تفسيره : « عراء لابن ابن حاتم (٢٦٦/٤) عن حكيم قال : لما رأت ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ قال قال عمر : أى جمع بهم ؟ أى جمع يطلب ؟ قال عمر : « مما كان يوم بدر وأبى رسول الله ﷺ يشب لى الدرع وهو يقول ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ » صرحت فأوضحها بوحد .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث في أعماق النفس . وما يدور في صدور  
الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إسان .  
إن سرّك الدائى مقصوح عند الله ، والمثل على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ (٨) [المجادل]

هم قالوا في أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ  
عما قالوه في أنفسهم وأعدوا أنه كذب . ولكنهم لم يكذبوا رسول الله فيما  
أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا في حذر ، وكان  
يعلم على ظهم صدق رسول الله

والمثل هو قول الحق هنا . ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ  
بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ (١١) [التوبة]

وإن كن الحضر منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا يُرسل  
عبي قرأناً ، فالحق يُبَلِّغ رسوله أن يرد عليهم : ﴿ قُلْ اسْتَهِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ  
مَا تَحْذَرُونَ ﴾ (١٦) [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا

فِتْنَى وَنُلْعَبُ قُلْ أَيْلَهُمْ وَعَإْيَتُهُمْ وَرَسُولُهُمْ كُنْتُمْ

تَسْتَهْزِئُونَ ﴿ ٢٥ ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله : هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب في مجالسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد غوص ولعب ، وكلام مجانس لا قيمة له <sup>(١)</sup> .

واخوض أن تدخل نفسك في مسائل ، مثل الذي يخوض في الماء أو يخوض في الطين ، وقد أطلق على كل خوض ، ثم اقتصر على الخوض في الباطل ، أي : أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب

ويقول الله لرسوله ﴿ قُلْ أَطِيعُوا أَمْرِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَسُولِي ﴾ كُتِبَ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿ أَيْ : إِذَا قَالُوا لَكَ : إِنَّ هَذَا حَدِيثٌ نَسِيئَةٌ وَلَعِبٌ : فَالْعِبْ هُوَ أَمْرٌ لَا فَتْدَةَ مِنْهُ إِلَّا قَتْلُ الْوَقْتِ ، قُلْ . أَلَسْ عِنْدَكُمْ إِلَّا الْأَسْتَهْزَاءُ بَأْيَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ تَقْتُلُونَ بِهِ الْوَقْتَ ؟ فَهَلْ فِي هَذِهِ أَسْأَلٍ خَوْصٍ وَلَعِبٍ ؟ ثُمَّ يَعْطِبُهُمُ اللَّهُ لِحُكْمِهِ .

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ

عَنْ سَأْفَتِكُمْ مِنْكُمْ نَعِيبٌ طَائِفَةٌ بِأَنْتُمْ كَانُوا

مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم حاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعني : أنكم أيها المنافقون قد فضحتكم أنفسكم ، لأنكم كنتم تعلمون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن يمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان .

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين في غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قريتنا هؤلاء أربع بطوناً ولا أكذب أسماً ولا أجبن عند اللقاء ، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال خوف من مالك . كذب والكذب صفة لأحد رسول الله ﷺ فذهب خوفه بغيره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب مائة ، فقال : يا رسول الله ، فما كنا نخوض ونعب ونحن نحدث بحديث الركب تقطع به عام الطريق . انظر أسباب النزول - بلو حدى ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما في نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التي ستتوب توبة صادقة ، والتي لم تشرك في هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بقوا على نفاقهم وجرائمهم والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أي قطعها ، وسمى إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أي الذين قطعوا وأقمهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ٢٧

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس بها على لاثوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُ عَنِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) [الحجرات]  
وفوه تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَى ... ﴾ (٢٧) [الحجرات]

أما بقي الأحكام فتتصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث في الأحكام لأن الأنوثة مسببة على السُّتْر في لذكورة . ولكنه كان لا بد لها من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . . ولذلك كان لابد من النص على المداققات

وقول الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر في الخسة والقبح والفضائح ، ويحده الله حسابهم في قوله تعالى ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُكْرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل انسان معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا يعقوبون في سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإتفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل ينسى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليقه فساهم الله أى أهملهم ، فمن يبعد عن الله يردده الله بُتدأ ، مصداقاً لقوله تعالى .

﴿ لِي لِقُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ ۝١١ ﴾ [البقرة]

وإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك سباً ، ويختتم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطى الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما يعرف - مأخوذة من نفاق اليربوع ، وهو حيوان يشبه الغار ويسكن في الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً في الأرض ؛ له باطن ، وإن ترصد له الصائد عند أحدهما خرج من الثاني ، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والعسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛ وهو مأخوذ من « فسقت الرطب »

أى انفصلت القشرة عن الثمرة والقشرة كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثمرة ؛ فإذا فسدت عنها تلت الثمرة ، والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتي الله بما أعدّه للمنافقين فيقول .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ  
نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

والوعد للجير والرعيد للشر ، ويقال . « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان نستخدم كلمة « وعده » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يترفع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس . وهذا استهزاء بالمنافيين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَسْتَمِثَرُوا بِعَاقَتِهِمْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ . ﴾ (٢٩) [الكهف]

كان الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيئاتهم الغوث ثم يقلب عليهم ويجعله ماء يعلى ويشوى وجوههم - واعباد بالله - ونلاحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدّم المنافقين والمناقصات على الكفار ، وهذا يؤيد قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (٤٤)

وهي تقول الحق سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل كيف يكون ذلك ؟

ويقول: إن الكافر بكفره قد أعطاه مناعة ؛ لأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فامناه ، ويستطيع أن يلحق بنا شراً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أحذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فيها ، وقد تكون طعنته قاتلة

والعدو الخفي كما نعلم شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، كما لا تأخذ الحذر من العدو الخفي ، وهو يعرف ما في نفسي ، ويعرف كل تحركاتي ، ويستطيع أن يغدر بي في أي وقت دون أن أكون متنبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم بعش ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يجنون عدداً من ضعف الإيمان ليطعنوا في هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هي القاتلة وهي المؤثرة

هنا نلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً في النار إلا في ثلاث آيات فقط في القرآن الكريم.

في قوله تعالى : ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٦) [النساء]

وقوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ نَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (١٦٦) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُرُونَ لَهُنَّ وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٦٧) [الأعراف]

وقوله جل جلاله : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ دَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (١٦٧) [الحجر]

ولكنه ذكر الخلود في الجنة أبداً مرات كثيرة<sup>(١)</sup>.

وتقول : إن الجنة هي ثُغرى النعيم للمؤمنين ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤس خلقه بالنعيم الذى يستظرونهم ، ولكن بالنسبة للدار فهي دار عذاب ، وثأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يذكر الخلود في النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا في ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿خَالِدِينَ﴾ هو ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت في النار ؛ لذلك يُذكّرهم بأنه خلود أبدي . وفى نفس الوقت ثأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك في كل آية تُذكر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكن عاصي ، علّه يتوب ويرجع إلى الله.

واحق سبحانه يقول :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَنُفِيرٌ﴾ (١٦٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٦٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَرَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّحْدُودٌ﴾ (١٦٨) [هود]

(١) ذكر الخلود في الجنة أبداً في ٨ مواضع من القرآن الكريم [النساء ٥٧ ، ١٢٢] ، ر بائدة [١١٩] ، [التوبة ١٢ ، ١١٠] ، [الصف ٩] ، [الملاق ١١] ، [البقرة ٨]



ونار الحديث بين المستشرقين . كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتي في هذه الآيات ويستثنى ويقول : ﴿إلا ما شاء ربك﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ويقول : إن الدين يشيرون هذا الاعتراض لم يمهوا القرآن ولا المصح ، فالدين سيدخلون النار قسمان . قسم آمن ولكنه عصي وارتكب سيئات ؛ فُعذَّب في النار على قدر سيئاته ، ثم يُخرجهُ الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قدر سيئاته ، والثاني يبقى خالداً فيها لأنه كافر أو منافق .

إذن فالمؤمن العاصي لا يدخل في النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إلا ما شاء ربك﴾ لأنه لن يبقى في النار إلا بقدر سيئاته ، فكان حلوه في النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها ؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة .

أما الكافر والمنافق فهم خالدان في النار لا يخرجان منها ، فكان هناك من يدخل النار ولا يكرر حلوه فيها أبدياً ، وهذا هو المؤمن العاصي . وهناك من يدخل النار ويدخل فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق .

وإذ جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها حالداً أبداً ؛ أي منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذي غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن حلوه فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصي ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليحازى بمعاصيه

إذن ، فالمؤمن العاصي حلوه في النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً . وكذلك يفقد الخلود في الجنة فور انتهاء حصة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه ، فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة <sup>(١)</sup> .

وقول الحق عن خلود السابقين في النار ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أى تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأبى إنسان قوى ويقول لك اتركه لى ، أنت وحدى كفى لك أن تؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أى يكفيه هذا ، لستم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسحاته ونعالي يريد أن يلفسها إلى أنها تكفيهم ، أى : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كاف جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق : ﴿ وَلَهُمْ اللَّهُ ﴾ أى : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يصل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا ، وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يتب في الدنيا هو عذاب مقيم في الآخرة .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب ليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُسَجِّداً له

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦) : « هذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصارى معنى جديلاً فى كتابه « فتح الرحمن » يكشف ما يلتبس فى القرآن ، ص ١٩٥ قال : « هو استثناء من الخلود فى عذاب أهل النار ، ومن الخلود من تعيم أهل الجنة ، لأن أهل النار لا يدخلون فى عذابها وحده ، بل يدخلون بالمهرير ، ومنوع آخر من العذاب ، وهو هو أشد من ذلك ، وهو سحق الله عليهم وأهل الجنة لا يدخلون فى عذابها وحده ، بل ينعون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك »

كبيره يتحمل الألم الشديد ولا يظهر ما يعاني ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوان هو إيلاء النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتَجَلِّدُ فِئَاهُ بُجْرٌ عَلَى وَجْهِهِ وَيُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التي نصيبه بعذاب نفس أكثر من العذاب البدني ، فقد تأتي لكبير قوم ونهيبه أمام أتباعه ، أو لأب وتهنه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاًماً لنفسه من أن تضربه .

وهو الحق سبحانه وتعالى ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : عذاب دائم ، فإن كان اليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخَفَّفُ أبداً ، وإن كان مهيباً تسقى الإهانة مستمرة ولا تروى أبداً . وفي كلتا الحالتين هو عذاب يبه إقامه وفيه دوام واستمرار .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للمخارجين عن منهجه

﴿ كَذَّبَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً  
وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ  
بِمَخَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ  
وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ  
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣١)

وهنا يُذَكِّرُهُمْ سبحانه بمواكب الكفر التي صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المراكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولا يؤيده صد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنكفئين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله

﴿ وَالصَّخْرَ (١) وَالْيَالَ فُجْرٍ (٢) وَالشَّعِيعَ وَالْوُثْرَ (٣) وَالْيَلَّ إِذَا بَسْرَ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ حَجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالرَّادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسٌ مُّسَدِّدٌ (١٤) ﴾ [النمل]

ونحن سم شهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله . ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ ، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد . وقد يتساءل بعض الناس أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم ؟ . ونقول إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يعصها لأحد حتى الآن

وإذا نظرنا إلى الفرعة مثلاً نجد أن الحق سبحانه ونعالي قد وصفهم في القرآن بقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ . والأهرامات أوتاد ، ولسلات أوتاد ، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن ، هناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن ، مثل سر التحنيط وساء الأهرام ، فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض ، دون أية مواد مشتمة ، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هراماً مبيحاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد

مشيئة ، ومع ذلك فهؤلاء المرعنة لم يستطيعوا أن يسردوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أحداً عزيز مقتدر . وجاءت الرمال قدونت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يسهر الدنيا كلها . وإذا بالعلم كله يأتي ليشارك حصاره القراءة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقى في العلم . فإذا كانت هذه هي حضارة كـ فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدعونة في باطن الأرض . ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها في زمن قادم يرداد فيه بُعد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم في الحصار ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن في الكون ، مسيطر عليه ؛ حيث ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إرم ذات العماد ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوي شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم .

وإن سأل سائل . أين هي حضارة ﴿ إرم ذات العماد ﴾ ؟ نقول له إنها في وادي الأحقاف<sup>(١)</sup> ولهية الواحدة من الرياح في هذا الوادي تترى قافلة بأكملها ؛ أي إذا هبّ ريح ، فإن الرمال لا تدارى لطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبت على المكان الذي كانت تقطنه ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فأحمت حصارتهم ؟ لا بد إذن من حضارات على مستوى عميق جداً سطر على تلك الحصاره ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تترام فوق

(١) الأحقاف هي صحراء مرمية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عدا تزل بها والأحقاف في اللغة من ما أعرج من الرمال واستطال

الأثر بن إنا نرى البيوت القديمة في القرى ، لا بد أن تنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من عبء الطريق . فإذا كان هذا هو عمس الرياح العادية في وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير في أرمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك بإغلاقاً مُحْكَمًا ، وعُدَّتْ بعد شهر واحد تجدد الأثاث ببعض طبقة من التراب ، فإن عَمَّتْ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُتْرَك كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾ أى . أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضارياً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حصارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل . كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خدماً ينسبها ؛ لأمك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم في حجرة ، يقال عنهم . « كثير » . فإذا أحدث كل واحد منهم ووضعتهم في مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم في الماضي مسكوباً بآماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم في حيزهم الذي يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التي كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير، أى أن نصيب الفرد كان أكبر، وكذلك الأولاد

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ ﴾ والخلاق هو انصيب أو الحظ الذي يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه .

﴿ فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ (٢٠٠) [البقرة]

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى نالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضعهم عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيهم لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفقى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويؤقيه أجره فى الآخرة .

ولذلك يجد بعضاً من المؤمنين يسألون - كيف يكون الكمار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويريد ، للفرحة أنهم فى بعض السلاسل يلمون بالمائنص فى البحر ، بينما تجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم - إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب " و " عطاء للإله " ، فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربى ، وأمدنا بالأنفوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط - لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أحد المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها ويتقى لها التقوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنزها لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد حصه الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هنا عطاء العبادة يجرى به الإنسان فى الآخرة ، والذي

يأخذ العطاء من هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستعمل أسباب الحياة  
فيعطيه الله خير الدسا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمهجع  
الله ، فيعطيه الله النعيم في الآخرة

والأسباب في الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على  
المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الصالح والعاصى : لأن هذا عطاء  
ربوبية . من أحسن استخداماً أعطاه بصرف الطر عن الطاعة أو المعصية .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَدْ مَتَّ إِلَيَّ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءً مُنْثَوْرًا ﴾ [المراد]

لمادا ؟ لأنك عملت للدسا وحدها . وكنت تعمل لفعل إنك محترع  
أو مكتشف . أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة أو النفود والحاء في  
دنيا ، ولكلك لم تكرر تعمل وفي بانك الله .

وبعض ناس يأنى يقول لك : هل الذى اكتشف علاجاً لميكروب كان  
يفت بلبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا بما أسعد البشرية كلها ،  
أبكون هذا كافرأ ويُعدَّب فى لئار ؟

نقول له : نعم ، لأنه فعل هذا وليس فى بانه الله . وإنما فعله وفى بانه  
الحصول على لمجد أو مال أو النفوذ فى الأرض ، ولذلك أعطاه الله ، ما  
عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ ينرس فى المدارس ،  
وأعطوه الشاش وأظنفوا اسمه على الشوارع والمادين .

فما دم قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره فى الدنيا ،  
ولكن الذى عمل وفى بانه الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ  
فى الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضارياً ، حتى إنك  
الآن فى بعض الدول المتقدمة تصعط ورأ يعطى لك القهوة أو الشاي ،



وأخر يعطيك الصعام . . نقول . إن هذا كله متاع الأسباب ، فقيل أن  
تصعظ أنت هذا الزر ، كان هاك بشر أعدوا لك الفهوة أو الطعام ، والآلة  
أوصلته إليك

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكمولوجياً فلن يأتي اليوم الذي يجعل شيء  
يخطر بآلت فتجده أمامك . . ولكنك في اجنة بمجرد أن يخطر الشيء على  
بآلك تجده أمامك " ، لأن عطاء الديق عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء  
سبب .

فأله سبحانه وتعالى أعطانا الاحبير والأسباب في الديق ، ولكن في  
الآخرة يأتي لك الشيء بلا عمل ، محتالاً في مذاقه ورائحته عن الدنيا  
إذن . فالذي يعمل وفي بآله الأسباب فقط يعطي في الدنيا ، والذي  
يعمل وفي بآله خالق الأسباب يعطي في الحياتين ؛ ولذلك قال الحق  
سبحانه وتعالى

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ  
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ... ﴾ (٣٦) [النور]

والسرآب الذي تمشى له متخيلاً أنه ماء فآلك حين نصل إليه لا تجد  
شيئاً ، هكذا الكافر يوم القامة ، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه  
الذي لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال له : أحرك عن عملك له .  
وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر في الآخرة ، لأن الله هو الذي  
يحرك في الآخرة

(١) ورد في هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ " إنا لننظر إلى الظير في  
الجنة تشتهي به فخر بين يديك مشوياً " أخرجه البرار ( ٣٥٣٢ - كشف الأستار ) فيه حميد بن  
عطاء الأعرج قال الهيثمي في المجمع ( ١٠٤ / ١٠ ) ضعيف ولكن قال الذهبي في الميزان  
( ١٣٧ / ٢ ) متروك فاحسب ضعيف .

وهذا يقول الحق سبحانه ﴿ فَاَسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَاَسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ ﴾ أى : أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا ، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب ؛ لأن النصيب فى الآخرة يأتى بـ « افعل » و « لا تفعل » فى التكليف ، فإذا فعلت الاثنين ترتقى ، دليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب ، ولم ينسوا المسبب بل حرموا الأسباب بقيم المسبب فى « افعل » و « لا تفعل » ؛ سلكوا الدنبا ألف سنة ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة ، ولئن رالت الحصار من أم الإسلام سياسياً ، فقد بقى ذيبهم فى نفوسهم ، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام فقد بقى مثرة هادية ، رغم ضعف المسلمين سياسياً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَاَسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَاَسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ ﴾ أى . أخذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب ، ولكن تذكروا أنه استمتع موقوف بزمن لا يملكه الإنسان ؛ لأن عمر لفرد فى الدنيا هو عمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها ؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتى من بعدك . وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله . هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام ؟ إذن : همرك فى الذنب مقلنون موقوف ، نعمتك لأسباب الدنيا محدود المدة ، بمقدار عمرك فى الدنيا

وهب أن عمرك طال وصرت من المعمرين سوف ينتهى حتماً

ويقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ ﴾ أى . أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم ، وكلما فعلوا إثمأ فعلتم إثمأ ، وهم خاضوا فى الأسياء ، وأنتم حصتم أيضاً فى الاتبياء ، فأنتم شركاء لذين ذهبوا من

قل لكم في انكم أخذتم بفسادكم وحطكم في الدنيا ، ولم تدعوا للاخرة شيئاً ، بل لكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالبطل إذن . فانتم أخذتم بالمقدمات مثلهم ففقدتكم إلى نفس النتائج

﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ أي : فشلت وخسعت أعمالكم في الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم في الدنيا وكانوا قسمين . قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدياره ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً في الآخرة

بالذين حبطت أعمالهم في الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشردوا وغنمت أموالهم بأيدي المؤمنين ، فكانهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ، وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أي الخسران المحيط بطرفي الزمن ، الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَبْتَغِ الْوَعْدَ مِنَ قِبَلِهِمْ فَهُمْ كَمَا  
وَعَدُوا وَهُمْ لَا يَخْلِفُونَ وَأَصْحَابُ الْمَدِينِ  
وَالْمُؤْتَفِكُونَ أَتَنْتَبِهُونَ ۚ  
كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
يُظْلِمُونَ ۝ ٧ ﴾

وبعد أن ذكر الحق في الآية السابعة القضية العامة في قوله ﴿فَكُنَّا  
اسْتَمْتَعُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ﴾ جاء في هذه الآية بالأعلام والأشخاص  
وهم الرسل ومن عاداهم فقل : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وساعة  
يقول : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فيها همزة لاستفهام ، ولام النفي ، والهمزة تنفي هذا  
النفي ، أي أتاهم نبأ هؤلاء . وحين ينفي النفي في أمر فالمراد إثبات الأمر ،  
وأنت لا تستهمم الاستفهام الإنكاري ، إلا وأنت راقب من أن الجواب عند  
من نسأله هو : « نعم » ، فحين تقول للإنسان : أنت تحليت عسى في  
محتسى . فيقول : ألم أزرك في يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصب مع  
أبيك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شيء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً  
حقيقياً

ونلاحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للمغيبه فقال : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ولم  
يقل : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » ، فسبحانه يحاط بهم ترفيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة  
ثانية وكأنهم غائبون . وكان هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ في  
غيبتهم ، فهو ﷺ حريص على هدايتهم

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والنبا هو الخبر الهام ونحن لا نقول  
عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من  
انبؤة ، والنبؤة واصحة ظاهرة وليست مطموسة ، ولذلك فكل شيء هام  
ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ لِنَبَاِهِ  
مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

[النبا]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة .

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التي كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التي تكلم فيها عنهم غيباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالعوفان وكان قوم نوح كلف مروا عليه وهو يصع السفينة سحروا به ، وفي ذلك بقول الحق سبحانه وتعالى رداً على من سحروا من نوح :

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٧٨) [نوح]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سرف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هي من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله بهم

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط ومعنى المؤتفك أى المنقلب وقد جعل الله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمُؤْتَفِكَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَعُشَاهَا مَا عُشِيَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج]

أى : كانت عالية فأنزلها للهوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

﴿ اجْنُبْنَا لَأُفِكَاتٍ عَنِ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٦٦)

[الأحزاب]

أى . لتصرفنا عنهم

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ أَنتَهُمُ رُسُلُهُمْ بَآيَاتٍ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أنتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمهيج فقط ، بل جاءتهم معجرات تثبت صدق بلاغ إرسى عن ربهم ، فكانه لا حجة لهم أن ينصروا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مؤيد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته . وقد تابع هؤلاء الرسل على لشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، وبيبوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان معزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض فى زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، براها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان يزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال ، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود فى بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جداً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأرمين وكل الأمكنة .

وحين يقول سبحانه : ﴿ أَتَنْهَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبيّنات هي الشّيء الذي يبين لك ما هو الحقّ ، والمعجرات التي صاحبت الرّسالات السماوية بيّنت وأكّدت أنّ الرّسول مُبلّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً لبرّها كلّ قوم رؤية تسمع باستماعها . ولذلك كان كلّ رسول يأتي بآية يُجمع الكلّ على أنها معجزة . هأت قد تأتي شيء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة ، فعندما اختُرع الفانوس السحري ، قال بعض الناس : إنه شيء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لا بد أن تستوعبها كلّ مستويات العقول ، تستوعبها المتعلم والذي لم يقرأ حرفاً في حياته ، لأنّ الدين دين فطرة يحاطب أكرّ العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوي الذي يقصّي حبه كلّها في الصحراء ، لا يعرف شيئاً ولم يمشّ حضارة ولم يدرس علماً

إذن . فالمعجرات لا بد أن تكون واضحة نكل المستويات ، حتى لا يكون هناك عذر لأحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أنّ الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كلّ العقول قد فهمت وأيقنت أنّ هناك معجزة . والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلّموا أنفسهم ، لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وحققوا أنّها خرقٌ بقوانين الكون ولا يمكن أن يأتي به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان

ويقول الحقّ عنهم ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأى حق ذلك الذي نعنه إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب للإيمان به وعبادته

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُرَيْن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ لياخذ لذة عاجله ويحرمها من نعيم دائم . وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور " ؛ هذا الذي يصبر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى في عين ذلك الذي شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه في قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يصبره ؛ لأنه يريد أن يسقطه في نظر الناس . وفي نظر هذا الذي شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على حَصْمِهِ ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ  
وَيُرْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ  
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصِفَ فيها المنافقون في قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ... ﴾ (٦٧) [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الصمد بالضمد ؛ لأن قياس لصد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبي بكره قال قال النبي ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ (ثلاثاً) قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَهَقْرُ الْوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مَتَكِّئاً فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » قال فما زال يكررها حتى قلنا : بُيْتُهُ سَكَبَ ! أسرجه البخاري في صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧) .



يُمدح مخبئته فيقول:

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيَضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ  
ضِدَّانَ مَا اسْتَجَمَعَا حَسَنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الصُّدِّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعائبهم ، وحثهم فيما يحفرون ، وحثهم فيما يعمدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات لكن السفال هنا احتجب في شيء ؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال  
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات  
وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كلهم متشابهون ومسلوكلهم  
مبنى على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً . وبما أنهم قد أقاموا  
عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من يصححهم بالخير  
أو يحاول ردّهم عن انفاق ، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقلته مبنية على الاقتناع وعلى الخير فإن وُجد في مؤمن  
شر ؛ فويته من المؤمنين بعبء عن الشر وبعبء إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن  
النفس البشرية بها أبعاد متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام  
الالتزام بمنهج الله في كل شيء . بل هناك خصلة ضعف في كل نفس  
شرية فإن وُجد في المؤمن ضعف بأولياؤه من المؤمنين يُسيئون له نقطة  
ضعفه ويُصْروْه ويُنْصَحون له ، ويُرد في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُبْه  
غيره ويُبْصِرُه ، وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر  
في نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل بهن الجميع ،  
ومن يقصر في شيء يجد القريب منه ؛ وهو يسد الشفرة الطارئة في سلوكه .

أما المذنبون فصعبهم الحق ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يشافرون عن مكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لم يبين لى من المولى ومن الموالى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ، لأن الولاية مأخوذة من ( يلىه ) أى صار قريباً ، وصلها عاداه أى يحد عنه وتركه إذن : الموالاة صدها لعدوة وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أحيه المؤمن فى الأمر الذى هو صعب فيه .

فإذا كنت صعباً فى أمر ما ، فأخى المؤمن بصرتى فيه وما دام أخى المؤمن بصرتى فى أمر ما ، فإن صار هو صعباً فى شىء أنصره أنا فيه ، فتفاعل وتشكامل ويصحح كل منا ولياً وموالى

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَالْعَصْرُ﴾ (٦) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٧) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيُؤْتُوا بِالنِّقَمِ (٨) ﴿١٠﴾ [العصر]

ولو قل «وصوا» لكان هناك أناس يؤصون وأناس يتواصرون ، لكن الحق قال ﴿وتواصوا﴾ ومعناه أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت بوصيى وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعل فأنت مؤمن وإن كانت منك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن

إذن : فكل واحد منا مؤمن وموصى . كذلك الولاية فأنت ولى ، أى قريب منى تنصرتنى فى ضعفى ، وأنا وليك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أعباء ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر

والولاية تكون أيضاً في الحق ، فقد أميل إلى الباطل في نقطة ويقول لى  
أحرى المؤسس : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له اعدل وهكذا  
يتكامل الإيدين ؛ ولذلك نجد كلمة الولاية بمعنى القرب والمصرة في قول  
الحق في داته :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ ﴾ (٤٤) [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقي والقرب الحقيقي لله ؛ لأننا نعيش في عالم  
أعيار ، فقد نطلب لنصر عدى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد  
فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده  
القوى دائماً ، واغنى دائماً ، لدى يُغَيَّر ولا يتغير ، وعندما يبصرك الله  
فهذا هو النصر الحقيقي الدائم لا نصر الأعيار .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول . ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) [يونس]

أى أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء الله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢٥٧) [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً ، ومرة يكون موالىً ، لأن  
وَلِيَّتِ اللَّهُ بِطَاعَتِكَ بِرَأْيِكَ سبحانه بنصره . ويقول تعالى :

﴿ إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ بِنَصْرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) [سجدة]

أى إذا تقررت إلى الله بطاعته وبصرة مسهجه ، فهو يقرب منك في  
أزماتك ويبصرك وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكَ .

إذن : فالولاية في الأصل هي القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر  
فلا بد أن تكون هناك نقطة ضعف في مؤمن ، ونقطة قوة في مؤمن آخر ،

ولكن من الذي سيكون في ضعف دائماً ، أو في قوة دائماً ؟ لا أحد إذن : فكل واحد يتصر ، وكل واحد يتصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أُولَئِكَ بَعْضُ ﴾ ولم يعين البعض : فكل واحد صالح لأن يكون ماصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَهَآؤُلَآئِكَ نَزَّلَ هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ﴾ (٤١)

[الزحرف]

إذن . فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وعجازه ولكنهم لا يؤمنون ، لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ قَسَمْنَا بِهٖمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا ... ﴾ (٣٢)

[الزحرف]

و شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل مبكم لساذه والعبيد ، ويجعل منكم لأعنياء والفقراء ، وذلك في أمور الدين ، فإذ كنتم تريدون أن تقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معاشيكم ، لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذي قسمها بينكم ، وحياتكم في الدنيا تتبع فوائين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التي هي حق لله سبحانه وتعالى وحده .

ونلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مسهمه ، فإن كلاً منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب ولكن كلاً ما متمير في ناحية وغير متمير في ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم في الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فون الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه في شيء فلا بد أن يسأل نفسه : هي أي الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفي أي الأشياء الناس أحسن مني ؟

وتقول له . أنت تتفن عملاً معيماً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن في باقي الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا في الشيء الذي لا أجيد مرفوع عني ، وفي الشيء الذي أجيد مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد في كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ وَرَفَعْت بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾

ولكن الأمة أننا لا ننظر في الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غنى وهذا فقير ، ولكس لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة في الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضاً إذا أخذ درجة عالية في رابطة ، فإنه قد بأحد صمراً في رابطة أخرى . ومجموع كل إنسان هي بهايه الأمر يساوي مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتفوق . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك في شيء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك في أي مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك

إذن فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولا بد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يهيد المجتمع بموهبته ، وربما كان معه للمجتمع خيراً من معه

لنفسه انظر إلى الحجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب وتوافد للناس ، أما  
لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب لدى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد  
الذي لا يتهاضى عليه أحراً .

ولقد صرنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، وعند غالبية الناس نجد أن  
اليد اليمنى تؤدي الأعمال بسهولة ، ويسرى تراولها ببطء وتعثر ، فإذا  
أردب أن تقصر أطراف يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص يمينك وتقصر أطراف  
اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص شمالك وتتعثر في قص أطراف اليد  
اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة بل هو يفتن  
شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تسوى مجموع  
مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهي يتدخل هنا ، فيجد - على سبيل المثال - لرجل اغنى  
الذي يأكل حبراً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتي عليه وقت من  
الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السس . وتجد من يسرب  
في الطعام ؛ لا بد أن يأتي عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ، لأنه أخذ  
مه أكثر من حقه . وتكون صحته في أن يحرم والحق سبحانه وتعالى  
رضع نظاماً كونياً يساعد فيه الجميع ؛ لكي يلتحم الجميع نأت نحتاج لى  
فيما نفعه وأنا أحتاج إليك فيما تنفعه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون  
المجتمع السليم

ولذلك يقال : الناس بحر ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يحتلوا وأصبحوا  
صحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كنا قضاء  
مثلاً ، ممن الذي يعالج المريض ؟ ومن الذي يحفر لأرض ؟ ومن الذي  
يحمل الطوب ؟ ومن الذي يظف الطريق ؟ إننا لو تشبهنا في الموهبة

أو لشراء أو العمل لمن يجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كسا أطفء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعت أن نعيش ، بل لاند أن نحتسب لأكون أنا محتاحاً لك وأنت محتج لي . وبذلك يماسك المجتمع ، وتُقصى مصالح الكون سبب الحاجة ، وليس بالتمفضل بين الناس .

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فإذا فعل مؤمن منكرًا ؛ جاء أخوه المؤمن فنهذه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف وكل واحد منا به عن منكر ، ومهى عن مكر

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت نهيه عنه ، فلا يمكن أن تكون في يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التي في يده ، لا يمكن ، إذ أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذي يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذي ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه " فكل مؤمن أمر ومأمور بالمعروف . ومناه عن المنكر .

ويصف الحق وصفاً للمؤمنين ﴿ وَيُصِمُّونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وإقامة الصلاة هي إعلان الولاء للحالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ، ولكن من وليهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولي الأعلى الذي لا يستغنى عنه جميعاً .

(١) عن أبيه من يده فدا ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول " نوبى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، وتدنق أقدام بطه " فيدبر بها كما يدبر الخمار في الرحا ، فحسبتم إليه أهل النار فيصرون يا فلان منك ؟ ثم يك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول " لم يك أمم بالمعروف ولا تنهى عن المنكر وتنهى " أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) كتاب بطن أمها

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا.

﴿ إِن تَصُرُّوا اللَّهَ يَصُرُّكُمْ ... ﴾ (٧)

[محمد]

إذن . فلا بد أن تتجه جميعاً إلى الوالي " الكبير " فهو سبحانه فوق أسبابا ، وفوق قوتنا وهو الذي يصيرنا إن عرَّبَ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فلجأ للمولى الكبير وما دمت الولاية لله الحق ، فلا بد أن سندم في ولايت له سبحانه وتعالى واستندمة لولاء لا نكون إلا بالصلاة وساعة نسمع المؤذن يقول : " الله أكبر " تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة ، فلا بد أن تحجب الدعوة "

فيذا أحسيت أن تريد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائماً قاعل ، بعد أن تكون قد أدَّيتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد ، وحين تُعرض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم فمن هذا صلاح الإنسان . وأنت إن جئتَ بأى آلة وجعلتَ المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات قلن تعطب أنداً .

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان بكتشاف نقص في الوصلات الكهربائية أو كسر في أى شيء ، فالمادة يصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه

(١) الوالي من أسماء الله عز وجل وهو مالك لأشباه جميعه يتصرف فيها قال ابن الأثير وكان الولاية تشعر بالتقدير والقدرة والفعل

(٢) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ رجل أعشى فقال يا رسول الله إنه يسألني قائد بقروني إلى المسجد فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له فلما ولى دعاء فصل " من سمع النداء بالصلاة ؟ قال نعم قال " هج " أخرجه مسلم في صحيحه (٦٥٣)



عيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالعبادة ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصبى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أى كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة " ، لأن أسبابه سم تستطيع أن تفعل شيئاً لئلا يتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل ولذلك كان ﷺ يقول لئلا . أرحم بها يا بلال " كان الراحة بها ، أى . اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة

لذلك كان لا بد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ لأن الصلاة اسدادة لولاء الله ، والحق تبارك وتعالى يريد أن نكون مرصولين به سبحانه ، وهذه الصلاة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه لنا مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي الله إلا فعلت

ولكى تعرف المرقى بين سيادة الله وسيادة الشجر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شيء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أساساً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . فإذا قال نعم ، يسألك عم مستكلم فيه . فإذا قلت : إنك مستكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لا يهوى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى لمقابلة مع ربك .

(١) عن حديثه باب : " كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى " أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود فى مسنده (١٣١٩)

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٦٤/٥) وأبو داود فى مسنده (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة

ويقول رسول الله ﷺ : « لا يعمل الله حتى تملوا »<sup>(١)</sup>.

والحق جل حلاله لا يشعله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عبادة في وقت واحد ، ويستمتع إليهم في وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد .

ويقوله سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار ؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطى ، وفي الزكاة استملاء حياة من ستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه تستيقظ له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة . وأنت تساعد على استملاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء ما للفقير ، والمال يأتي بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن فأنت ضحيته بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفي الصلاة ضحيته بوقتك في أوقات محددة .

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلمماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ ؟

نقول : الله سبحانه يبيننا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان<sup>(١)</sup> ممتنع عنه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢) ومسلم في صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هي كل الإسلام . بل هي القواعد التي بُني عليها الإسلام ، لأن رسول الله ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس » (١) . إذن ، هذه هي الأعمدة أو الأسس التي بُني عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة في الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسجد ولا تشقى ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نهمهم أن للإسلام ليس فقط بالأسس التي وصفت ، ولكن لا بد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به في كل حركة الحياة

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشيء الذي تستعبد به تجده وليد حركات متعاقبة بمن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أحداً أسقط الأشياء وهي وضع خميرة في عجيبة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أنك أحداً ما جيلاً عن جيل ، والذي بدأها الهمم الله يحدث يقع أو يحطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة في العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء فالبنسدين عبي سبيل المثال - اكتُشِفَت نتيجة خطأ وقاعدة أرشميدس إلى بيت عليها نظرية لعواصم اكتُشِفَت نتيجة ملاحظة ألهمه الله لأرشميدس - وحين يأتي ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدي خلقه إلى هذا الكشف ولو كان يحطأ يقع منهم

ومثال آخر : ما الذي جعلت تفهم أن اللحم حيي يضح عبي السار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذي جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدايا إليه الله

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

﴿الذى خلق فسوى (٧) والذى قدر فهدى (٨)﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما تمنع به من حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛  
ولذلك من يأتى ليقول : سأنقطع لعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه  
وتعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦)﴾ [الداريات]

يقول : سوافقك على انقطاعك للصلاة و لصوم فقط . ولكنك لكى  
تصلى ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلى وإلا فسيستحيل  
عليك أداء الصلاة . هب أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتى  
بهذا الرغيف ؟ من البقال . ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين  
جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من  
محزون لملال . ومن أين جاء المخزون بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى  
بمحاريث وآلات من المصانع لكى يححرث الأرض ، وجاء بالآلات لكى  
يسقى .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدت بحركة غيرك ،  
وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة من الحياة تعينك على أداء  
العبادة هي عبادة .

ومثال آخر : لكى تصلى لابد أن تستر عورتك فى الصلاة ، إذن :  
فأنت تحتاج إلى فماش تأتى به من الناجر ، والتاجر أسمى به من مصنع  
للسيح ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع العزل ، ومصنع العزل أتى  
بالقطن من الحلج ، والمحبج جاء به من الحقل ، والحقل جئت له معامل  
الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويبقى القطن من الآفات . كل هذه هي من  
حركات الحياة التى مكنتك أن تستر عورتك فى الصلاة ، وكل منها عبادة .

إذن . كان من الضروري أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد  
﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . . . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة  
عليهم أن يطيعوا الله في الإسلام الذي بنى على هذه الأركان .

ثم يقول الحق . ﴿ أَوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين  
والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن  
المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتوا الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء  
سيرحمهم الله . وأيهب أبلغ أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال  
سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال . ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لأن السين تهتك ستار الرمن :  
وبذلك يحيا المؤمن دائماً في رحمة الله التي لا تقطع

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات  
فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٩٦) [مريم]

أي أن الود سيكون مستمراً ، حتى من اسمع إلى هذه الآية ثم مات ،  
إنه أيضاً يتفتح بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (٥٠) [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء  
الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول . سأنتقم  
منك ، أي : أن الانتقام سيستمر مع الرمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ سِرِّحُمْهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة هي حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة في المخلوق ؛ لأن تتراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما لرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفت الكمال التي لا تنهاى ولا تنتهى . ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشعباء أن يوجد داء فيسمى ؛ ولذلك نقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وسرل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ﴾ (٥٦) [ الإسراء ]

والأنت يزدبان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي تُشقى الإنسان ، وهناك سلامه من أول الأمر وهناك سلامة ليست من أول الأمر ومن عنده حصة سيئة وهي داء يشفي منها لقرون ، أما الرحمة فهي ألا يأتى داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ثملة

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ إذا الله عزيز حكيم ﴾ ومعنى عزيز . أنه غالب على أمره ، وما يريد به يقع ؛ ولا يُعَلَب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جسوت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، بعزبه عزته أن يصمى لكن الله عزيز حكيم ، وعزبه ليس فيها ظلم ولا ظلميان ، ولكنها بحكمة إلهية .

ويأتى بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم في الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى :

١) عن ابن جرير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : اجعل الله لرحمة مائة جزء ، فأملك عنه تسعة وتسعين ، وأمر في الأرض بمرأ واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولف ، خشية أن تصيبه . متفق عليه أخرجه البخاري عن صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم بن صحيحه (٢٧١٢)

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ  
فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ  
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

والوعد بشارة بحير يأتي زمانه بعد الكلام . والوعيد إنذار بسوء يأتي بعد الكلام .

ان وعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل ؛ حتى يتحقق له الخير الذي وُعد به . والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يفضب الله فلا يتله عذاب الله

على أنا ملاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ ثم ذكر العذاب الذي ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم وصف النعيم الذي ينتظرهم ، مع أن الشائع في اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب في عرب البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين » ؛ لأن لدى سيأتي بعد ذلك عذاب وبار وشر ، وأن يقول في المؤمنين : وعده الله لأن الذي سيأتي بعد ذلك جنة ونعيم وحير

ولكن لأسلوب جاء مخالفاً للعرف الشرى ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهي تقال دائماً للخير في حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشري ؛ لأن  
وعد بخير .

ولكن بالنسبة للمسافرين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد »  
مكان « أوعد » .

فالذي يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تنسَ كلام الله على كلام  
البشر ؛ لأن البشر يفترعون في كلامهم ملاحظاً ، ولكنها لا تقوت ولا  
تحفي على الله ، والبشر يتفاوتون في الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه  
واحد

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول .  
إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرّف المنافعين والمنافعات ، ثم تكلم عن  
جرائهم إن أصروا على نفاقهم ، كان ذلك تمديراً حتى لا يصبروا على  
النفاق محبة العذاب الذي ينتظرهم ؛ علّهم يقلعون عن النفاق ويصرفون  
إلى الخير من الإيمان .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصيحهم ، كما تقول  
لمن يهمل في دروسه : مسترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بدلت قد  
خدمت إقباله على المذاكرة وأوصيته بالوعيد إلى أن يتحب الأمر الذي  
أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى .

﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَصْبِرُونَ ﴾ (٢٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
تُكَذِّبَانِ (٢٦) ﴿

[الرحمن]

هنا الشواط من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ  
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي . فبأي نعم ربك تكذب ؟ نقول . نعم إنه نعمة ؛ لأن



الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك: إن جالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة

إذن . فحين يحذر الله السافقين والمادقات بانصير الذي ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن انعطوا وأقنعوا عن انفاك إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفي هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذي أراده الله .

وها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وابعد كما قلت بشارة بخير مستقبلي ، والوعيد إنذار بشرى يأتي في المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصبوا إلى خير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن حالوا منهج الله ؛ يفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتحبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ، استقام ميزان الحياة

ولذلك نقول للذي يذاكر إنك ستجرح ، فإن أتفتت أذاكرة حصت عني المجرع الذي يؤهلك بدخول الكليية التي تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وقُصِلت من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد . إن وقَّيتَ ما وعدت ووقَّيتَ ما توعدت ، استقام ميزان الحياة ولكن إذا جنت لإنسان لم يذاكر وأنجحبه وأعطيه أعلى الدرجات مخالفاً ذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أحلفت وعذك بدخول كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستبعد الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الحاد في حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعده أو أوعده ، لا يكون لكلامه وزن في حركة الحياة .

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ، لأننا أهل أعيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أصعب بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن . ولكي تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتي الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوي دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شيء يمكن أن يجعله لا يعي بوعده أو لا يتم وعيده ، فإذا قرأت سورة لمسه تجد الحق سبحانه يقول فيها :

﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَاتُهُ خَمَالَةٌ تَعْطَبُ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّسَدٍ ۚ (٥) ﴾

[ المسد ]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامراته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً من كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص<sup>(١)</sup> وغيرهم ؛ آمنوا وحسن إسلامهم وحاهدوا في سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد في العام السابع من الهجرة بعد عروة خير ، أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ ، أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح في صفر سنة ٨ هـ . انظر : لإصابته في مجيئ العصابة لابن حجر (٩٨/٢) ، (٢٥٨/٤) ، (٢/٥)

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أما لهب وامرأته لن يؤمن كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ يقول : إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشك في هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شيء قدير

بذلك جاءت هذه السورة ، ويعلها في المصحف الشريف في سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره واحد حتى في الأمور الاحتبارية في الحياة ، وإذا قال الله : ﴿ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ وإذا وعد بخير فإنه ميانى لا محالة ، وإذا أوعد بشر فسوف يقع حتماً

إذن : فلكى تستقيم موازين الحياة ، كان لابد أن يأتي الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأن لا أحد يشارك الله في ملكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا عالب إلا الله ؛ لأن هو الله أحد

وقد يأتي الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنث حين برع الأرض وتُحسن حرثها ، وريتها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركته بلا حرث ولا ررع ولا بذور فهي لا تعطيك شيئاً .

إذن . فالسنة الكونية هنا أعطت وعداً للذى يجده في زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطت وعيداً للذى لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها ولو اختلف لأمر ووحدا من ررع  
وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته  
الأرض من ثمارها الكثير ، لأنقلب المعايير في الكون ، وما وجدنا أحداً  
يزرع أرضه .

إذن فلكي تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعد من قادر  
على تنفيذ لا يضعف ولا يتغير وإما أن يكون سنة كوية تراها أمات في  
كل يوم ولا يقع ما هو مخالف بها فالذي يحتهد بنجح ، والذي لا يذكر  
يرسب ، سنة كوية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميران الحياة ولو لم  
تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذكر ينجح ومن يذكر  
يرسب ، احتلت حركة الحياة المثمرة الناجحة

إذن ، فميزان الوعد والوعد هو دولاب حركة الحية ، فإن احتل هذا  
الميزان وجاء الوعد مكان الوعد ؛ أي كوميء الذي لا يعمل وعوقب السي  
يعمل فسد الكون لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب الفع لنفسه ، ولا يحتلف  
في ذلك مؤمن أو عاص أو كافر ، ولكن العاصي ونكافر يحسان نفسيهما  
حياً أحقق ؛ فيحققان لها نفعاً قليلاً ومنه محدود ؛ بعذاب مستمر ومنه  
بلا حدود أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالدكاء وتعد النظر ؛ لذلك فهو حرم  
نفسه من متعة عاجلة في زمن محدود ، يحقق لها متعة أكبر في زمن لا  
ينتهي .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك والله المثل الأعلى ففك مت أن هناك  
آخرين أحدهما يستيقظ عن النوم مبكراً ، فمضى ويمطر ويأخذ كبه  
ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الانصات للمدرسين ويعود إلى البيت  
ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع في الشوارع ، وحين تُحدثه نفسه بأى منعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة .

إن كلا الآخرين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه وأعطاهما مشقة محتملة في سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثاني فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاهما المنعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يعد يساوى شيئاً في المجتمع .

إذن : فكل من يحب نفسه ، ولكن بمقاييس الحب هي التي تختلف . فمن من يأخذ المقياس السليم ، فيحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبدياً ، ومن من يعطى نفسه منعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً

والعجيب أنك تجد أن هذه هي سة الحياة الدنيا ، ولا تجد إنساناً ارتاح في حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه في سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالمة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة في أولها ليشقى بقية عمره

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب في أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره . والمثل الشائع يقول : من جاز على شابه ، أى : ضييعه فيما لا يفيد ، جرت عليه شبحوحته . والقائمون على الأمر عليهم أن يسهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يؤجلوا الوعد إلى أن تصبح الثمرة . ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع . وعلى كل ولى أمر ، فى أى مكان ، أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أسائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكي يتم الاجتهاد . ولابد من الوعد قبل أن يرمس الابن أو يضيع حياته ، فلا سطر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما الدين يرتان حركة الحياة

ولكن إذا رأيت في مجتمع ما أن الذي يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذي لا يعمل يأخذ كل شيء ، تعرف أن مبادئ العمل قد احتلت وأن المتاعب قد بدأت في المجتمع ؛ لأن الذي يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شيء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله في النفاق والرياء ، وللب الحقائق وإرصاء الذي يملك الأمر وتكون النتيجة هي فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منع ، ويصير مجتمعاً بارعاً في النفاق والرياء وضيع الحق

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة في الوعد والوعيد ؛ فلا تُعط حائراً إلا تستحق ، ولا مكافأة إلا لمجهود ؛ ولكك إذا عثرت الحوافز على المتأففين ، والدين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك في بيتك أو يقصوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافر عن الذي يعمل في جدد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة في المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويحمده ، هي حركة منع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فلماذا وجدنا من نشيط أبحر مصالح عشرات الناس ، أو موظف محلص ارتاح كل من يعاملون معه ، فإن أصعب أنت هؤلاء ، فكان المجتمع هو الذي خسر

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف -- ومنى الكهف مخارة في جبل ، والحفائو أيضاً لها كهوف -- حين صرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذِي الْقُرْبَيْنِ قَالَ

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذي يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يدخل نفسه في متاهة بالسؤال عن من يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنى ، بل ما يعنى هو أن سمعت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّه الله في الأرض <sup>(١)</sup> وهذا يتطابق على كل إنسان مكَّه الله في الأرض ؛ في أى زمان ، وفي أى مكان . ومهمة من يَكه الله في الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُوجد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لعموله تعالى

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ [الكهف]

[الكهف]

مهمته إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿قَدْ آتَيْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٥﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ۝٨٦﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ حَرَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَاقِلُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكن في الأرض ، بعد توليد الطافة من الأسباب ، هو معاقبة الطالِم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفي هذا

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٠١/٣) : قوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى أعطيه ملكاً عظيماً مُمكن فيه من جميع ما يؤتى لمُلك من التمكين والجلود وآلات الحرب والخصارات وبهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العبادا وحدته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إذا سعى ذا القرنين لأنه بلغ قُربى الشمس مشرقاً ومغرباً .

إصلاح لحركة الحياة في الدنيا ، أما في الآخرة فللظلم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيشون فساداً في الأرض لا يمكن أن يتركهم لعذاب الآخرة ، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ وهم نصرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد في المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله

إذن : فلا بد أن نُعجلَ لهم بالعقوبة في الدنيا ، لنحصى المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله في الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح في المجتمع وصلاح المجتمع بإيمانه ، فلا بد أن نجزيه خيراً وشجعاً . هذا هو قانون صلاح الكون ، وبلت هي معييره .

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أما التعبير فالك يُعبر ولا يتمير ، وأما البقاء فلا يقاء ولا دوام لعبر الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسه الأعيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول " إن شاء الله " حين تعد شيئاً لتكون صادقاً . ويقول سبحانه

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رُبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۚ ﴿٢٤﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و : إن شاء الله سأفعل كذا في العام القادم ؛ لأن الذي تعدُّ به ، قد يأتي وقت الوفاء ولا نجد عندك القدرة على أن تفعله .



فإذا قلت - مثلاً - لإنسان : ستقبل غداً في مسجد السيدة زينب رضي الله عنها وتكلم في موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغداً ؟ أو يملك من وعده أن يعيش لغداً ؟ أو أملك أن يظل سبب النقاء موجوداً ؟ يجوز أنى كنت سأقديه لأفترض منه عشرة جبهات ، وجاءني مال في أثناء الليل ، أو غيرت رأيي .

إذن . فبعضه بقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله " ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل فكل فعل إما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل .

ويحتاج كل فعل إلى معمول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرص ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كي تفعله ، وقد يعبر السبب

عن فأتت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقول سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذي يملك أن يبقيك لغداً ، أو يُبقي السبب أو يُبقي القدرة هو الله ، إذن . فكل شيء تقوته لا بد أن يقول . " إن شاء الله " ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذي يملك عناصر الفعل .

ولكن إذا كان الذي وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، تعالى لما يريد .

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأهم يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون لصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

بذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾

إذن ، فالحق سبحانه وتعالى وعده المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن جميلة مملوؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهذا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب

إذن ، فعندما جنات ، وهي لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أي مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب في هذه المساكن ؟

لما أن نلاحظ أن الإنسان يحب اشبع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص في هذا المكان مأوى طيباً خاصاً به

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي . ليس فيها ما يسئ أو يضائق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة "جنة" هي المكان الذي فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترث وتحفك عن الأعين ، أو أنها تسرك فلا تحتج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ " الجنة " على سائتين الأرض ، فقال :

﴿أَبَرُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِمَّنْ نَعْمِلُ وَأَعْتَابٍ ...﴾ (٢٦٦) [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ..﴾ (٥٧) [الأنعام]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطين صورة الجنة في الآخرة ،  
كيف يئنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،  
ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول لوجود المعروف في الكون هو الوجود الذي نراه أو نسمعه ،  
وفي هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك تسمع الذي رآه غيرك حين  
يقصه عليك إذن فالسمع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال  
غيرك فأنت إذ قلت إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً يكون قد رأيت ،  
فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة  
معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك وأما  
الأشياء التي لا تختص على بال بشر ، فهي أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ،  
لأنها أشياء فوق الخصر .

والكلمات توضع لمعان معلومة ، ألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعان  
مرتب على العين ، أو مرتب على السمع ، أو مرتب على الخاطر . فقبل أن  
يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ،  
إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك في اللغة ما  
يعبر عن شيء غير موجود ولكن الألفاظ تصاف إلى اللغة بعد وجود  
الشيء وهذه مهمة المجامع اللغوية في العالم فالأشياء توجد أولاً ، ثم  
تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء

ولكن الجنة في الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،  
فليس عندنا ألفاظ تعبر عما في جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك "ولا خطر  
على قلب بشر" تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما في جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التي وعدها بها المتقين فهو يوضح أنكم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما في جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وى يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ... ﴾ (١٥)

[محمد]

أى أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنة .

وهو يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع 'جنة' . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من السحر والتغطية اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَزَّ عَلَيْهِ إِلَهُ رَأًى كَوْنَهَا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَهَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْهَامِ ﴾ (٧٦)

[الأنعام]

يعنى : سحر وأظلم ، والجحون سحر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كسرت ولحت وترعرعت بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يحرق منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يترفض فيه ، وغيرها من النعم التي أنعم الله بها عليه

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضى القسمة لأحاد ، فيكون المعنى أن الله وعد كل مؤمن حنة ، ووعد كل مؤمنة حنة ، والأمراد متكرر

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمتها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، ثم ما مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه : أخرجوا كتبكم و "أخرجوا" أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أى أن يحرق كل تلميذ كتابه وقول المعلم "أمسكوا أقلامكم" يعنى . أن يمسك كل تلميذ قلمه

إذن فنقول الحق سبحانه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ۙ أَي . أن لكل واحد حنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الرحمن :

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۙ﴾ [الرحمن]

وهنا لا بد أن نتنبه لمعطيات الألفاظ فى سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنسان فقط ، وإنما تتكلم عن الإنسان والجن فسبحانه وتعالى يقول :

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۙ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ ۙ مِّنْ نَّارٍ ۙ﴾ (١٥) [الرحمن]

وكذلك قوله جل جلاله :

﴿سَنُفَرِّغُ لَكُمْ أَهْلَ النَّفَارَةِ ۙ﴾ [الرحمن]

إذن : فيكون للإنس حنة وللجن حنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۙ﴾ [الرحمن]

(١) الصلصال : الطين اليابس الذى يصل من جهاته أى يصدر عموماً : الخارج الشبه الساطعة ذات الذهب الشديد

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد حنتين ، لأن الحق سبحانه وتعالى علم أولاً ما سيصير إليه أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنة تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً<sup>(١)</sup> ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الخصال التي خلقت وهم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعها على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَبِذَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُوْرِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧١) [الرغوب]

أى . أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار<sup>(٢)</sup> .

وبريد الأمر هنا توضيحاً ، فإقرأ القرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتي مطابقاً للمعنى تماماً . وفى اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإسان مثلاً : أحضر لى كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

(١) عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ : لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ، لا يرداه شكره ، ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦٩) ومحمد فى مسنده (٥١٢/٢) والجنة والنار موطن باختيار الأعمال

(٢) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ما منكم من أحد إلا له منزلان ، منزل فى الجنة ومنزل فى النار . ساءت فليس من النار ، ورث أهل الجنة سره ، فذلك قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ ابْنُ دَاوُدَ﴾ أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٣٤١) . قال البوصيرى فى زوائد<sup>(٣)</sup> : إن شاء صحيح على شرط الشيخين .

إذن . فالحفاظ توجد المعاني أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهم معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً في اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم . ولعل هذا هو أكر دليل لغوي صد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

يقول لهم : إن الله موجود في كل لغة ؛ وبما أن المعنى في اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نظقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن ، فقولك : " إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة في لغتك ؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة والكفر طراً على اللفظ ، فحاول أن يسره ؛ ولذلك سمى الكفر سراً لوجود الله . والسر لا يكون إلا لوجود .

إذن فابذ كي كفر ، ستر مجرداً ؛ فأعطي دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر - والعباد بالله - تعرف لفظ الله في لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وجد لفظ " الله " سبحانه وتعالى في اللغة .

إذن فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هي دليل على وجود الله ؛ لأنك لا تستر إلا ما هو موجود

ولفظ الجنة في القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، في قوله تعالى

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْتَ أَصْحَابَ الْجَبَّةِ إِذْ أَتَوْا لِيَصْرِمُوهَا

وقوله جل جلاله -

﴿ جَعَلْنَا لَأُحَدِّثُهَا جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَافًا بِتَحْتِهَا... ﴾ (٢٢) [الكهف]

إذن فالجنة أطلقت في القرآن على المكان الذي فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذي في داخله من الخساسة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشيء في الآخرة ، لا بد أن يشبه لنا شيء منهم معناه في الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقها معان حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن الجنة الدنيا هي جنة الآخرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذي تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر

ولكن من أين أتى بالألفاظ التي يمكن أن تعبر لما عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتي بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أدن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك يبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبياً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى .

﴿ نَزَّلُ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ... ﴾ (٥) [محمد]

أي : أنها ليست هي ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهني . حد صورة من المجتمع الذي تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حبرتين وصالة ، ثم بعد ذلك



يرفاد الرقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن حص (فيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقى . إذن : فالمسألة لم تعد مكنأ تأوى إليه فقط ، بل ترتقى في الإيواء كلما ارتقيت في الحياة . فتتحقق لك المتعة في الإيواء ، وهذا موضوع آخر

وبهذا يقول الحق سبحانه . ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أى : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب في بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التي تخصه ، وفي أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس في مكان جميل ؛ مثلاً يحدث في الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ولنجس معاً ، فكأن الحيات هي لرفاهية لرائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ، أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهي للخصوصية فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله

إذن فالحيات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هي من صناعة المسبب جل وعلا

ونحن حين نذهب إلى بيت إنسان نرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستاني متمكن من عمله ؛ ويقوم بتسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا في هذه الحلة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث يجلس فيها ، ونكره أن نعادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات لبشر ، فكيف بهذه الحدائق التي صنمت بقدره الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذي وعدنا بهذه الحيات هو الحق سبحانه وتعالى وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أدن سمعت ، ولا يخطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها دروع وأرهار وأشكال ؛ تسر العين بجمالها ، وتمتع

اللمس بنعومتها ، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية ، ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجري من خلالها ، ولكنها لا تجري من فوقها بل تجري من تحتها ، ومتابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومتابعها ذاتية ، أى يشع من نفس المكان<sup>(١)</sup> . وكان كل نهر يسع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فمر جمال قد صنعته الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كما فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجري من غير شواطئ ؛ وإنما يسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض<sup>(٢)</sup> ، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء ، ونهر الخمر<sup>(٣)</sup> ، وكلها تجري فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفص ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطيه سبحانه وبعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقولون : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكدرة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

(١) ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ ٣٥ مرة ، وورد قوله تعالى : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ مرة واحدة ، فى [ النور : ١٠٠ ]

(٢) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وأمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالقاسم لرؤوف رحيم ﴾ [ الحج : ٦٥ ]

(٣) بهى أنهار أربعة : نهر لبن فى عاية البياض والحلاوة والسمومة ، ونهر عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ونهر ماء غير آسن أى غير متغير الرائحة ، ونهر سمر لا يشتال المعقول . قال صاحب كتاب « حادى الأرواح » ( ص ١٧١ ) : « نأمن اجتماع هذه الأنهار الأربعة التى هى أفصل أشربة الناس ، مهد ، شربهم وطهورهم ، وهذا بقوتهم وغنائهم » وهذا لغلتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومعتنهم .

ولكنك في جات الآخرة نستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ،  
ويريدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه  
ليس هناك أعير ، وليس هناك موت .

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع  
النعم تختلف باختلاف بيئاتهم ومقاماتهم ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل  
متعنتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت  
فيه صابون كبير ، ولثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على  
قدر إمكاناته في الدنيا ، ولكن في الآخرة نستمتع كل على قدر قدرات الحق  
سبحانه وتعالى ، ويكون متاعا بقدره لا تفوقها قدرة ، ويكون الجراء بقدر  
ما فعلت من خير في الدنيا ، واتبعت مسجع الله

إذن . فأنيت الذي تحدد المساحة التي لك في الجنة ، وتحديد المسكن  
وأنواع النعم بقدر عملك

ثم ما الذي يهددك في نعيم الدنيا ؟

الذي يهدد الناس في الدنيا أحد شيئين : إما أن نزول عنهم النعمة  
فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس  
فيها هذا السهيد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . ولذلك  
يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا يؤس<sup>(١)</sup> .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى في وصف الخلود فقال : ﴿ خالدين فيها  
أبد ﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لا تنتهي . وسبحانه حين تكلم

(١) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ : « ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تبصروا  
أبداً ، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهزوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا  
فلا تياسر أبداً » فذلك قوله عز وجل : ﴿ ويود أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾  
[الأعراف ٤٣] أخرجه مسلم في صحيحه (٧٨٣٧) وأحمد في مسنده (٢١٩/٢) (٣٨/٣٨) (٩٥)  
والترمذي في مسنده (٣٢٤٦) .

عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه و تعالى .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ مُّعَدُّوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ...﴾ (١٠٨)

[هود]

أى سماء وأى أرض تلك التى تحدث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هى السماء التى نراها ؟ إنما نعلم أن الأرض التى نعيش عليها سبيل وأن السموات مستمرة<sup>(١)</sup> ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للأخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)

[إبراهيم]

إذن ، قد دامت السموات والأرض ستتبدل ، فأنه سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض فى الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض فى الدنيا . ولكن بعض السطحين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين فى الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول .

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝﴾ (٣)

[التكوير]

فكان هذه الأرض التى نعيش فيها ، والسماء التى تظلمنا سنُدمر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ...﴾ (١٠٨)

[هود]

(١) وذلك من قوله تعالى ﴿يَوْمَ نُورِ السَّمَاءِ عُورًا﴾ [الطور ٩] ومعنى تمور أى تدور وتتحرك وتخرج من بعضها البعض

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : قرأوا القرآن كله ليعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ...﴾ (٢٨) [إبراهيم]

إذن ، هذه الأرض هي أرض معاش وما فوقها من سماء هي سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض معاد ؛ لأن الأرض التي نعيش عليها فيها معومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتضع ، أما في الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب مث ؛ ولذلك ساعة يحيطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحترق أو تررع أو تتحمل أي مشقة أما هنا في هذه الدنيا ، لأرض أرض المعاش نعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشيء فتجده أمامك . وسبحانه يقول

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فكان استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿قَامَا الَّذِينَ شَفَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٧) ﴿ [مرد]

أي : أن اخت والنار لهما خصال ، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذي يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً . وأما إن كان الذي يحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة

إذن : فالذي دخل النار أولاً خالدين : حاله أبدية وهم المنافسون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود في النار بالسيرة

لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ان شاء وخلقوا ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنة إلا بعد أن يألوا جزاءهم من العقاب . ولذلك يكون خلود عصاة المؤمنين في الجنة ناقصاً من البداية ، لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم في النار ناقص من الآخر ، لأنهم لم يدخلوها فيها .

ويقول سبحانه ﴿ وَمَسَاكِي طِبَّةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴾ أي أن مساكن المؤمنين في الجنة مسكون أيضاً بجنان خاصة بها ، وكلمة ﴿ عَدْنٍ ﴾ : مادها لعين والدال والنون معناها الإقامة ولا عَدْنٌ في المكان ، أي أقام فيه إذن . فهي جنات إقامة ، لأن هنالك فارقاً بين أن تسكن في فندق مثلاً ، أو في مكان مؤقت ، وبين أن تقيم حالداً .

وحين يعطى الحق سبحانه للمسؤول بشارى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا تنسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو قاعله . فالرجل الصغير حين ينشئ مسكناً يكون المسكن متواضعاً ؛ محدد حوائط نستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانيات الضخمة فينبى قصرأ كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذى صمم ، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذى يسك الأمور كلها ، ويأتى تنفيذها لأى شيء وفق ما يريد .

إذن . ما خلود في جنات عدن خلود دائم ، وهى جنات يعلم فيها التعظيم بدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها . والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا يتنزل منه إلا إذا زهد ما فيه ، ولو كان ما في جنات عدن مما يرهّد فيه بعد فترة ما وضعها الله بهذا الوصف

ولكى يصل الإنسان إلى السعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمنعم عليهم بالنعمة ،

وهم المؤمنون والمؤمنات ومن أطاع الله طمعاً في الحصول على نعيم الله في الآخرة ، بأحد هذا النعيم . والذي أطاع الله لدات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالنعيم .

إذن . فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادته عما فرض الله عليك ، وأحبب أن تكون دائماً في لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتهجد ، وتقرأ القرآن وتصلى والناس نيام ، وتتقن العمل الذي ترتقى به حبانك وحياة عيورك ، وتفعل ذلك محبة في الله الذي يستحق التعظيم ، فأنت تستحق استزلة الأعلى ، وهي أن تكون في معية الله ويقول سبحانه : ﴿ وَجُزْءَ يَوْمٍ نَاصِرَةٌ ﴾ (٧٣) إِلَى رَبِّهَا نَاصِرَةٌ ﴿٧٣﴾ [القيامة]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبة داته دائماً<sup>(١)</sup> ، وعدم يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

( > انظر إلى جمال هذا الموقف ، المؤمن قد تنعموا بنعيم الجنة في قصورها وبساتينها وأنهارها وفاكهتها وحرم طيرها ، ولبنتها وعسلها وبساتينها وحمرها ، حتى أنك ترى في وجوههم آثار هذا النعيم ، فيها هي ذى وجوههم مضمرة تمتلئ بهاء وجمالاً وحساناً ، وهم على هذه الحالة ينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه خائفين الخلق ، مثلك الخلق ، يبيض عيهم من نورهم ، وبهائه ورحماته ورصده ، كل الوجوه ناظرة إلى الله ، عبيدوه سجدوا له راساً يرون ، وهم يرون ، فسبحان اسمع الزوايا

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « وإن أفضبهم مهلة لينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين » أخرجه أحمد في مسنده (١٣/٢) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨٧/٥) وأخرجه أحمد أيضاً (٦٤/٢) والترمذي في سننه (٣٣٣١) لم يظف : وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غموة وحشة قال الترمذي : حيث عريب .

بارب وأى شيء أفصل من ذلك ؟ فقول : أحل عليكم رضوانى فلا  
أسخط عليكم بعده أبداً<sup>(١)</sup> .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم  
واحسانات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات  
عدن أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله  
فى هوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فالذى عمل للجنة يعطيه  
الله الجنة ، ولذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه .

وبذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت  
أشياء كثيرة ، تهدمت جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ،  
ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيهما هو الفوز العظيم ؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذى فاز بالنعيم الأول فى الجنة أحد فوزاً  
عظيماً ، والذى فاز بالمساكن الطيبة فى جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ،  
والذى أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم

ونلاحظ أن القرآن حين يمرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء فى  
باب منفصل ، والمنهج فى باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء وبين  
الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لى الجنة وما فيها من نعيم ، لا بد أن  
ينهى إلى المنهج الذى يوصل إلى إياها . وحين يعطينى صورة من المنزلة  
العالية التى تنتظر المؤمن فى الآخرة ، لا بد أن ينبهنى أيضاً إلى العذاب  
الذى ينتظر الكافر والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذى يؤدى إلى النار  
والعياذ بالله .

(١) مصق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد  
الخرى .



ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جته ورضوانه يقول:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٢)

إذن بعد أن ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشافة إلى الجنة ، فهو يُذكرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله - والله المثل الأعلى - مثلما تقول لابنك ' عندما تخرج طليبا ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقى معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُدركه بضرورة أن يجهده في المذاكرة حتى يصل إلى ما يصباه . وبذلك تكون قد حَبَّته في الغاية التي سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه في الوسيلة التي ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ والحق جلّ وعلا يخص رسوله ﷺ بالتكريم والتعظيم ، فسم يُباه به باسمه . بن قل " : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ وفي مواقع أخرى بناديه : ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ .

ولكن النداء من الحق لباقي الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى .

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَتَا وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ...﴾ (٣٥) [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿قَيْنَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ ...﴾ (٤٨) [هود]

(١) ورد في رسول الله ﷺ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ ٣ مرة في القرآن ، أما هذه ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ فقد ورد مرتين فقط

ونادى الحق إبراهيم :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّعْيَا ... ﴾ (١٠٥) [ العنكبوت ]

ونادى الحق موسى :

﴿ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ... ﴾ (١٢) [ طه ]

وخطب الحق سيدنا عيسى :

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آتَتْ قُلْتُ لِلنَّاسِ انْخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ... ﴾ (١١٦) [ المائدة ]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله ﷺ فقد ناداه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، و ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورعاً لمقامه عند ربه وما يطلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين <sup>(١)</sup> .

ونحن نعلم أن السماء لا تدخل لإرسال رسول إلا إذا فسد المجتمع مبادئاً عاماً . ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد قطرت على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهي تعمل الخير ونحوه ، فإن حَكَمَهَا هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر . وقد يطبع الإنسان هواه في أمر من الأمور ، ثم يفتيق ؛ فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هي النفس اللوامة ، التي تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتعمل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقى النفس في الشر فتصبح أمارة بالسوء ، وتأبى ألا تكتفى بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحِبُّ بههم . إذن : فمرحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك نفس التي تظمن لمهج الله وتطيعه . وهذه هي النفس المطمئنة ؛ التي يقول فيها الحق

(١) قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : « أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف » ومع المنافقين باللسان رتبة الرجز والتعليق . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٢٩)

﴿يُنَادِيهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)  
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ [المعجزة]

وإذا وجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير ؛  
لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها  
على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه  
المؤمن لينومه على ضعفه ، ويصحح له مساره ؛ ولأن فقط الضعف  
مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وجد من يلفت النظر إلى المنكر  
ويهيئ عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا  
بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف  
وينهى عن المنكر ، من نجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ،  
حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليحيد للحق مكانه في الدنيا

إذن . قرب العرة لا يتدخل في حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج  
الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس بومة ، سواء في ذات النفس البشرية  
أو في المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا غم الفساد في  
المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح  
أهل الخير فيه عاحزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق  
لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتي لرسول فهو يعلم أنه ما أرسل إلا بعد أن غم الشر في  
الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أصحاب النفوذ والسلطان ،  
ويتفنون بالفساد والانحراف استشرى في المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا

بصيغة الحق ؛ فلن يقمرا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم . ولا بد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم

و « جاهد » من « فاعل » ، مثل « شارك » ، فأنت تشرك فلاناً ، ومثل « قاتل » فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلا بد أن تحدث معاملة بين الرسول ومن اتبعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد في المجتمع

ولا بد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجهم لتحمل الإيلاء من غير المؤمنين بالمنهج ؛ لأن الكفر متفهمون بالفساد ، ولكي يستمر هذا الانتفاع ، لا بد أن يقف الكفار صد حكمة منهج الحق ، وأن يقاوموهم ليضمّنوا لأنفسهم استمرار الميزات التي يعطيها لباطل لهم . ويتبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم سيحاربونه . ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : اتحد معهم ، ولكنه قال : « جاهد الكفار والمنافقين » ، أي اصمد أمامهم في المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التي يأمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضي المواجهة ، لذلك قال سبحانه : « اصبروا » .

ولكن لتفرض أن عدوى صبر أيضاً في الحرب ، إن أنا صبرت وعدوى صبر تساوت الكفان ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ... ﴾ (١٠٠)

[ آل عمران ]

أي : إن واحهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر وتحمل ، فقف صابراً في مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لابد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، ولكافر هو الذي جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر في باطنه وعلل الإيمان في ظاهره . وهذا هو الذي يجب أن نحذر منه أشد الحذر ؛

لأننا لا نعرفه فتقى شره ، مثل الكافر ، فقد قطعنا المناق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة .

ويرضح الحق لرسوله ﷺ : إن العداوة التي سيواجهها وهو يُشتر بمنهج الله ستأتيه من اتس : من كافر أو منافق ، أي من مجاهر بعدم الإيمان ، أو من كثر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه أما المنافق فإنه علو صعب ؛ لأنه يعيش فلا يأمنه ، رغم أن النفاق في حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج ؛ لأنه لا ينافق إلا القوي ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد .

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده ﷺ في مكة قبل الهجرة ؛ لأن المسلمين كانوا له ضعافاً ، وكانوا مُعْتَبِينَ مضطهدين ولم يكن هناك ما يخشى أحداً بنفاقهم ؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد والمنافق في إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه معسحة ذاتية .

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة والمنافق في هذه الحالة إنما يعلن إيمانه رياءً ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه إذن فالنفاق ظاهرة مرضية في المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذي ينافقه

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى قد قَدَّمَ في هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقَدَّمَ في آيات أخرى المنافقين على الكفار " والصدم - كما نعلم - قد حدث أولاً مع الكفار ، فهي أول الدعوة لم يَرُجِد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ،

(١) وذلك من نحو قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [سأ. ١٤٠] .

وكذلك قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة. ٦٨]

وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هي الجهاد بالحجة ، لأن المؤمنين في أول الأمر كانوا فئة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله ﷺ يعرض قصايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل ؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنوا بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً : عن خلق السموات والأرض ؟

وحيث يدبرها الكافر في عقله لا يحد أن أحداً ادعى - أو يستطيع أن يدعى - أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى ، لماذا ؟ لأن الإنسان في تكوينه قد يدعى أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفي أمراً هو صاحبه - لمخترع أى شيء أو صانع لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يحب أن تعرف لدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ، ولهذا فانت لاتجد شيئاً يتفخ به في الكون مهما كان نامياً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذي اخترعه أو اكتشفه أو صنعه ، والمثال هو ما درسناه في المدارس عن الذي اكتشف الكهرباء ، والذي صنع المصباح الكهربائي ، ومن الذي طوره . وكذلك اخترع الطائرة ، ومعروف بنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فراس ؛ الذي حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية .

إذن : فكل شيء نافع في الكون معروف من الذي اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للمصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟ وحين نسال من الذي أوجد الشمس ؟ ألا يستحق خالقها أن يعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذي اخترع مصباح الكهرباء وأوجده في حياته ؟

وإذا كنا نملاً الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذي بنى حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن

نعرف من الذى أوجد الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة ؟ هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تطفىء مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل ، ولا بد أن يكون لها صانع ؛ تناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذى نراه سواء فى الضوء ، أو فى خصائص هذا الضوء ، أو فى دقة الصنع ؛ هبى لا تتأخري ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولا بد أن يكون صانعها له من القوة ما يناسب مع عظمة هذا الخلق .

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذى خلق الشمس ، فلما أن يكون صادقاً ؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد وإم أنه غير صادق ، فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدعى أنه هو الذى خلقها

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل انقضية محسومة له سبحانه وتعالى .<sup>(١)</sup> وإلى أن يأتى من يدعى أنه خلق لشمس ، ولن يأتى ؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منارع .

ويأتى رسول يقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يأت أحد ويدعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، ثم يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقادرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التى يدعونها

وتمضى الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذى خلفهم ؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى

(١) حتى أن معادلة وسحابة إبراهيم عليه السلام بالمنمود لم تكن فى خلق الشمس ، إنما كانت فى الإتيان به من مكان غير الذى تأتى منه ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة ٢٥٨]

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [٣٥]

[الطور]

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذه ، إذن فلماذا أن هناك خالقاً  
رموذجاً لنا ، فإذا جاء لنا ارسول وألما : إن خالق هذا الكون وحالقتنا  
هو الله ، فلا بد أن يصدق أنه لأنه لم يدع أحد ولا يستطيع أن يدعى أنه  
خالق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما تكون قد جلست في مكان . وبعد  
أن انصرمنا ، ووجدت حافظة نفوس ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الدين  
كانوا حاضرين ، فتموا جميعاً ملكيتهم لحافظة النفوس ، عد واحداً ، حينئذ  
تكون حافظة النفوس ملكه ، لأنه هو وحده الذي ادعاهما ولا يوجد  
معارض .

وفي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجزم بشر أن يعارض  
الحق سبحانه وتعالى ، ويدعى أنه خالق . إذن : فالحقضية محسومة تماماً  
له . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع  
إليه بفهمه ، وإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ،  
يمكن أن نتساءل : من الذي يضع المنهج للإنسان على الأرض ؟ لابد أن  
نقدر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً  
كما نثق أن صانع أى آلة هو لأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم  
ما يصلحها وما يفسدها .

والشال أن الإنسان ما يعطى ساعة يده لم تخصص في إصلاح  
الساعات ، ويستدعى المتخصص في إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ،  
ويستدعى الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التي درس تفاصيلها ، وكل  
متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذي وضعه من اخترع الآلة ، وبين فيه  
ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعى نجاراً ليصلح  
التليفزيون



إذن : فما دام سبحانه وتعالى قد وضع مهجاً فلا بد أن تبعه : لأنه هو  
موجد هذا الكون وموجد ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا

فإن مثل جهاد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ ﴾  
وبماذا يعلط رسول الله ﷺ عليهم ؟ إنه يعلط لإيصال المصير الذي  
يتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويحاف أن تضيع منه الدين لأنه  
لا يؤمن بالآخرة ، فأندره بالآخرة ، وأندره بالعذاب الذي ينتظره ، وقُلْ  
له : أنت لست خالداً في الدنيا ، وما ينتظر في الآخرة هول كبير .

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة : ولذلك وحدها المؤمن  
الذي يقول لرسول الله ﷺ في الحرب : دع لي يا رسول الله لأستشهد  
ويقول آخر : أليس بي وبى دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى ؟  
فيقول له رسول الله ﷺ : نعم ، فيلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق  
إلى المعركة ويستشهد

هذا هو معنى الإيمان ، ولر لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب  
إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة .

إذن : وهم يُقدمون على الشهادة بهذه الشجاعة على أعماقهم بالإيمان  
وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة بأن هناك حنة في الآخرة إلى  
الاستشهاد ، وبى المقابل تعرف أن الذى ينتظر الكفار هو النار وهكذا  
نفسهم قوله الحق : ﴿ وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى  
ينتظرهم عَلَيْهِمْ يَقْعُونَ والشاعر يقول

أَنَا فَإِنْ لَمْ تُغْرِ عَقْبَ وَعِيداً	فَإِنْ لَمْ يُغْرِ أَصْنَتُ عَرَائِمِهِ
وَمَا هُوَ إِلَّا سَيْفٌ أَوْ حَدُّ طَرْفِهِ	يَقْبِهِ زَبَاهُ أَخْدَعُ كُلِّ مَبْتَلٍ
فَهَذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلٍ	وَذَلِكَ دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَاقِلٍ <sup>(١)</sup>

(١) عدايم الوعيد : إضاده فيمن يستحقونه زباه : طرف السيف أخدع : الأخدع عروق من العنق  
تكون عنه مائل من اتعاق الحق

فمن امن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلِّقُ على اناس جميعاً ، وأنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإن أردت الحياة في كتب الأمة الإسلامية فها لك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لأن الحق قال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ... ﴾ (٢٦٩) [ الكهف ]

واعلم أنه يشترط في كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا لدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه لدين الحق .

والذي لا يؤمن ، يعيش في كتب الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة في اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لا بد أن تسير وفقاً لمهج الله ، وما دام الإيمان هو الذي يسيطر على حركة الحياة ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ ، بذلك لا يؤثر في حركة المجتمع المؤمن ؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذي جعله خليفة في الأرض ، وهو يعار على خلقه ، تماماً كما تأتي لشيء جميل صمعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا لشيء أمام صمعه . إن قلب لصانع - في هذه الحالة - يمتلئ بالعصب ، وبسرع عقابك .

والحق سبحانه وتعالى فلنما يرى إنساناً يمسد صنته في الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنته ؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكي يكون الحساب عدلاً ، لا بد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا تمام لرسالة أمة محمد ﷺ ، ثم يحتر الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان والإقناع . فإن لم يأت البرهان بتسعة ، وحاول أحدهم أن يقاوم

الدعوة بالسلاح فليردع بالسلاح .

لذلك يقول الحق سبحانه . ﴿وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تأخذك بهم رافة ؛ لأن الرافة قد يعرى بالذبح ؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تشركه بلا عقاب فقد يعمره ذلك ويغري غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى لنفيل ، وأنت حين تأتي بالقاتل ونقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يبع أي إنسان أن يفكر في القتل ، أو أن يقتل إذن . فبحسب الدعوة نحسن المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك . هل من سرق تُقطع يده ؟ نقول لهم : نعم ؛ لأنني لو قطعت يده فرد لمعت جريمة السرقة في المجتمع ، فليس انهدم أن أقطع يداً ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتي بالعقوبة وتؤكد من الجريمة ؛ إياك أن تأخذك الرحمة في تنفيذ العقاب . فلو أحدثك الرحمة في هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفي ذلك يقول الحق سبحانه ونعالى<sup>(١)</sup> :

﴿الرَّابَّةُ وَالرَّابِي لَاجِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَنَّةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَافَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [البور]

(١) الجند مو حكيم من زنى وهو بكر لم يتزوج ، أما من تزوج ووطئ ، في نكاح صحيح وهو حر بالنع عاقل ثم زنى فعكسه الرجم بالحجارة . وفي عدد قال عمر بن الخطاب : إن الله قد بعث محمداً ﷺ بأحق وأمر عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم فوأنابا ووعياها وهيباتها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشي إن طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم في كتاب الله من رضى من رضى إلى أصحاب من الرجال والنساء إن ماتت البينة أو كان الجليل أو الاعتراف أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٢٣) ومسلم (١٦٩١) والربا الموجب للحد هو تعيب حشمة الرجل أى رأس ذكره من فرج محرم مشتبه بالطبع ، من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال ويشترط فيه أربعة شهود عدول بهذه الهيئة من الخصاص المحرم انظر « فقه السنة » للشيخ سيد سابق (٢/٤٠٠)

ولكن الحوار حول العقوبات<sup>(١)</sup> في الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمي نفسه بتوصيف الأفعال التي تعتبر جرائم ، ويضع بها عقوبات ، ولا عقوبة إلا لتجريم ، ولا تجريم إلا لنص

إذن . فكل دولة وكل مجتمع لابد أن تكون فيه عقوبات ، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش في أمان . فإذا كان حاكم أي دولة بسيطه قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس الله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يشرع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو حائلها ؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدي من أن تمتد إلى مال الغير

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ؛ لأن الذي يتسبب الناس في الذب ، هو طول الإجراءات والأحد والرد ، فيسئ الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وقعت لعقوبة فور حدوث الجريمة ؛ لما طيب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين يتظاهرون بالإيمان ؟

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي الزنا ، والقتل ، والسرقة ، والسُّكر ، والمخامرة ، والردة ، واللعن . وذلك لتحقيق صيانه للمجتمع من نواحي الدين ، المقل ، المال ، العرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تعبد العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا في كتب الفقه ( أبواب الحدود )

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقب عليهم " ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله ﷺ ، فيكفرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ : اعلط عليهم يد ارتكبوها إثمًا ، وقد وجدنا في سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً في كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه .

- ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ... ﴾ (٥٦) [ التوبة ]
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ... ﴾ (٥٧) [ التوبة ]
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ... ﴾ (٥٨) [ التوبة ]

وفي سورة المجادلة يقول سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٤)

فكانما كلما حلفوا صدقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، فمصححهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله ﷺ أن يغلط عليهم في العقوبة . ولكن هل غلطة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة ؟ نقول : لا ، لأن الغلطة عليهم في الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفسوح من الله . ولكن هذا لا يعفي من عقاب الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ والمصير هو المرجع الأخير لأي شيء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذي عاقب قد بعصو ، وقد يخرج الإنسان قل انتهاء مدة العقوبة ، كأن يكون هناك إفراج صحي ، أو بقضاء ثلاثة أرباع

(١) قال الحسن البصري في معنى هذه الآية بالنسبة للمنافقين : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان ، وكانوا أكثر من يصيب الحدود . وقد رد أبو بكر بن الصديق على هذا : بأن العاصي ليس منافقاً ، إنما منافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تنسب به الجوارح ظاهراً ، وأحبر بالحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكرهوا منافقين ، تنظر تفسير القرطبي (٤/٣١٦٩)

المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفي هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف نحسب الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الخلف والكذب الذي كان يعمله المنافقون ، فيقول سبحانه :

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ  
وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُوعِظُونَ بِمَا أَلَمُوا وَمَا نَقَمُوا  
إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ  
خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ



وفي هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حقائق الخلف والكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عريضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلاماً ملغىً

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها في عزوة تبوك لتي حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة في فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد في هذه الفترة يفصل الجلوس في الأحياء<sup>(١)</sup> ، أي الحدائق

(١) الأحياء في اللغة أماكن وسط بين مجرى السيل في الجبل ، وبين صحوره ، ثبت فيها الخشائش انظر لسان العرب (مادة ح ي ل)

الصغيرة ، ويجلسون تحت الحيل والشجر في جو رطب ولا يرغبون في  
القيام من الظل

وعندما دعا رسول الله للجهاد في سبيل الله ، والذهاب إلى قتال  
الروم ، تلمس المنافقون الأعداء الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ، فظل  
القرآن ينزل في هؤلاء الذين تخلقوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال  
رجل اسمه الجلاس بن سويد . والله إن كان عاب يقوله محمد عن الدين  
تخلقوا عن القتال صدقاً فحن شر من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس  
الأنصاري : لقد صدق رسول الله ﷺ وأنتم شر من الحمير . وأنت  
يا جلاس شر من الحمير . وهنا قام عدد من المنافقين ليقتكوا عامر بن قيس  
الأنصاري ، لأن اجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن  
قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله ﷺ  
ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم  
يحدث . وتركه رسول الله ﷺ بعد أن حلف بالله . وهنا رقع عامر بن  
قيس يده إلى السماء ، وقال اللهم إني أسألك أن تنزل على عبدك وسيدك  
محمد ﷺ تصديق الصادق ونكذيب الكاذب . فقال رسول الله ﷺ  
« آمين » (١) ولم يتبها من الدعاء حتى نزل الوحي يقول الحق جل جلاله .  
﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا  
لَمْ يَبْأُثَرُوا ﴾ .

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق  
ومن هو الكاذب ، فيما رواه عامر بن قيس وأكره الجلاس

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرِف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله  
ﷺ ، فقال سبحانه ﴿ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَبْأُثَرُوا ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى

أراد أن يُعلم المنافقين أن مسحانه يحبر نبيه بما يحفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط هي حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد - عليه الصلاة والسلام - إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يستعصم عامر ، وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تأمروا على حية النبي ﷺ واتفقوا على قتله عند عيوره العقية ، والعقية هذه هي مجموعة من الصخور العالية التي تعترض لطريق ، يستحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أصق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون " أن يدفعوا رسول الله ﷺ من أعلى الصخور ، فيسقط في الوادي ، ولكن حديفة بن اليمان الذي كان يسير خلف ناقة رسول الله ﷺ تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم يبالوا ما يريدون ، مثلما لم يبالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدون العدة ليجعلوا عند الله بن أبي ملكأ عليهم ، ولكن مجيء رسول الله ﷺ لم يُمكنهم من ذلك

وقيل : إنهم تأمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أسخ رسول الله ﷺ ما قاله الحلام بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا .

(١) كانوا اثني عشر رجلاً ماتوا محاربين لله ورسوله عن حبيبة بن إيمان قال كتب أختاً بحمد ناقة رسول الله ﷺ أتود به ، وعمر يسيره حتى إذا كن بالعقة فإذا أنا بآتي عشر راكباً ، قد عترضوا فيها ، فأتيت رسول الله ﷺ بهم ، فصرح بهم قروا مسيرين ، فقال لي رسول الله ﷺ هل عرفتم القوم ؟ هنا لا يا رسول الله ، كانوا مثلثين ، ولكننا قد عرفنا الركاب ، قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا لا ، قال : أرادوا أن يرحموا رسول الله ﷺ في العقب ، فيلقوه منها قلنا ، يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأى صاحبهم ؟ قال لا ، أكره أن تحدث العرب فيها أن محبداً قاتل بنوم حتى إذا أظهر الله بهم أقبل عليهم يفتنهم ، ثم قال : اللهم ارحمهم بالذي لله ، يا رسول الله وما الديعة ؟ قال شهاب من نرى على نياط قلب أحدكم فيهلك ، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ، ٢٦١) وفيه عينة ابن إسحاق



وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ و ﴿ لَقَمُوا ﴾ تعنى : كرهوا ، ولعننى - كما نعلم - أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف فى حكمهم ؛ لأن الغنى والامس الذى أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية بل كان من الطبيعى أن يولد حباً وتفانياً فى الإيمان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتى رسول الله ﷺ ، كان الذين كرهوا مجيئ الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما آمنوا ودخلوا فى الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأعتاهم الله <sup>(١)</sup> ؛ بل إن الحلاس بن سويد لما قُتل له غلام دفع له رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف درهم دية . إذن فقد جاء على يد الرسول ﷺ العنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم فى الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أعتاكم عجباً رسولاً ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله ﷺ ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا فى الإيمان به ونصرته .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال : الله ورسوله من فضلهما ، ولكنه قال : ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ لأن الله لا يُثنى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله

ولذلك عندما سمع رسول الله ﷺ خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد لجأ ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله ﷺ : تشس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جمع تشنة بين الله ورسوله .

(١) قال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي ﷺ فى حبس من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون العبيدة ، فلما قدم عليهم النبي ﷺ استعزوا بانهائهم ذكره القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣١٣٢) .

وهنا توقف الخطيب وقال . فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ قل ومن يخص الله ورسوله فقد هلك<sup>(١)</sup> ، ولا تقل عصاهما ، لا نجتمع مع الله أحداً ولا تُثنى مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد لقرآن الكريم لم يقل « أغناهم الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : ﴿ من فضله ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله ﷺ فضل ؛ فهو من فضل الله

وعلى أية حال قاله لا يُثنى معه أحد ؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم : ﴿ يعلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ [١٢] ﴿ [التوبة]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد في ارضاء ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثنى معه أحد.

وبعد أن فصّح الحق سبحانه وتعالى المأفقيين وبين ما في قلوبهم ؛ لم تتخل رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعبده . ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فإن يتوبوا بك خيراً لهم ﴾ ، وفتح باب لتوبة رحمة حركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشري في الذنب ، ويزداد في الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أي إنسان يخطيء أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشري في الإثم ، ثم إن الذي يعنى من الشرور والآثام حصمة هو المجتمع ككل ، فإذا وجد لص خطير مثلاً ؛ فالذي يعانى من سرقاته هو المجتمع وإذا وجد قاتل محترف فالذي يعانى من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع .

(١) عن علي بن حاتم أن رجلاً خطب عبد النبي ﷺ فقال من يطم الله ورسوله فقد رشد ومن يعصمهم فقد غوى فقال رسول الله ﷺ « يس الخطيب أنت » قل : ومن يخص الله ورسوله فقد غوى . أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد في مسنده (٢٥٦/٤ ، ٢٧٩) وأبو داود في سننه (١٠٩٩)

إذن : ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع ، لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء في إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فإنه سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن برسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يحفونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لمصدق فيما قاله عيسى وتاب الجلاس وحسن سلامة<sup>(١)</sup> .

أما الدين تُعرض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَتُوبَا مِنْهُمْ اللَّهُ عَذَابُ أَلِيمٍ ۚ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۚ ﴾ . إذن . فجزاء من يرفض لتوبة ولا يعترف بخطئته هو العذاب الأليم ، لا في الآخرة فقط ، ولكن في الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة في الدرك الأسفل من النار .

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۚ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب في الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض في الدنيا ؛ وأرض في الآخرة هي أرض المعاد<sup>(٢)</sup> ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... ﴾ (١٨) [إبراهيم]

إذن . فكلمة ﴿ الْأَرْضِ ﴾ تعطينا صورتين في الدنيا وفي الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۚ ﴾ يوضح لنا أن الولي هو القريب منك الذي تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد

(١) انظر الإصحاح في تفسير الصحابة لابن حجر العسقلاني (ترجمة ١١٧٢)

(٢) قال أبو يحيى الأنصاري في فتح الرحمن (ص ١٧٠) : لا كانوا لا يعتقدون الوجدانية ، ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولي والنصير مقصوراً على الدنيا ، فغيرها في الأرض أو أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة .

إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك ، أما لنصير بهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن : فلا الولي القريب منك ، ولا الغريب الذي قد تفرع إليه ينصرك يستطيع أن يفعل لك شيئاً ، فلا نعمة من عذاب الله لمن كفر أو نفاق

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين ، فيقول :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥)

﴿ ومنهم ﴾ أى من المتقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم في هذه السورة الكريمة ، فقال ﴿ ومنهم ﴾ ، و ﴿ ومنهم ﴾ و ﴿ ومنهم ﴾ ، واحتملت روايات المفسرين ولرواة في مدلول قوله تعالى ﴿ ومنهم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ فقال بعضهم إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه معتب بن قشير ، وقال رأى ثالث : إنه الحذ بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبى بلتعة . لكن هذه خلافت تحتملها الآية الكريمة " ، لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ولم يقل الحق : " فلما آتته من فضله بخل به " بحيث ينطبق على حالة وحده ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَحَلُوا بِهِ ... ﴾ (٧٦) [التوبة]

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (١/٣١٣٤) هذه الروايات ، ورجح أنها نزلت في ثلاثة من المنافقين : بنى أس الجارث ، رحد بن قيس ، ومعتب بن قشير . أما كونه ثعلبة بن حاطب فقد روي عن القرطبي لأنه شهد بدرأ ، أما الحافظ ابن حجر المستقل فقد فرق بين الذي شهد بدرأ وعيره . انظر الإصباح في تفسير الصحابة ( ترجمة ٩٢٤ )

إذن : فهناك جمع والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة في أن الآية لكرمية نزلت في أفراد متعددين ، وسبحانه يقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ﴾ فكيف يكون للمؤمنين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : ' أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتي الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد في الصف الأول للمصلين ، فهل معه اتفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه

وقصة الآية <sup>(١)</sup> . أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال . إني فقير مملق أي شديد الفقر - فادع لي الله يا رسول الله أن يوسع عليّ ديساي . وبفطنة البهولة قال ﷺ . إن قليلاً تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، معاودة وقال ادع الله لي أن يوسع عليّ . فدعا له فوسع الله عليه

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله في طلب متفق مه ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أحيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأي أحد يُجنه الله ، فتكون هذه للبي ﷺ .

فلما دعا رسول الله لشعلية ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبي بلنعة ؛ استجاب الله ندعاء رسوله ؛ وأعطى من سأل الدعاء مالا وهباً ، وقائوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأضنام قد تناسلت

حتى ضاقت بها شعاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الحمال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامسأت ، فشغلت أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا في يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغته أيضاً عن صلاة الجمعة . وفي ذلك دليل صدق تشو رسول الله له . إذن : فكن الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسمَّهم في أنهم باقوا في الإسلام

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقالوا . إنه في الشعاب شغله ماله . فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة " ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال ﴿ كُنْ أَتَانَا مِنْ فَعْلِهِ لِنُعْذِقُ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه ، فلما قال له : هات ما كتب الله عنك من الصدقة من مالك . قال : أهي أخت الجزية " ؟ وذكره عامل الصدقة : أبت الذي عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فعالمك لا توفي بلعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة : اذهب حتى أرى رأيي

إذن : هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدق الله نبيه في قوله . قليل تؤدي شكره ، حذر من

(١) وذلك حينما مرلت آية ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة ١٠٢] فتعلمت من كان قد عاهد الله لئن رزقه وأعطاه يتصدق ، ولم تكن محددة حينما مرلت آية ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [التوبة ١٠٣] وقرضت الزكاة رفض إنفاذ ما عاهد عليه الله ، وهذا نظير ما حكاه رب البراء عن موسى إسرائيل ﴿ إِذْ قَالُوا لِمَ لَمْ يَأْتِكُمْ مَائِدَتُكَ يَا هَارُونَ قَالَ هِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَرَكُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة ٢٤٦]

(٢) الجزية . هي مبلغ من المال يوضع على من دخل في دمه مسلمين وعندهم من أهل الكتاب ، وقد فرضها الإسلام عليهم في مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن المسلمين وحمايتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها ، وهي نجب على من كان ذكراً ، مكلفاً ، حراً . ولا نجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب لنظر الله السنة للشيخ سيد سابق ( ١١٢ / ٣ - ١١٢ )

كثير لا تطيقه ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله برد ثعلبة قال ﷺ. وبيع ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرأناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الركاة ، فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أرد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله في غنى عن مالك يا ثعلبة

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبي بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفي أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبي بكر وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد ملك في عهد عثمان .

﴿ لَيْسَ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وكلمة ﴿ تَنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال . أقسم بالله إن آتاني الله مالاً لأفعلن كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام في جواب القَسَم ﴿ تَصَدَّقْ ﴾ والصدقة هي الصدقة الواجبة أي الركاة ، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : تزيد في التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴿ ٧٦ ﴾

والله عطاءان . عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . وعطاء الأسباب يتمثل في أن يَجِدَ الإنسان في أي عمل من الأعمال ، فيعطيه الله ثمرة عمله . مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ

الأسباب وأنقضيها ، ولذلك تجدد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون في سعة ؛ لأنهم يحسون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذي استدعاهم لوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضرّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصي ، والمطر ينزل على الأرض ، وكذلك كل شيء في الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب .

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفصل في عطاء الأسباب ، كمن يسير في طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتي عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول . ويبارك له الحق سبحانه في بيع محصوله ، ويبارك له في رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عامٌ للناس جميعاً . أما عطاء الفصل فهو خاص بأولياء الله الذين أخصصوا عملهم لله طاعة وامثالاً

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ دليل على أن الرزق الذي جاءهم لم يحضروا للأسباب وحدها بل راد عما تعطيه الأسباب بمصل من الله . فالتكاثر الذي حدث في أعنام نعبه لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتي بأكثر من وليد ، والعشب الذي ترعاه يُدرّ كمية كبيرة من اللبن .

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ ما هو البخل ؟ هناك في اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بخل ، وشح ، وكرازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شيء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطى إلا من سألته ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطى كل



من سأل ، بل يعطى من سأل به بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول :  
ولدى مريض ، أو احترق بينى ، فاسألك ما لا يسأل فقط ، ونكه يجىء  
بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطى بغير سؤال .

هى إذن ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطى من يراه هكذا ؛ مظنة أن  
حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، يبير  
الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هى يد الله عبد خلق الله . بل إن هناك انساناً  
يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذى  
ذهب بصرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب  
المسائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بينه وأخذ شيئاً من مال وأعطاه  
للمسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء بسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذى  
أعطى مالاً رجع يبكى فقالت له : وما يبكيك وقد أجبتك إلى مطلبه ؟  
فقال : يبكي أنى تركته ليسألنى ، أى . أنه يبكى لأن لم يملك فطنة  
تجعله يستشف مسائل الناس من حوله ليعطى المحتاجين بغير سؤال .

إذن . الواحد يعطى عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطى من غير  
مسألة ، بل يعطى عن فضل عنده ، أى : يملك الكثير ويعطى منه  
وثالث يعطى نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطى أكثر ما عنده  
حسب ما ينفدح فى ذهنه من حاجة الإنسان المعطى .

هى إذن ثلاث مراحل . رجل يعطى من غير سؤال ، ورجل يعطى  
بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهَيِّجَة للعاطفة ، ورجل يعطى بمجرد السؤال .

ومن هو البخيل ؟

أفطع درجة للبخل ؛ أن يخش الرجل على من يسأله مسألة مُسَبِّبة  
بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل  
﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ واحد من هؤلاء لم

يحل فقط ، بل انصرف عن الذي يسأله ، مثل الذي انصرف عن العامل الذي جاء يأخذ لصدقة ، وقد كان عليه - مثلاً - أن يجلس العامل ، ويقدم به التحية الواجبة ، ثم يقول له منرى رأينا ، ولكنه تولى وأعرض عنه .

وبأتى الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول :

﴿ فَأَعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٧٧)

وقوله سبحانه . ﴿ فَأَعْقِبْهُمْ ﴾ أى جعل العقاب لهذا التصرف ؛ أن جعل في قلوبهم النفاق ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى : إلى يوم لقيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذى عصى مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها ويخس وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أحلفوا لله ما وعده فقال سبحانه : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً فى أنه قال : أهي أحبت الحزبية ؟ مع أنه يعرف أن الركاسة عن المال هي ركن من أركان الإسلام .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٧٨)

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذى لم يكن معروفاً قبل ذلك ،

ونوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفي]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب به عدة صور : الصورة الأولى ؛ أن يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا الخبر ، والصورة الثانية . أن لا يخبر المتكلم مخاطبه بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقول الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان في استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطي للخبر قوة ، ففعل الكلام من المستفهم منه ، وكأنه عرض الأمر مفرص السؤال في معرض النفي ، ثقة في أن المخاطب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إليّ

إذن : بالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفي ، أو خبراً معه النفي ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقرب أنواع الإخبار ، الخبر الموجود معه النفي ، والموجود مع النفي الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابِل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضي جواباً من المخاطب ، ولا يجيب المخاطب إلا بما كان في نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان أنا راضى ذمتك ، وهذا القول يعنى أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدبر الكلام في عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما هو السر ؟ وما هي النجوى ؟ السر : هو ما تكتمه في نفسك ولا تطع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسرُّ به للغير ، لأن هذه هي النجوى ، وأصل النجوى البُعد

ويقال . فلان بنجوة عن كذا ، أى بعيد عن كذا . وأصل الجوى أيضاً المكان المرتفع فى الجبل ، فكان المرتفع بالجلوس بعدد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب تسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه فى الاعتماد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد . أو يُخفص من صوت فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمنى له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر ' ، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهى كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفصت صوتك خفصاً يخفى على اقريب ، فكانه صار بعيداً

إذن ، فالسر هو ما احتفظت به فى نفسك ، والنجوى . هو ما أسردت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك .

والذين معوا الصدقة ، لابد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا فى هذا الأمر منع الصدقة بعد أن صاروا أعتياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهرُوا فى إسلامهم مظهرأ بهوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً فى الصفوف الأولى للصلاة كى يسترو نفاقهم .

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسروا فى نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الأسرار فى النفس حين يُحسر به الله ؛ هو هتك الحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله ﷺ بما دار فى هذا الأسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضى . وذلك فى الأمور التى لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأه فى كتاب لأنه أُمى ، فأحبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه .

(١) وقد ورد النهى عن مناجاة النبي دون الثالث فعن عبد الله بن مسعود قال قال ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يعزبه » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) وأحمد فى مسنده (٤٣ / ١) والترمذى فى مسنده (٢٨٢٥) وقال حديث صحيح

إذن من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذى يعلم خُباة<sup>(١)</sup> السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ يعلم ﷻ الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ مَلَكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتَكُ حجابِ زمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان ﷻ يخسرهم عن شىء فى نفوسهم ، فقد أوحى له الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴾ (٨) [ المجادلة ]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء ما قاله فى نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن الذى هتك لحجاب لرسول الله ﷺ ؟

إن الذى هتك لحجاب لرسول الله هو من يعلم السر وأخفى ؛ فلا توجد حجب عاثبه عن الله ؛ لأن حجب العيب إنما تكون على البشر ؛ حجب ماض ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ي ، أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمرهم هم ، بل علم الله سرهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم عيب هذا ، وعيب هذا ، وعيب هذا ، وعيب هذا ، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد

إذن ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ تعنى أنه يعلم حتى ما حاولت كتمه وسره ، فقد قال سبحانه :

﴿ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مَنَاقِلَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ لِىَ صَخْرَةً أَوْ لى السَّمَوَاتِ أَوْ لى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... ﴾ (٦٦) [ نمل ]

(١) الخشاء والخيب - كل شىء صلب متحرك - ويقول تعالى فى سورة النمل : ﴿ أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [ النمل ٢٥ ] وقال ابن أسلم : هو ما جعل فيهما من الأرض ، بل من السماء ، والياب من الأرض (انظر ابن كثير ٣/ ٣٦٦)

إذن: فعلم الحق جن جلاله لا يغيب عنه شيء..

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال حل جلاله:

﴿الَّذِينَ يُلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٧﴾

والذمير معاء العيب ، ولكن بطريق حمى ، كإشارة بالعين أو باليد أو بالضم أو بعير ذلك إذن هناك مجموعة من المنافقين يعيبون في المطووعين جمع الركاه من المؤمنين ، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول ، ومن يعيب بالفعل ، ومن يعيب بالإشارة ، والمطوعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله

فأله قرص مثلاً خمس صواب ، وهناك من يصلى خمس صلوات أخرى تطوعاً ، وفرص الحق الزكاة اثنين ونصفاً ساعة ، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً ، وفرض الحق صيام شهر رمضان ، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس . وهذا ما سمي به دخول المؤمن في مقام الإحسان : بأن تقترب<sup>(١)</sup> إلى الله بما يريد على ما فرضه الله عليك ، من جنس ما فرضه الله .

(١) عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « إن الله قال من عادي لى ولياً فقد أدته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما شرحت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالرائل حتى أسبه ، فإذا أحببه كب سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطيه . ولئن استعادى لأعيدنه ، وما ترددت من شيء أنا فاعله تردى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته » . أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٦٥٠٢ ) وأحمد فى مسنده ( ٢٥٦ / ٦ )

وأنت إن أدبت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن مرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال لرسول الكريم : « أفلح إن صدق »<sup>(١)</sup> .

والرياء على ما فرضه الله ، ومن جس م فرض يكون لها ملحظان .  
لأول : أن لابد يشهد لربه بالرحمة ، لأنه كلف دون ما يستحق  
والملاحظ الثاني هو أن عمل الطاعة قد خفف على المؤمن فاستراح بها  
ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة « أرحنا بها يا بلال »<sup>(٢)</sup> .

إذن : فالمطوع هو الذي يزيد على ما فرض الله عليه من جس ما فرض  
الله : ومولاء هم المحسنون : الذين قال الحق عنهم في سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ  
ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ  
يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالممنوع لا يلزمى بأن أنام قليلاً من الليل وأقصى بقية في الصلاة ، ولم  
يلزمى أحد بالاسئغال في الأسحار<sup>(٣)</sup> ولم يقل الله سبحانه في هذه الآية  
إن في المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطى بأكثر مما فرض .  
وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يذم ويُعاب  
ويُلْمَز ؟ أم أنه يستحق أن يُكْرَمَ ويُقَسَّرَ ؟ ولكنه اختلال موارد المتأقين في

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى  
صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « خمس  
صناعات في اليوم واليلة » حتى ذكر صيام رمضان والركلة . قال طلحة : فادبر الرجل وهو  
يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : « أفصح إن صدق » . أخرجه  
البيهقي في صحيحه (٤٦) ومسلم (١١)

(٢) سنن ترمذيه

(٣) الأسحار جمع سحر وهو آخر الليل قبل الصبح

الحكم على الأشياء . لذلك اعتروا الحصة بقية ، تماماً كما الذي يُخرج ماله للمفراء ، ونجد من يسحره بالقرآن عنه « إيه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله في المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ، لأنهم أسفوا المال على أنفسهم فأقروه ، بينما تصدق هو به فأبقاه

وقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك في مكة ، وأخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه في ماله .

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار <sup>(١)</sup> : أقسمك مالي قال بارك الله لك في مالك ، دُلّني على السوق وذهب إلى السوق . وبارك الله له في تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأتقى لأهلي أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت » . وحين مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف في تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « ثامر » بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت ثامر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثمن الثروة ، أي : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً . وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا في ماله

(١) أخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع (مخرجي الأنصار) بطر سيرة النبي لابن هشام (٢/١٢٥)



فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق  
عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله  
وحده ؟ وجاء عاصم بن عدي ، وكان صاحب بستان أعطى ثمره كثيراً ،  
فجاء بمائة حمل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل  
عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يدعى أبا عفيّل الأنصاري إلى رسول الله  
ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتي أعمل ، وأخذت أجرى صاعين  
من التمر ، احتفظت لأهلي بصاع وجنتك بصاع لأتصدق به . قال  
انصافقون : تصدق بصاع من التمر ، الله ورسوله عنى عن صاعك  
يا أبا عفيّل

هم إذن قد عادوا على عبد الرحمن بن عوف الذي تصدق بالكثير وقالوا  
هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدي قالوا يرائي بالتصدق بصب ثمار  
حديثه ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله  
ورسوله عنى عن تمرك ، لقد سخرُوا عن أعطى لكثير ، وسخرُوا عن  
أعطى لقليل . وكان يجب أن يُمدح المتصدقون ولا يُسخر منهم ؛ لأن كلاً  
منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا ما فضل ما أعطاهم الله ، قل  
أو كثر<sup>(١)</sup> .

ولذلك فمن يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلام على الخلق السيء  
الذي تمثل في مقابلة السلوك الإيماني بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان  
حراء الساحرين أن سحر الله بهم ، وجعل لهم عدائاً أليماً والسخرية هي  
الاستهزاء بفعل شخص ما . هؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ،  
فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عن فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم  
يستطيعوا إلا الإيذاء المعوي للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ : لا يحرون من المعروف شيئاً ولو أن بقى أحلك بوجه ضيق<sup>\*</sup>  
أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد في مسنده (١٧٣/٥)

فهذه أولاً عدالة الجراء لأهلها من جسس ما فعلوا ، ولكن هن سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزء ؟

هناك حزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساحر فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سحروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذي يملكونه ؛ تصلى الله سبحانه وتعالى ببرد عليهم وعلى سحرتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطيت صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين في إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذي سيعاقب المذائق ، فالعقاب سيكون ليماً مهيئاً .

وقلنا من قبل - إن الذي يخطئ في حق غيره ، بهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذي يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة من عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن ، فالذي يتقزم ويرد على من أخطأ في حقه ، إنما يأخذ على قدر قوته ، وأما الذي يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهيك مرتبة أعلى من ذلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمدب ، والذي وقع الاعتداء عليه ، لأن الحق سبحانه وتعالى رب لاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته

ولكن خير من ذلك أن يحس أن الذي أساء إليك في حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخل بيتك ووجدت أحد أبنائك قد صرب أحياه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفتك ؟ إن فلك يكون مع الذي اعتدى عليه وأساء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتي إليه بهديه أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل . من آداب دينك - الإسلام - أن نحس إلى من أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن  
تعفو عمن أساء إليك . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ  
سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وإدراك سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إليك أن  
تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه :  
﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرُ اللَّهُ ... ﴾ (٢٤)

وحيث يقول : ﴿ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَهُوَ حَادِّثُهُمْ ... ﴾ (٢٤) [ النساء ]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد يرى من البشر من يفعل نفس الفعل ،  
لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر .

وعلى سبيل المثال : إذا حدثنا لقول الله : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرُ اللَّهُ ﴾ المكر هو  
التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت  
تضممر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها سعص الحشائش  
والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتي لك بزهرة ، فيسقط في الحفرة  
وتتكسر عظامه .

إذن : فأنت قد كدّمت له كيداً خفياً . والكيد والمكر لا يدلان على القوة ؛  
إنما يدلان على الضعف ؛ لأن الشجاع القوي هو الذي يجاهر بعدائه ؛ لأنه  
قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذي يستخدم الحيلة والمكر لبوقع  
بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨) [ يوسف ]

وما دام كيدهم عظيماً ، فضعفهم عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ،  
ويكن القوي لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ،  
وسأتي بك عندما أريد ، لا يوجد مكان تهرب فيه مني ، إنما الضعيف إذا  
غلبك من خصمه فإنه يقصص عليك ثامناً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر .

ولذلك قال الشاعر:

وَصَعِيقَةٌ إِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً      قَتَلَتْ كَذَلِكَ فُرْصَةُ الصُّفَاءِ  
أما القوي فإنه يقدر ويعمر ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء .

والأصل في المكر هو الشجرة الملتفة الأعصاب كأنها مجدورة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التي تراها من أي فرع بيئت ، فيلتبس عليك الأمر ، كذلك المكر يختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تمكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجراء رهيباً ، لأن مكرك مضجوع عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدّه الله لك .

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في الأمور العلمية في المعارك ، وبصره أيضاً في كل أمر مكروا فيه وبيئوه له . وعسى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليفتلوه في ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تخش مكرهم ، فخرج ﷺ ليجلدهم بياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج ﷺ من وسطهم ويأخذ التراب ، ويلقيه عليهم وهو يقول : « شامت الرجوء »<sup>(١)</sup>

وعندما يتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أهدت لهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النيل من رسول الله ﷺ ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سحرية الله جاءت جزاء لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز

(١) ورد قول رسول الله ﷺ مد ، في حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد في مسنده (٣٦٨/١) ، وكذلك في خروجه حين من صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إيمان بن سلمة عن أبيه ، وأحمد في مسنده (٢٨٦/١) والدرمي في سنة (٢١٩/٢) من حديث أبي عبد الرحمن القهري

في فعله أكثر من العيب في غيره . ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب ولذلك قال الحق سبحانه . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التمييز في فعل الله عن فعل البشر ، فالذين سحروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه ، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً ، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم .

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً ، وهناك عذاب عظيم ، وعذاب مهين ، ولكنها صفات للعذاب ، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك من يصرعه الألم فيصرخ ، وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل ؛ لأن كبريائه يمنعه أن يصرخ ، وفي هذه الحالة يكون عذابه مهيناً ؛ لأنه يكبريائه تحمل الألم ؛ فَيُهَيِّئُ فِي كِبْرِيَاءِهِ وَبِذَلِكَ يَكُونُ عَذَابُهُ مَهِينًا .

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً ، وهناك عذاب عظيم في الإيلام وعظيم في الإهانة . والعذاب العظيم في الإيلام ؛ أي مبالغ فيه من ناحية الألم . والعذاب العظيم في الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة والعذاب العظيم في الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن ، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أي يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل .

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين . ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين ، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال :

﴿ وَتَوَّ شَاءَ لِأَرْبَابِهِمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ... ﴾ (٣٠) [محمد]

أي بمجرد نظر رسول الله ﷺ إليهم ، وكأن على جسده كل منهم يوجد كلمة « متافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي نَحْوِ الْقَوْلِ ... ﴾ (٣١) [محمد]

وبمجرد أن ينظفوا يعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به ويرسالته سليم الصدر<sup>(١)</sup> ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى بوره على الجميع ، ولعل ضغاعاً من النور يمس ماعقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان لصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم الوبة وحسن إسلامهم .

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عند الله بن أبي بن سلول ، كان سيُوج ملكاً على المدينة<sup>(٢)</sup> . وأثناء الإعداد لمهرجان التشريح ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبي على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه المثلك . وكان لعبد الله بن أبي ولد أسلم وحسن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبي . وكان من حسن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه كان في غروره من العروث<sup>(٣)</sup> . ﴿لَئِنْ رُجِعْنَا إِلَى لَمَدِينَةِ يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾ (A) ﴿

وكان ابن أبي يعنى بـ « الأعز » منافقين في المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدق على قوله أن لأعر سيخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (A) ﴿

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى أنه أوصى أصحابه فقال : لا يمسني أحد من أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/١) والترمذي في مسنده (٣٨٩٦) وأبو داود في مسنده (٤٨١٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق في البيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا قد نظمو له الخمر ليتزوجوه ثم ينفكوه عنهم ، فحاربهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما أنصرف قومهم عنه إلى الإسلام صعب ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومهم قد أيوا إلا الإسلام دخل فيه كلزها مصبراً على نفاق وصعب ؛ سيرة ابن هشام (٢/٢١٦) .

(٣) هي غرورة بني المصطلق ، وقد كانت في شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/٣٣١) .

فَكَانَ الْحَقُّ مَسْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَقْرَعَ عَلَى أَنْ الْأَعْرَ هُوَ الَّذِي سَيُخْرِجُ الْأَذْلَ  
مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَلَكِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، إِذَنْ : مَسِيحُ حَرْجِ الْمُنَافِقِينَ  
مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَسَيَبْقَى فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَتَكُونُ لَهُمُ الْعِزَّةُ .

وَلَمْ يَعْلَمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَأْمُرُ بِقَتْلِ وَالِدِهِ  
عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَبِي ، ذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَسَبَ  
وَلَايِدَ أَمْرًا بِقَتْلِ أَبِي فَأَمْرِي أَنَا بِقَتْلِهِ ؛ لِأَنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلَهُ أَخِي مُؤْمِنٌ  
فَأَكْرَهُهُ ، وَأَنَا لَا أَحِبُّ أَنْ أَكْرَهُهُ مُؤْمِنًا .<sup>(١)</sup>

وَهَكَذَا بَرَى قَسْوَهُ وَصَدَّقَ لِإِيمَانِهِ ، وَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكْرُمَ ذَلِكَ  
الْمُنَافِقَ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ فَلَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِهِ ، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup> قَالَ الْإِمَامُ : يَا رَسُولَ  
اللَّهِ سَتَعْتَظِرُ لَأَبِي ، أَيْ : اطْلُبْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ ؛ وَلِأَنَّهُ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ  
أَرْسَلَ رَحِمَةً لِلْعَامِينَ ؛ لِذَلِكَ طَلَبَ الْمَغْفِرَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي . وَحِينَئِذٍ نَزَلَتْ  
الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ :

﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا  
بِإِلَهِهِمْ وَرَسُولِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بدعه ما كان من أمر أبيه لشي رسول الله ﷺ  
فقال : يا رسول الله إنه يلحقني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كسب فاعلاً فعمري  
به فإن أحسن إليك رأسه ، فوالله لقد عصمت والحزج ما كان لها من رجل أبير والده من ، إن  
أخشي أن تأمر به غيري فغيبه فلا تدعي نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يعني في الناس فأقله  
مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال ﷺ : « بل تفرق به وحبس صحبته ما يقى مدب » انظر تفسير  
ابن كثير (٤/ ٣٧٢)

(٢) وذلك مدب نومي عبد الله بن أبي ، وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يعلى عليه ، فاعترض عمر  
ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكنه فيه رضى عليه انظر الحديث لأنى بعدى البخارى  
(٤٦٧٠) ومسلم (١٤٤٠١) من حديث ابن عمر

ووقف العلماء في هذه الآية عند شيء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستعمار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُدِدت سبعين مرة فلأريد على السبعين قليلاً<sup>(١)</sup> وبذلك عُلِبَ الرسول الكريم جانباً لرحمة ، وجانب الإكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبي لذي أسلم وحسن إسلامه .

وكتب السبعة دائماً هي نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتي عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل في العدد هو مكررات الواحد ، أي أن الواحد أصل لعدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركت الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هي : ثمان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هي : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمعزود والمتنى والجمع .

ولذلك كانوا إذا أرادوا الريادة على سبعة فلا بد أن يأتوا بحرف العطف . ونجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتَهُمْ كَذِبَتُمْ عَنْهُمُ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبَتُمْ عَنْهُمْ وَجَعَلْنَا بِالْغَيْبِ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِسُهُمْ كَذِبَتُمْ عَنْهُمْ ... ﴾ [٢٦] [ الكهف ]

ولم يقل : ثامنهم كذبتهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر<sup>(٢)</sup>

(١) قال ﷺ : «إني أخشى الله تعالى فقال : «استغفروا لله أولاً تستغفروا لهم إن تستغفروا لهم سبعين مرة» وسأريد على سبعين» أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٧٠) ومسلم في صحيحه (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٤/٤١١٣) في تفصيل هذه المسألة ، بين من قال : إن نهاية العدد عند العرب هو العدد ٧ ومنهم من قال : إن هذا حكم لا دليل عليه . ومنهم من سمى الوو بين السبعة والثمانية وار الثمانية



وحين سمع رسول الله ﷺ « السبعين » ؛ قال . نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبي ، الذي طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا: كيف يغيب عن رسول الله ﷺ وهو الذي يقول عن نفسه « أنا أفصح العرب يد أئى من قريش »<sup>(١)</sup> ، أن عدد السبعين يُقصد به لكثرة مهما بلغت ، وأشاعر القدم يقول:

• أَسْتغْفِرُ بِنَا أَوْ أَحْسَى لَا مَكُومَةَ •

أى . افعلى ما تشائين

فكان الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ شاء أن يأتى بمضاعفات العدد النهائية وهى السبعون ليحسم الأمر .

وجاء قول الحق سبحانه ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . (٦) ﴾ [ المنافقون ]

أى . مهما استغفرت بأى عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم .

ونقول إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول: أن يعذر الله . والشق الثانى . هو محاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبي ، فهو ﷺ يعلم أن الله بن يغفر للمنافقين . وفى استغفار رسول الله ﷺ إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد محاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه ﷺ يعلم أن استغفاره من أجل مفاق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تشأ عنه المغفرة ، واستغفار يشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبي . ولكن ألا توجد ثانية للأب؟

(١) قال السيوطى في « التلخيص المبرور » : « مناهج صحيح . ولكن لا أمل له ، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأوردته أصحاب لغريب ، ولا يعرف له إسناده » . انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) والأسرار المرفوعة (ص ٧٠ ، ٧١)

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبي نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴾ (٢٠) [الكهف]

وجزاء العمل يُعطى للبعض في الدنيا ، ويُعطى للبعض في الآخرة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ خَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي خَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ خَرْثَ الدُّنْيَا نُزِّلْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۖ ﴾ (٢٠)

[الشورى]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبا لهب يُخَفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يُدَى أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ ﴾ (٣)

ولماذا يُخَفَّفُ العذاب عن أبي لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وعد مُرَّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية لتي بشرت بميلاد الرسول ، ومن هنا يُخَفَّفُ العذاب عن أبي لهب يوم الاثنين جزاء عمله .

كما أن عبد الله بن أبي كان له موهب يحسب له في وائفة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدعهم الكفار عن بيت الله الحرام ، وانتهت بصلح الحديبية وهي أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله ﷺ وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما في يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كمار قريش بمحمد وبأسلمين حين وقعوا معاهده بسهم وبين رسول الله ﷺ ، وتعرض نبي الكرم للدعوة في الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة .

نعود إلى قصة عبد الله بن أبي يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن في نفسه شيئاً من رسول الله ﷺ ؛ لأن مجيء الرسول ﷺ مع تنويع عبد الله بن أبي ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ، فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة في نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكنك تسمح لعبد الله بن أبي ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبي وقال : إن لي في رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله ﷺ . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر في عزوة بدر ، حينما أسر العباس عم رسول الله ﷺ . وكان أساس حويل القامة وثيابه تمرقت في المعركة ، فلم يجدوا طريقاً مثله إلا عبد الله بن أبي ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم يتسن رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك محصيات للذنوب ، فمن أذنب عليه أن يأتبك أولاً بـ رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، ف سبحانه القائل .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (٦٤) [ النساء ]

فالذي يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون ، وهكذا يعلم أن عبد الله بن أبي لم يعطى إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن

يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول :

﴿ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وحين ينفى الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق الله لم يهتدي فمذاً أعمل ؟ ويحمل المسألة كلها لله . بل نسأل العاسق : لماذا لم يهتدك ؟ لأنك فسقت .

إذن ، فعلم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أحدثت طريق الضيق والبعد عن مهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ؛ ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمهج الله الذى يُلَمَّع للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه ولكن المقصود هنا هو لهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمن دخل فى رحاب الإيمان وأمن وحسن عمله ، وتشمل فى قوله الحق .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادْهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد]

إذن ، فكل من مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفى المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف]

وكذلك قوله سبحانه ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة]

وأيضاً قوله الكريم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معدودون ؛ لأن الله لم يهتدهم ؛ لأنه سبحانه قد هداهم ودلهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

واقراً إن شئت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ (٧) ﴿ ضلّت ﴾  
فمادام صنعوا في هدايته لهم : ﴿ فَاسْتَحْيُوا نَفْسَ الْهَدَى ﴾ ، أى :  
أن الحق سبحانه يسّر لثمود طريق الخير ، ونكّتهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين  
ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ  
اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَقَالُوا لَا تَفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا  
يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١)

ولفرح هو السرور من فعل تسبح النفس به ، والمُخَلَّفُونَ هم الذين  
أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله ﷺ في المدينة وذهب إلى الجهاد  
بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التي قالوها ، وقد تركهم رسول الله ﷺ ؛  
لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خِلَالًا ﴾ (١٧) [ التوبة ]

ومن لا يريد أن يجاهد في سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضحك  
وليس معك . وسيشيع الأكاديب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من  
الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة ويبحث عن معارة  
أو حجير يحتمى خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضحك ؛ لأنه لن يقاتل  
معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفي نفس الوقت هو يقصر بالمسلمين ،  
ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة

رُسَيْنَ الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أدن لهؤلاء  
يعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ  
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والمقعد هو مكان الضعوف . والقعود رمز للبقاء  
فى أى مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان لى مكان آخر ، والذين عزوا  
مع رسول الله ﷺ قاموا واستمدوا لقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا  
ولم يقوموا رغبة فى البقاء فى أماكنهم .

ويقول تعالى : ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿ خلاف ﴾  
نعرف أن مصدرها حاف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قاتل قتالاً  
ومقاتلة . وهى إما أن تكون مخالفة فى رأى ، كأن تقول : فلان فى  
خلاف مع فلان ، أى : أن لكل منهما رأياً وإما أن تكون فى السير ،  
كأن تقول أنت لتعادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ،  
أو نقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشى .

والخلاف من ناحية الرأى هو عملية قسبية ، والخلاف من ناحية الحركة  
يشترك فيها القالب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله  
ﷺ والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى  
فى نفوسهم وارتاحوا لها . وبذلك خالفوا شرط الإيمان ، لأن الذين يحق  
لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم لى قول الحق سبحانه  
وتعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرُومِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا  
يُفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [ التوبة ]

وقوله : ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَقْبَلُوا لَتَعْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أُجِدُ مَا أُحِبُّكُمْ  
عَلَيْهِ﴾ [ التوبة ]

أى : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال<sup>(١)</sup> . وقد بين لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتَهُم تَقِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْمًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة]

إذن : هؤلاء الذين تخفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ، لأنهم حرموا ثواب الجهاد في سبيل الله<sup>(٢)</sup> . أما الذين يفرحون بالتحلف عن الجهاد فهم منافقون

وقوله سبحانه : ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿ خِلَافَ ﴾ تستعمل أيضاً بمعنى «بعد» ، أى بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله ﷺ للعزوة قعدوا هم بعده ولم يلعبوا وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجدوا رسول الله ﷺ لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم من تخلوا . وبين الحق سبحانه سبب تحلف المنافقين فيقول : ﴿ وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يُسَبِّطُوا الْمُؤْمِنِينَ وَيُكْرَهُهُمْ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ وَقَالُوا لَا تَفَرُّوا فِي الْحَرِّ ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزى ، بل أخذوا في تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه العزوة «غزوة تبوك» في أيام الحر وكانت المدينة تمتلئ بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى

(١) سيأتي سبب نزول هذه الآيات عند تفسير الآيتين ٩١ ، ٩٢ من سورة التوبة

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لقد خلصتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم رادباً ولا سلكنم طريقاً إلا أشركوكم في الأجر حبسهم المرض » أخرجه مسلم في صحيحه (١٩١١) وأحمد في مسنده (٣٠٠ / ٣) وابن ماجه في سننه (٢٧٦٥)

الحدود مع الروم طويلة . إذن فهي عروة كلها مشقة <sup>(١)</sup>

وقال الماسقون للمؤمنين ﴿ لا تنفروا ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشيء ما . ويقال فلان نهر من فلان ، أى : يكره وجوده معه فى مكان واحد . ويقال : فلان يبه وبين فلان نصر ، أى : يكرهان وجودهما فى مكان واحد . والذى يخرج للحرب كأنه نصر من المكان الذى يجلس فيه داماً إلى مكان القتل . ويكون القتال والنضحية بالمال والنفس فى سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أعيياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا فى الظل ومثقتهم ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمامها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّرَ بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتى بعدها أشياء تسوء وتمذه ، فهو بمعرفته بم هو قادم يعانى من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالخاصة ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليؤمن مستقبله . ولذلك نجد من يعمل لبلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف يتحمل هذا الشقاء ؟ يقول : لأؤمن مستقبلي . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة

(١) وقد سميت أيضاً بعروة العسرة ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ لقد ثقلت الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ﴾ [التوبة : ١١٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٩٦/١) : قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك لى ليهان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجيين كانوا يشقون العسرة بيهما ، وكان الثغر يندالون لثمة بيهما عصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمضها هذا ثم يشرب عليها ، فتأب الله عليهم وأعلمهم من حروتهم . ولكن السابقين تحموا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ابتداء



فيها سوء وعذاب ، فعادا عن حلودهم في النار ؟

وبكن هل قالوا : ﴿ لَا تَنفَرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ في خواصرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذي أعلم رسول الله ﷺ ما قالوه ؟ نقول . قد يكون ذلك هو ما دار في حواطرهم . وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في نفوسهم . وشاء أن يفضح ما في سرائرهم . لعل هذا يذلل الحرف في قلوبهم ، من أنه سبحانه مصلح على كل شيء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنح المشركين من حرج بيته الحرام قال ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... ﴾ (٢٨) [التوبة]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج يتعشون اقتصاد مكة ، وكان الخبر يأتي من كل مكان إلى مكة في موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت في ثياب عصيتكم الله فيها ، وكان التقوى تملأ نفوسهم وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ، ومن لا يملك المال يطوف عازياً

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفي معيشتهم طول العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فالخاطر الذي يأتي في النفس الشريفة ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتي على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، وابتدى حلقهم عليم بما يدور في حواطرهم . وإن لم يجر على ألسنتهم ؛ حيثل جاء قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ (٢٨) [التوبة]

إِذَنْ : فإله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور فى خواطرهم ، فرد عليه قُلْ أَلْ يُنْظِقُوهُ .

كَذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾<sup>(١)</sup> والفقء هو الفهم الدقيق . فأنتم حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته ، ولكمك إن عرفته بكل معطياته الخفية تكون قد فقءته . وأنتم إذا ذهبت للجهاد فى الحر قد تعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتكم أكبر وتعبكم أشد .

إِذَنْ : فعلمكم بشيء وهو الحر الذى ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا يسيبك ما عاب عنك ، وهو أن تكوخص الإنسان عن الجهاد بدخله ناراً أشد حرارة ، يحلده فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه عدم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المطلق القرأى ، رد الإمام على كرم الله وجهه على النجوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الحسف » .

ثم يقول بعد ذلك : « إن قلت لكم : اغروهم فى الشتاء ، قلتكم : هذا أوان فر وصر . أى برد شديد . وإن قلت لكم : اغروهم فى الصيف ، قلتكم : أنظرونا - أى أمهلنا - حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم فى البرد والحر تفرون ، فأنتم والله فى النار يا أشباه الرجال ولا رجال »<sup>(٢)</sup>

(١) من خطبه خطبها الإمام على عندما أقار معيان بن عرب الأرقى على الأنبار ، متعاضد السمرى عن قتالهم فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب النار ، وشعله ألباء ، ولرعه الصغار ، وسيم الحسف ، ومع الحسف : ثم قال : « إذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر فليتم ، حمارة القيظ ، أمهلنا يسلمح هذا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير فى البرد فليتم ، أمهلنا يسلمح هذا البرد ، كل فافرأ من الحر والقر . فليأ كنتم من الحر والقر تفرون ، وأنتم والله من السيف أمر ، يا أشباه الرجال ولا رجال . وبأ أحلام الاطعالم وعقول ريات الحجال » انظر خطبته كامله فى كتاب « خطب الإمام البغواء » بتحقيق : عادل أبو المعاضى . نشر دار الروضة بالقاهرة

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾  
 أى أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا على الحق ، فهم  
 سرف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا  
 يَكْسِبُونَ ﴾ ٤٩

والضحك هو انفعال<sup>(١)</sup> غريزي فطري ، يحدث للإنسان عندما يقابل  
 شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو  
 انفعال غريزي أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكروا  
 يحزن بالنسبة للإنسان ، وكلاهما ظاهرتان فطريتان ، أى أنهما تحدثان  
 بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو  
 اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسى وبكاء أمريكى ، أو ضحك روسى  
 وضحك إنجليزى ، أو ضحك شرفى وضحك عربى . ذلك أن الضحك  
 والبكاء انفعال طبيعى موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد  
 أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده  
 هو الذى يحيى ، وهو سبحانه وحده الذى يميت . فهو سبحانه وحده الذى  
 يضحك ، وهو سبحانه وحده الذى يبكى . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ١٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ١٤ وَأَنَّهُ خَلَقَ

الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ١٥ ﴿

[النجم]

(١) هناك فرق بين الانفعال والامتثال ، لأن الانفعال بغيره والاتصال بغيره ، فالانفعال الذى يظهر  
 على وجه الإنسان سواء كان سروراً أو حزنًا أو اهتماماً بشيء هو أمر غريزي فطره الله عليه  
 استجابة لمؤثرات خارجية ، أما الامتثال فهو اصطلاح الانفعال كأن يتكلف السرور فى مقام  
 لا يقتضىه.

ولذلك فالضحك والبكاء يأتين بلا مقدمات ، لا أقول لنمسي :  
سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول . سأبكي الآن فأبكي ؛ لأن هذا  
الفعال عريرى لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكنت أحياناً بلجأ إلى  
التضاحك أو إلى التماكي وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه  
الافتعال . حين يروى لك إنسان نكتة سخيفة ، والمسروض أنه قالها  
لتصحت ، ولكنها لا تصحكك ، وفي نفس الوقت أنت تريد أن تجامله  
فتفتعل الضحك ، أى تصحك بافتعال . وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً  
مثل بكاء البادية التى تجس وسط أهل الميت وتبكي . وقد تضع بعض نقط  
الحسرين فى حينها لتفتعل الدمع ، وهذا كله افعال . أما الضحك  
والبكاء الحقيقى ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ جاء بعد  
قوله ﴿ لِيَرِحَ الْمُحَلِقُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى أنهم فرحوا عندما  
يقروا هم فى المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد . جئوا فى حدائق المدينة  
وهم فرحون فى راحة وسرور يضحكون ؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد قاروا  
بعدم اشتراكهم فى الجهاد . ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتى  
بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعباد بالله

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾  
ولم يقل سيفضحكون قليلاً وسيكون كثيراً ، لماذا ؟

نقول : عندما يُسند الفعل إلى المحلق الذى يعيش فى عالم الأعباء ،  
والمختار فى عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يحور ألا يحدث  
ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ أى : أمر  
بالضحك ، ثم بجىء فى البكاء ويقول ﴿ وَلْيَبْكُوا ﴾ أى : انكوا . ولأمر  
بالضحك والبكاء هر أمر اختيرى من الله سبحانه وتعالى ، تميز فيه الطاعة  
وتجوز فيه المعصية ؟

إذا كان كذلك ، فهل يستطيعون أن يفنون أمراً اختبأ به ؟ ونقول : إن ذلك أمر غير اختياري ؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذي يصعق في النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء بالأحداث . وكما يبين فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء .

والحق حين يقول : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لا بد أن يحدث . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وأبكموا كثيراً ﴾ فلا بد أن يبكموا ؛ لأن انفعال السكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون : إن الذي يضحك أحيراً يصحك كثيراً ، وكذلك الذي يبكي أحيراً يبكي كثيراً .

إذن . فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتي للإنسان حادث يسهه ، ثم تأتيه ساعة يؤس تمهر هذا السرور كله ، والعكس صحيح . وإذا كن مسؤولاً المسافقون قد ضحكوا قليلاً في الدنيا . فحمر كل منهم في الدنيا قليل ؛ لأنه حتى وإن عاش في الدنيا ضاحكاً طوال عمره فكم سيضحك ؟ أربعين سنة ؟ خمسين سنة ؟

إن كلاً مما له في الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسب الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك في الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتي الآخرة بالخمود الطويل الذي لا ينتهي ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً .

ولذلك فلا بد لكل إنسان أن يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها ؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكابه لمعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية . فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد

يصبط ، وقد يحاكم ونقطع به ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم باسرفة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص لخطط لسرقة وفي ناله أنه مضبوط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويهت .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يرني الزاني حين يرتى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »<sup>(١)</sup>

لأنه ساعة يزنى لو تخيل أو تأكد أنه سيلقى في النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الرنا أبداً . وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس في فمه إذا تخيل النار وهو يُعَذَّبُ فيها . ولكن العفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية ، لأن الإيمان يقتضي أن نستحضر عقوبة ساعة تُقدم على المعصية ، وأن تعلم يقيناً أن كل ما تفعله ستحاسب عليه في الآخرة ، وسيكون هناك جزاء .

فرد صحتك من مطلوبات الإيمان فلا بد أن تنكى في الآخرة فإن فرحت - مثلاً - بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت في الدسا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الهم في الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعَذَّبَ به في الآخرة . والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذْ انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [الطغى]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التي يتعرض بها المؤمنون في الدنيا ، وأولى هذه الصور هي ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : نخذنا على جواحك في الآخرة . ثم بعد ذلك يأتي العمز واللمز ، ثم إذا ذهب المفاق إلى أهله

(١) متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ومسلم في صحيحه (٥٧)

أخذ يسخر من الطائمين ويقول . لقد فعلت كذا وكذا لإنسان منكم . وسحرت منه ولم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكى القصة فرحاً بما عمل . ويسى أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم : جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيئة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروى لهم ما حدث ، وهو محور سرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك من انهموا المؤمنين بالضلال ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣)

أى : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه فى الدنيا . وهى فانية وعمرها قليل . ثم يأتى سبحانه وتعالى بالمقابل فى الآخرة ؛ فيقول : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل نوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦) [ المطففين ]

فكما ضحك الكفار من المؤمنين فى الدنيا ؛ سيضحك المؤمنون من الكفار فى الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك فى الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهم يُعذَّبون فى النار ، أى أن الله جزأهم بمثل عسهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته - سبحانه - التى لا حدود لها

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : « سيفضحون » ككلام خبرى ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مؤكداً وقوله هنا فى المنافقين ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ . يعنى : أن الضحك لابد أن يحدث ، لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى .

فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيُجْزَىٰ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعطينا العلة أو السبب في أن صحتهم سيكون قليلاً ، وبكاهم سيكون كثيراً ، لأن هذا جزاء ما فعلوه في الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد وسرّوا بالراحة في المدينة ، فلابد أن يلاقوا في الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سيُناب المؤمنون على ذهابهم للجهاد في الحرب .

إذن ، فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ، وكلمة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ هنا لها ملحظ لا بد أن نُنتبه ، فقد كان من الممكن أن يُقال "جزاء ما كانوا يعملون" ، أو "جزاء ما كانوا يفعلون" ، فلماذا جاء الحق بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ، وما الفرق بينها وبين "ما يفعلون" و "ما يعملون" ؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجال عمل ؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، ولقدم تمشي ، والألف يشم ، والأامل تلمس . إذن لكل عضو له مهمته . فإذ كانت المهمة هي النطق باللسان سميها القول . وإن كانت مهمة من مهام باقى الجوارح عدا اللسان تسميها الفعل . فاللسان وحده أحد القول ، وكل الجوارح أحدث الفعل . والقول والفعل معاً نسميها عملاً .

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى "يفعلون" يكون ذلك مقابل يقولون ؛ لأن لإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضح ذلك آية الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عَدُوَّ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

ويمكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شيء لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب امتعال لكسب ؛ لأن الكسب عمل طبيعي ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول :



﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا انْكَسَبَتْ...﴾ (٢٨٦) [البقرة]

لأن الاكتساب باحرام فيه افعال يتعب النفس ، ولا يجعلها مسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته في ابنت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً . لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه ، فيقتل الوافذ ويظلم الأنوار . وإن دق جرس الباب بصاب بالدعر والهلل ؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإحرام ، فلا يهيجها الحرام . وفي هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جوارحها عند الله أليماً وعذابها عظيماً .

ويقول الحق سبحانه في هذه الآية : ﴿جَرَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكان مقبض لكلام أن يقال : " جراء بما كانوا يكسبون " لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها اعتدال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى بلغتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا في الكفر ، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أي اعتدال .

واقرا قول الحق : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ...﴾ (٢٨٦) [المائدة]

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم به السارق خفية ويُسبب لها ويفعل ؛ ولذلك كان من المطلق أن يقال " اكتسبوا " لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت في دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهي بالنسبة لهم عملية آتية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً " . والذي يسرق دون هذا النطاق لا يُطو عليه حدٌ قطع اليد . لماذا ؟ لأن ربع الدينار في ذلك الوقت كان يكفي لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة

(١) من عائلته رضي الله عنها قال : " كان رسول الله ﷺ يقطع السارق في ربع دينار فصاعداً " أخرجه مسلم (١٦٨٤) وأحمد (٣٦/٦) والترمذي (١٤٤٥) وقال " حسن صحيح .

يوم واحد . فإذا سرق أي إنسان ما يكفي قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال . ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون لسرقته قد حدثت ويقام عليه الحد<sup>(١)</sup> .

ونحن نعلم أن العقل البشري وظيفته الاخبار بين البدائل ، ومفروض أن يُقدَّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان في الطاعة . ونحن نأتي للطلاب المجتهد وبطلب منه أن يُحَصِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح ؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التي يريد ها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك ؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة في المذاكرة دون أن يشعر بالنعب .

إذن : فالذي يُحَسِّب في الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذي يُكْرَهُك في المعصية هو استحضار ألم العقاب الذي لابد أن يحدث .

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر ؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان ، مما يحدث منهم دون أن يستحضرُوا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصي وهم فرحون . ولو قال الحق كلمة : " يقولون " لكان كلامهم بغير فعل . ولو قال . " يفعلون " لكان فعلاً

(١) السرقة نوهان - سرق يوجب التعزير ، ونوع يوجب الحد - فلهذا يوجب التعزير هي التي لم تنوم فيها شروط إقامة الحد ، مثل سرق الثمار على الشجر ، أما التي يجب فيها الحد فهي التي تنوم فيها ثلاثة شروط

١- أخذ مال الغير بما لا يقبل عن ربح دين

٢- أن يكون هذا المال في حرر كخزينة أو بيت أو مسجد .

٣- أن يتم السرقة على هيئة الاختفاء والاستتار - وبهذا لا يمنهر النسيب أو المعتص أو الخائن (أي . النسيب) سرقاً يجب فيه قطع اليد - وإذا ثبت جريمة السرقة بكل هذه الشروط فتقطع يد السارق البعس من مفصل الكف ، فإذا سرق ثانياً تقطع رجله - انظر تفاصيل إقامة هذا الحد في فقه السنة للشيخ عبد سابع (٢/ ٤٦٦ - ٤٧٦) .

لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال " يعمسون " لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال " يكتسبون " لفهما أن المعصية تثير نفعاً وتهيجاً في داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ ليعطيا المعنى الصحيح في أنهم قد اعتادوا المعصية ؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا اعتعال .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى ثانياً حكمه في الدنيا على هؤلاء المايقين الذين فرحوا بتخليصهم عن الجهاد في سبيل الله ، فيقول :

﴿ فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى ظُلُفٍ مِنْهُمْ فَأَسْتَفْذُوكَ  
لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْلِلُوا مَعِيَ  
عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا  
مَعَ الْخَائِفِينَ ۝ ٨٢ ﴾

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ : عندما تنتهي الغزوة وتعود إلى المدينة ، فهناك حكم لا بد أن تطبق مع هؤلاء المايقين ؛ الذين تحلفوا وفرحوا بعدم الجهاد .

وقوله : ﴿ فَإِنْ رَجَعْتَ ﴾ كلمة " رجع " من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : " ضرب محمد " ثم تسكت ؛ لأنه عليك أن تين من المضروب . ولا يمكن أن تقول " قطع محمد " ، بل لابد أن تقول ماذا قطع ؟ وهكذا يحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى معول كأن تقول : " جلس فلان " والفعل الذي يحتاج إلى مفعول اسمه " فعل مُتَعَدٍّ " أما الفعل الذي لا يحتاج إلى معول فاسمه " فعل لازم " . إذن : هناك فعل متعد وفعل لازم

وهي هي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ ﴾  
والحق سبحانه هو العاقل ، والكاف في ﴿ رَجَعْتَ ﴾ هي المفعول به .  
ولكن لأنها صمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على الفاعل . إذن .  
﴿ فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ ﴾ رجع فعل متعدي ، والفاعل لفظ الخلافة . والمفعول هو  
الضمير العائد على رسول الله ﷺ ؛ أي : أن الله رجعت يا محمد

ولكن هناك آية في القرآن الكريم تقول :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... ﴾ (١٥٠) [الأعراف]

في الآية التي نحن بصددنا ﴿ فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ ﴾ العاقل هو الله ، أما في  
قوله الحق : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ ليجد أن مرسى هو الفاعل ولا يوجد  
مفعول به ، إذن دـ " رجع " يمكن أن يكون فعلاً لازماً " ، كأن تقول .  
" رجع محمد من الغزوة " . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه :  
﴿ فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ ﴾ أي : يا محمد من الغزوة . إذن - فرجع نستعمل لازمة  
وتستعمل متعدياً - ولكن في قصة سيدنا موسى عليه السلام ؛ عديم ألقته  
أمه في السحر والنقطة آل فرعون ؛ ومشيت أخته تتبعه ؛ ثم حرم الله عليه  
المراضع لبعيده إلى أمه كي يريل حزنها . يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَوَجَّعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ  
تَقْرَأَ عَلَيْهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴾ (٤١) [طه]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث ؟ ولماذا استعمل فعل " رجع " لازماً  
ومتعدياً ؟

(١) الفعل المتعدي هو الذي ينصب نفسه معمولاً به أو شيئاً أو ثلاثة دون أن يحتاج إلى مساعده حرف  
جر أو غيره . أما اللازم فهو الذي لا ينصب نفسه معمولاً به أو أكثر ، وإنما ينصب بمفعول حرف  
جر . وهناك نوع يصحح أن يكون النوعين معاً مثل : شكر ، ونصح . وعمل رجع المذكور في الآية  
من هذا النوع الأخير

يقول : إنه في قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ هنا هيىء لموسى من ذاته أن يرجع ، أى أنه قرار احتيوى من موسى ، أما قوله تعالى : ﴿وَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ ، فموسى في هذه المرحلة ، كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا ند أن يهيم له الحق طريقة لإرجاعه ، أى من يحمله ويرجعه . أما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال : " وإذا رجع إلى طائفة منهم " مثلما قال في موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى﴾ ولكن الحق استخدم ﴿رَجَعْتَ﴾ ليدل على أن رمام محمد عليه الصلاة والسلام في الفعل والترك ليس بيده .

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح . إيكم أن تنسب الأحداث إلى بشرية محمد ﷺ ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذى أذهب إليه وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله به . كما كانت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة يادد من الله ، فقبل أن يأتى الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله ﷺ يبشر به يستطيع أن يهاجر . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرف دائماً أن ذهاب محمد ﷺ ورجوعه من أى مكان ، ليس بشرية رسول الله ﷺ ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ وكاد من الممكن أن يقول " فإن رجعت الله إليهم " أو " فإن رجعت الله إلى المدينة " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التى حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا في المدينة رغماً عنهم ولم يكن لديهم ما ينفعونه أو لم يكن لدى رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه . وكذلك المرضى وكسر السن الدين لا يستطيعون قتالاً وهؤلاء حسن إسلامهم وقيل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التي تخفت عن الجهاد وهي فادرة ، والتي امتنعت عن الخروج ، وهي نمك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هي التي فرحت بالتحلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى ؛ فكانت عيوبها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشركهم في الجهاد .

إذن . فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت ثوبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله . وبقيت طائفة المنافقين الذين فرحوا وضحكوا عندما بقوا في المدينة ، وكان عذاب الله لهم بأن مسح أسمائهم من ديوان المجاهدين في سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد

ويقول سبحانه : ﴿وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْهُمْ بِالْخُرُوجِ﴾ فكيف استأذنوا أو الأمر للعودة وتحايلا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج ؟ نفوس : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة في قلوبهم ؛ لأنهم أهل دين . وحيث طلبوا الخروج حتى يحصلوا على العائش والغنائم الدنيوية . ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن بهم بالجهاد مع المسلمين ، يقال : ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي : أن أسمائكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والعزاة ، ولماذا قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله ﷺ ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّكُمْ رَجِيتُمْ بِالْفُجُورِ أُولَٰئِكَ﴾

ولكن الحق يقول أيضاً ها : ﴿فَاسْتَعِذْهُمْ بِالْخُرُوجِ﴾ وهذا أمر لا يحدث إلا في العزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة ؟ وبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يقبل منهم قتالاً حتى في هذه الحالة ، يطلب

من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : ﴿ وتقاتلوا معي غدواً ﴾ إذن . فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج في الغزوات ، ولا يقتال لأعداء إذا هاجموا المدينة ؛ لأنهم أسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خارجها ؛ ما داموا قد فرحوا بالعود ، ورفضوا أن يشتركوا في الجهاد وهم قادرون ؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين

وما معنى خالفين ؟ المادة هي " خاء " و " لام " و " فاء " ، فيها " خف " و " خلاف " و " خلوف " وغير ذلك و " خالفين " إما أن يكونوا قد تحلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، وإما أن يكونوا حاملوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً . ويقول ﷺ في حديث عن الصام : " خلوف هم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك " والخلوف هو تعبير الرائحة ، وتعبر الرائحة بدل على فساد الشيء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين ومخالفين تعنى فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وتعنى أنهم تحلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يقتصر جزاء هؤلاء استخلفين فقط أن تشطب أسمائهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٣٨)

وصلاة رسول الله ﷺ على ميت هي رحمة له ، وغفران لذنوبه ؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن

(١) متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ومسلم في صحيحه (١٦٣) من أبي هريرة رضي الله عنه

يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ . وإذا قال رسول الله ﷺ هذا لكلام ، ودعا بهذا الدعاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ<sup>(١)</sup>

وقول الحق لرسوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ معناه نهى عن فعل لم يأت زمه . وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ أى : لا تدعب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ مع أن النهى عن المستقبل ، أى : من مات بعد برول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق "مات" أو "يموتوا" واستخدم الفعل الماضى ﴿ مَاتَ ﴾ ؟ وتقول لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شيء لا يقوره الله مستقبلاً ، نعى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوثه ببيلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

أما قوله الحق ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم مثل الآية التى نزلت فى رعيم النخعي عن عبد الله بن أبى ، فعندما مرض عبد الله بن أبى مرض الموت : جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ويستغفر له<sup>(٢)</sup> . وذهب رسول الله ﷺ مجاملة لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى أسلم وحسن إسلامه .

(١) حياة البرزخ هى حياة بين الموت والبعث ، ومنه قوله عز وجل ﴿ وَمَنْ دَلَّكُمْ إِلَى يَوْمٍ تَخْتَلُونَ ﴾ [المؤمنون ١٠٠] والبرزخ فى كلام العرب : المنجر بين الشيئين ومنه قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ فَبَيْنَ أَرْمَاتِ رِمَادٍ مَلْغَاجٍ رَجَعِلَا بَيْنَهُمَا يَبْرِخَانِ وَحِفْظًا مَحْفُورًا ﴾ [الفرقان ٥٣]

(٢) سبب تحريمه عند تفسير الآية ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم ﴾ [التوبة ٨]



وعندما وقف رسول الله ﷺ بجوار عبد الله بن أبيّ ، قال له : « أهلكك حب يهود »<sup>(١)</sup> ؛ لأن بن أبيّ كان يجامل اليهود ويعاوبهم ، ونفاقه في الإسلام كان محاملة لليهود وكان يظهر أمام اليهود الكفر ، ويظهر أمام المسلمين الإيمان . وهذا قال ابن أبيّ : يا رسول الله ، بما أرسلت إليك لتستعمر لي ولم أرسل إليك لتؤنسي .

فاستغفر له الرسول ﷺ ، وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا تِستَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ..﴾

[ التوبة ]

﴿٨٠﴾

وصلب عبد الله بن أبيّ من رسول الله ﷺ أن يهيه ثوبه لكي يكفن به ، فلما ذهب رسول الله ﷺ إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى . وقد كان ﷺ يلبس ثوبين ، ثوباً يلي جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبيّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذي لامس جسدي رسول الله ﷺ .

انظر إلى زعيم المنافقين والذي كان يمؤّه الكبرياء في حياته ، كروء على المؤمنين ؛ ما هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ أرسل له القميص الذي لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبد الله من عبد الله بن أبيّ .

ولم يتقبل هذا الفعل عدد من المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبيّ جاء ابنه عبد الله ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يصلي عليه .

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٣٧٩) من مرسل قتادة . وقد أورده ابن حجر في الصحاح (٨/٣٣٤) وعونه بعد الزواوي والطبري عن قتادة . قال ابن حجر : هذا مرسل مع ثقة رجاله ، ويعضده ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس بنحوه .

وعندما هم النبي أن يصلي عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين الرسول وبين القبلة<sup>(١)</sup> . وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ فقد أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على ابن أبي ، لأنه رسول رحمة للعالمين . ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلي ، فأنزل الحق قوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ وقالوا : تلك من الأمور التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن لمائل التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعبير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله ﷺ يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى<sup>(٢)</sup>

ومن هذه الأمور أيضاً رأيه في أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأى أبي بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، أو يؤخذ فيهم لقتاء ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْصَلَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (٩٧)

بعض الناس يتساءل . كيف يستدرك عمر على رسول الله ﷺ ؟ نقول : لأن الرسول ﷺ لم يُحَلَّد في أمته ؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأسوة بأه ﷺ متى رأى رأياً حسناً نزل عليه . وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذا ؟ ونقول . إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريد الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٧١) وأسنده في مسنده (١٦/١) والترمذي في سننه (٣٠٩٧) والنسائي (٦٧/٤) قال الترمذي حديث حسن صحيح قريب

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤٨٣) عن أنس ، وقد ذكر فيه موافقة الوحي لعمر في ثلاث تحويل القبلة ، حجاب ساء النبي ﷺ ، معامه ساء النبي

وبعد أن نزل قول الحق . ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ صار الحكم عاماً في ألا يصلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنافقين . لكن من أراد من الناس أن يصلي فيُصلِّ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع عن الصلاة على المنافقين .

كذلك امتنع ﷺ عن الصلاة على الميت وعليه دين ، فكان يسأل أهل الميت هل عليه دين ؟ فإن قالوا : نعم . سأل : هل ترك ما يسده ؟ فإن قالوا : لا ، قل : « صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ »<sup>(١)</sup> ، وامتنع هو عن الصلاة . ولكن ما ديب من عديه دين حتى يُحرّم صلاة رسول الله عليه ؟ لمجد الإجابة في قوله ﷺ :

« مَنْ أَحْذَأُ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ آدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ »<sup>(٢)</sup> .

هو كان هذا الميت المدين بنوى سداد دينه لأعانه الله على أن يُسَدِّده ، أما إذا ترك ما يقضى بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال في التوك فلا يكون مديناً

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضي الله عنه ، ويذهب على قبور المؤمنين ويقول : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ »<sup>(٣)</sup> ومعه الحق

(١) أصح عنه أخرجه البخاري (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ إذا يرى بالرجل الذي عليه الدين ، يسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدث أنه ترك نديه وفاء صبي ، وإلا قال للمسلمين : صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٨٧) وأحمد في مسنده (٣٦١/٢) وابن ماجه في مسنده (٤١٧) وابن جرير في مسنده (٢٤١٠) عن أبي هريرة

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) وأحمد في مسنده (٣٧٥/٢) وابن ماجه (١٣٠٦) والسنائي (٩٤/١) عن أبي هريرة

من ذلك العمل على قبور المنافقين<sup>(١)</sup> ويعطيا الحق سبحانه العلة في ذلك فيقول ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وعرفنا كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق . ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج ؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة ؛ لأن البلع في بضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البليحة ، بحيث تستطيع أن تنزعها بسهولة ، فكان منهج الله بأسبه للمؤمن لا بد أن يلتصق به كقشرة البليحة الحراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا تتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق ؟ لأنك تعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب ؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مع أنهم كفروا ، وانكفروا أكثر الذنوب ؟

ونقول إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول في الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد في النفوس عمة قيماً معروفة يتبعها حتى الدين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا . نريد أن نسها مال خلال ، لا يدخل فيه مال بغي<sup>(٢)</sup> . وكانوا في انماصي يُحصرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرقيات ، ويأخذون من أموالهن لئلا يكف الإسلام قد جاء بعد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء لتي جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

(١) وما ورد في سبب نزول قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة ٨٤] أنه لما مات عبد الله بن أبي أمية النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، وذاك لم تأت لم تتركه مُعَيَّر بهدد . ما شاء النبي ﷺ فوجهه قد أدخل في حجره قتال . هـ فلا قل أن تدخلوه ؟ فخرج من حجرته وتعل عليه من ريقه من دمه إلى قلعه وألبسه قميصه . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧١/٣)

(٢) وذلك أنه عندما أرادت فريش أن تسي الكعبة نام أبو هب بن عمرو بن مغرم وتناول من الكعبة حجراً ، بولت من يده ، ستنى رجع إلى موطنه فقال يا معشر فريش ، لا تدخلوا في بناتها من كسكم . لا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بنى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . انظر السيرة النبوية لأبي همام (١/١٩٤)

إذن : فقوله الحق : ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، أى : لم يكونوا مسلمين ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ لَا سَاقُونَ ﴾ أى : لم يلتزموا بأية قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ  
بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٨٥)

ونعلم أن الحق قال فى آية سابقة :

﴿ فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا  
وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥٥) [التوبة]

والنص لقرآنى إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول : إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن نظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ، فقد تحمل آيتان معنى عاماً واحداً ، ولكن كل آية تحس خصوصية العطاء ، ولناخذ مثلاً من قوله الحق

﴿ وَلَا تَقْطُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴾ (٦٥) [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْطُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ... ﴾ (٣١) [الإسراء]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن فى القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء فى الآية توافق مقتضى كل حال . ففى قوله

(١) زهقت نفسه : خرجت ومات ، ورهن الباطل : زك وبطل فهو رهن ورهق : قال تعالى «وزهر من أنفسهم أى : مخرج : يمزقون»

سحافه عن ررق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدرى لآيتين يل التفتوا إلى عجر  
الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء فى البيان العربى .

ولك أن تسأل هؤلاء المستشرفين الذين يثيرون مثل هذه الأقاويل • هل  
تروون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛  
لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربى ونقول لهم أنتم إن نظرتم إلى عجر  
كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقنصى أولها ، وإلا لما استقام  
لمعنى ، فإله سبحانه وتعالى لم يقل فى الآيتين : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من  
إملاق ﴾ وإنما قال : ﴿ من إملاق ﴾ وقال : ﴿ حشية إملاق ﴾ ، ولم يقل فى  
الآيتين : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ بل قال : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ وقال :  
﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ .

إذن : فبداية الآيتين محتله ؛ الآية الأولى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من  
إملاق ﴾ . والإملاق هو المقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى .  
﴿ ولا تقتلوا أولادكم حشية إملاق ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن  
الإنسان قد يخشى أن يأتى الفقر بمحى الأولاد .

إذن : فالآية الأولى تحاسب الفقراء فعلاً ، والآية الثانية تخاطب غير  
الفقراء الذين يخشون مجىء الفقر إذ رزقوا بأولاد ؛ والفقير - كما  
نعلم - يشغل برقه أولاً قبل أن يشغل ررق أولاده . ولذلك يطمئنه  
الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول .  
﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ أى : اطمئن أيها الفقير على رزقك فإن يأخذ  
أولادك منه شيئاً ، لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك  
أيضاً .

أما غير الفقير الذي يحشى أن يجيء الولد ومعه العقر فقد يشغل بال المولود الجديد سيأتي ليحوّل عنه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى أن رزقهم يأتي من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تحشوا لفقر وتقتنوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد . وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار .

كذلك فى الآية التى نحن بصدددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد وردت فى نفس السورة ، تقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف فى الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى تقول

﴿ فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥٥)

[ التوبة ]

والآية الثانية التى نحن بصدددها تقول

﴿ وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٨٥)

[ التوبة ]

أول اختلاف نجده فى بداية الآيتين ؛ ففى الآية الأولى : ﴿ فَلَا تَعْجَبْ ﴾ ، والثانية : ﴿ وَلَا تَعْجَبْ ﴾ .

ففى الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، وإفاء تفتضى الترتيب . إذن فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهى قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفْسَانِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (٥٤)

[ التوبة ]

تُكَانُ هَذِهِ حَيْثِيَّاتٌ كُفْرُهُمْ ؛ فَهَمُ لَا يُصَلُّونَ إِلَّا نِفَاقًا ، وَلَا يَتَّقُونَ مَالًا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا وَهَمُ بِكَرْمُونِ ذَلِكَ .

وَالْمَتْعَةُ فِي الْمَالِ أَنْ تَتَمَقَّهُ فِيمَا تَحِبُّ ، فَلِذَا أَحْبَبْتَ طَعَامًا اشْتَرَيْتَهُ ، وَإِذَا  
أَحْبَبْتَ ثَوْبًا اتَّعْتَهُ <sup>(١)</sup> وَتَكُونُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مُسْرُورًا وَأَنْتَ تَتَّفِقُ مَالَكَ ،  
وَلَكِنْ هُوَ لَا يَتَّفِقُ أَمَالًا وَهَمُ كَارِهُونَ .

وَالْمُؤْمِنُ عِنْدَمَا يَتَّفِقُ مَالَهُ فِي صَدَقَةٍ أَوْ زَكَاةٍ هُوَ يَعْمَلُ ذَلِكَ إِيْمَانًا مِنْهُ بِأَنَّ  
اللَّهَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى سَيِّمُطِيهِ أَصْحَافُ أَصْحَافِ الْأَجْرِ فِي الْبَدَنِ وَالْآخِرَةِ  
إِذَنْ . فَحِينَ يَتَّفِقُ الْمُؤْمِنُ مَالَهُ فِي الزَّكَاةِ ، يَكُونُ فَرِحًا لِأَنَّهُ عَمِلَ لِنَدِيَّاهُ  
وَلِآخِرَتِهِ .

أَمَّا اتَّفَقَ لَدَى يَضْمَرِ الْكُفْرِ فِي قَلْبِهِ ، فَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَلَا يَعْرِفُ  
السَّرِيكََةَ فِي الرِّزْقِ ، فَكَأَنَّهُ أَنْفَقَ مَالَهُ دُونَ أَنْ يَحْصِلَ عَلَى شَيْءٍ ، أَيْ أَنْ  
الْمَسْأَلَةَ فِي بَطْنِهِ حَسْرَةٌ فِي الْمَالِ وَلَا شَيْءَ عَمِيرَ ذَلِكَ . وَإِنْ أَنْفَقَ الْإِنْسَانُ  
وَهُوَ كَارِهٌ ، فَالْمَالُ الْمَوْجُودُ لَدَيْهِ هُوَ ذَلَّةٌ وَتَعَبٌ ؛ لِأَنَّهُ حَصَلَ عَلَى الْمَالِ بَعْدَ  
عَمَلٍ وَمَشَقَّةٍ ، ثُمَّ يَتَّفِقُهُ وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَلَا بِجَزَاءِ

وَيُرِيدُ اخْتَقَ سَبِّحَانَهُ أَنْ يَلْقِنَا إِلَى أَنْ رَزَقَهُ لَهُؤُلَاءِ النَّاسُ هُوَ سَبَبٌ فِي  
شَقَائِهِمْ وَإِدْلَالِهِمْ فِي لَدُنِيَا لِيَجْعَلَهُمْ يَجْمَعُونَ الْمَالَ بِعَمَلٍ وَتَعَبٍ ثُمَّ يَتَّقُونَهُ  
بِلَا ثَوَابٍ ، أَيْ يَحْسِرُونَهُ . وَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَنْهَبُ إِلَى الْحَرْبِ نِفَاقًا ، فَيَتَّفِقُ  
عَلَى سِلَاحِهِ وَرَاحِلَتِهِ <sup>(٢)</sup> ، وَلَا يَأْخُذُ ثَوَابًا ، وَيُرِيئُ أَوْلَادَهُ ثُمَّ نَأْتِي الْحَرْبَ ،  
فَيُذْهِبُونَ نِفَاقًا لِلْقِتَالِ ؛ فَيَمُوتُونَ دُونَ اسْتِشْهَادٍ إِنْ كَانُوا مُنَافِقِينَ مِثْلَ آبَائِهِمْ  
وَهَكَذَا نَجِدُ أَنْ كُلَّ أَمْوَالِ الْمُنَافِقِ الَّتِي يَتَّظَاهَرُ بِالْإِسْلَامِ ، وَهُوَ كَافِرٌ ، تَكُونُ  
حَصْرَهُ عَلَيْهِ

(١) ابْتَعَ . اشْتَرَى

(٢) الرَّاخِلَةُ . كُلُّ بَعِيرٍ قَادِرٍ عَلَى مَسَلَاتِ الْمَطَرِ أَوْ الْجَهَادِ .



ومن هنا فبذلك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم ؛ لأنها ذلة لهم في الدنيا ؛ فهم يبذلونها نفائاً ، فإذا امتنعوا عن الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكانهم قد أعلو أنهم منافقون ، وهكذا نجد إغناقتهم كرهاً هو إدلال لهم ، وإن لم يسمقوا فهذا أمر يفصحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضي الإغناات ، وإنه يقتضي الإشفاق عليهم.

ولا تغفل أنك حين حذفتهم من ديوان الخزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدواً ، أن في أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فيها عقاب وفصيحته وإدلال لهم .

ولكن في الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عزوته ، ومنهم من له المال والولد .

إذن : فهم مختلفون في أحوالهم ، لذلك جاء بقول ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ لسد ذي المعاني كلها . ولتشتمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد .

أما في الآية الثانية التي نحن بصددنا

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال وأولاد للعذاب ولكن هناك من يقول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب ؟ وهل لأفعال الله علة ؟ ألا يقول المسلمون إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول في قوله الحق :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) [الذاريات]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة في الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن في العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شيء يزيد في ملكه ولا شيء ينقصه . أو هي لام العاقبة . ومعنى « لام لعاقبة » أن تحصل شيئاً فتأتي العاقبة بنير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق .

﴿ فَاتَّقِطْهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا .. ﴾ (٨) [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين<sup>(١)</sup> ؟ لقد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن انتهاء جاءت بنير ما قصدوا ؛ فأصبح الذي التقطوه ليكون ولباً وتصيراً لهم هو الذي جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لقتله ، وشاء الحق أن يخفى عنه ليعب ليقوم هو بتربية من سيقضى على ملكه ، تماماً كما تدخل ابك إلى المدرسة فيعشل ، وتنطق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب في ذلك هو حبهم للمال والمنعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبياً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عروة لهم ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأساء في الدنيا فالما يجمعه المتأفق من حلال ومن حرم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة نصيبه ، وإما أن يفارق هو

(١) قرة عين : مصدر مرور وهرج وسعادة قلب

لحال بالموت ، وإما أن تكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيههم ويتعب في تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم .

فكان قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم ، بل هي عذاب لهم ؛ لأنهم يربطانهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحيث تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شيء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً .

أما الآية الثانية

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهي حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، بهم في خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعاترون من العذاب وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعَذِّبُونَ ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يمتقدون في الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن اقتفاد الابن إنما يسد طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له في الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [النور]

وفى هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا فى خوف وحسرة  
وفى هذا عذاب . ويلقنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه  
دينماً بقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتُفَقِّحُونَ أََمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
فَسَيُفَعَّلُونَ بِهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ  
يُحْشَرُونَ ﴾ [٣٦]

أى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من يتفق لمعارضة دينه بأن يتركه  
يتفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة فى نفسه حين يرى المال الذى  
أنفقه وقد جاء نتيجة عكسية هى انتصر الدين وانتشاره .

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَتَرْمِثُ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هى  
الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولا يحدد له مصيداً فى الآخرة إلا  
النار ، لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ،  
يلقى فى النار محسوراً على ما تركه فى الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على  
ذلك ، بل نقرأ قول الله .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَرْفَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَيْسَ لَئِذِكُمْ يَصْرَبُونَ وَجُوهُهُمْ  
وَأَذْهَارُهُمْ ... ﴾ [٥١]

وهكذا يدوقون العذاب .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فى قوله .

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ  
رَسُولِهِ اسْتَعْدَدْنَا لَكُمْ أَوْلُوا لَظُولٍ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا  
سَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [٨١]

وهكذا شاء الحق أن يوضح المنافقين ، هؤلاء الذين اسسروا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، سيما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿ وَرَدَّ أَنْزَلْتُ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا ﴾ مع رسوله ﴿ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أَنْ آمَنُوا ﴾ أى : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فإله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقوله الحق : ﴿ وَجَاهَدُوا ﴾ مع رسوله ﴿ أى . انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو لتعبير العملى عن الإيمان ، ولا تعرجوا بتعلمكم عن القتال فى سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال فى سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم واستماع إنسان عن الجهاد هو تازل من خير كبير ، فالحق سبحانه يعطى جريل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقياً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اسْتَنْذِكْ أَوتُوا الطُّولَ مِنْهُمْ ﴾ و«استأذن» من مادة استعمل ، وتأتى للصلب ، كأن تقول : «استفهم» أى : طلب أن يفهم ، و«استعلم» أى : طلب أن يعلم . إذن : فقوله ﴿ اسْتَنْذِكْ ﴾ أى . طلبوا الإذن ، ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا فى ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من ضيق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالعودة .

ومن الذى طلب الإذن ؟

إنهم أولو الطول و«أوتوا» معناها أصحاب القوة والقدرة . و«الطول» هو أن تطول الشيء ، أى : تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال : إن هذا الشيء يدك لم تطله ، أى . لم يكن فى متناول يدك .

﴿أُرْثِرُوا الطُّولَ﴾ أى : الذين يملكون مقومات الجهد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجوة ويس صبيّاً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبي الصغير لا يملك جَلْدًا على الحرب . وأيضاً يجد المريض الذى قد يعوقه مرضه عن الحركة

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلعوا من الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى .

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يتأذون ليسوا أصحاب أعدار - لأبهم معصون - لكن الاستئذان يأتي من المتأففين الذين تنوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون في القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يحسننا الحق به . ﴿ وَقَالُوا دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِيِّ ﴾ والقاعد مقابله القائم والقيام - كما نعلم - هو مقدمة للحركة فإذا أراد الإنسان أن يمشى ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشى والحركة ، ومن القيام أخذت مادة ( القوم )<sup>(١)</sup> أى : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن فى القوم ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ... ﴾ (١١) [الحجرات]

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويشمل لفظ القوم ويشمل الأمة كلها رجالاً ونساءً ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم قال ابن منظور فى اللسان ( مادة قوم ) . « وما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبي رجال وساء ، والقوم يذكر ويؤنث ؛ لأن أسماء الجمع إلى لا واحد لها من لفظها إذا كانت بلا ميم يذكر وتؤنث . قال تعالى ﴿ وَكَذَٰبُ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ [الأنعام] ، وذكر ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ نوحَ ﴾ (٥١) [الشعراء] ، فانت ؛

إذن : فالقيام يقابله القعود ، واقوم يقابلهم انشاء . والقعود هو مقدمة للسكون ، فمتى حسم الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون . وقعود المنافقين وتخليقهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حظ من شأنهم .

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ ٨٧ ﴾

و«الخوالف» ليست جمع «خالف» ولكنها جمع «خالفة» لأن «خالف» لا تجمع على «فواعل» ، وإنما «خالفة» هي التي تُجمعُ على «فواعل» ، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذي يطبق على الساء

وبذلك كانوا ﴿ لا يفقهون ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجاء وفرحوا بهذا لوصف دون أن ينتبهوا لما فيه من إهانة لهم ، لأنهم يهربون من القتال كما تهرب الساء . والمتفق - كما قلنا - له ملكان . ملكه عوليه ، وملكه فليبه . فقول المنافق إعلان بالإيمان ، أما قلبه فهو ممتنى بالكفر ، وفي هذه الحالة تتضارب ملكاته .

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم : سوف نعاملكم في الدنيا بظاهر كلامكم ، ونعاملكم في الآخرة بباطن قلوبكم ، وسوف يطبع على هذه

(١) لا يجمع " فاعل " صيغة للمذكر العاقل على " فواعل " ، إلا في أشلة قليلة اعتبرها الأقدمون شاذة عن القاعدة مثل : ( فارسي ، فوارس ) - ( هالك ، هالك ) - ( ناكس ، نواكس ) وقد وصل بهم المعاصرون إلى أكثر من ثلاثين مثلاً ، وإن كانوا قد قالوا : لأنفضل الالتزام بالقاعدة ، وهي " لا تجمع صيغة فاعل على فواعل إذا كانت وصفاً لمذكر عاقل " . انظر في هذه المسألة النحو الوالي ليعاس حس ( ٦٥٢ / ١ - ٦٥٥ ) ولأين منظور في هذا كلام في مادة ( فرس )

العلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، وبذلك قال الحق سبحانه ها ﴿ وَطَبَعَ <sup>(١)</sup> عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه

﴿ حَتَمَ <sup>(٢)</sup> اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ... ﴾ (٧)

[ التوبة ]

وقال سبحانه :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ (١٢)

[ التوبة ]

وما دام الكافر قد أعجبه كمر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارج من إيمان ، تماماً كما تحتم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما في داخله كما هو ، وما في خارجه كما هو . وطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما في خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ لَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أي : لا يفهمون ما حُرِّمُوا منه من ثواب وبعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلعهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خير لهم ولكنه شر لهم

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة في نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفرغوا ؛ لتحلف هؤلاء القادريين عن القتال دعم أنهم أصحاب الطول الديين يملكون الأموال والأولاد ويرين الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه :

(١) الطبع لا يفتك أبداً ، فالذي طبع على قلبه ليس له قبول لأنه مير عدل ولا مقبول .

(٢) الحتم قد يفتك ، وقد يكون له مدة معلومة وقد يظل مع الثبوت الخالصة



لَا يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّكُمْ هُمْ الْخَيْرَاتُ  
وَأَوْلِيَّكُمْ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

أَيُّ : إِيَّاكُمْ أَنْ تَحْزَنُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ سَبَبُ قَعُودِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ  
مَعَكُمْ وَلَا تَقُولُوا . نَحْنُ خَسِرْنَا فِي قِتَالِنَا ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ  
وَلَا إِلَى جِهَادِهِمْ . وَسَبِّحَانِ الْقَتْلُ . ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا  
قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩) ﴿

ويقول مسحانه

﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ (٢٨) ﴿

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ يَتَخَلَّ وَمن يَتَخَلَّ فَإِنَّمَا يَتَخَلَّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨)

[ محمد ]

وأيضاً نحمد قوله الحق :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ  
يَحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ... ﴾ (٥٤) [المائدة]

إد : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال وإخاء عن الجهاد ، يحب  
الأشيعم الفرع أو الحزن في نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم

الخبرات ، أى : لهم كل ما يطلق عليه خير " : ﴿ وَأَرْفَعْتَ لَهُمُ الْخَبْرَاتِ وَأَوْلَيْتَ لَهُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ والمفلح : هو الفائز الساجى المستفيد بثمرة عمله ، وأصلها فلاح الأرض أى : شقها ؛ لأن الزراعة تقتضى أن تحرث الأرض أولاً ، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الرزق . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْنُثُونَ (٦٣) أَلَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الذَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الزراعة]

وحن حين تحرث الأرض بهيجها ، وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أى ماء راكد فى داخلها ، وبذلك يسافر للأرض الهواء اللارم لسوء جذور الساب ؛ لأبك إذا وضعت الحب فى أرض غير محروثة ، فالررع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذى تنفس منه الجذور ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتسخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور الشتات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نُسبته فلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسى ، الذى نراه كل يوم وهو الملاحه .

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معيوضاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسنة من الذى نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً فى الغيبات التى لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يُقربها إلى أذهاننا ؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسية . والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبدل فيها الحب ، يعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نسبته فلاحاً

(١) الخبرات : جمع خبر : خبر ، وهم منافع المربين . وإن كان قد قال الحسن : الخبرات ، النسب الحسن . ودليله قوله عز وجل ﴿ فِيهِمْ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] . انظر تفسير القرطبي (٣٩٤٩/٤)

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل في نراه كل يوم ؛ لقرب  
إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة<sup>(١)</sup> ، ومضاعفته لنا الأجر ، فيقول :

﴿مِثْلُ الدِّينِ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مَنَيعَ سَابِلٍ  
فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (٢٦٦) [البقرة]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها في الأرض تثبت سبعمائة حبة ، وإذا  
كثرت الأرض ، وهي مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشيء الواحد سبعمائة  
ضعف ، فكيف يعطي خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

إنها صورة مُحَسَّنة للجزء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع  
الأرض لا تقول : إن أنقصت المخزون عندي كمية<sup>(٢)</sup> من القمح أو إردباً<sup>(٣)</sup>  
من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه في  
الأرض . ولكم لا تنظر إلى الإردب الذي أخذته من المخزون عندك ، بل  
انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك  
الزكاة . إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدى الزكاة ، ولكن  
انظر إلى كم يضاعف الله لك هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشيء مُحَسَّن يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه  
أمامنا لهم ما يتطربوا ، فإذا كثرت الأرض - وهي المصدر الأول  
للاقتيات<sup>(٤)</sup> - تفي فيها الحبة الواحدة ، فتعطي لك سبع سنابل في كل

(١) الصدقة . ما يخرج من المال على وجه القرية إلى الله تعالى . ﴿إِنْ فَرَّغْتُمُ الصَّدَقَاتِ فَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ﴾ (٢٤٧) [البقرة]

وَصَدَقَ . أخرج الصدقة . ﴿وَلَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ (٢٥٥) [البقرة] يحلف إحدى الثمانين  
وَصَدَقَ . أخرج الصدقة . صدقة . أمن بكلامه - وَالصَّدَقَةُ : صدقة المرأة ومهرها لا تدل على  
صدق الرغبة . وفي مادة الصدقة . صدق مع الله وصدق مع الناس وصادقة مع النفس . وأما  
لزكاة فهي ما فرض يتقصد به نصاب محدد

(٢) النكيلة . وهاء تكال به الحبوب ، ومقداره الآن ثمانية أقداح . والجمع كثرات  
(٣) الإردب : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ست وثلاثون . والجمع أرادب .  
(٤) الاقتيات : القوت والرزق

سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض للمخلوقة لله تعوضك عما وضعت فيها  
بسعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يشاء لمن يشاء غير حساب . ولذلك يبشر  
الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله

﴿ وَأَرْثُكَ لَهُمُ الْحَيْرَاتُ وَأَرْثُكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذا جزاء المؤمنين في  
الدنيا ، ولكن هناك جزءاً آخر في الآخرة . وفي هذا يُبَشِّرُنَا الحق سبحانه  
في قوله :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنت والجنة ، وما يوضح لنا الحق الخير  
الذي يخلد فيه المؤمنون .

ولمّا سمى الله سبحانه وتعالى حواء الآخرة بأنه ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح في الدنيا ، والفوز في الآخرة ؛  
فالدنيا موقوفة بعمرك وتمتع فيها بقدر أسابك . إذن : ففيها فوز محدود  
لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها  
أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة - في الوقت نفسه -  
ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج  
ملك أي تعب أو عمل أو اجتهد ، بل يأتيك الشيء بمجرد أن يخطر على  
بالك ، وهذا لا يحدث إلا في الآخرة وفي الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛  
لأنه دائم وبلا نهاية

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ  
وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠)

والحديث هنا عن المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسَمُّونَ «الأعراب» ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقي المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ ﴾ ... (١٠) [النورة]

وهنا يأتي الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون في لبوادي التي حول لمدينة وهم الأعراب.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ ، وهناك « مُعَذِّرُونَ » و «مُعَذَّرُونَ» ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتح فوف الشاء ، لكن إذا وُضِعَتْ الفتحه فوق العين فالخرف الذي بعدها يُسَكَّن ، وعندما يُسَكَّن ما بعد العين ، فهذا يعني أن هناك انتمالاً .

إذن : فالمُعَذِّرُونَ أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلصوا عن اثقتان بأعداد مفتعلة (١) ، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقي . ويقال : « المعتذرون » ، و « الْمُعَذَّر » ، و «أعذره» أي : أذهب عذره ، مثل : « أعجم الكتاب » أي : أذهب حُجَّتَهُ

(١) النفاق أن يظهر الإنسان بخلقه ما يبطن ، وأصل « النفاق » في صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأصمر الكفر ، والنفاق مصدر نافق ويردوا على النفاق . عتدوا عليه وقرسوا به ، وكأنه أصبح حيلة لهم

(٢) المُعَذِّر الذي يعتذر ربه عذر حقيقي ، المعتذر : مثله المُعَذَّر الذي يعتذر وليس له عذر ، بل بعتله ويخلفه

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول في الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلهوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخفروا ، ولو كانوا قد صدقوا في الإيمان لما تقاعسوا عن النكال ، أو لاستأذنوا رسول الله في القعود .

ثم يقول الحق . ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمتماقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تتلوى بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَمَلْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾ (١١)

أي أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان . ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذي ينتظر هؤلاء المتحلفين من الأعراب فيقول . ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب في القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطى رخصة للذين لا يقدرُونَ على القتال ولهم العذر في أن يتحلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَا تَلْسَنَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١)

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعنى الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاقة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما يتفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة - كما نعلم - هي أن تقدر أن تعول نفسك في الذهاب والإقامة مدة الحرب والعردة . وكان على كل مجاهد أن يُمَدَّ مطلوبات الحرب . قاله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما يتفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم أجهااد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على جهاد ؛ لِيُحْمَسُوهُمْ عَلَى الْقِتَالِ ، ثم يكونون في عون أهل المجاهدين <sup>(١)</sup> ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التي يطلقها المنافقون في المدينة ، للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسُوا أَلْسِنَهُ السُّوءِ .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ والسبيل هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا يتهدى إليهم بلوم ؛ لأن هناك مارقاً بين أن يمر عليهم وأن يتهدى إليهم ، فالمرور أمر عادي ،

(١) من ردد بين خالد الجهمي أن رسول الله ﷺ قال : « من جهر غارياً في سبيل الله فقد عمرا ، ومن خلف غارياً في أهله جهر فقد عزا » متفق عليه . أخرجه البخاري (٢٨٤٣) ومسلم (٢٨٩٥) قال النووي في شرحه لمسلم : « هذا الأجر يحصل لكل خالف له في أملة بخير من قضاء حاجة لهم وإعناق عليهم أو مساعدتهم في أمرهم » .

وليس هو الغاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجد سبيل إليهم ولا إلى عتاسهم ؛ لأنهم أدوا كل ما تطلبه الجهاد منهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلبه الإيمان .

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفعه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ فهذا إذن بالعودة ، وفي هذا يقول الحق سبحانه .

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ  
لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُكُمْ تَفِضُ  
مِنَ الذَّمِّ حَرْنَا أَلَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿١١﴾

إذن : للمعذور من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذي لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة ؛ فيطلبها من رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ ومن في مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين في ذلك الوقت أن يمسكوا ما ينهض بضقات المقاتلين أو أن يجهروا لهم وسائل الاسقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثاني : بسبب عدم تواجده في ميدان القتال مشركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد في ميدان القتال

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجعون بنقل الأحبار الكاذبة إلى أهالي

(١) قال القرطبي : روى أبو داود في حريص بن سارية : وفيه بولت في عاتق من عمرو وعجل بولت في بني معرور وعلى هذا جمهور المفسرين - وكلناوا سيعة إخوة . كلهم صحبوا النبي ﷺ وهناك آثور من غير كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/٣١٥٣)



المقاتلين ، وهم من نسميهم في الاصطلاح الحديث 'الطائور الخامس' ،  
وهم من يُشَبِّطون همم ومعنويات أهالي المقاتلين . إذن فمن نعد عن  
القتال بسبب عذر حقيقي وله جهاد آخر في حماية اخيه الداخلية من أهالي  
المقاتلين في مواجهة حرب الإشاعات لتي يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد<sup>(١)</sup> فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير  
المسلمين تكون لأمرين : الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة  
إلى الإيمان ، وأن يقفوا في سبيل الداهي ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ،  
والأمر الثاني : أن يتشتر مسلمون في الأرض ليُغْلُوا كلمة الله ، ليس  
إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذي حُمِل في الإسلام ،  
لم يُحْمَل ليفرض ديناً ، وإنما حُمِل ليكفل حرية الاختيار للإنسان في أن  
يختار الدين الذي يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان : إنما يتشأ  
بإزالة العقبات التي تعرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان  
كلها ، فيختار بحرية الدين الذي ينصيه .

إذن : فالإسلام لم يمرض بالسيف ، ولا فمن الذي فرض الإسلام  
على الذين سقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمي من دخل فيه ؟

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما  
فرض عين - إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية - إن  
قام به البعض سقط عن الباقيين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف :  
الضعفاء شيخوخة أو صغر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين  
لا يجدون ما يفتقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفق على نفسه ،

(١) الجهاد يكون فرضاً عينياً إذا حصل الاعتداء من الأعداء واحتلت البدن ويكون فرضاً كفاً إذا حدث  
اعتداء ولم تحتل البدن ، وكذلك لتفتر دموا . الله يكون الجهاد بالإسراع والدليل : لأن الإسلام  
لا يعرف السيف إلا عند الاعتداء ووقوع الظلم على المسلمين من الغير

وتقسم لا يجد ما يفقه على الحرب ، أى لا يجد أدوات القتال أو لراحلة التى يركبها .

ورفع الحن سبحانه الخرج عن هؤلاء ، ووعظهم سبحانه فى وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا فى عون أهل المحاهدين ، ويقمعوا المرجعين الذين يريدون السيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسو ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما يتفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك <sup>(١)</sup> .

أما الذى يجد ما يتفق ، ولا يجد الوسيلة التى تنقله إلى ساحة القتال ، فعليه أن يذهب إلى ولى الأمر ليسأله لراحلة ، وكان رسول الله ﷺ هو قائد الجهاد فى حياته ، فإن قال لأحد . ليس عندي ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفى لرفع الخرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله فى حب الجهاد ، وحرنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ وكلمة " تفيض أعيبهم " توضح ما فى قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هى ماء حول العين ؛ يهيجها الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفذ الدمع وحمدت العين عن السكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال . " بكيت دماً " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لما شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : " بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضٌ ﴾ ، فكان العين

(١) وذلك بالإعلام المبنى وتجهيز الإشاعات الكاذبة .

ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض لعين على الخد ، وذلك  
ظهار لشدة الحزن في القلب ، وهذا المحاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه  
فعل ما في وسعه وما في طاقته وعبر عن ذلك بحرقه مواجده على أنه لم  
يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ  
وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ  
وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٧

هاك قال سبحانه : ﴿ ما على المحسنين من سجل ﴾ الذين كانت لهم  
أعدائهم في التحلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين في تخلفهم هذا  
فقال تعالى : ﴿ إذا نصرنا الله ورسوله ﴾ . إذن . فعلى من يكون السبيل ؟  
وهنا تأتي حابة الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ  
وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

أى . أن طريق الإثم واللوم والتعيب والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء  
الأغنياء الذين استأذنوا في أن يفتقدوا عن القتال ، ونعلم أن اغنى إذا أطلق  
يصرف إلى غنى المال ، ولكن الغنى إذا جاء بلمعنى الخاص ، يكون معناه  
ما يدل عليه النص . فالذى لا يجد ما يتفقده أغنى . إذن . فمن يجد ما  
يتفقده فهو غنى بطعامه والصغير قد أغنى ، إذن : فالقوى غنى بقوته .  
والمرضى أغنى ، إذن . فالصحيح غنى بصحته . ومن لا يجد ما ينقله إلى  
مكان الجهاد فقد أغنى ، إذن : فمن يملك راحله فهو غنى براحلته

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن . فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد .

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأفزون وهم أغنياء ؟

يقوب : لأنهم مثاقفون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ومن يَرْضَ أن يكون وصعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهممة ؛ فهم رضوا أن يعاملوا معاملة النساء ، والخوالف - كما سمع - جاءت على مراحل ، فهم قالوا :

﴿ قَرْنَا بَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (٨٦) [التوبة]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن لرجل قِيَم على أهله . والفعود للنساء ، والخوالف ليست جمع حالف ، وإنما هي جمع « خافئة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... ﴾ (٦٠) [البور]

أي أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ ففتارلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول :

وَمَا أَذْرَى وَلَسْتُ إِخَالُ أَذْرَى      أَقَوْمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

أي : « القوم » أي مقابل « نساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقوبتهم ، فيقول : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ومى الآية السابقة يقول سبحانه : ﴿ وَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ لَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... ﴾ (٨٧) [ التوبة ]

ما الفرق بين النصين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليماً مبنياً للمجهول ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَتْلُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (٢١٦) [ البقرة ]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (١٨٣) [ البقرة ]

قد يقول قائل : كان المفروض أن يقال : « كتب الله عليكم القتل » و « كتب الله عليكم الصيام » ، لأنه صار أمراً لازماً معروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أى أن الذى يفرض هو الله ، رغم أن الحق سبحانه هو الذى يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتى بصيغة المنى للمجهول كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَعَصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَلَأَنْتُمْ بِالْأَنْتَى ... ﴾ (٧٨) [ البقرة ]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١٨) [ البقرة ]

والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأى تكليفات إيمانية ، فسبحانه لم يكلف بأى حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له ، لذلك بعدما يحاطب سبحانه بالتكليف يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... ﴾ (١٧٨) [ البقرة ]

ومن هنا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل في الإيمان باختباره ، فهذا يدخل في الإيمان كتب الله عليه ، إذن فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُئِمَتْ قد أُمِيتَ فقد أصبحت طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن

ليست عليك رهص ، إذن : فأنت الذى ألزمت نفسك بحكم الله ، لأنك  
أمنت به إلهاً حالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ، مرضى الله عليك ، فأنت  
طرف فى كل مريضة عليك . ودعم أنه سبحانه وتعالى هو الذى مرضى ، فقد  
أحببك أنك دخلت فى نطاق التكليف بإيمانك ، ففى الفعل للمجهول

وإذ حثنا إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ نحمد أن الحق  
يلمنا هنا إلى أن المنافقين هم الذين جلسوا لأنفسهم هذا الطبع على  
القلوب ، لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ، ثم أحدوا يتحدثون بألسنتهم  
عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ، فأراد الله  
سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : مادمت قد خترتم النفاق والكفر فى  
قلوبكم ، فستطع على هذه القلوب ، ونخنم عليها حتى لا يخرج الكفر  
منها ولا يدخل إليها الإيمان

سبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن  
ملأوا قلوبهم بالكفر وباقتوا ، وهم الذين تسبوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد  
أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من  
مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ، ولهذا جاء الفعل  
مبيناً للمجهول ، فهم مشركون فيه

أما الآية التى نحن بصددنا فيقول تعالى :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة يسب الطبع إلى الله  
يكون أقوى طبع على لقلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم  
بهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان ندراً  
ضميلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى  
قلوبهم ذرة من إيمان ، لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد  
لا يفهم شيئاً ، أى . لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .

لذلك فنفى الفقه أو الفهم لا ينفى العلم ، ولكن حين ينفى العلم فهو ينفى الفهم عن الذات ، وينفى الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لا يفهمون ﴾ أى : لا يفهمون بدواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم . أما إذا قلنا : ﴿ لا يعلمون ﴾ فالقصد أنهم لا يفهمون ولا يتعلمون إذن . نفى لعلم يسبب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفى لفقه فيسبب نسبة عامة للفعل المنى للمجهول

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى لفقه عنهم بالفعل المسمى بالمجهول أوضح أنهم بفاقهم لا يفهمون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم ينفِ احتمال أن يعلموا من غيرهم فى المستقبل ولكن عندما قال الحق : ﴿ فهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قد نفى عنهم أيضاً العلم بدواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون انطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من دواتهم ورفضوه من غيرهم .

ولذلك نجد ﴿ لا يفهمون ﴾ فى موضع ، ونجد ﴿ لا يعلمون ﴾ فى موضع آخر ، وكل تناسب موقعها الذى قبلت فيه ثم بقول سبحانه :

﴿ يَعْزِرُوكَ إِلَيْنَا إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ فَمَا لَآ تَعْزِرُ لَأَن نُّؤْمِنَ بِكَ لَكَ قَدْ نَبَأْنَا أَنَّا اللَّهُ مِنْ أَحْبَابِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُؤْتِيكُمْ تَرَدُّوتًا إِلَىٰ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ومعنى « يعزرك » أى : يمدى عذراً عن شيء يُخرجه من اللوم أو التوبخ ، ويقال : « اعتذر فلان » أى : عن شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه

والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفي آية سابقة يقول مخاطباً النبي ﷺ .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ... ﴾ (٨٢) [ التوبة ]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين سب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ . وعندما نُسبه إلى رسول الله ﷺ قال : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ ﴾ . مما يدلنا على أن زمام محمد ﷺ بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتي بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين في الاعتذار : ﴿ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ ، وفي هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً في أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً . ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألا وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ يُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ونهياؤا للاعتذار ؛ وقبل أن يطقوا بالعذر ؛ أوصح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام . لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدانهم للعذر ثم فاجأهم بالحكم في قوله تعالى : ﴿ لَنْ يُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ومادة «آمن» تدور حول عدة معان ، نقول : «آمن» أي . اعتقد وصدق مثل قولنا . «آمن بالله» ، ويقال «آمن بالشئ» أي . صدقه ، و «آمن بكذا» أي : صدق ما قيل والحق هو القائل :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى . . ﴾ (٨٣) [ يونس ]



وقال إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧) [يوسف]

أى لن نصدقك ، وأمن إذا تعدت بالباء معناها الاعتقاد ، وإن تعدت باللام معناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى:

﴿فَلْيَقْبِذُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤) [قريش]

وتجىء أيضاً «أمن» و «أمن» بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب :

﴿هَلْ آتَيْنَاكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكُنَّ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ...﴾ (٦٤) [يوسف]

إذن : «أمن» إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيماني ، وإن تعدت باللام فمعناها لتصديق ، وإن تعدت بنفسها إلى الفعل فهي إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا...﴾ (٧٥) [آل عمران]

وفي الآية اتى نحن بصدده يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أى : لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله ﷺ يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم . لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أحره بكل شيء ، حتى بما فى قلوبهم

قيل أن ينطقوه ، وبو امتلكوا ذرة من فطنة يرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا في الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً في قوله سبحانه ﴿ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكان المسألة ليست فحاشة استنتاج ، ولكنها وحى من الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَنَبِّئِىْ اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرِسُوْلَهُ ﴾

ما هو العمل الذى سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبرهم بما يُخفونه من كذب فى صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يعلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتبينوا أن رب محمد ﷺ لا تخفى عليه حتى نواياهم وما دُتم قد علمتم صدق محمد ﷺ فى كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم إذن - أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ، وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد احتللت أعمالكم من انقاس إلى الإيمان ، أما إن أصردتم على ما أنتم فيه ، فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التى أباها الله فيها رسوله بكذبكم .

إذن : فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانهرو هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم فى المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَرْفُؤْنَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أولى أنه عليم بعالم الشهادة .

(١) الأنبياء : لا أخبر الهامة قال الحق ﴿ نَكَلِمْ نَبِيًّا مُّسْتَفْهِمًا ﴾ [الأنعام] - أنبياء بالشىء وبأدبه أخبره ، وذكر به هتته .

والعيب - كما نعرف - هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً ولكن إن غاب عنك ولم يغب عن غيرك فهو غيبٌ نسبي ؛ لأن هناك حجياً معت عنك العدم ، وإشال : إن سُرِقَ منك شيء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف والذي أخفى السارق عنه المسروقات يعرف . والذي اشاع المسروقات يعرف .

إذن فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما لعيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدعون قراءة الأفكار ، ويسمونه المرميين لعناطيسيين ، ويطلب النجوم من أي واحد أن يُخرج ما في جيبه من نقود وأن يقوم بعدها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف ألامعيه ؛ ضع يدك في جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها ، واسأله عن هذا المقدار فليس يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من عيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق

إذن فالعيب<sup>(١)</sup> المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعصيت أبك تمريناً هندسياً لينجله ، فاحلل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستمد المدمات والنظريات حتى يصل إلى الحق ، فكان هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذي اكتشف نيتية الذرة أنهما علما لعيب . فقد كانت هناك مقدمات في الكون أوصلتها إلى كشف بعض القوانين المرحوده بالفعل ، لكننا لم نكن نعرفها

(١) العيب . مصدر ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة] . والعيب هو ما غاب عن العيون كالجنت والدار والملائكة والجن . وجمعه عيوب قال تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة] وهذا هو العيب المطلق أما العيب النسبي فهو الذي يعيب عنك ولم يغب عن غيرك ، وقد تعرفه عند الإذن بميلاده

وفي بعض التدريبات ، نحدد من يضع المسألة المطلوب حلها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح .

ولذلك إذا أردت أن تحل شيئاً في الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يطلب منك - مثلاً - إثبات أن الخطين متوازيين ، وفي هذه الحالة يجب أن تكون كل راويين متناظرتين متساويتين ، وكل راويين متبادلتين متساويتين . إذن : فأنت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك في تساوي ضلعي المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوي الراويين . فهل في هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، نقول : إن هذا تساوي هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت في براميتك إلى نظرية رقم واحد فهي انظرية التي لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بدئية .

وهكذا نجد أن كل علم في هذا الكون بُنى على نظريات أو مقدمات بدئية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله في كثرته من أسرار<sup>(١)</sup> . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي أنه سبحانه عالم بالغييب المطلق ، الذي لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً

(١) هذه الاكتشافات التي عرفت من المقدمات والنظريات والتجارب لا يظن عليها أنها غيب . وإن كانت عادة قبل التعامل مع المقدمات أو التجارب ، فهذا جهل بالتعامل مع العلم ، وأن ميلاد ظهوره لم يكن بعد ، فهذا تقدير المميز المليم

عد البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب انذى يفرد به الحق عز وجل .

ونجد الحق سبحانه يقول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مِمَّنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَّسُولٍ ... ﴿٢٧﴾ [الحج]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن لغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور :

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ... ﴿٢٥٥﴾ [البقرة]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذى يشاء لذلك ، وكل شيء فى الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : انكهرباء ، والذرة ، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد . ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أى اكتشاف إلا بذن الله حين يلفتهم إلى هذا السر ؛ إما بالبحث العلمى ، وإما أن يسم معرفته صدفة .

وهكذا نجد أن البشر يُحَاطُونَ علماً بهذه الأسرار بعد مقدمات ويذن من الله .

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ؛ فيكون سبحانه علماً بالشهادة<sup>(١)</sup> من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه إن جلس فى مكان معزول مستور

(١) الشهادة خبر قاطع ، والشاهد اسم مفعول وجمعه شُهِدَ (كراخ ورُكِّع) وجمع الجمع شهود أو شهود : جمع شاهد ، مثل : ناعد وقعود . والشهادة بمعنى ما يشاهد بالبركات والوجدانيات للوصول إلى الاختيار ، ذلك عند الإنسان ، أب بالسيرة له سبحانه مهر عالم الغيب والشهادة بهر (عَلَامُ الْغُيُوبِ) لأنه خالقها فهو أعلم بعبه وظاهرها

ويفعل ما يريد ، فمن يشهده الله ، لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقى ، لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه فى هذا الكون ، فلا العيب يعيب عن علمه ، ولا العانم الشهود يغيب عن علمه

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فلا بد أن يأتى بعدما ﴿يُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى يخبركم مقدماً بجزء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لم يعلم أن فعله يؤدى إلى الشر لما فعل ، وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ، لأن الله أبلغه بالجراء ، فيكون لجراء عدلاً لا ظلماً

ولذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ غَسًّا ﴾ (١٤)

[ الإسراء ]

فأنت الذى تحكم على نفسك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأُغَرِّضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ جَرَاءً ۖ يَمَّاكَأُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٥)

وكلمة ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ فيها سرٌ إعجازى من الله ، لأن حرف « السين » هنا تدل على أنهم لم يحلفوا بعد ، أى أن الآية نزلت وُثِّرت وسمِعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتلى وتُقرأ فى الصلاة ، ولا تتغير ولا تبدل إلى يوم القيامة .

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبير لما جاءوا وحلفوا وقالوا . إن رسول الله ﷺ قال في قرآن يوحى إليه : إنا سأتى ونحلف ، ونحن لن نأتى ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو العاقل وهو الخلق وهو القاعص ، فقد شاء أن تعيب المعطة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قل :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ .. ﴾ (١١٤) [البقرة]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية<sup>(١)</sup>

واحق سبحانه وتعالى يقول ها : ﴿ سَيَخْفُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَبَضْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال ومعنى الانقلاب في هذه الآية مقصوده العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكان الاعتدال في القتال والانقلاب في العودة إلى المدينة . ولكن ماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ تَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى . لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعينهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم .

فقال الحق . ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى أعصوهم مطرِبهم من الإعراض ولكنه لو أن أحد من الإعراض ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة ، لا إعراض صريح ومعصرة<sup>(٢)</sup> . جزاء لهم على ما فعلوا ؛ لأن لتأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل في المخالف ليعود إلى الصواب . فانت إن لم يذهب استك إلى المدرسة مثلاً توبخه وتُعَفِّه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل في أن ينصح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذا الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل في إصلاحه

(١) لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وما فيها ومن فيها

(٢) إعراض الصفع والمعصرة قد ورد في القرآن الكريم في قوله سبحانه في سورة يوسف من قول العزيز ليوسف ﴿ اعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرْ لِكُلِّ ذَنْبٍ لَكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ [يوسف ٢٩] أى . اصنع ، يوسف عما حدث وانتهك به المرأة ولا تذكره لأحد -

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين لو أن التوبخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً في الإصلاح ، وهم لن يصلح حالهم ، وهم في ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبخ من إخوته في الإيمان ، وفي هذا إيلاء له . وللمؤمن عزيمة أن تصيبه غمة فيرتكب إثماً ، فهذا حدث بعد هذا الإثم بإيلاء له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين ، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول به إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا يسمع معهم التوبخ أو الإيلاء ، لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر فأعرضوا عنهم ، لأنهم لا يستحقون حتى اللوم ، فالتوبخ جراء على ذنب قد يُقْلَعُ عنه من ارتكبه ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلل يأتي بها القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جِهْمٌ جِهْمٌ جِرَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسُونَ ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله ﴿ إِنَّهُمْ رَجَسٌ ﴾ أي هم الخبثاء بذاتها ، ويقول العلماء : أي أن فيهم خبثاً وفسادة . وأقول : إن الرجس هو الفسادة نفسها ، فلا تقول إنهم قذرون ، لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهِرُوا أصابهم قذر ، وهم لسوا كذلك ، إنهم «قذرة» في حد ذاتهم ، ولا يطهرهم شيء ، لأن الذي يحرج من القذارة يكون مثلها ، فهم خبثاء لا يطهرها لوم أو توبخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ <sup>(١)</sup> ... ﴾ (٢٨)

[ التوبة ]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس

(١) نجس نجس نجس : غير نجس لحقه دس أو دس ، وهو في المحسوس حقيقته وفي المعنى مجاز ، ويوصف بالنجس للمبالغة فيستوى فيه المفرد وغيره ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (التوبة) والنجاسة هنا معوية فهو الكفر والفساد



والرجس يعطى أيضاً على أنثى ، القدر حسبياً ؛ مثل الميتة ، والخن  
 سبحانه يقول : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَعْمِهِ إِلَّا  
 أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْرِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِّغَيْرِ  
 اللَّهِ بِهِ ... ﴾ (١٤٥) [ الأنعام ]

إذن فائدة قدارة حسيّة ، كذلك الخمر التي يقول فيها الحق  
 ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأُرْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ  
 الشَّيْطَانِ ... ﴾ (٦٠) [ المائدة ]

فالخمر نفسها رجس ، أى . قدارة حسيّة ، وعطى عليها الحق - سبحانه  
 الميسر والأنصاب ، والأرلام<sup>(١)</sup> ، وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا بهم أن  
 الخمر رجس حتى ، بينما لأنصاب والأرلام والميسر رجس معنوي  
 وهنالك أيضاً الرحر ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول :  
 ﴿ إِذْ يُخَشِّكُمُ الْغَاسِقُ أَمَةً مِّنْهُ وَيَتَنَزَّلُ عَلَيْكُمْ فِي السَّمَاءِ مَاءٌ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ  
 وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ... ﴾ (١) [ الأنعام ]

إذن فالرجس له متعلقات ؛ معناه هنا الكفر ، والكافر هو قدارة فى حدّ  
 ذاته لا أنه إنسان أصابته قداره .

ويقول الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ جَاءًا مَّا كَانُوا  
 يَكْسِبُونَ ﴾ والمأوى : هو المكان الذى يؤويك من شر يلحقك ، ويقول :  
 « أوى إلى كذا » أى . هرب من شر يُراد به ، فإذا كان لدى الذى  
 يفرعون إليه هو جهنم ، بمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا مهرباً  
 إلا أن يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير

(١) الأرلام : سهام لا يتر لها ، مكتوب على بعضها : اعمل ، والبعض الآخر : لا تفعل ، فإذا  
 أراد رجل سراً أو كبحاً أنى ساعد الكمية فبال : أخرج من رلى ، فإذ خرج به : اعمل ، فعل ،  
 وإن كانت : لا تفعل ، لم يفعل

وهل دلت اثبات "عندهم أم حزم ؟ يقول الحق : ﴿ جزاء بما كنتموا يكسبون ﴾ وتعرف أن الحسنه يقال عنها : « كسب » ، والسيئه يقال عنها : « اكتسب »<sup>(١)</sup> ، والحق هو القائل :

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ﴾ (٢٨٦) [البقرة]

ودلك لأن عمل الحرام المخالف لمهج الله لابد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطري لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتعارض فيه ملكات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألّفونها إلّفاً بحيث تصبح سهلة ، فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئه كسباً ، كأن تأتي الإنسان ، فيحدثك بمعاصراته في الخارج ، ويروي عن رحلاته في باريس ولندن ، وما فعل فيهما من مكرات هو يظن أنه يحكى عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكى عن مصائب وقع فيها باختياره

مثل هذا الإنسان يعمل السيئه ، وهو معتاد عليها ، فتصير كسباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ، فبطل يكي ويكي ويكي ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويدم عليها<sup>(٢)</sup> . فلول فرح بخطاياهم ومعاصيهم واعسرها كسباً ، وصارت له ذرّة وله رباصة وله إلف بتلك المعاصي .

وهنا يقول الحق سبحانه .

(١) الاثبات لاختلاق القول بالياطل

(٢) تعتبر السيئه كسباً عند هؤلاء لأنها أصبحت عادة عندهم

(٣) عن عبد الله بن مسعود قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الصّاجر يرى ذنوبه كذبابه مريت على أنفه فقال به هكذا » أي : يحاه يده أو دمه أخرجه البخاري في صحيحه ( ٦٣٠٨ ) وأحمد في مسنده ( ٣٨٣ / ١ ) والترمذي ( ٢٤٩٧ ) قال ابن حجر في الفصح ( ١٠٥ / ١ ) « مد : شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراعاة ، يستصغر عمله للصالح ويحشر من صغير عمله السيء »

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ  
اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفع ، معين أقول : أنا راضٍ  
بالشيء الفلاني ، فمعنى هذا أن كمية النفع التي أحدها منه تكفيني .  
ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بشئ ما ،  
وعند غيرك ما هو أحسن منه لك غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل  
ما يجرى عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضى به ؛ لأن مجريه رحيم  
وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُصَنَّ عليه مال ؛ لأنه  
سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثه على أولاده ، ويصيح المال وسيلة  
اتحراقهم " ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر  
أساؤه من فترة المراهقة ، ثم يعصم ربنا عليه بالماء بعد أن وصل الأبناء إلى  
النضج ، وضمن الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : " إذا  
لم يكن ما تريد ، فلتريد ما يكون " .

ولماذا يحلف المافقون " ؟ وتأتى الإجابة من الحق : ﴿ تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾  
ومادا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف  
رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفْرَح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن  
يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا  
ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضاء ربه ، فالرضا الحق هنا هو

(١) قال الشيخ الشح من الله عين العطاء ، وقد يكون العطاء نعمة .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٣/٥٦١) : " حلف عبد الله بن أبي ألابحلف عن رسول الله ﷺ بعد  
ذلك ، وطلب أن يرضى به " .

رضا الله . فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف الأساليب ، كي  
ترصروا عنهم .

ثم يقول الحق . ﴿ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ ﴾ .

أى . تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضا بعد عن رضا الله  
ورسوله . وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله ؛  
لذلك يمهئ الحق الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وإن  
لم يَرْضَ الله فرضاكم لن يرضعهم ، وطلبهم الرضا منكم عاء منهم ، فإن  
رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر ، إلا إن كان من باطن رضا الله ،  
ورضا رسوله .

وهنا ملحظ . هم فاسقون أم كافرون ؟ نقول : إن الحق سبحانه أوضح  
لنا .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... ﴾ (١١٥) [الماء]

أى أن مكان المنافق في النار أسفل من مكان الكافر . وكيف يكون المنافق  
فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فلو لم قد يصق بأن يرتكب كبيرة من  
الكبائر ، وسبحانه يقول .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كِتَاباً مِّنَ  
اللَّهِ ... ﴾ (٣٨) [المائدة]

فالزمن قد يسرق ، وقد يزنى أيضاً فسبحانه يقول :

﴿ الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي ... ﴾ (٢) [النور]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة ، فمن الممكن أن  
يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نفرّق بين الفاسق والعاصي ، فمن يرتكب

الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عامس . فكيف يصف الله المنافقين بانفسق<sup>(١)</sup> ؟ ولذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى في الأديان التي يتبعها أي قوم ، فالأديان كلها تضم فئداً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التي في أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها

ويقول الحق بعد ذلك

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا

حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧)

وقد تكلم الحق من قبل في المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل بهم وللمناس كافة منهمع الله ، وما يتكلم سبحانه عن الأعراب ، فما الفرق بين العرب و لأعراب ؟

العرب هم سكان القرى المتوطنون في أماكن ، ينهبون منها أو فيها إلى مصالحهم ؛ ويأوون إليها ؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادي ، وليس لهم استقرار في مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلا ؛ وليس لهم ثوطن ، ولا أنس لهم بمقام ولا مكان .

ومعنى ذلك أن كلا منهم ليس له سياحة عامة تحكمه في تلك البادية ، وكل واحد منهم - كما يقال - صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بهذا الشكل ، وليس عندهم ثوطن ؛ يوحى بالمعاشرة

(١) النفس إذا تعلق بالعقيدة فهو كافر ، نكل ما يعمل فهو فسق أي خروج عن أمر الله . ومراة ، وفسق الملامس مربوط نفس مؤلف له الثوبة ، يقول الحق ﴿إِنَّمَا الثَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ فَتَنٌ يَمْشُونَ فِيهَا﴾ [النساء]

التي تقتضى لين الجانب وحسن التعامل ؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم «مستوحش» أى . ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام .

أما الذى يحيا فى القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، ولف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والاتلاف يكون اللين فى التعامل ، عكس من يحيا فى البادية ، فهو مبتلىء بالفسوة ، والمظظة ، والشراسة ؛ لأن بيئته نصحت عليه <sup>(١)</sup> والوحدة عزلته .

فقد سمعت «أعراب» فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة ؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحى لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة «الأعراب» مفردتها «أعرابى» . وهناك أشياء الفرق بين مفردهم وجمعها التاء . مثل «عنب» و «عنبه» هى المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد «ياء» مثل «روم» والمفرد «رومى» .

«أعراب» - إذن - هى جمع «أعرابى» وليست جمع عرب . وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر ؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أى أن الأعرابى حين يذهب إلى البادية فهو يثرل ضيفاً عليهم ، ويسمون «المعارف» ، وكل واحد فى البادية قد يكون له واحد فى الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو يزول عنده . وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة .

وبعد أن تكلم لحق عن العرب ونفاقهم ، يتكلم هنا عن لأعراب فيقول :

(١) ومن أمثلة عطفهم أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ الحسن بن علي وحيد الأفرع بن حابس التميمي جالساً ، فقال الأفرع - إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً - فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) ومسلم فى صحيحه أيضاً (٢٣١٨)

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ولمّا دأبوا هم أشد كُفْرًا ونفاقًا ؟ لأنهم يعيدون عن مواطن العلم والدعوة ، وعندهم غِلظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه .

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعنى : أحق ألا يعلموا حدود ما أنزل الله <sup>(١)</sup> ، لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، يأتى من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتى بالتقصر من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار . والعلم - كما نعرف - ألا تفيب عن العالم قضية من قضايا الكون ، وكل واحد ما يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه فى الحياة ، وعلى قدر جنوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده يعلم علم الجميع .

والعلم عند البشر قد يوظف ، وقد لا يوظف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا يوظفونه ، ومن لا يوظف علمه يصير علمه حُجة عيه أما من يوظف علمه ، ويضع لأمره فى محله ، والنهى فى محله ، والحلال فى محله ، والحرام فى محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو بوصف بالحكيم ؛ لأنه وضع كل شيء فى محله .

(١) قد يقول قائل : كيف هذا ونحن نستشهد بأشعارهم ولغاتهم ، وعلماء اللغة من الأصمعي وغيره كانوا يجوبونه بمائل الأعراب لتعرف لغاتهم يقول أبو يحيى الأنصاري فى فتح الرحمن ص (١٧٢) : « وسمهم بالجهول إما هو فى أحكام القرآن ، لا فى اللغة ، ونحن لا نحتاج بلغتهم فى بيان الأحكام ، بل فى بيان معنى الألفاظ ، لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم » .

(٢) ومن طريق ما يروى فى هذا عن إبراهيم النخعي قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصمابه ، ركعت يده قد أصيبت يوم «نهوند» فقال الأعرابي : والله إن حبلتك ليعجبني ، وإن يذك لك ليريسى فقال زيد : ما يريك من يدى إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد بن صوحان : صدق الله ورسوله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة : ٩٧]

فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع من « علم » وعن « حكمة » ، وما دام قد شرع يجب ألا نحالعه ، لأن كل تشريع يتوله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة ، لأنه سبحانه هو لدى خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك وتشرع ما يقصب الحق ، لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقسوا للخلق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم دعوا التقنين لخالق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع للعالم بحدود ما صبح ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه الذي يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد .

ومن هؤلاء الأعراب - الذين هم أشد كفراً وثماً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله - قوم آخرون يقول عنهم الحق :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكَرَّةِ اللَّهِ أَبَرَّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٨)

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام . فالواحد من هؤلاء الأعراب يدعى في ظاهر الأمر أنه يتبع لإسلام ، وإن علم أن في الإسلام زكاة فهو يعصى عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه « مغرم » أي غرامة ، لأنه أعطى النصاب وهو كاره . وما دُمَّتْ كارهة فانت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك . وتقول : « أخذوا عرقى » و« أخذوا ناتج حركتى » وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك في الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين حياتك ، لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفى هذا تأمين لحياتك .



وأنت تعلم أن الأشياء أعراض في الكون ؛ انقوة عرص ، والمرض  
عرص ، والصحة عرض ، والعجز عرص ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن  
تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا  
ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين  
قدرت ؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوى من الإيمان والشجاعة ،  
وبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش في مجتمع متكفل ،  
إن أصابك شيء من عجز ، فقدرة الباقي هي المرجع لك .

وكان لواحد من هؤلاء الأعراب يؤدي نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها  
مُعْرمًا ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة ، حتى لا يأخذوا  
منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يترصد بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً  
لقول الحق : ﴿ وَيَضْرِبُكُمْ الدَّوَّائِرُ ﴾ . أي يتمنى ويتنظر أن يصيب  
المسلمين كارثة ؛ فلا يأخذوا منه الزكاة التي اعتبرها مفرماً .

ولماذا قال الحق : ﴿ الدَّوَّائِرُ ﴾ ؟ نعلم أن الخطب الشديد حين يصيب  
الإنسان أو القوم إن كان فظيلاً وقريباً يقال : « دارت عليهم الدوائر » .  
أي أن المصيبة أحاصت بهم ؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من  
الأعراب يترصدون بالمسلمين الدوائر ؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويطنون  
أنها عرمة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكتب في الميزان ، وأنها تطهير وغماء  
للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم ؛ فسوف يجد  
من يحمله .

والذي يترصد بكم الدوائر ، ولا يظن إلى حكمة الأخذ منه ، هو  
الذي تأتي عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ  
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن آباء منهم لم يظن وبتته بقيمه الوحود في

المجتمع الإيماني الذي يعطى به الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تظن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك ، فسوف تأتي الدائرة عليك

وقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ تبدو كأنها دعوة ، ومن الذي يدعو ؟ إنه الله . وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .

وينهى الحق الآية ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتي عامل الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون في طي نصوصهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا ، وكنتموا الكراهية في قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : هم محاصرون بعلم الله وسمعه .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للمصنف الثاني ، وهم من لهم قليل من لإلف ، فإن كان من البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا  
قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ



ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما يتصدق من زكاة أو صدقة فهو يتخذها قربى إلى الله الذي آمن به ، وكنزاً له في اليوم

الآخر ، و ' قربي ' : أى ' شئ يقربه إلى الله ' ؛ يدخره له فى اليوم  
لآخر ، وقوله الحق : ﴿ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يحمل ما يتفق قرينة  
إلى الله وكذلك طلباً للدعاء الرسول ، لأن الصلاة فى لأصل هى الدعاء ،  
ساعة يصل إلى رسول الله ﷺ بصفة للمسلمين الضعاف عن يعتبرها  
قرينة ، فهو ﷺ يدعو له .

وقد قال ﷺ : « اللهم اعصر لآل أبى أوفى ، وبارك لهم »

وقد دعا بذلك حين جاء له ما تركى وتصدق به بنو أبى أوفى ، ودعوة  
الرسول مجانية إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه " لحكمة .

ولقائى أن يقول ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربي ، أنه سبحانه  
غير مستفيد من هذا العمل ؟ ألا يعلم أنها قربي له شخصياً ؟ نعم إنه  
يعلم ، ويعلم أن الله يشيه على أمر يتفق به الفقراء ، وفى هذه إشارة إلى  
أن كل تكليف من الله إنما يعود نفعه إلى المكلف لا إلى المكلف . وما دام  
العائد إلى المكلف ، فالحق يدعوكم لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتبرها قربي إلى الله بأت لهم انقول الحق . ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ  
سَيَدْخِلُهمُ اللَّهُ فى رَحْمَتِهِ ﴾ وقد قال ذلك بالأعراب الذين أنفقوا قربي لله ،  
وطمعا فى دعوات الرسول ﷺ ، فأوضح لهم سبحانه أنها قربي لهم ؛  
لأنهم المتفهمون به ، وأنه سيدخلهم فى رحمة . ورحمة الله هى نعيم  
مقيم ، وهى دائمة وباقية ببقاء الله الذى لا يُحَدّ ، أما الجنة بباقية وخالدة  
بإبقاء الله لها . إذن . مدحولك فى رحمة الله أعلى من دحولت جنته

فحين يقال : " دخل فى الرحمة " فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى

ما لا نهاية

(١) وذلك من نحو قوله تعالى ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

لهم فى الآية ٨٠٠

وحينما يسمع أى أعرابى قول الحق ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَابُ الرَّسُولِ إِلَّا إِنِّهَا فُرْيَةٌ لَهُمْ سَيُحْطَمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ، فعندما سمع الأعرابى هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية ، فيكبح جماح خطرات السوء في نفسه ، أو بالمرلات أو بالهموات التى قد ينطو بها ، وقد يقول لأعرابى لنفسه : إني أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهموات ، فتأتى الآية مطمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهر ، وعليه أن يصمم أن الله غفور رحيم ، ولا داعى أن يعكر على نفسه بالظن بأنه لن يدخل في رحمة الله <sup>(١)</sup> .

لذلك جاء مسجانه بالقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لعل واحداً ممن يسمع هذا ، يظن أن الجراء والتقريب والدخول في رحمة الله حاصرٌ ممن لم يذنب ذنباً أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كانت قد حصلت منك هفوة أو عملة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل في رحمة الله

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَالسَّيِّقُوتِ الْأُولَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ  
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ  
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(١) عن ابن جرير رحمه الله عنه قال : قال النبي ﷺ يقول الله تعالى أن عند علي عبيدى بنى ، وأنا معه إذا ذكرته ، فإن ذكرته بنى نفسه ذكرته بنى نفسه ، وإن ذكرته بنى ملا ذكرته بنى ملا محبر منهم ، وإن تقرب إلى شبرا بعرت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً بعرت إليه باهاً ، وإن أتى بشئ أتته هزولة . أخرجه البخارى في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٩٧٥)

و " السابق " هو الذى حصل منه الفعل - بصدده ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكن هلك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق تباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد في الدين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن طائفة أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول ما قاتل : وما ذنبا نحن وقد حشا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إن السابق يعتبر من معاصر ، أى كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء انقول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمي مكة ، وجاء قوله ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين

وينحصر المعنى في الدين سمو إلى الإيمان في مكة ، وسبقوا إلى النصرة في المدينة ، هؤلاء هم ﴿ السَّابِقُونَ ﴾

وفي سورة الواقعة يقول الحق ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (١) أولئك الْمُقَرَّبُونَ (٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣) ﴿ [ الواقعة ]

ثم يأتي من بعدهم في المرتبة ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ما أصحابُ الْيَمِينِ (٤) ﴿ [ الواقعة ]

ثم يحدد نحن هؤلاء فيقول ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴾ (٥) وقيل من الْآخِرِينَ (٦) ﴿ [ الواقعة ]

ولذلك حسبما يأتي من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال :

﴿وَأَسَافِقُونَ﴾ ، نقول له : لا ، بن اظنن إلى بقية قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ وَلِقَاؤُهُمْ فِيهِمْ قَلِيلٌ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله ﷺ سيالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحزن أن يكون من أمة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة من يصل إلى منزلة الصحابة .

وقد طمأن النبي ﷺ للناس الذين لم يدركوا عهده حين قال :

« وددت أني لقيت إخواني » فقال أصحاب النبي ﷺ : أو ليس نحن إخوانك ؟ قال : « أأنتم أصحابي ، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني » .<sup>(١)</sup>

وهذا قول صادق من المصطفى ﷺ ، لأن من من تنحصر أميته في أن يحجّ ويזור القبر الشريف . ويضيف النبي ﷺ في وصف أحيائه .

« عمل الواحد منهم كخمسين » قالوا : منهم يا رسول الله أم من ؟ قال : بل منكم ، لأنكم تهجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يعبدون على الخير أعواناً .

وهذا ما يحدث في زماننا بالفعل .

ولكن من هم السَّابِقُونَ المقصودون في الآية التي نحن بصددنا ؟

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة في الإسلام ، مع أنهم حرموا من المدينة ، لا يشهدوا حرباً ، ولكن ليتعرضوا غيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا لحرب ، لا مع القوف التي صمّت العير

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٣) عن أنس بن مالك . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦/١٠) في إسناده أحمد حيز وهو ضعيف .

والحراس والرعة<sup>(١)</sup> ، ولكن دخلوا الحرب مع النضير ، وهم من جاءوا ونهروا من مكة ، وهم صناديد قريش<sup>(٢)</sup> . وهكذا كانت منزله أهل بدر ، أنهم من سقوا إلى الجهاد في أول معركة للإسلام .

ولذلك حين وشى حاطب بن أبي بلتعة بغزوة رسول الله ﷺ إلى مكة ، وجاء به ﷺ وقال له : ما الذي حملك على هذا ؟ وكان ﷺ يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد ؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين في مكة ولم يعرفهم أحد ؛ لذلك أراد ﷺ المواجه في الفتح ؛ حتى نهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبي بلتعة كتب خطباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه « روضة نخاج » في الطريق بين مكة والمدينة ، فستجد ظعينة (مسيرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته في عقصتها<sup>(٣)</sup> .

فلما ذهب علي - رضي الله عنه - ومن معه يبحثون عن المرأة في الموضع الذي ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ، فأخرجته من عقصتها ؛ فوجد من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من مشركي قريش وعاد به إلى النبي ﷺ ، فأخبر النبي ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ قال له : يا رسول

(١) وذلك أن أبا سفيان قد أخذ طريق الساحل بالعبير ، فقد قال له أحد عبيره - وأبنت راعيبي قد أتتني إلى هذا النبل - ثم استقيت من شئ لهما ، ثم انطلق - فأتاني أبو سفيان متحهما ، فأخذ من أيعار بعيريها ، ففتت ، فوجد فيه النوى فقال - هذه والله ملائم يشرب - مرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجه عبيره عن الطريق ، فاحل بها ، وترك يداً يسار ، ونطق حتى أسرع انظر سيرة النبي لابن هشام (٢/٦١٨)

(٢) الصناديد هم العظماء الأشداء ، وهم هنا أبو جهل وأمية بن خلف وغيرهم من كبار كفار قريش

(٣) العقبة هي نوع قريب من نضير المرأة لشعرها قال البهث القصص أن تأخذ امرأة كل خصل من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى بها الزوال ثم ترسلها

الله : أما لصيق<sup>(١)</sup> فبريش ولى فيها أهل ومال ، وليس لى بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً<sup>(٢)</sup> عند قبرش يعرفونها لى ؛ فيحافظوا على أهلى وعلى مالى ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته بنفعى ولا يضرك ، قال صدقت . صدقت وأراد عمر - رضى الله عنه أن يرل عليه بسيفه ، فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله طالع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم<sup>(٣)</sup> »

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم كل ما تفعلونه من السيئات .

إذن . فالسائقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبى ﷺ مع القرشيين المعاهدة .

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا النبى فى مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له لأمان والمهد ، وكانوا اثنى عشر فى بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسعين فى العمرة الثانية<sup>(٤)</sup> . هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَفُوهُمْ إِخْشَانٍ ﴾ أى من يأتى من بعدهم .

(١) اللصيق هو الرجل يميم من اخى وليس له بهم صلة سب أو قرابة . وهذا كاد حال حاطب وقد جاء به الحديث

(٢) يداً أى فضلاً عليهم يعرفونه لى عند غزو المسلمين مكة

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧ - ٣ ، ٤٨٩٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) عن عى بن أبى طالب رضى الله عنه

(٤) انظر عدد من يابح رسول الله ﷺ من الأنصار من البيعتين الأولى والثانية فى سيرة النبى ﷺ (٢/٤٣١ ، ٤٥٤) أم عند بدء عرض الإسلام عليهم فقد كانوا ستة من الخزرج ، ولكنها لم تكن بيعة



وسيدنا عمر له وقعة في هذه الآية ، فقد كان رضى الله عنه يقرأها هكذا « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أى : يعطى كلمة الأنصار على « السابقون » وكانت قد نزلت : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » ويكمل سيدنا عمر بعد « والأنصار » « الذين اتبعوهم بإحسان » أى أنه جعل « الذين اتبعوهم » حصة للأنصار .

وجاء زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر : « قرأناها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب » . قال : مماذا ؟ قال : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين تبعوهم » .

فقال عمر : ابعث إلى أبي بن كعب ، وكان ابن كعب حجة في القرآن<sup>(١)</sup> فقال أبى هكذا سمعتها - كما قال زيد - من رسول الله ﷺ وأنت تبع القرظ<sup>(٢)</sup> فى البقيع أى أن أبى بن كعب كان ملازماً للنبي ﷺ بينما عمر سيع القرظ ، فصحت عمر وقال : لو قلت شهدت أنت وغيبنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت<sup>(٣)</sup> .

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾  
خصوصاً أن سيدنا أياً لبصير بالقرآن جاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق

﴿ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا ظَنُّوا بِهِمْ ... ﴾ (٢)

[الجمعة]

(١) كان أبى بن كعب الأنصارى من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدرًا والمهاجد ، قال له النبي ﷺ : « لينك المسم أيا ظنلو » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١٥) وأحمد بسنده (١٤٢/٥) وقال له : « إن الله أمرى أن أقرأ عليك » قال : الله سمى لك ؟ قال : الله سمى لك قال : فجعل أبى يبكى « متفق عليه أخرجه البخارى (٤٩٦٥) ومسلم (٧٩٩) وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويقول اقرأ يا أبى انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (١١/١) ترجمة : ٣٢ .

(٢) القرظ : ورق شجر كانت تلعب به الجلود فى أرض العرب .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/٢٨٣) والقرطبي (٤/٣١٦٤) .

وقوله الحق في سورة الحشر:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَسَقُونَا بِالْإِيمَانِ ... ﴾ (١٠)

[ الحشر ]

وهي معطوفة أيضاً (١١).

وهي في الآية التي نحن يصددها بقول الحق:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْقَرُورُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١)

[ التوبة ]

وهي هذا القول ما يطمئن أمة محمد ﷺ ، فلم يأت لنا فقط بخبر العنة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً أوصلوا لنا جمال هذا الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَوَقِّفُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوهُمَا إِلَى الْنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١١)

أوضح سبحانه: وطئوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التروطين يعطى مناعة البقطة ؛ حتى لا يلدس واحد من المنافقين على أصحاب العقلة الطيبين من المؤمنين ، فيشبههم

(١) وقد استشهد ابن مسعود أيضاً بآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ جَاءُوا بِمَنْعَةٍ وَصَلَوا بِهِمْ ثُلَاسًا مِنْهُنَّ﴾ (الأنفال ٧٥)

الحق . انتهوا فأنتم تعيشون في مجتمع محاط بالمُنافقين والطغيان ضد الداءات التي تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك مادياً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ، فأخذ المصل الراقي منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض .

وهكذا يرى الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهجم المؤمنون عن غفلة ، فيقول : ﴿ وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ ﴾ و «مرد» يمرد أي : تلرب وتغمر ، ونفى الأمر عنه حرفة ، وكان الواحد منهم بجيد النفاق إجابة تامة . وكل ذلك ليوجد مناعة في الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة في مواجهة أي شيء ، فإذا رأى أي سوء فيه نفاق اكتشفه على الفور ، واليقظة تدفع عنك الضرر ، ولا تمنع عنك الخير

وامرص أن واحداً قال لك : إن هذا الطريق مخوف لا تمش فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشيا فيه ولم يحدث شيء ، فلو أنك احتطت وأخذت معك سلاحاً أو رصفاً فقد استعددت للشمر لتوقاه ، فتهب أنه لم يحدث شيء ، فما الذي خسره ؟ إنك لن تخسر شيئاً

وهذه قصة منطقية فلسفية يرد بها على الذين يشككون في دين الله ، مثل المنجمين ، ومن يدعون العسفة ، ويرحمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر :

رَعِمَ الْمُنْجِمُ وَالطَّيِّبُ كَلَامُهُمَا لَا تُحْشَرُ الْأَجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا قُلْتُ بِحَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

أي : إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بحث - والعياد بالله - هلن أخسر شيئاً ؛ لأني أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هالك بحث - وهو

حق - فسوف ألقى الجزاء هي الحنة ، وبذلك لم أحسر ، بل كسبت . لكن افرصوا أنكم عملتم البشر كله وجاء السعث بأنتم المحاصرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هي : إن لم أكسب فلن أحسر ، وأنتم إن لم تحسروا فلن تكسبوا

والحق في هذه الآية يقول :

﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ ﴾  
ركلمة ﴿ وَمِنْ حَوْلَكُمْ ﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بكم في المدينة ، وهم من تدربوا على لساق حتى صارت لهم أمة به

وهذه الآيات - كما تعلم - قد نزلت تحكى حال المنافقين . والنفاق تتعارض فيه ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر في القلب ، بينما توجد ملكة يمان في اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما في قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم

أما النصف الثالث وهم الذين بطقوا بالإيمان بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء هم المنافقون .

وهو لفظ مأخوذ من « إلقاء اليربوع » ، وهو حيوان صحراوي يشبه انمار ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيبه أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه طاهرتان طاهرة مَرَصِيَّة في المنايا ، وظاهرة صالحة في المنايا ، ولذلك لم يشأ النفاق في مكة ، وإنما نشأ في المدينة

ومن العجيب أن يشأ النفاق في المدينة التي آوت الإسلام وانتشر منها ،  
وانساح إلى اندثاب كلها ، ولم يظهر في مكة التي أرادت أن تطمس  
الإسلام ، وحارب سادتها وصناديدها لدعوة .

إذن : فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : لظاهرة الأولى وهي الظهرة  
المرضية ، حيث قال الحق .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ﴾ [البقرة]

أما الظهرة الثانية فهي الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قوياً  
بالمدينة عيره عند بدء الدعة في مكة ، بما يأتى لقوى " " لأن المنافق  
يريد أن يتففع بقوة القوى ، كما أن اسافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة  
القوى ، أو أن يقف مه موقف العداء الظاهر .

إذن : فالنفاق حين يظهر ، ثم يظهر في مجالات لقوة ، لا في مجالات  
الضعف ، ولرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوى ينافقه الناس  
دون . فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية في المنافق .

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون  
عليهم ، أى يشخدون مسلك انلصوص ، فى أنهم لا يواجهون إلا فى  
لظلام ، ويحاولون أن يدحسوا من مدخل لا يراهم منها أحد ، ويتلمسون  
تلك المداخل التي لا تظهر ، ويحفظون غير ما يظهرون .

أما مراجعة الكافر فهي مسألة واضحة ، صريحة : فهو يعلن ما يظن ،  
ويواجهك بالعداء . وأنت تواحهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه  
واضح الحركة أما المنافق الذى يظهر الإيمان وفي قلبه الكفر ، فهو

(١) لأنها بين طبيعة نعمت ، هذه نفس تناق الأقوياء لضعاف النعم ، ولا تقى ضمير أو ضعيف  
لأنهما ليسا مصدرين للنفع فلا ينافيهما أحد

يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر البصية التي يطعنك فيها من الخلف

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمن الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، وعدم الانخداع بمظاهر تلك الأشياء ، وكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافق المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافق الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعلم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التي تكشف ما يدور في صدورهم .

وسبحانه القائل عن المنافقين . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْلَأَنَّكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ قُلَىٰ لَحَى الْقَوْلِ ... ﴾ (٣) [مسند]

ولكن هاك لون من النفاق ، نفاق فني دقيق ، يخيب على فطنة المتفطن ، وعى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلكم إلى فضنكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أبا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ، لأنهم قد برعوا في النفاق ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ورغم فطنة رسول الله ﷺ وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيفيب عنه أمرهم ، لأنهم احتاطوا بفتنة النفاق فيهم حتى لا يظهر .

لقد عبّر القرآن التعمير الدقيق ، فقال . ﴿ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ والمادة نفسها في كلمة ﴿ مَرَدُّوا ﴾ هي من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة نصف الشيء ابتاعم الأمدس الذي لا تظهر فيه تنوءات ، ومنه الشاب الأمرد ، يعنى الذي سم بيت له شعر يخرق بشرته ، إذن . المادة كلها تدل على الثبات على شيء ، وعدم وجود شيء فيه يחדش هذا الثبات .

ويوضح سبحانه : تنهوا ، فممن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾ يشعر بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ فساد في بيته .

ونعلم أن الحق قد جعل في النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن ألح الباطل عليها فترة ، تنبئ النفس إليه وتطرده <sup>(١)</sup> . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتدفعهم إذن : فالردع إما أن يكون ذاتياً في النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التي لا يأتيها الردع من الذات ، فهي نفس أمارة بالسوء ، وهي لا تأمر بالسوء مرة وتنتهي ، بل هي أمارة به ، أي : اتخذت الأمر بالسوء حزمة ، لأن صفة « فعّال » تدلنا على المحاولة والمداومة .

وإذا كانت المناعة في النفس فهذا أمر يسير ويأتي من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذي حول الإنسان هو الذي يردع النفس إن ضعفت في شيء . وبهذا تكون المناعة في المجتمع ، أما إذا طمّ الفساد أيضاً في المجتمع ، فلا انفس تملك رادعاً ذاتياً ، ولا المجتمع فيه رادع ، ها لا بد أن يتدخل اسعاء ، وتأتي دعوة الحق بأياتها ، وبياناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد - وتكون نفوسهم أمارة بالسوء - موقفاً يوافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمارة بالسوء ، تتطهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أي أنكم مطروقون في ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق في ذات المكان الذي تصمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

(١) يقول تعالى ﴿ إِذْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً مِنْ لَدُنْهُمْ قَالُوا هَؤُلَاءِ هِيَ الْبَاطِلَةُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْحَقُّونَ ﴾ [الأعراف ٢٠١] أي : استقاموا وصبروا كما كانوا فيه . قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٩)

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر المضار حوله و فيه ، لأنه إن كان الأمر المضار في المكان الذي يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان . لكن إن كان محاصراً بالضرر عن حوله ومن المكان لذى يحيا فيه ، وإلى أين يذهب ؟

ويريد سبحانه أن يثبت المؤمنين إلى أن طاهرة التفائق متمشية : منها ما  
 تستطيعون أيها المؤمنون معرفته بحرفة حركات المفاقيين وسكياتهم ولحن  
 قولهم وتصرفاتهم<sup>(١)</sup> ، ومنها أمر دقيق خفي لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه  
 يعلمه : ولأنكم غير مسلمين لأفئدتكم ، ولأنكم رب يعلمكم ما لا تعلمون  
 داظموا ، فوف بفضيحهم لكم ونتيجة هذا العلم أنكم ستررون فيهم  
 العقوبات : فيأتي فيهم لقول الحق . ﴿ سَتَعْلَمُهُمْ مَّرْتَيْنَ ﴾<sup>(٢)</sup> ثم يُرَدُّونَ إلى  
 عذاب عظيم .

هم إذن سيُعذبون مرتين في الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستمر بمفارقة أن يفصح بمفارقة ؛ ولذلك خطب رسول الله ﷺ فقال :  
'قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق'  
منافق<sup>(٣٦)</sup>

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إن للمهاجرين علامات يعرفون بها محبتهم لله ، وطعنهم لله ، وعيبتهم على كل ، ولا يمررت المساجد إلا هجرأ ، ولا يأتون الصلاة إلا ذبرأ ، شكريس لا يأتون ولا يؤفون ، حشيت بالليل ، صحت بسهار » أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٣) والبيهقي (٨٥ - كشف الأستار) قال الهيثمي في المجمع (١/١٠٢) « فيه عيب الملك بن قدامة الجهمي ، لأنه يحیی بن معین وغيره وضعفه الدارقطني وغيره »

(٢) أحدهما في الدنيا والأخرى في لقبر يعرض ما يقبضه في الآخرة

(٢) عن أبي مسعود الأنصاري قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن فيكم منافقين ، فمن سمع لليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى بقي ستة وثلاثين رجلاً . أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣، ٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٨٦/١) قال البيهقي في المجموع (١١٢/١) : فيه عياض بن عياض عن أبيه وثم از من ترجمهما .





أو تأتي له مصائب الدنيا . ولقائن أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

وردد . إن المصائب تأتي للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتي للمنافق لإفادته . المؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عه دياً ، وإما أن يرفعه درجة به <sup>(١)</sup> لكن المصائب حين تصيب المنافق فهي مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصائب ليس من أصيب فيها يحب ، ولكن المصائب هو من حرم الثواب .

وإن مستقبل المؤمن المصيبة بالرخصا ، وعلم أن الذي أحراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والآخرة على الرخصا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العفيف أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، ويعدم إيمانه يُحرم من الثواب

أو أن العذاب مرتين ، غير الفضيحة بصفهم ، فيمثل في محاولتهم أن يظهروا مظهر الإيثار والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبوب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرعماً ، ويشعر أنه قد حسر المال لأنه لا يؤمن بإثمه ؛ لذلك فمصيبته كبيرة وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له في ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ..﴾ (٨٥) [التوبة]

(١) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من شدة من موعدها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حظ منه بها حظية » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٢) وأحمد في مسنده (٤٢/٦) والترمذي في مسنده (٩٦٥) وقال حديث حسن صحيح .

أو أن يكون العذاب في الدنيا هو ما يروونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلع الروح الحلقوم ، ويرى استعرعر الملائكة مصداقاً لقوله الحق .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَتْرِكُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال]

وكل هذه ألوان من العذاب في الدنيا .

والإنسان - كما نعلم - في استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن في الزمن الأول - زمن حياته - يُعزِّيه في مصابه الزمن الأخير ، وهو زمن آخرته

أما حين يصاب الكافر أو المنافق في زمن حياته ، فلا شيء يعزِّيه أبداً ، لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع في شيء من حيره سبحانه .

وبآية الزمن الثاني ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين . إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون في الآخرة . أما عرض العذاب فهو في القبر<sup>(١)</sup> كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك<sup>(٢)</sup> . ومدام الإنسان يرى الشر الذي

(١) وذلك من نحو قوله سبحانه ﴿وَحَالِقَ الْآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ ١٠﴾ النارُ تعرضون عليها غدراً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ١١﴾ [عافراً] قال ابن كثير في تفسيره (٤، ٨٩)

حدثت الآية من عرض الأرواح على النار عدواً وعشياً في البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال نالها بأجسادها في القبر ، إذ قد يكون ذلك محتصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتلقاه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث لرسالة .

(٢) عن ابن عمر قال قال ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه معه ما بعدة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النور من أهل النار فبقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٨٦٦) واللفظ لمسلم .

يَنتَظِرُهُ ، أَلَيْسَ هَذَا عَذَاباً ؟

إِنَّهُ عَذَابٌ مُّؤَكَّد .

﴿ سَعْدُهُمْ مُّرتَينِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نَعْدِيهِمْ مُّرتَينِ " فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص في أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حايه لكن قوله " ﴿ سَعْدُهُمْ ﴾ يؤكد لنا كنما قرأناه أن العذاب متصل .

وَيُنْهِى الْحَقُّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بقوله .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ أو ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ ونحن نقول مرة : " يُرْجَعُونَ " وأخرى " يُرْجَعُونَ " ، فكأن أفسس البشرية تألف جزاءها في قولنا : " يُرْجَعُونَ " ، أما قولنا : " يُرْجَعُونَ " فهي الكلمة قوة عينا تدفعهم ألا يتفادوا

وهكذا نجد المعذب إما مدفوع بقوة عليا ، وإما أن توجد له قوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجزه هذا التصرف ، ويستقل نفسه بالتوبيع وبالضعيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتي من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقصى حياتك معها في أمر بالسوء ، ثم حين يأتي العقاب قالت تقول لها . " اشربي أينها النفس نتيحة ما فعلت " .

إذن والمعذب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يدفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قل بين هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك انعذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم والعذاب العظيم يأتي إما بأسباب وإما عسب ، وعذاب الدنيا كله

بأسباب ، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ،  
والأسباب تختلف قوة و ضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو مجسَّب ، والمعذَّب  
في الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قسَّتْ عذاب الآخرة بالعذاب في  
الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم ” .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا  
وَعَمَلًا سَيِّئًا عَلَّىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ ﴾

وقوله الحق : ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا  
عَلَىٰ النِّقَاقِ ﴾ ، فهل يظنون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من شوب إلى  
رشده ؟ ليحد أن موقفه مخز حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المُنَافِقُ إذا  
ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نفاقٌ ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من  
يواجهه ؛ فيحسّر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا المرقف ،  
ويرغب في حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجع الإيمان ،  
ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾  
أي : ممن لم يُصِرُّوا على النفاق ” ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون  
من الإقرار . والإقرار بالذنب أسواع ، فهناك من يقر بالذنب إفقة ، وآخر

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل  
يا رسول الله إن كنت لكافية ، قال : محملت عيشتن بسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها »  
أخرجه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)

(٢) اعترافهم وتوبتهم من التعلف من رسول الله ﷺ في عروة توبك

يقر الذنب في صفاقة ، مثلما تقول بواحد \* هل صرّيت علاناً ؟ فيقول .  
نعم صرّيته ، أى أنه عرف بدينه ، وقد يضيف \* وسأضرب من يدافع عنه  
أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب لدن وبطل  
الصريح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿ اعترفوا  
بذنوبهم ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم ﴿ خلطوا عملاً صالحاً  
وآخر سيئاً ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنوب ومعرفتهم أن قضيحة  
الدنيا أهون من قضيحة الآخرة ، أما عملهم السيئ فهو التخنّف عن الجهاد  
والإنفاق .

واعترفهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واحتلف اعلما . هل هذا  
الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حينئذ قال ﴿ اعترفوا بذنوبهم خلطوا  
عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ ثم قوله : ﴿ عسى ﴾ <sup>(١)</sup> الله أن يتوب عنهم إن الله غفور  
رحيم ﴾ أى : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات قوية ولست توبة ،  
فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة في المستقبل  
مُطر هل هذا كان مه محافة أن يُفصح أم موافقة لمنهج الله <sup>(٢)</sup> ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فنكون التوبة مرجوة لهم .

وكلمة ﴿ خلطوا ﴾ تؤدى معنى جمع شيئين كان متفرقين ، وجمع الشينين  
أو الأشياء التي كانت متفرقة له صورتان : الصورة الأولى : أن يجمعهم

(١) عسى فعل جامد دال على التوسّح ، وإذا استدلنا إلى الله تعالى سبحانه أنه وعد بمعاد الأمر  
لمرجو أنه بالمدح حسياً ، وعسى من أفعال الرجاء وتضمن على أوجه أكثرها وجهان : الأول : أن  
يذكر بعدها اسم ظاهر ، والوجه الثاني : أن يذكر بعدها المصدر الموزون

(٢) فإن كان موافقاً لمنهج الله كان القول من الله

على هيئة الافتراق ، كان تأتي بالأشياء التي لا تترج بعصها مثل . الحمص واللب والفول ، وتحلل بعصها بعض في رعاء واحد ، لكن يطل كل منها على هيئة الانفصال ، فانت لم تدخل حبة اللب في حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شيء واحد ، لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاي باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهمما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن . فهم حين خلطوا العمل الصالح والعمل السيئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السيئ مزيجاً واحداً . لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً .

وقوله سبحانه . ﴿ عسى الله أن يثوب عليهم ﴾ كلمة ﴿ عسى ﴾ معناها الرجاء <sup>(١)</sup> وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شيء محبوب . ولرجاء يحلف التمس ؛ لأن التمسى هو أن تم شيئاً وتتمنى أن يكون مرحوداً ، لكنه لا يأتي أبداً ، مثل قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً  
فأحبره بما فعل المشيب

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث . إذن : فأظهار الشيء المحبوب له لوانان : مون يتأتى ، ولرد لا يتأتى ، فالذى يتأتى اسمه (رجاء) ، والذي لا يتأتى تسميه (التمنى) ، مثل قول الشاعر :

ليت الكواكب نثروا لي فأظفها  
عقود مدح مما أرمى لكم كلما

(١) قال الفرطني في تفسيره ( ٣١٦٩/٤ ) : « هذه الآية وإن كانت تترك في أهراب هي عامة إلى يوم القيامة فيجوز له أعمال صالحة وسيئة » وقال ابن كثير ( ٣٨٥ / ٢ ) . « هذه الآية وإن كانت تترك في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخطئين للثلاثين » - والمعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

فالشاعر ينمى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث . أما الرجاء فهو أمل  
يمكن أن يحدث ، والرجاء له مازل ومراحل بانسبة للنفس الإنسانية  
فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول : « عسى فلان أن يمشى كذا » ،  
فأنت هنا مُترجِّجٌ ، وهناك مترجِّجٌ له ، هو من تخاطبه ، ومترجِّجٌ منه ، وهو  
من يعطى ، فهذه ثلاثة عناصر .

لكن أنك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قيت . عسى أن أمضك  
أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمسحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق  
وحين تقول : « عسى أن أمضك » فقد تقولها في لحظة إرضاء للذي  
تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شيء يغير من نفسك ، أو حثت !  
لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء .

لكن عندما تقول : « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ،  
وهو القادر على كل شيء ولا تؤثر فيه أعبار ، أما إذا قال الله عي  
نفسه : « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء .

إذن : فنحن أمام أربع وسائل لرجاء أن تقول : « عسى فلان أن  
يمنحك » أو أن تقول : « عسى أن أمضك أنا » ، أو تقول : « عسى الله أن  
يمنحك » وقد يجيبني الله ، أو لا يجيب دهائي ، لكن حين يقول  
الحق : « عسى أن أفعل » فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا :  
الرجاء من الله إيجاب .

﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ ، هذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما  
توبة <sup>(١)</sup> العبد فمسأله تقتضى التمس على ما قامت ، والرجوع إلى منهج الله ،

(١) باب : رجع من المذنب ، وناب إلى الله ورجع إليه بالطاعة بمد المعصية ، وتوب الله عليه ورفقه  
للتوبة وقبلها منه - قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة]

وانعزم على ألا يعصب الله في المستقبل . أما توبة الله فهي تصمم أنواع التوبة ، فتشريع الله لتوبة رحمة عن ارتكاب الذنب ، ورحمة بالنامس الدين وقع عليهم لسلوك الذي ستوجب لتوبة فإن تبت ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لا ستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروده . لكن حين يشرع الله لتوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكابة عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب غيره .

فإذا قبل الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان » ، فله إذن أكثر من توبة ، ولذلك حين نقرأ قوله الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لَتُوبُوا ... ﴾ (١١٨)

أي : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسيحانه قابل التوب إذن . فالسوبة ثلاث مراحل : تشريع للسوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة والتوبة رجوع عن شيء ، وهي بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعصو ويرجع عن لعقوبه<sup>(١)</sup>

وينهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلج عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أنتهك ، لكن أيتعبد أحد ربه بالمعصية ؟ لا ؛ لأنك إن

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالي في شرح اسم الله ( التوب ) « هو الذي يرجع إلى سبيل التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوي إليهم من تنبيهاته ، ويعلمهم عليه من تحذيراته وتحذيراته ، حتى إذا اطمعوا بتعريضه على عوالم السموات امتنعوا خوفاً تخويفه ، مرجع إلى لتوبة ، مرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول » المقصد الأسنى في شرح أسماء الله المحسن ( ص ١٢٣ ) ط - مكتبة القرآن



كنت قد أصبرت بأحد فإلى أصبرت بنفسك ، ولم تصر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضررٌ بدينك<sup>١</sup> ، وإنما لذنب لحقت أنت

فحين يقول سبحانه ﴿عَفُورٌ﴾ فهو غفور لك ، و﴿رَحِيمٌ﴾ بك .  
والمصائب أو الكوارث نوعان ، نوع للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم في المرض ، أما إذا سرق إنسان فالتص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التي فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم فهي تحتسب عند الله ، ويقال : إن المصيبة التي ليس فيها غريم هي التي تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول :

﴿وَنَسِيَ حَبِيرٌ وَعَمْرٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى]

ها يؤكدان ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هالك إهاجة على الشر .

أما قوله سبحانه :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان]

فلم يؤكد ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ ولدين عتروا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يحتلموا أعداء ؛ لأن تعلم أن هناك أناساً لم يعتدروا ، وأناساً آخرين

(١) من أبي مر عن النبي ﷺ في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تبعدوا ضري فتصروا ولن يلعنوا بعمى فتعموا . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد بن حنبل (١٥٤/٥ ، ١٧٧) والترمذي في سننه (٢٤٩٥) وكذا ابن ماجه (٤٢٥٧) .

اعتذروا بأعذار صادقة ، وأحريص اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ أى : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم فى نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال فى الغزوة فى تبوك التى تحنوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمه بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلى فيه ركعتين<sup>(١)</sup> فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم سواري المسجد وهى الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا وكانت أعذارهم كذبة لكنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تعلمهم وترضى عنهم فقال ﷺ : «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم» ؛ رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين<sup>(٢)</sup> فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومهم : أبو لبيبة .

ولذلك من يذهب يروى المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة مسمها " أسطوانة أبى لبيبة " وهو أول من ربط نفسه على السارى ، وقلده الآخرون . وهذا يدل على أن المؤمن حين تختمر فى نفسه قصايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك المرأة التى زنت ، والرجل الذى زنا ، واعترفوا لرسول الله ليرحمهما<sup>(٣)</sup> ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهبا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) ضمن حديث طويل عن كعب بن مالك فى بيته من مخرجه عن عروة تبوك مع رسول الله ﷺ . وأخرجه محمداً أحمد فى مستدركه (٤٤٥/٣) وأبو داود فى سننه (٢٧٧٣)

(٢) انظر سبب نزول الآية فى تفسير القرطبي (٣/٤٦٨) وأسباب النزول للمصطفى (ص ١٤٨)  
(٣) الرجل هو ماعز بن مالك الأسلمى ، أخرجه قصته البخارى فى صحيحه (٦٨١٥) ومسلم (١٦٩١) وفى بعض طرق مسلم أن ماعزاً قال : «رسول الله رأى قد ظلمت نفسى رويت دأبى أريد أن تطهرنى . أما امرأة هى القامدية» أخرجه قصتها مسلم (١٦٩٥) .

كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جنة أحدهما قال الرسول . « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لو سعتهم »<sup>(١)</sup> .

وكون أمي سامة يربط نفسه بالسرية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت في نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسي كي أجبر من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً في الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلم اعترضوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذي شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وحدوا أنهم في أثناء عزوة تبوك وقد كانت في الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذي شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، ولا بد أن تصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هي صدقة الكفارة

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذي شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٢ ﴾

هذه هي الصدقة غير واجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هي صدقة الكفارة .

(١) وقلت أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجعت ثم صلى عليها فقال له عمر : تصلي عليها يا أمي الله لقد دبت ؟ فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم ، ومن وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٩٦) وأحمد في مسنده (٤١٠ / ٤)

وقوله الحق ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعنى أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله

﴿ وَتُؤْتُهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي تَاكُمُ ... ﴾ [٢٢] [البقرة]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفصيلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم . أحرخوا شيئاً من المال الذي وعبتكم إياه فمن أرجع فيما وعبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فاحق سبحانه وتعالى يقرب :

﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ... ﴾ [٢٤٥] [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هيئته بصاحب المال

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو مطمئن له ، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شيء ينمو ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق اطمئن إلى أن كل شيء سبيري عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرف<sup>(١)</sup> ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَا تُلْزِمُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... ﴾ [٥] [النساء]

لأن السفه<sup>(٢)</sup> لا يصح أن يملك ؛ لأنه بالحق قد يصح كل شيء ،

(١) وهذا ما يعرف بالحق ، قال ابن كثير في تفسيره ﴿ وَلَا تُلْزِمُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ [٥] [النساء] « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فثارة يكون الحجر بضمير المؤن الصغير مضموم العبارة ، وثارة يكون الحجر للمجنون ، وثارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وثارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل مضاعف ماله من وفدها ، فهذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه » (٤٥٢/١)

(٢) السفه هو نقص العقل سوء التصرف بقول الحق ، ﴿ وَلَا تُلْزِمُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ [٥] [النساء] أى ، الذين يسيئون التصرف بمالهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ (إِلَّا مِنْ مِلَّةِ نَافِثَةٍ) ﴾ [البقرة] حملها على الخيل والطيش

ينزل الحق الحكم : إن مال السفیه الذی یملکہ لیس ماله إنما هو مالکم ولكن إلى متى ؟ فیأتی القول الحق :

﴿ فَإِنْ آسَئْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ .. ﴾ (٦) [ النساء ]

أى - ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمنهم على عرفهم ، وأمنهم على ما يمكنون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أحد كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك الماء ؛ لضل الناس بالحركة - وإذا ضل الناس بالحركة ؛ فليس يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأرد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يريد على حاجات الناس ملكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تملك ، والتعلل أمر عريرى فى النفس ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوصح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه ينمى فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يدحض فيه أن الأموال أصفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم منة فى التصرف أو عدم رشده ؛ بأن يكون وارث لمال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه . لا تعتسروا مال الصدقة ، لا مان العاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصى المال باعتبار أنه ماله هو ، وحسن سبحانه الوصى : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفیه إلى عقله

﴿ وَلَا تُوْرَثُوا السُّمَّاءَ أَمْوَالُكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٥) [النساء]

فإياك أيها الرضى ، أن نظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيم عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿ لِأَنَّ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا منجضية لحظها العلماء رضى الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل<sup>(١)</sup> والمحروم ، فلا يصح أن يسب الإنسان المال كله لنفسه ؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحروم ، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم

وفى آية أخرى قل الحق

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (١٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المخرج]

و«الحق المعلوم» هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثانى فهو حق أنصأ ، ولكن الذى يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما فى سورة البورات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آتَاهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ النَّاسِ الْمَبْعُوثِينَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [البورات]

(١) الحق المعلوم هو الزكاة لمروضة ، وحق العير معلوم هو ما ترك لاحتياز النفس فى العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ، لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان<sup>(١)</sup> ، وهو المقام الذي يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله ، والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلي العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر . لكن إن وجد في نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل في مرتبة الإحسان

وكذلك يؤدي المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم في أن يدخل في مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقاً لكنه غير معلوم ؛ ليقسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فضلاً عن اثنين ونصف بالمائة ، قد يجمعها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر .

ووقف العلماء رضى الله عنهم عند وقائنا . إن قوله الحق . ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعنى اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدى ، ولو بين الله حق الضعيف وعمره عن مال صاحبه ، فهذا يعنى أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغنى فحق المقير محفوظ في ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن العنى لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فانغى صامن لحق الفقير .

(١) حنى الشيء ، صدر حناً جسيلاً قال تعالى ﴿ وحسب أوفك رفيقاً ﴾ [التوبة] أى صبراً وحسناً - : وأحسن : أعمل تمضيلاً ، مؤنثه : أحسن ، قال الحق : ﴿ الذين يستنبطون القول فيتبعوه أحسنه ﴾ [الزمر] - وقال : ﴿ وتلا وعد الله الحننى ﴾ [التوبة] - أى : المتزلة التى هي أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم بالعلم والمطاء ، الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامهما وهو أعلى مقامات القرب إلى الله

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ، لأن الذنب الذي فعلوه واعترفوا به تسبب في تقدير أنفسهم بالمعصية ، وماداموا قد ففروا أنفسهم بالمعصية ، فهم في حاجة أن يُطهروا بالمال الذي كان سبباً في عدم ذهابهم إلى العروة

وانظر هنا إلى منحظ « الأداء اليباني » في القرآن ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للبي ﷺ ، ويقول : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر : أخذ هو رسول الله ﷺ ، وماأخوذة منه هو صاحب المال ، وماأخوذة هو المال ، وماأخوذة به هو الفقير المحتاج

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر يشجب بالتالي على كل من وكلّ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول : ولكنها صدقة وليست زكاة . ويقول : ما دام الله هو الذي أمر بها تطهيراً فقد صدرت واحباً ، والآية صريحة ، وتقضي أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فوسى الأمر هو الذي يأخذ من اساس ويؤدي للمفقراء ، أو لأوجه الصرف التي شرعها الله <sup>(١)</sup> ، لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده أحداً من مُسار له ، أما إن أخذ من الولي وهو استئول عن الضراء ، هل يكون عيباً ، كما أن

(١) أي جعلوا أنفسهم محللاً للتقريب والتقبيل . وقد أخرج لإمام مالك في موطنه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس قد أن لكم أن تسهوا عن حدود الله من أصاب من هذه القادوريت شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يمدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله »

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْعُدَّةُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَسْكِينِ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْمَرْجُوعِ وَلِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي السَّبِيلِ بَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النوبة) [ ، رقد سقطت خواطر فصيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية . ولويس الأمر الذي يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة في المجتمع مصداقاً لفهوم الآيات



الحق سبحانه يريد أن يحمي أهل الفقير من أن يعلموا أن اليب الصلاني يعطى لهم زكاة ، فيعاني أولاد الأحد من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى في تعال لا لزوم له . إذن : فحين يكون الوالي هو الذي يعطى فلن يكون هناك مُسْتَعْلٍ أو مُسْتَعْلَى عليه .

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية ، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال ، فهنا يصح على كل إنسان أن يراعى محيط ديه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال ، ومال مُعْطَى ، ومُعْطَى له هو الفقير .

وعلى من يعود قوله الحق ﴿ تَطَهَّرْهُمْ وَتَرْكَيْهِمْ ﴾ ؟ السطحيون في الفهم يقولون . إنها تطهر من تأخذ منه المال ، وتركي المال الذي تأخذ منه لكن من يملك عمقاً في الفهم يقول : مادامت هناك في هذه الآية عناصر ، فضروري أن يعود التطهير <sup>(١)</sup> والتركى عليها ، وإنها تطهر وتركى المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتركى المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتركى المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَلَر ، والتركى لئلا .

القدارة أمر عارض على الشيء الذي نغسله ونطهره ، وتسمية له بشيء عائد عليه فيرداد ، وهكذا تطهر الصدقة وتركى عناصر الفعل كلها والتطهير لمن يعطى ، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه : لأنك إن أخذت منه مال ، فقد يكون قد عقل وأدخل في ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال

(١) طَهَّرَ يَطْهَرُ مَنْ يَبْدَأُ قَرْمًا وَبَصَرًا - طَهَّرَ يَطْهَرُ رَأَى مِنْ الدُّسِّ وَالْقَدَرِ حَسْبًا وَمَعْرِيًا ، وَطَهَّرَتِ النَّفْسُ سَلِمَتْ مِنَ الْآفَاتِ الْخَلْقِيَةِ وَنَزَهَتْ مِنَ النِّعَاقِ وَعَنِ الْحَمْدِ وَهِيَ كُلُّ الرِّقَاقِ قَبَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [البقرة] هَذَا فِي الْمَسْبُوتَاتِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة] تَبَرَّه فُلُوبُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ مِنَ الْآفَاتِ الْخَلْقِيَةِ ، وَهَذَا فِي الْمَعْرُوفَاتِ

أما كيف تنمى صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر ، معنى ذلك أنك تظمنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كي تعطى المحتاج ، مكانك تظمنه وتقول له : أنت لو احتجت فلن نصع ، وبذلك تنمى تواجدته وثقته ، وظهرته أيضاً من أن يكون في ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تظهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالركاة تطهره .

وقد يحيل إليك أنك حين تأخذ من مال فهو ينقص ، عكس الربا الذي يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للعامة جنبه فتصبح مائة وعشرة مثلاً ، أما المزكى فالمائة جنبه تصير مبيعة وتسعين ونصفاً ، والسطحي يرى أن الركاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملأ الأشياء ؛ فالركاة التي تعتسرونها نقصاً تنمى ، والربا الذي تعتسرونه ينمى إنما ينقص ، والحق يقول

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ ۖ الرِّبَا وَبُرُئِ الصَّدَقَاتِ ۖ ﴾ (٢٧٦) [ لبقرة ]

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مريداً لك ، هو في الواقع نقص ، كيف ؟ لأن الناس لا ينتظرون إلا إلى رزق إلهي ، ويطعون أن هذا هو لرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب » ، فوزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

(١) محققه من باب فتح النقص ، أو إبطه ، أو إهلك قال تعالى : ﴿ وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٢٧) [ آل عمران ] أي يهلكهم وقال : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ (١٧٦) [ البقرة ] أي ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما جعل بالصدقات .

ووزق السلب يتمثل في أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائة ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف لشر . من ناحية المال .

والحق يقول -

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَبَاٍ لَّيْرَبَّرَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْمِرُونَ ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيراً للأخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطى له لأنه محتاج ؟ ونقول : إن الأخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي العمة ؛ لأنه وصله بعض من المال الذي عند ذي النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالريادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

والفلاحون في ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضاً من الخير الخارج من لسانها ، وساعة أن تمر بحددها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد .

هذا عن التطهير ، فمادام عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فتتجدد نفسه وتنمو بالأطمان ؛ لأنه في مجتمع إيماني . إذن : فقوله الحق : ﴿ نَظْهِرْهُمْ وَنُورِّيهِمْ ﴾ راجع لكل العاصر في الآية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ادع لهم بالخير ؛ ولذلك كان النبي ﷺ كلما أتاه قوم بأي صدقة قال : « اللهم صلِّ عليهم » شأنه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى »<sup>(١)</sup> ، هذه هي لتزكية القولية التي يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطى ، ويجد ويجتهد من ليس عنده ؛ لسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنْ مَلَاتِكَ سَكْرٌ لَهُمْ ﴾ أى . اطمشان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء ، وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجده فى حياتى وأجتهد ؛ حتى اصغر تلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنتهى الحق الآية بقوله . ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿ سميع ﴾ لكل ما نعتبره قولاً و﴿ عليم ﴾ لكل ما نعتبره فعلاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ  
الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤)

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هي : همزة استفهام ، « لم » حرف نفي ، « يعلم » وهو فعل . فهل يريد الله ها أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » ولإنكار نفي ، فإذا دحس نفي على نفي فهو إثبات ، أى « فليعلموا » .

(١) ممن عنه أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أرمي

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول . إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إيجاباً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿ هُوَ ﴾ . وكان يستطيع سبحانه أن يقول " ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة " وليس يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتي بمسمى الفصل ، مثلما نقول " فلان يستطيع أن يفعل لك كذا " وهذا القول لا يسمع أن غيره يستطيع إلحاز نفس الممثل ، لكن حين نقول " فلان هو الذي يستطيع أن ينجز لك كذا " فهذا يعنى أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذى يعنى الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة .

لذلك قال الحق : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ... ﴾ (١٠٤) [المرية]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله . ونحن إذا استعصنا أساليب القرآن ، وجدنا أن ضمير المصل أو ضمير الاختصاص هو الذى يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها ؛ وهو واضح فى قصة سيدنا إبراهيم حين قال

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا عِبَدُوا مَا فَتَّلْنَا لَهَا عَاجِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَأَنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم في عصبية واحدة وقال : ﴿ إِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيء واحد . وكان بعض من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً متفرداً ، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة في قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل في نوعين اثنين .

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء ، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل في العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيم وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أي : أن الله سبحانه ليس عدواً لإبراهيم عليه السلام ، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون لهة دون الله ، أي . لا يعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... ﴾ (٣) [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب وأضاف :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨)<sup>(١)</sup> [الشعراء]

ولم يقل . "الذي خلقني يهديني" ، بل ترك "خلقني" بدون "هو" وخص الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

(١) إن الأفعال التي لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ [الشعراء] لما إذا كان الفعل يدعي البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرأى يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للمبدع دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتي إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحد يدعى أنه خلق أحداً . فاخلق لا يدعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقتى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ (٨٧) [الزعرور]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتي فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتي فيه واحد مع الله ، فهو يختص بـ " هو " تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فليس لأحد أن يدخل نفسه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدع أنه خلق أحداً ، فمجرى الاحتصاص - إذن - كال فى مجال الشهادة بمنهج الحق ، لا مفرانين من الخلق . فمى الممكن أن يقول بشر : أنا أصنع القوانين التى تسعد البشر ، وتسمع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول - لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه .

إذن : ما لا يدعى فلا تأتي فيه ( هو ) ، أما ما يمكن أن يدعى فتأتى فيه ( هو ) . وقوله سبحانه .

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩) [الشراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل ؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتي له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك له ؛ لذلك جاء بـ ﴿ هُوَ ﴾ ، فأنت إن سبت كل رزق يأتي به أبوك ، لانهتيت إلى ما لم يأت به الأب ؛ لأن كل شيء فيه سبب للبشر ينتهى إلى ما ليس للبشر فيه أسباب ، فكل شيء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) [الشراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذي يشفى ،  
وينسى أن الله وحده هو الشافي ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك نجد  
أننا قد نأخذ إنساناً لطيب ، فيموت بين يدي الطبيب ؛ ولذلك يقول الشاعر  
عن الموت :

إِنْ نَامَ عَنْكَ فَائِي طِبُّ نَافِعٌ      أَوْ لَمْ يَتَمْ فَالطَّبُّ مِنْ أَدْنَاهِ

فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض . وجاء  
سيدنا إبراهيم باقصر في الشفاء لله ؛ حتى لا يظن أحد أن الشفاء في يد  
أخرى غير يد الله سبحانه . ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿وَالَّذِي يُعَيِّتُنِي ...﴾ (٨١) [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يعييتني ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد  
يقول قائل : كان يجب أن يقول "هو يعييتني" ، ونقول : انتبه إلى أن  
الموت غير القتل ، فالمرت يتم بدون نقض للنية ، والقتل لا يحدث  
إلا بنقص النية ، ويصف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿وَالَّذِي يُحَيِّتُنِي ثُمَّ يُمَيِّتُنِي﴾ (٨١) [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحييني" ؛ لأن هذا أمر خارج عن أي توهم  
للشركة فيه ؛ فقد جاء بـ "هو" في الأمور التي قد يُظن فيها الشركة ، وهو  
كلام بالميران :

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله<sup>(١)</sup> .

(١) وفي هذا يقول سبحانه : ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ [آل عمران: ١٣٥]



بذن . فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يدعى أن فيه شركة يجيء بـ «هو»<sup>(١)</sup>

وهنا يقول الحق : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ وظاهر الأمر أن يقل ، ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن» والسعصعة يقولون : إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتي «من» بدلاً من «عن» . وتقول : لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغني عن حرف آخر ؛ لأن معنى التوبة ، أن دنا قد حدث ، واستوجب المسبب العقوبة ، فإذا قبل الله التوبة ، فقد تجاوز الله عن العقوبة ؛ ولذلك جاء انقول من الحق محذراً : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ أي : متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة .

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذي قبل التوبة ، وهو الذي تجاوز عن العقوبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ صحيح أن الله هو الذي قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مآول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها «يتقبل» وقرأ قول الحق

﴿ إِنَّ لِمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ... (١٦) ﴾

[الذريات]

أي : متقنين ما آتاهم الله . ومثال هذا ما يروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفصة من المعادن التي لا تصدأ ، والقضة على أصلها تكون لينة

(١) وهذا يتلوه مع ما ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣١٧٦) . قوله تعالى «هو» تأكيد لا مراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . ومحقق ذلك أنه لو قال : إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون يوحد رسوله قبولاً منه ، فثبت الآية أن ذلك عما لا يصل إليه من ولا ملك .

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة . وللمعدن الذي يعطى الصلابة هو الذي يتأكسد ، فتصدأ العضة ، لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم . فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها : ما هذا ؟ قالت : إنه درهم . واستغمر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت : كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع في يد الفقير تقع في يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذي يأخذ الصدقة .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . كل هذه الآية نفى لظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبِلَتْ ، ولكن الذي يقبل لتوبة هو الله ، والذي يأخذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا هَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ  
وَسَرُّ دُوبِكِ إِلَى عَلِيٍّ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ ۝ ١٥ ﴾

إذن . هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا صملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم في سوارى المسجد ، وقالوا : لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله ﷺ ، وقالوا : خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضيهم بدموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم منسيرون على مقتضى هذه التريه أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون في الخفية بل ستكون في العلن أيضاً ، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال : ﴿فسري الله﴾ . أما الأمور التي نحتاج لفظنة<sup>(١)</sup> النبوة فالرسول ﷺ يعبرته سبواها بنوره في سلوككم أما الأمور الظاهرة الأخرى فسبواها ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تحادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله يقطعه ونورانيته وصفاته وشفافيته سيعرف الحديعة ، أما إن كانت المسألة قد تعمى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذي يعلم

﴿ رَقُلْ اصْمَلُوا ﴾ أي : اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بدنوبيكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم في المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو آتيات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه في عاديات الأمور<sup>(٢)</sup> .

(١) لأن الرسول صفات تليق به وهي العصمة والأمانة والبلاغ والفظانة  
(٢) عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل في صحفة صماء ليس لها باب ولا كوة فخرج عمله للنام كأنما ما كان » . أخرجه أحمد بن حنبل (٢٨/٣) والحاكم في مستدركه (٢١٤/٤) وصححه وأثره الذهبي . وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢) - موارد لفظاً .  
وهو الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فحاسة للناس فإنه يرى نور الله » . روى عن خمسة من الصحابة - فيما رفعت عليه - وكلها لا أصل من مقال . ومنها حديث أبي سعيد الخدري عند الترمذي في سنن (٢١٢٧) وقال : « هرب » . به مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجراء ثواباً أو عقاباً ، فهي ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائي يملك أن يثيب أو أن يعاقب . وأنكم راجعون إليه لا محالة . ورد كتم في الدنيا تعيشون في الأسباب التي يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصي ، فهناك عالم العيب الذي يملكه الله وحده :

﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن : سيعامل الثائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب العفة التي طوأت عليه بأدب ، غفل عن اليوم الآخر ، فبحسب الحاجة إلى تجديد التذكير بالإيمان .

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسِرَی اللّٰهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله سبحانه : (فسري) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتصقة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَاسْتَرْدُّوْنَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَاشْهَادِهِ ﴾ أما عالم الغيب فأنفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سرف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، ورسنا عالم بالكل وسبحانه لا يجازى عن مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول .

﴿ كَفَىٰ بِفُسُكَ الْيَوْمَ عَنِّيكَ حَسِيبًا (١٧) ﴾ [الأنعام]

ولذلك ينهى الحق هذه الآية بقوله :

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم في السواري ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحس وثاقهم من السواري ، وقتل منهم الصدقات ؛  
ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا  
أنفسهم في سواري المسجد ، ولا عترفوا بتوبتهم ؛ لذلك يجيء قوله  
الحق :

﴿وَأَخْرَجُوا مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ  
عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٨)

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيحصيهم القرآن بآيات خاصة  
يقول فيها :

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا  
رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ  
عَلَيْهِمْ فَيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن  
الريبع<sup>(١)</sup> . وهم قد تخلعوا أيضاً عن غررة تيوك ، ولم يكن لهم عذر في  
لتخلع أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالههم ، وعندهم كل

(١) كعب بن مالك الأنصاري شاعر مشهور شهيد بيعة العقبة الثانية وتحلف عن غررة بدر وشهد  
ما بعدها ثم تحلف في تيوك توفي عام ٥٠ هـ في زمن معاوية (الإصابة في تمييز الصحابة  
٣٠٩/٥)

أما هلال بن أمية الأنصاري فقد شهد بدرأ وما بعدها ، مات في خلافة معاوية ، وهو الذي ظهر  
صدقه في قسعه لامرأة يلقبها (الإصابة ٢٨٩/٦) . أما مرارة بن الربيع الأنصاري ، فهو صحابي  
مشهور شهد بدرأ أيضاً (الإصابة ٧٦/٦)

شيء . وقد قصر واحد منهم حكايته " ، وبين لنا أنه لم يكن له عذر :  
« وما كنت في يوم من الأيام أقدر على المال والرحلة مني في تلك الغزوة ،  
كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتي الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ،  
فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول : ﴿ وَأَحْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾

﴿ مرجون ﴾ أو «مرجئون» والإرجاء هو التأخير . أي : أن الحكم  
فيهم لم يظهر بعد : لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصة أن رسول  
الله ﷺ لم ينشئ في الدولة الإسلامية سجيناً يُحرك فيه للمجرم ؛ وهذا  
لحكمة ، فكذلك نأخذ المجرم ونعزله عن المجتمع ونحسه في مكان فهذا  
جائز لكن النكال في أن تدعه طليفاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة لإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم  
الس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقربهم  
ولا يختلط بهم أحد في السوق أو في المسجد .

وكان أحدهم يتعمد أن يصلي قريباً من النبي ﷺ ويختلس النظرات ليري  
هل ينظر النبي له أم لا ؟ ثم ينهب لبيت ابن عمه ليتسنى السور ، ويقول  
له : أنعلم أسي أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم . وهكذا  
عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك

(١) هو كعب بن مالك ، قال : « لم أكن قط أقرى ولا أيسر مني حين تخلصت عنه في تلك الغزوة ،  
والله ما جمعت قبلها راكبتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة . وغرنا رسول الله ﷺ تلك  
الغزوة حين طابت الشمار والظلال ، فأنا إليها أصغى ( أي آمين ) فتجهز رسول الله ﷺ  
والمسلمون معه ، وطففت أغدر لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأتوب في نفسي . أنا قادر  
على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتعادي بيني حتى استمر بالناس الجدد فلم يزل ذلك يشاهي  
بين حتى أسرعوا وتفردت الغزوة . » حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذي يصعب التحكم فيه . وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتي الله بأمره .

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم لكن الحق سبحانه وحده هو الذي يعلم مصير كل واحد منهم .

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْنَ لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه ، إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له معاد يؤتد به ، ولكن ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجل الله بالحكم فيهم ، وقوم أخر الله الحكم فيهم ؛ ليصمى الموقف تصفية تربية ، لهم في ذاتهم ، ولم يشهدوهم .

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليأدبوا الأدب الذي دبره به المجتمع الإيماني ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفي هذا التأديب .

وإذا أدب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرَأَى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب .

ولو أن الله عجل بالحكم ، لمرت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مُرْجَوْنَ لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتي قول الله فيهم :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الدِّينَ حُلُوفًا ... ﴾ (١١٨)

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا  
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْمَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ  
لَكَذِبُونَ ﴾ ١٧

يفص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين <sup>(١)</sup> ، وأحوالهم مع الإيمان  
متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدرها بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ،  
﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ و ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «أحوالهم  
لثوبة» ، مثل قوله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ﴾ (٧٥) [التوبة]

وقول الحق

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴾ (٦١) [التوبة]

وقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ إِنَّا نَدْنِي وَلَا نَقْتَبِي ... ﴾ (٤٩) [التوبة]

(١) وهم اثن عشر من المنافقين اتبعوا مسجداً ضراراً ، مضارة لأهل مسجد اقياء ، وكفراً ، لأنهم ساء  
بأمر أبي عامر الراهب ، ليكون مغللاً له يقوم إليه من يأتي من عنده ، وكان قد فزع بياني بجنود  
من قبصر لقتال النبي ﷺ وتفرقوا بين المؤمنين الذين يصلون في قباء ، وإزماداً وترقباً لمن حارب  
الله ورسوله ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ [التوبة] أي : قبل ذلك ، ﴿ وَلِيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا  
الْحُسْنَى ﴾ من الرقي بملسكين من المطر وحرارة الشمس ، والترمجة على المسلمين ، ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ  
لَهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ [الجلالين] يتصرف



وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿وَيُخَلِّفُونَ﴾ ، ﴿وَيُخَلِّفُونَ﴾ ، ﴿وَيُخَلِّفُونَ﴾ ويقولون عنها : «مخالفة»<sup>(١)</sup> التوبة ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - متعارضون في ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر . والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفياً ، ومجهوداً عقلياً ، ومجهوداً حركياً ، فهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون لإيمانهم بالسنتهم في قوله :

[البقرة]

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ..﴾ [١٤]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

[البقرة]

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ...﴾ [١٥]

(١) ذكرت مادة يَخْلِفُ في سورة التوبة في سبعة مواضع هي

- ﴿وَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]
- ﴿وَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُنْكَمُ وَمَا هُمْ بِمُنْكَمُ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]
- ﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُخْرِجَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَسْرَأُ أَنْ يَخْرِجَهُ﴾ [التوبة: ٦٢]
- ﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]
- ﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِنَّا أَلْفَقْنَاهُمْ إِيَّاهُمْ لِيُخْرِجُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]
- ﴿يُخَلِّفُونَ لَكُمْ لِيُخْرِجُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٦]
- ﴿وَلَيَحْضُرُنَّ إِلَيْنَا أَرْبَابُهَا لِيَحْكُمُنَّ...﴾ [التوبة: ١٠٢]

وكذلك وردت في مواضع أخرى من القرآن :

في سورة النساء :

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ بِتَقْوَىٰ بِاللَّهِ إِذْ أَرَدْنَا أَنْ نُبَدِّلَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النساء: ٦٢]

وفي سورة المجادلة :

- ﴿وَمَا هُمْ بِمُنْكَمُ وَلَا مَعَكُمْ يَخَلِّفُونَ عَلَى الْقُلُوبِ وَمَنْ يَتَّبِعْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤]
- ﴿فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخَفُونَ لَكُمْ وَيَخْشَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]

وهكذا تُكَبِّت ملكات لسانهم في أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين ،  
أما حين يكونون مع ، خيوانهم فهم يُنْفُسُونَ عن ملكاتهم فيقولون نولاً  
محتفياً ، وهذه مسألة متناقضة ؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْخِلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ  
يَجْمَحُونَ ﴾ (٥٧)

[التوبة]

أى . لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لَنَفَسُوا عن  
أنفسهم ، وَسَبَّوْا لَنِي ، وَسَبَّوْا الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالُوا مَا يَصْرِفُهُمْ  
لَا يَجِدُونَ هَذَا الْمَكَانَ ، إِنْهُمْ يَتَمَحَّوْنَ لَوْ وَجَدُوا مَلْجَأً يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ، أَوْ مَخْرَجًا  
يَدْخُلُونَ فِيهَا ؛ لَكِنِّي يُنْفُسُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ إِذِنْ . ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ  
يَجْمَحُونَ ﴾ ' ، لكنهم لا يجدون .

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز  
وجل . ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ... ﴾ (١٠٧)

[التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» هي عمومها هي مكان السجود ، وهي  
الخصوص هي مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى  
العام ، فكل الأرض مسجد<sup>١</sup> ، وتستطيع أن تصلى في أى مكان فيصير

(١) جميع الأرض . انطلق بطل لا يشبه شيء ، أو غلب رايه ميري كما يريد ، قال تعالى ﴿ لَّوَلَّوْا  
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] أى مروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجأ لا يردعهم شيء ، كالتخيل  
الجامع

(٢) من جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت حبساً لم يعطيه أحد قبلى » كان كل من  
يبحث إلى ثوبه خاصة ويمشي إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لي العنائم ولم تحل لأحد قبلى .  
وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، فأبى رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت  
بالرعب بين يدي مسيره شهر ، وأعطيت الشفاعة . متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه  
(٣٣٥) مسلم (٥٢١) .

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين<sup>(١)</sup> ، وبعد ذلك تراول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى في الفصل الدراسي أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو في أي مكان تراول فيه أسباب الحياة

وبذلك يصبح المكان الذي تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال : «حجر ليكون مسجداً» ، فلا تباشر فيه أي عملية من عمليات الحياة ، لا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن ينقصوا عن أنفسهم في صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناء نوعاً من عوف وأرادوا بهذا المسجد أن يناقصوا مسجد قباء .

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شيء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى العلاني مسجداً ، ولم تُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة : صفة التنافس للحصول على سمعة أو تميز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين .

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهره صحيحة ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية في الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

(١) مَكَّنَ من باب كَرَّمَ - مكانة يهر مَكَّنَ - ثبت واستقر فهو ثبت ومستقر قال تعالى ﴿إِنَّكَ قَائِمٌ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف ٥٤] أى : عظيم ثابت لحرله ومَكَّنَ له أى التمسك به ثم قال تعالى - ﴿إِنْ لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [النصر ٥٧] أى : حرمًا قبيلاً ، وأمكنته من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَلَقْنَا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ نَلْمَنُ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام ٧١]

فيه صلمان مكتملان ، ثم يوجد بعده عدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد صرار<sup>(١)</sup> .

إذن . قد المسجد بمعناه الخاص هو المكان الذي يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يراول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبي ﷺ حين رأى واحداً يشهد ضالته في المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »<sup>(٢)</sup> . لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن بية الاعتكاف لتكون في حصرة رهت ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم في مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفَسروا عن ثقاتهم بمظهر من مظاهر الطهارة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصونون بها ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن صلى فيه فنكون أحراراً ، وتتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة في المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكسوتين ، وعير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

هم تنو المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم في المسجد الجديد أثناء خروجه لفزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

(١) هذا يتلوه مع ما ماله القرطبي من تفسيره (٤/٣١٨٠) « قال علماءنا لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنيه مثلاً ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، لا أن تكون لفحة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبقى حيث لا يسمي أن يبنى في المصنوع الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الناس ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه » واللغة تقول ضار يضاره مضارة وضاراً معاملة بين اثنين لا تعار والله يؤلفها ولا مرفوعة يؤلفها (البقرة ٢٣٣) وإحداث مسجد كهذا ضار يجمع المسلمين رمحة للفرق

(٢) من أبي هريرة قال قال الله ﷺ « إذا رأيتم من يسبح أو يستنجح في المسجد فقولوا : لا أربع الله تجارتك ، وإذا رأيتم من يشهد ضالته فقولوا : لا رد الله عليك » أخرجه الثوري في عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والداودي (١/٣٢٦) والترمذي (١٢٢١) وقال : حسن ضريب

لهم : إننا في حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يسترقوه وعده ، وطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا نجبرين ينزل عليه بالآيات التي توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم في ذلك

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم في كل الزمن ، وأن يتعدوا عن استراجم مع المؤمنين في المسجد الذي يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون في مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَقَرَّبَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

إذن : فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن لإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن نصلى الصلوات في أى مكان ، وحتم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة في مكان واحد ؛ يفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تعريقاً بين المسلمين .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنِ حَارِبُ اللَّهِ وَسُوَّةٌ مِنْ قَبْلُ ﴾ والإرصاد<sup>(١)</sup> هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم في المكان الفلاني لرصد فلان ، أى : أنهم أتوا يرقون مجيئه بمكان يفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

(١) أرصد - أعد وجهه ، قال تعالى ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنِ حَارِبُ اللَّهِ وَسُوَّةٌ مِنْ قَبْلُ ﴾ [التوبة: ١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولا يزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب . والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه من رقيقين ومتطهرين إنساناً له سابقة في عهد رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> ، وهو الذي طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاستق» .

وأبو عامر هذا رجل تنصّر في الجاهلية ، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات ، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتي به ليدعو لهذا الدين ويتراأس من يتبعوه . وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصّروا وصاروا في المدينة ، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء في المدينة وزالت رياسته ، عادى رسول الله ﷺ ، حتى قال له في أحد : ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم . وحين تمكن الإسلام في المدينة مر إلى مكة ، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف ، فلما آمن أهل الطائف ، لم يجد به وطأ فذهب إلى الروم «بالشم» . ثم كتب للمنافقين أن أعدوا مسجداً ، لأبي سأتى لكم بقوة من ملك الروم ؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة<sup>(٢)</sup> .

إذن : فهم قد بنوا ذلك المسجد ضراباً ، وكفراً ، وتفريقاً ، وإرصاداً ، أي : ترفباً وانتظاراً لذلك الراهب الذي سيذهب إلى الشم ويأتى بجود لمحاربة الله ورسوله . ورغم أنهم قد فعلوا ذلك ، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله أن يصلى معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية في غزوة أحد (٣/ ٨٠) «وقع رسول الله ﷺ في حمرة من اخضر التي عمل أبو عامر يبيع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون ، فأخذ على من أبي طالب بيد رسول الله ، ورمعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً» . انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٧)

(٢) قصة طاق هذا الرجل وعدائه لرسول الله ﷺ مذكورة في أسباب النزول للواحدي (ص ١٤٩) ، وتفسير القرطبي (٤/ ٣١٨٣) وابن كثير (٢/ ٣٨٧ ، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠) وهو والد صحابي جليل هو حنظلة عسل الملائكة ، استشهد يوم أحد وهو جيب قميصه الملائكة .

فيه الناس ما دام رسول الله ﷺ قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذي يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ، فهم قد أخذوا بالإسلام لونا من الصفة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه (١) لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ، لذلك أراد أن يحمي الإسلام من لسان من لم يعلم ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «عالمث بن الدخشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشي» قاتل حمزة ، و«معي بن عدي» ليهلكوا هذا المسجد ، وأن يجعلوا في موضعه مكان «القمامة» ، وبذلك فُصحَ المنافقون ، فأُسروها في نفرسهم .

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرمه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل ، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لا بد أن نصعه في مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفروا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم . لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين في العداوة للإسلام ، لذلك كان لا بد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ، لذلك أصبحوا حائضين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول :

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا في حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبي قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعراس منها الأذل ، فبلغ النبي ﷺ فقام عصر فقال : يا رسول الله دعني أغيرت عتق هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم في صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿يَحْذَرُ الْغَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤) [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذوني إبه بسلوكه ، فما يدل على نفسه ، ويأتى القرآن في سورة ثانية فيقول :

﴿وَأَذِّنْ لَهُمْ أَنْ يَخْلَعُوا أَسْمَاءَهُمْ وَإِنْ يَكُونُوا يَسْتَمِعُونَ كَلِمَةً مِنْهُمْ يَتَصَوَّرُونَ مِثْلَ مَا يَخْلَعُونَ﴾ (٦٥) [التوبة]

وهم يتصورون هكذا لأن لريبة تملاً أصماقهم<sup>(١)</sup> ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحية يظن أنه جاء ليؤذبه ضرباً أو قتلاً .

والحق سبحانه يقول هنا

﴿وَرَمَاداً يُبْعَثُ حَارِبَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ، وكلمة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق في محاربة رسول الله بغرض أن يؤذوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحسمه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ

وفى هذا الأمر أمثلة كثيرة ، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ لَحَقٍّ...﴾ (٦٦) [البقرة] أليس هذا القول يدمع في خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الخسارة على قتل الأنبياء فما الذى يمتنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل ، ويأتى قوله الحق :

(١) وفى هذا يقول رب العزة عنهم ﴿لَا يَدْرِي سَاءَ مَا يَحْكُمُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (التوبة ١٠٠) يقول ابن كثير فى تفسيره : أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع السيئ أو ثقتهم نفاقاً فى قلوبهم .



﴿لَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ...﴾ (٩٦) [القرة]

وقوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هنا يعنى أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف . وهكذا صمان الله ورسوله ﷺ . وبذلك كُتبت هذه الفكرة إن فكروا فيها<sup>(١)</sup> .

وأيضاً حين يأبى القرآن بشيء فى نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويقضحهم القرآن بإعلان ما فى نيتهم ، ومن عباثهم فهم يفعلون الأمر المعضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما مضحهم به القرآن .

ويتمثل ذلك فى أحد المواقف التى يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم : إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون فى القرآن ، ومن عباثهم أيضاً أنهم حلفوا فى أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاَهُمْ عَنِ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ (١٤٦) [القرة]

نهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك فى قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يصولون نفس لقول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ، وهم بهذا المعمل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ يخرس حتى نزلت هذه الآية » ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٩٥) [البقرة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من العباءة ، فقال لهم : يا أيها الناس انصبروا فقد عصمتكم الله . أخرجه الترمذي فى مسته (٣٠٤٦) واستغفبه ، وأخرجه أيضاً أبو يعين فى إجماع (٢٠٦/٦) والحاكم فى مستدركه (٣١٣/٢) وصححه

وهنا يقول الحق : ﴿وَلْيَحْلِفُنْ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع . وهم قد أقسموا وقلوا ما أردنا بأن نأخذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى ، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر ، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شامية ، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه ، ولكن حكم الله ينزل ﴿والله يشهد إنهم لكافرون﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أَشْهَدُ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رَجُلٌ يَجْعَلُ اللَّهُ وَجْهَهُ لِلدِّينِ أَنْ يَضْطَرُّوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾ (١٠٨)

فهل نقوله الحق : ﴿لَا تَقُمْ<sup>(١)</sup> فِيهِ أَبَدًا﴾ معناه أن يظل المسجد قائماً ولا تقام فيه صلاة ؟ هل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ صيغتها النهي ، أى لا تُصَلِّ فيه ، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقم فيه صلاة أبداً ؛ لأنه لن يكون له وجود ؟

(١) قال ابن إسحاق في السيرة : «كان أصحاب مسجد الضراء قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى بيوتهم ، فقالوا : يا رسول الله ، إننا قد بينا مسجداً لدى العلة والحاجة والليله لمطيرة والليله الشامية ، وإننا نحب أن تأتينا ، فتصلي لنا فيه ، فقال : إني على جناح صغور ، وجمال شغل ، ولو قد قلنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبي لابن هشام ٤ / ٥٣٠]

(٢) قام يقوم بهضم معتلأفون هرج ، واستعار للاعتدال في المأوى والأخلاق ، وقام بالكان مكث فيه على أى حال مثل أنام ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وإِذَا ظَلَمَ عَلَيْهِمْ قَوْمًا﴾ [البقرة ٢٠٠] أى ترفعوا من المسير ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ [الروم ٤٦] أى . تنفع وتنتقم ، وقوله ﴿وأنه لما قام عبد الله بفعله﴾ [٢٥] ﴿[الجن] أى 'بهضم واجتهد في الدعوى إلى الله ، وعبد النبي مصعب على أن الصلاة لا تقام فيه لأنه لن يكون له وجود .

إن قوله الحق سبحانه يعني أن هذا لمسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم  
تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَمَسْجِدَ أُسَىٰ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ  
فِيهِ ﴾ إذن ، فالمسألة ليست في بناء المسجد ، ولكنها هيمن بدخل المسجد  
ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول <sup>(١)</sup> فقد أسس  
على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه  
مناققون يحبون أن يتقذروا ، لأنهم لما بلن يحبون أن يتطهروا .

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شيء تنبسط له النفس وتحف لعمله .

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله  
قد أتى عليكم من الطهور ، فما طهروكم هذا ؟ قالوا : يا رسول الله توضأ  
للمسلاة ونفسل من الجنابة ، فقال رسول الله ﷺ : فهل مع ذلك من غيره ؟»  
وهنا قال أهل قباء . «لا ، غير أن أحدا إذا خرج من الغائط أحب أن  
يستنجى بالماء <sup>(٢)</sup> ، وكان لواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء  
الحاجة ، فيخفف من استخدام المياه ، لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم  
يستخدم الماء بعد الأحجار <sup>(٣)</sup> ليكن ويتم نظافته ، وأضافوا : «ولا نبيت  
على جنابة ، ولا نعرض على دئب ، فإن غلبنا الدئب تعجلنا التوبة» .

﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا  
شيء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو  
الشقاء بعينه . ولشاعر يقول .

(١) هو مسجد قباء ، وهو أول مسجد بني في الإسلام ، من قبل مسجد النبي ﷺ .  
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٥٥) والدارقطني في سننه (٦٢/١) والحاكم في مستدركه (١٥٥/١)  
(٣) (٣٢٤/٢) وصححه قال الريلي : سننه حسن لكن فيه عتب من أبي حنيفة ليس بقوي .  
(٤) في ثلاثة أحجار يستنجى بها من الغائط ، من ثلاثة أحجار أن النبي ﷺ قال : «إذا ذهب أحدكم إلى الغائط  
فليستطب بثلاثة أحجار فليها تجرى عنه» أخرجه أحمد (١٠٨/١) وأبو داود في سننه (١٠٠)  
والنسائي (٤١/١) والدارقطني في سننه (٥٤/١) . فأهل قباء كانوا يفضيرون الماء بعد هذه  
الأحجار الثلاثة سحراً بعد الآخر . وذلك لشدة حرصهم على الطهارة

أَتَ الحَبِيبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَكُونَ حَسِباً غَيْرَ مَحْذُوبٍ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهي تأخذ قمة الإيذاء والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنهى بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهى بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حباً من حبيبه رد عليه بحب ، فنمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتعبير وهر «الحب في الله» ، فإذا رأيت حباً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؟ فاعلم أنه حب لمير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب في الله .

والحق سبحانه يقول في قصة فرعون وموسى :

﴿ فَانْقُطْ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا . ﴾ (٨) [التقصص]

هم لم ينقطعوا ليكون عدواً لهم ، فهذا الاحتمال لو كان قد جاء في آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم انقطعوا ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تعذيب الكافرين به " ، قال فرعون هم من يريون موسى ، ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُؤْتِكَ مِنْهَا وَلَكِنَّا نَبْغِيكَ مِنْ عَمْرِكَ ﴾ سين (١٨) [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يهتم في الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من رآه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار في ميزان الحق ، وقد

(١) وفي هذا القول سبحانه ﴿ وَفَالِغِ ائْرَافِ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِنْ لَأَنْتَوُا عَسَى أَنْ يَفْعَلُوا لَكُمْ خُدَعًا وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التقصص : ٩]





لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [٣٣] ﴿[مريم]

وحين يلتقيك إنسان فهو يقول لك «سلام عليكم»، وأنت ترد: «وعليكم السلام»، لماذا؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام مني يكون عليك وعلى غيرك، أما ردك «وعليكم السلام» فيعني أنك خصصت بهذا السلام وهنا الآية التي نحن بصددها فطربنا عنها زادت من التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿فَبِهِ رِجَاءٌ يَعْجِبُونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾ وهذا لأن الذي يحب أن يكون طاهراً دائماً، قد أنس بفيضات الله عليه<sup>(١)</sup>، وما دامت ذراته كلها طاهرة من التجاسات المعنوية ومن التجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته في كل لحظة، ولا تنهى إمداداته عن الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليربحنا لا لينصنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه<sup>(٢)</sup>.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ [٦٤] ﴿[المائدة]

(١) لأنهم تحولوا عن التجاسات حساً ومعنى، وتحلوا بالطهر والعبادة، فتجلى الله عليهم بفيضه وحمده.  
(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه يخيل لا يتفق لقائلوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ خَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَأَعْرَاجُهُمْ﴾ [٦٤]. وقد أخرج الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي ملائكة لا يفيضها نفقة سحابة الليل والنهار، أرايتهم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يده، وعرشه على لواء، وبين يديه الأخرى الفيض، يرفع وينقص». أخرجه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣).

أى . يظمن خلق أبهم مجرد إيمانهم ستانهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية . فصصح جهاز استقبالك ؛ بألا ترجد فيه نجاسة حسية أو نجاسة معنوية ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عتله فيوصات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال " ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسية ، ويتصح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله . وإن كن أسمر اللون فتجده بأسرك ويخطف قلبك بنورانيته . وقد تجد إنساناً أبيض اللون ، لكن ليس فى وجهه نور ؛ لأن فيوصات ربنا غير متجلية عليه .

وكيف تأتي القيوصات ؟ إنها تأتي بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوصات الربانية ، فعليه أن يسحث فى جهازه الاستقبالى . وأضررب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى ، ومحطات الإذاعة ترسل ، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها .

ولذلك قال الحق :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴾ (١٤)

[الثالثة]

ساحرص دائماً على أن تساول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى ، والحديث الشريف يقول :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »<sup>(١)</sup> .

(١) من عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال . «والذى نفسى بيده ، إن شئ المرء كمثل النملة

أكلت طيباً ووضع طيباً» أخرجه لإمام أحمد فى مسنده (١٩٩/٢)

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى .

والليل قد انتهى عند إنسان ، وبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا لنهار ،  
فالليل مستمر دائماً وانتهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مسوطين دائماً  
ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنْ أَتَىٰ عَلَىٰ قَوَّيْنِ  
اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَىٰ عَلَىٰ بَيْتَيْنَهُ عَلَىٰ شَفَا<sup>(١)</sup>  
جُرْفٍ هَاكِ فَانْتَهَارَ بِدُفْعٍ نَّارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٨٩

وقوله ﴿الْمَنْ﴾ استفهام<sup>(٢)</sup> ، وكأنه يقول : وكيف تسورون بين مسجد  
أسس على اتقوى من أول يوم ، ومسجد اتُخذ للضرار وللکفر ولتفريق  
جماعة المسلمين ورماداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام  
سبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿الْمَنْ أَتَىٰ بِنْيَانِهِ﴾ محذو كلمة «بنيان» وهي مصدر ؛  
«بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشيء المبنى ، فنقول . إن هذا البيان  
جميل ، أو نقول مثلاً : إن طراز هذا البنيان عرغوني .

إذن : هنالك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذي يشأ من هذه

(١) هي شفا جرف ، على حرف بشر ثم من بالحجارة ، هار . هار متصدع أو متهدم فانهربه سقط  
اليان بالياني

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهجرة ، وهي تزد لطلب التصور والتصديق ، بخلاف فعل ، فإنها للتصديق خاصة ،  
وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة (الإلتفات في علوم القرآن للسيوطي ١/١٤٦) ، والاستفهام  
هنا استفهام معناه التبرير ، أي تقرير أن من أسس بنيته على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا  
جرف هار

(٣) أسس بنيانه أقامه على أساس تقوى وعلى قراعد راسخة



العملية ، وكلمة التين اسم جنس جمعى ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرداً «تينة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرد «رمانة» ، و«عنب» ومفرد «عنب» ، وأيضاً «روم» مفرد «رومى» فبأن النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . [دن: يفرق بين الواحد والجمع ، إما بزيادة وإما بالناء .

وقد حكم سبحانه ألا يصبروا فى مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين ، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما نقله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَمْ مِنْ أَشْيٍ يُثَبِّتُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِى نَارٍ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا ثلاث كلمات : شفا ، وجُرف ، وهَار . والشفا مأخوذ من الشَّعَّة ، و«الشفا» حرف الشىء وطرفه . وسكانُ سواحل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، ونجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسطله متحرك .

و«شفا جُرف» أى طرف سينهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك ، فتكون الصورة أن الماء ينحرف فى الساحل ، فيصنع شفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرف» .

وقد قال القرآن فى موضع آخر :

(١) اسم الجنس الجمعى : هو ما له مفرد يشترك فى لفظه ومعناه معاً ، ولكن يختار المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو بزيادة النسب . قال الفيروز آبادى فى «صانعو دوى التفسير» (ص ٢٧٧) . «التين» واحد لا جمع له . وقال بعضهم جمع واحدة «تينة» على حد الجملة وتحل . وهذا النوع من الجمع يصح تذكيره وتانيته .

﴿رَأَوْا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ  
بِرَّعَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا...﴾ (١٠٣)

[آل عمران]

إنها الحفرة في النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مربع .

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا  
يضعون في جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ، لأن البئر إن لم يكن له جدار من  
حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على قوته ، وهكذا تمنع الأحجار  
أى جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف  
هائر ، وهكذا كان مسجد الضرار ، ينهار بمن فيه في نار جهنم .

وبذيل الحق الآية ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهم كانوا ظالمين  
بالتماق ، لذلك لم يهدهم الله إلى عمل الخير ، لأن الله لا يهدي الظالم .  
وسبحانه يقول في أكثر من موضع بالقرآن :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٠٨)

[المائدة]

ويقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤)

[البقرة]

ويقول عز وجل :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨)

[البقرة]

والهداية - كما علما من قبل - قسمان . هداية الدلالة ، وهى لجميع  
الخلق ويسل بها الله الناس على طريق الخير، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه،

فهم أحرار ، قلله هدية شملت الجميع ، وهي هداية الدلالة ، أما الهداية  
المنمية هنا فهي هداية المعونة .  
ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ لَا يَزَالُ بُنِيَ لَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ  
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup>

البيان السى بنوا هو مسجد الضرار ، وأردوا به ضراراً وكفرأ وتفرقأ  
وإرسادأ لى حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن  
يصلى فيه ، وكشف له لحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة<sup>(٢)</sup> وأن  
يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ وأرسل  
ﷺ بعضأ من صحابته<sup>(٣)</sup> ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتب بالهدم ، بل أمر  
أن يُجعل مكان المسجد قمامة إشعارأ منه ﷺ بأن المسجد بنيت الأولى كانت  
لنجاسته لنجاسة معوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسية ، تكون طهارة  
بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكانه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة  
الحسية .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر لنجاسات حسية ، وإنما  
النجاسات المعنوية أقطع من النجاسات الحسية ، فالإنسان قد يتحرز من

(١) رية - شكأ ارتفاعأ فى قلوبهم .

(٢) ذريعة أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .

(٣) منهم . عاللت بن المخشم ومع بن عدى . أما مالك فقد شهد بدرأ ، وأما مع بن عسى بن الجند حليف  
الأنصار فقد شهد غزوة أحد . ( انظر الإصابة فى تميز الصحابة )

النجاسات الحسية ، لكن النجاسات التي تخامر<sup>(١)</sup> القلوب والعناد  
والعراطف فهي التي تسبب للإنسان الشقاء

وهنا يقول الحق : ﴿ لَا يَزَالُ بُتَايَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن  
هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصرر موقعه موضع القدارة ، بقي أمر هذا  
البنيان موضع شك منهم وصادرو يتوجسون أن يتزل بهم رسول الله ﷺ  
المعقب ، وظلوا في شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ سوء ، ولن يذهب  
هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت .

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثاني في استبقاء  
الحياة ، أما العضو الأول في استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ  
سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتانة ، أما القلب  
فحين يتوقف فالأحباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر  
أو تبادل القلب ليعود إليه البض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ  
سليمة ، فالخ في الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد  
صان للمخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة .

وكذلك النخاع التي تتحكم في إدارة الجسد ، بحده سبحانه قد كفل  
لها من العظام أعلى درجات الصيانة . وبرى في الحفريات أن الجماجم هي  
أبقى شيء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى  
العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ،  
وبذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدير للجسم ، ويحافظ على صيانه .

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله  
للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول : ليس لي رغبة في الأكل ، وهذا ليس  
إلا تعبيراً عديمياً لما حدث في الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب : نالها واخرج بها

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المحزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المنح» مصاباً .

ولذلك نجد القرآن حينما عرض مسأله سيدنا زكريا ، قال على لسانه :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ﴾ (١)

(مريم)

أى : أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شىء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات فى الذبول ؛ لأنها تعطى حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم نجد الساق تجف لأنها تعطى حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتى قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً .

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهى الأشياء التى تنشأ من المحسّات ، وتتكون فى الفرد<sup>(٢)</sup> لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهى من الاقتناع بفكرة حتى تستقر فى القلب .

وما يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيقفل أثره فى قلوبهم ، ولن ينتهى منهم أسداً إلا بشىء واحد هو - ﴿ أَنْ نَقْطَعَ قُلُوبَهُمْ ﴾ والقلوب لا تقطع إلا بالموت ، وكأن الشك من هذا البنيان سيقفل بلاحقهم إلى أن يموتوا

(١) القلب هو مضخة الدم فى شرايين الجسم وعروقه مما تعريف المادة ، والفراد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً بقوله تعالى : ﴿ نَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ مُنْقَلَبَةٌ ﴾ (١٦) [الحج] وقوله : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُونَ الْفَرْدَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْبَالِهِا ﴾ (١٧) [محمد] ويطلق القلب على الفرد ، كما يطلق المواد على القلب . فهما متلازمان كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار عنانقة المسائل ، ثم يكون الاختيار فى البدائل وينتهى بالإقناع .

أو . ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أى : أن تقطع نوبة وأسفاً وحزناً .

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من دوات نفوسهم . ووجود لريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم ينشرون فى الإمداد لخوفهم المستمر من العقاب

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شيء فى مكانه .

ثم يقول سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ  
بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ  
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا  
بِيعْكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

بعد أن تكلم الحق عن الدين تخلصوا عن الغزو ، وعن الدين اعتدروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تحملهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوض الإيمان وعوض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً .

فيقول الله سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾

يقول العلماء: كيف يشتري الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذي خلق الأنفس وهو الذي وهب المال؟ وقالوا: ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها، بسبيل أن المال مال الله، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوصح به. إنه مالك بحيث إذا احتاجه أح لك في الدين، فأنا أقتضيه منك، ولم يقن: «أسترده» فسيبعائه لقاتل.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

لقد احترم الحق الهبة للإنسان، واحترم عرقه وسعيه، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر حياة، ووهبهم الأنفس أعلى أنهم ملكهم حقاً، ولكنه أعطاهم لهم، وحين يريد أخذها منكم فلا يصول: إنه يسترده بل هو يشتريها منكم بثمن، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن سلعة الله خالية، إن سلعة الله خالية، إن سلعة الله هي الجنة».

أي: اجعلوا ثمنها خالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾. وكلمة «اشترى» تدل على أن هناك صفقة، عملية شراء وبيع. وإذا كان هذا ملكاً لله، فالله هو المشتري، والله هو البائع، فلماذا أن لهذا الأمر رمزية، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان في الولي على اليتيم أو السفينة، فقد يصحح أن يكون عندي

(١) الشراء والانتزاع: التملك بالمبادلة والعرض، وشترى يشترى، بمعنى باع وبمضى اشترى، والشترى بمعنى شيئاً وبأحد بدله شيئاً، فهو باع وهو شترى، وجاء شترى بمعنى باع في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ (يوسف) أي: باعوه وجاء اشترى بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ تَتَمَّ الْجَنَّةُ...﴾ (التوبة) [التوبة]

شيء وأنا ولي على يتييم، فأشترى هذا الشيء بصفتي ، ثم أبيع به بصفتي الأخرى ، فالشخص لو اُحد يكون هو الشاري وهو البائع<sup>(١)</sup> ، فكان الله يضرب لنا بهذا المثل : «إنكم بدون منهج الله سفهاء ، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشتري».

وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق ، ﴿بِأَنَّهُ لَهِمُّ الْجَنَّةِ﴾ هذا هو الثمن الذي لا يبي ، ولا يبى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها ، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار في بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال به عند الله بن راحة اشترط لربك ولنفسك ما شئت

قال . «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تحمروني عما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» .

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستمتحنون قصور بصرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

ثم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال : «الجنة» ؛ لأن كل شيء في الدنيا تافه بالنسبة لهذه الثمن ، قالوا : «ريح اسبع لا ثقل ولا نستقي»<sup>(٢)</sup> وبمجرد

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألا يحنى نفسه في الشراء من ملك اليهم أو البيع إلى نفسه انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤)

(٢) حيث بدلت هذه الآية . وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيرطي في أسباب النزول (ص ١٠١) طيبة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبري من مرسل محمد بن كعب القرظي ، وكذا أورد ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٩١) ، والقرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٤٣)



عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار<sup>(١)</sup> ، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قتل أو يبلغ الإسلام حظه وحروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديّات الحياة لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها.

﴿بِأَنَّهُمُ الْجَنَّةُ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد من يملك إنصافه ؛ لأن الذي يقدح في وعده الناس للناس ، أنك قد تعدّ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفنى به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ.

إذن: الوعد الحق هو من يملك ويقدر ، وحي لا يموت ، لذلك يقول في هذه الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمُ الْجَنَّةُ﴾  
ويقول في آخرها :

﴿وَوَعْدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ «وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أي وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذي يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتي بقضية كوتبة ، فالؤمن يسبقها بأنها سوف تحدث حتماً ، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه:

﴿وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُّونَ (١٧٦)﴾

[الصفحات]

هذه قضية قرآنية ، حدثت من قبل و ثبتت في الكون .

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ ها يحدد الحق المهمة أمامهم :

(١) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم سعد بن فريخ ، وعبد الله بن رواحة ، وأبو مسعود الأنصاري ، والبراء بن عرور ، وسعد بن عباد ، والمرأتان هما : سمية بنت خبيب ، وأسما بنت عمرو

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ و«قَاتَلَ» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضى مفاعلة ، مشها مثل «تَمَارَكَ رَيْدٌ عَمْرًا» . وكل مادة «فَاعَلَ» و«تَفَاعَلَ» توضح لنا الشراكة فى الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول . ولذلك تجدد فى أساليب العرب ما يدل على أن ملحظ لفاعلية فى واحد هو الغالب ، ومسحوظ المفعولية فى الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى .

فمثلاً: الرجل الذى سار فى الصحراء التى فيها حيات وثعابين ، وسم يهيج الرجل أثناء سيره الحيات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْتُ لا تهيجه فهو لا يقرز سمّاً ؛ لأن سم الثعبان لا يقرز إلا دفاعاً .

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سمّه ، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها» ، والشاعر يقول :

قَدْ سَلِمَ الْحَيَاتُ مِنْهُ الْقَدْ سَلِمَ الْأَفْعُوانُ<sup>(١)</sup> وَالشُّجَاعُ الشُّجْعَمَا<sup>(٢)</sup>

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلاحظ أن «لأفعوان» منصوب ، وأن «الحيات» مرفوعة ، إذن فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وحاء بالضم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما هى الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيات إذا سالت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها .

(١) الأفعوان - ذكر الأفاص . والموت «ألمى» وهى الحية

(٢) الشجاع الشجعم الثعبان الضخم

وهما يقول الحق.

﴿بِأَنَّهُمْ الْحِجَّةُ يُقَاتِلُونَ﴾ فمن يقاتل ، إم أن يُقتل وإما أن يُقتل ، وفي قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ، <sup>(١)</sup> ويقول : «فَيُقْتَلُونَ وَيُقَتَّلُونَ» ، فالمسألة صفة بمقتضى قوله : ﴿بِأَنَّهُمْ الْحِجَّةُ﴾ لذلك يقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفة. وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضاً ، <sup>(٢)</sup> وإذا ما جاء المؤمنون في جانب : والكفار في جانب آخر فالمؤمنون ببيان ، والحق هو المقاتل :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيَآنٌ مَّرْصُومٌ﴾<sup>(٣)</sup>  
[الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقتلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن ، فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقول قول الحق على قراءة الحسن ونقول : «فَيُقَتَّلُونَ وَيُقْتَلُونَ» .

أو : أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا في أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبروا بجانب السلامة .

وكنا نعرف قصة الصحابي الذي قال رسول الله ﷺ : أليس بيني وبين لجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلونى ؟ قال له : نعم فأخرج الصحابي ثمره كانت في فمه ، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة<sup>(٤)</sup>

(١) لأن المرطبي في تفسيره (٣١٩٤ / ٤) «قرأ النخعي والأعمش وحسرة والكسائي وخطبت بتقديم المقول على المعجل وقرأ الياقوت بتقديم المعجل على المقول» .

(٢) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم .

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرايت إن قُتلت فإين أنا؟ قال في الجنة فألقى ثمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله

﴿وَعَدْنَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ ، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة ، وهو وعد من الحق في التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان .

وكل دين في وقته له مؤمنون به ، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه إذن فلقتال في سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين ، لكنها لم تكن عامة عند الرسل ، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتدخل لعقاب أهل الكفر ، وكان الرسول يبلغ ، فإذا لم يستجب له قومه ؛ عاقبهم الله سبحانه ، والقرآن يقول .

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتُهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ...﴾ (٩١) ﴿٩٢﴾ [الأنعام]

ولم تأت مسألة القتال في سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام<sup>(١)</sup> أن يقاتلوا في سبيل الله :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى النَّاسِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَغُلٌّ إِلَىٰ أَعْيُنِنَا فَوَقَعَ الْحُكْمُ بِحُكْمِ اللَّهِ وَبِذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَ الْأَقْبَابِ لِيُظْهَرُ لَهُمْ فِتْنَهُهُمْ فَلَمَّا سَلَّوْا أَنَّهُمْ خُفُّوا قُلُوبَهُمْ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أَوَّعَوْا وَأَنجَحَتْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْمَوْتِ وَأَوَّعْنَا الْكَافِرِينَ فَذَرْهُمْ لِمَا يُنْشِئُونَ﴾ (٢٤٦) [البقرة]

إذن : فهذا وعد من الله في التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام ، وطاسوا بالقتال في سبيل الله ، وكذلك في الإنجيل للذين آمنوا بيسوع عليه

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب : «الحاصب» وهي ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تخمس حصية الأرض فتلقبها على الناس وتسلمهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» و«الصحفة» التي أخذت قوم «نمود» فقصبت عليهم . و«الخطبة» الذي عاقب الله به قارون و«الغرق» الذي قصي الله به هارون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام

(٢) كان هذا بعد سببنا موسى بما قرب على الألف عام ، والبي هنا الذي طلب منه قوم بني إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله هم : شمعون أو شمعيل . ناله السبي ومجاهد وذهب بن منه . وهو ما رجحه ابن كثير في تفسيره (١/٣٠٠)

السلام ، وأخيراً هي القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ<sup>(١)</sup>.

أو: أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشري. وبهذا يكون الوعد في التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ، فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر به هذا الوعد للأمة المسلمة. والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه في آخر سورة الفتح:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ...﴾ (٢٩)

[الفتح]

إذن فالذين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً. ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت ، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالذين لا يطبع الناس على دلة ولا على عرة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار

وبذلك يُطَرِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورجيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنتهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشدد ، وحين

(١) قال القرطبي (١/ ٣١٩) في تفسير الآية: لهذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام، وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَوْعُودَةَ لَهَا كُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ وَأَلَّا تُرَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَطَلَبُوا عَمَاسِينَ﴾ [البقرة: ٢١] إلى أن قال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ لِي فَخْراً أهدأ مما دناوا إليها فاذنب أنت وربك ففاعدت إني ما هنا فاعدت﴾ [البقرة: ٢٤].

يتطلب سهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون دليلاً بانسبة لإخوانه المؤمنين بذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز .

﴿ مُحَمَّدٌ رُسُلُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... ﴾ (٢٩)

[الفتح]

وتتابع صفات المؤمنين في قوله سبحانه:

﴿ تَرَاهُمْ رُكْعًا مَّجْدًا . ﴾ (٢٩)

[الفتح]

وهم في ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله .  
ثم يصنفهم سبحانه:

﴿ يَتَخَوَّنُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً سِمْأَهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ... ﴾ (٢٩)

[الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضا الله وفضله ، والور شع من وجوههم؛<sup>(١)</sup>  
لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه:

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ... ﴾ (٢٩)

[الفتح]

أي: أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيحيى أمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التي لا توجد في اليهود ، هؤلاء الذين تعلب عبيهم المادية ولا ترتقى أرواحهم بالقيم الدينية ، فأنث إن نظرت إلى التوراة المحرفة

(١) من ابن عباس رضي الله عنهما، أن نبي الله ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسبب الصالح والانتصاف جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة». أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٦) وأبو داود في مسنده (٤٧٦٦). وقال بعض الصالحين: إن بلعينة يورأ في القلب رغبة في الوجه، وسعة في الرزق، ومعة في قلوب الناس. انظر ابن كثير (٢/٤٠٤)

فلن نجد فيها أى شيء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية .

أم فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهينة ، والماديات فيها ضعيفة ؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملًا ننظم به الحياة ، قيمًا حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم بمسد حين تأتى المادة فتعطى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم يس لها قوة مادية<sup>(١)</sup> تدافع عنها ، فبأى القوى العالم إلا أن يعطى بقوته المادية على القيم الروحية ليكون الخلل فى البناء الاجتماعى .

إذن . نحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم . وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية ، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سَجَّد ، يبنفون مفضلًا من الله ورضوانًا ، وسبماهم فى وجوههم من أثر السجود .

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدوه من المادة ؛ بسبب أنكم انزلتم عن الحياة وانتدعتم رهنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة .<sup>(٢)</sup>

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآرَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ <sup>(٣)</sup> يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُخِيطَ بِهِمْ الْكُفَّارَ ... ١٩ ﴾ [المتح]

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتحطيط وعقل الروح بالتهذيب ، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وعقل العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شرع لكم من الدين ما رضى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وهى أن أقبلوا الدين ولا تفرقوا فيه فبخر على المشركين ما قد عرفهم به الله يحثي إليه من يشاء ويهدي إليه من ياب <sup>(٤)</sup> ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه ﴿ رَفَعْنَا بَعْضِي أَيْمَنَ مَوْمِنٍ وَأَنبَأَهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ أَنبَأَهُ اللَّهُ وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا وَهَرُوا سُبْحَ رَعَابِيهَا فَآتَتْهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَاسْتَوَى <sup>(٥)</sup> ﴾ [الحديد]

(٣) شطأ حرره يقال : أشطأ الزرع إذا ثبت ، وما أَرَرَهُ أَرَدَ الزرع وتَأَرَّرَ قَوَّى بعضه بعضاً استغلظ فاستوى على سوقه صار طويلاً وقويت واستحكمت بنية

ومن حق المسلمين أن يقولوا. أيها الكافرون ليست لكم مادة تطعمون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركه حياتنا على ضوء منهجه في الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هي التي تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون الفترة المادية فسيرتدع أي إنسان عن أن يطمع في فئة المسلمين في دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ (١٠)

[الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددتم لهم بتهيؤك.

وهي الآية التي نحن يصدد خواطرها عنها، يقول الحق:

﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئنا سبحانه على أن وعد، محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهِدٍ وَمُعَاهَدٍ، والذي يخرج من هذا الارتباط أمران:

الأول. ألا يكون صادقا حين أعطى عهداً، بل كان في بيته ألا يوفى، ولكنه أنام العهد خديعة حتى يستنيم له المُعَاهَد.

والأمر الثاني: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنَزَّهٌ عن كل ذلك، ولا أحد أوفى بالعهد من الله.

فقد يطمئن في العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.



إذن : فالعهد الحقيقي إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استهلامي ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة : لا أحد ؛ لأن الذي يقسح في مسألة العهد الخلف والكذب وغير ذلك .

والله سبحانه مُثَرِّعٌ عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتي إلا من مكر ، وإذا سمع أى إنسان ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ثم أدار فكره في الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : « الله » ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد . وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعدته حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة .

ولهذا يقول سبحانه - ﴿ فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَعْوُزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

والنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ثم وعده الحق المسين في التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هي الاستبشار بما باعه المؤمن لله . فالإنسان - والله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون في صالح قصيته ، ولا يسجل للحصم ، فعندما يكون عندك صك<sup>(١)</sup> على فلان ، فأنت الذي تحتفظ به وتحرص عليه ؛ لأنه يؤيد حقك .

والحق سبحانه يقول .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

واقتران هو الحجة الكاملة الشاملة في كل أمور الدنيا والآخرة ، ومن قرأ صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَفُ ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذي صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذي خلقه الله لا يمكن أن

(١) الملك الكتاب ، فرسى معرب يقيد به الديون والأعطيات

تخرج عن قصايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿ فَاسْتَشِيرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَالِغُكُمْ بِهِ ﴾

قوله الحق : ﴿ فَاسْتَشِيرُوا ﴾ مأخوذ من «الشارة» ، وهي الجلد عامة ، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق ، وهذا قد يقبض النفس فهذا فيه الموت ، وحساسة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويزعج ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾ تجد بشرة المؤمن تلمح بالسرور . والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة

إذن : قصايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن نصيبتها بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فَاسْتَشِيرُوا ﴾ أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وبساطاً<sup>(١)</sup> .

﴿ فَاسْتَشِيرُوا بَيْنَكُمْ ﴾ وهل يستشير الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة ، ويشتري ما يحتاج إليه ، فها الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع قابلاً بياق .

﴿ فَاسْتَشِيرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَالِغُكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يحالون العهد الذي أخذ عيهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا في تعامله مع الناس ، فعن أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال : « يهتروا ولا تنهروا ، ويسروا ولا تعسروا » . أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩/٤) ومسلم (١٧٣٢) في صحيحيهما

يحتاج للمخالفة لأن واه يتعبه . لكن الحق سبحانه ليس في حاجة لأحد وهو غنى عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخلف الوعد أبداً .

وتأتى ﴿ردك﴾ إشارة إلى الصفقة التى انعقدت بينكم وبين ربكم .

﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ والفوز هو بلوغ العاية المأمولة فى عرف العقل الراعى ، كما تقول لائبك : «ذاكر لتفوز بالتجاح» وتقول للتاجر : «اجتهد فى عملك بإحلاص لتفوز بالربح» .

إذن : فهناك «فوز» ، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال . وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها ، يكون هذا هو الفوز الذى لا فوز أعظم منه <sup>(١)</sup>

ويقول الحق بعد ذلك :

(١)

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَنِيفُونَ السَّابِقُونَ  
الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ  
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) وهذه صيغة الإنسان التى تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وعلو دعاء نعم عليه به ، وقد لح بهى فيه هذا فقال : ﴿يَأْتِمِرْ هَلْ أَتَى عَلَى فُجْرَةٍ الْعَلَّةِ وَمَلَنَّا لَا يُحْمَلْ﴾ [هـ] . فإلى يمينه بالخلد والمجيم الذى لا يروى ولا ينى .

(٢) التائبون : من الشك ولم ينافقوا فى الإسلام العابدون الذين دلوا عظمة له وتواضعوا . الحامدون الذين حملوا الله على كل حال فى السراء والضراء . السابحون الصائمون . الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ . الحَنِيفُونَ . الحامدون لحدود الله : للتهوى إلى أمره (راجع تفسير الطبرى)

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة ، فمن هم المقبلون عليها <sup>١</sup> ؟ إنهم  
التائبون ، والتوبة : هي الرجوع عن أى ماطل إلى حق .  
وعم يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة . نجد ذلك في قول الحق  
سبحانه وتعالى :

﴿وَذَاحِدَ رَبِّكَ مِنْ نَبِيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ  
(١٧٦) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهَنِّكُنَا بِمَا  
فَعَلِ الْمُبْطِلُونَ (١٧٧)﴾ [الأعراف]

إذن . فالإيمان أمر فطرى ، والكفر هو الذى يطرأ عليه ، وقلنا من  
قبل : إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ، لأن الكفر هو الستر <sup>٢</sup> ،

(١) لس فضيلة الشيخ هـا معنى هاماً في تفسير هذه الآية ، لمن يهلل عن الدخول في هذه البيعة إلا من  
نوافرت به هذه الصفقات ، ولكن ليس على سبيل الشرط ، فقد ثبت في السنة أن هناك من استشهد ولم  
يركع لله ركعة ، وكذلك جاء في السنة أن الشهيد تغفر له توبته مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد في  
سننه (١٣١/٤) وحسن إسناده المنذرى في الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون في هذه الآية .  
هل هي متصلة بالآية قبلها أم متصلة ؟ فاتصالها بها مستأى أنه لن يدخل في هذه البيعة إلا القليل الناصر ،  
لما انفصلها عنه أن هذه أوصاف للكلمة من اللامس الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم في مقابل الجنة  
نظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١٩٧) .

(٢) الكفر على أربعة أنحاء . كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يُعترف به ، وكفر جحود ، وكفر مناندة ،  
وكفر نقان . من نقى ربه بشئ من ذلك لم يغفر له . . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان . وأما  
كفر الجحود فهو أن يعرف الكافر بقلبه ولا يقر بلسانه تكفير وليس وأمية بن أبي الصلت ﴿فَقُلْنَا جَاهِدْهُمْ مَا  
عَرَفُوا كُفْرَؤُهُمْ﴾ [البقرة] . وأما كفر المناندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يدين به  
حسداً وبشياً ككفر أبي جهل . وأما كفر النفاق فهو (قوله باللسان وكفر بالقلب . فقله لمن منظور في  
اللسان (مادة ، كفر)

فمن يكفر بالله - والعباد بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطراً الكفر يستره ، ثم يأتي من يبه في الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التي طرأت على العطرة .

﴿الْقَائِمُونَ﴾: منهم الثابتون عن الكفر الطارئ على إيمان انقطة ، وأخذوا منهج الله الذي آمنوا به ، ومن هنا نشأت العبادة التي تقتضى وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعنى الانصياع من لعابد لأوامر ونواهي المعبود .

﴿الثَّابِتُونَ الْعَابِدُونَ الْعَامِدُونَ﴾ والعبادة كلها طاعة تتعلل في تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل» ، وقد يتدخل المنهج في حركتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل في هذه الحرية نعمة يجب أن نحمد الله عليها ، لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولى أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذى يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح .

إذن . الأوامر والنواهي هنا نعمة . كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجره الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة .

إذن : فالذين تابوا عن الكفر الطارئ على إيمان انقطة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أى : منفذين للأوامر ، ومستعدين عن النواهي ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهي ، ولكنهم يصدقون قوله ﷻ : «حُتِّ الْجَنَّةُ

بالمكافءه ، وحُقَّت النارُ بالشَّهواتِ <sup>(١)</sup>

حين تعرف أن العادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن نحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن في زمرة الحامدين .

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله في بالك ، فلا يشغلك كونه معه سبحانه ، وإليك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً في بالك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآكْفِرٌ ۚ إِنَّهُ رَأَىٰ سِتْرَهُ اسْتَغْنَىٰ ۚ ﴾ [المق]

لذلك يفكر المؤمن في الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة في بيت وأولاد وعمل .

﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذي يُجرى عليهم القدر ما دام لم يأمرهم بما لم يقع في اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجرى سبحانه عليهم إلا ما كان في صالحهم . وبعد أن ترعى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعْلمِ اللَّهُ... ﴾ (٢٨٢) [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقيمين على الصلوة الإيمانية فيقول ﴿ السَّائِعُونَ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) والترمذي في سننه (٢٥٥٩) والبيهقي في سننه (٢٣٩/٢) عن أنس بن مالك قال أنشأت في شرحه مسلم (١٧/ ١٧١) أقساماً للمكافءه فبدا لي فيها الاجتهاد في العبادات ، والمواظبة عليها ، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصنعة والاحسان إلى المنيء ، والصبر عن الشهوات وبحو ذلك ، وأما الشهوات التي حُفَّت بها النار ، فالظنجر أنها الشهوات بلعمة كالحسر والرتا والنظر إلى الأجنبية والعمية واستعمال الملاهي وبحو ذلك ، وأما الشهوات للباحة فلا تدخل في هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يحجر إلى المحرمة أو يفسد القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحرج إلى الاعتناء بتجديد الدنيا لمصر فيها ونحو ذلك .

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأُس بالناس ، ثم يسبح إلى مكان ليس له فيه شيء ، قد يعرض فيه للمخاطر ، ولئلا يفعل ذلك ، لأنه لا شيء يشغله فى الكون عن الحُكُوف ، ويهول الحزن سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ... ﴾ (١١)

[الأنعام]

إذن : فالسياحة هى السير المستوعب ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض<sup>(١)</sup> ليبتغي من فضل الله .

إذن فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال . أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَمْلِكَ لِأَزْوَاجٍ خَيْرًا مِّمَّا كُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ

قَاتِنَاتٍ تَأْتِيْنَ بِعَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ... ﴾ (٥)

[التسوى]

إذن : «سائحات» هن مقصود بهن سياحة الاعتبار ، أو السياحة لتي تكون فى صحة لزوج الذى يضرب فى الأرض .

وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألفت من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألفت من

(١) الضرب فى الأرض السمر لطلب الرزق والتجارة يقول سبحانه ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَظَرِهِمْ نَاظِرٌ ﴾ [النمل]

طعام وشراب وشهوة<sup>(١)</sup> .

إذن : لقدّر المشرك بين الرجال والنساء هو في سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أى : اقيمون للصلاة ، وقد جاء بظهيرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصلاة قيم ونعود وركوع وسجود ؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون في غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن : فالخاصيتان هما ركوع وسجود ؛ والحق يقول

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [١٣١] [آل عمران]

أى : صلى مع المصلين ، وهكذا نجد أن لركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة في الصلاة .

ثم يقول سبحانه . ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ولأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول .

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ...﴾ [١١٠]

[آل عمران]

إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

(١) قيل للصائم : «صائم» لأن الذي يسيح معبدًا يسيح ولا زاد معه [نما يطعم] (١) وجد الفرد ، والصائم لا يطعم أيضاً فلشبهه به من سائحاً . نقله ابن منظور في اللسان  
(٢) القنوت : أداء الطاعة في خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله .



المنكر ليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مراراً له <sup>(١)</sup>. إذن: فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صلاح أو هدى مُتَعَدٍّ من النفس إلى الغير، بعد أن تكون النفس قد استوفت حظها منه.

ويقتضى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تعرف المعروف الذي تأمر به، وأن تعرف المنكر الذي تنهى عنه؛ لذلك لا بد أن نكون من أهل الاختصاص في معرفة أحكام الله، ومعرفة حدود الله حلاً وحرمة، أما أن يأتي أي إنسان ليدخل نفسه في الأمر ويقول: أنا أمر بالمعروف وأنا أنهى عن منكر، هنا نقول له: لا تجعل الدين، ولا تجعل التقوى في مرتبة أقل من المهن التي لا بد أن يزاولها أهل فكر ومختصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحُدُود» جمع «حد» وتأتي الحُدُود في القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا...﴾ (٢٢٩) [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدّ هذا الحد، أما المعنى الثاني، فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعدها، بل يقول سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُهَا...﴾ (٢٢٧) [البقرة]

ويُهيئ الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نَشْرُهُمْ

(١) عن أبيه بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاءُ برجل فيطرح في النار فيطعن فيها كطعن الحمار برحاء، فيطعن به أهل النار فيقولون: أي ملأنا ألسنتك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟» فيقول: كنت أمر بالمعروف ولا أسلمه، وأنهى عن المنكر وأسلمه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩)

ويقول الشاعر

لأنت من خلقٍ وثقى منه  
عزّ عليك إذا جعلت عظيم

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً ، وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشري» و«البشير» كلها مادة تدل على الخير السار الذي يجعل في النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وحباً متهللاً تفيض بشرته بأسرور .

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر مشغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ، ومن حقوق هذه الأبوة على الآباء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أولى من قرابة الدم ، وأولى من عاطفة الخنو والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أولى بأن يكون الإنسان باراً به من أن يكون باراً بالآب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه السب في الإسلام نفسه

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا  
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ  
مَا بَيَّنَّاهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣ ﴾

قل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لأبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ ، وإذا كان النبي ينهى ، بالمؤمنون من باب أولى ليس لهم الحق في ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء نبي إن كانوا غير مؤمنين .

وكلمة ﴿ مَا كَانِ ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغي» فإساعة تسمع «ما ينبغي لك أن تفعل ذلك» فهذا يعني أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن

تفعل ، ولكن حين يقال «ما كان لك أن تفعل» ، أى : أنك غير مؤهل  
لفعل هذا مطلقاً .

ومثال ذلك أن يقال لفقر جداً . «ما كان لك أن تشتري قديدو» ، لأنه  
بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر . «ما  
ينبى لك أن تشتري قديدو» أى : عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له  
يرى سبباً غير الفقر هو الذى يجب أن يمنع الشراء . إذن : فهناك فرق بين  
نفي الإمكان ، ونفي الابطغاء .

وهما يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا  
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

أى : ما كان<sup>(١)</sup> للنبي ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك  
والكفر ، ولو كانوا أولى قربي . فهذا أمر لا يصح<sup>(٢)</sup> .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد  
استغفر لأبيه جاء الحق بالقرول الكريم

(١) قوله «ما كان» يأتي من القرآن من وجهين

- اليمى . مع قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْعَثُوا فَعَرَهَا ﴾ [العل] ، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكْفُرَ ﴾ [آل عمران] .

- النهى . مع قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْخَذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [الأحراب] ، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة]

(٢) جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه : لما حضرت أبا طالب الرقاة جله رسول الله ﷺ فوجد عنده  
أب جهل وعبد الله بن أبي أمية بن النخيلة فقال رسول الله ﷺ : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم  
يك . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم  
يرك رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة  
عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لا أستغفر لك ما لم أنه  
عنك فتزلت الآية ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ  
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤) .

﴿ وَمَا كُنْتَ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لَآءِىَ  
مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ  
تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (١١٦)

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ مَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (١١٧) [مر]

﴿ حَفِيًّا ﴾ أى : أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه فى استغفاره لأبيه <sup>(١)</sup> .

﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ويأتى الحق سبحانه بالحيثية الموحية ، بأن إبراهيم له من صفات الخير ، الكثير جداً ، لدرجة أن الله حالقه يقول فيه :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴾ (١٢٠) [النحل]

أى : أن خصال الخير فى إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة فى إنسان واحد ، ولا فى اثنين ولا فى ثلاثة ، بل خصال الخير مورعة على الناس كلها ، فهذا فيه صفة الأمانة ، وثان يتحلى بالصدق ، وثالث يتميز بالشهامة ، ورابع موهوب فى العلم ، إذن : فخصال الخير دائماً يسرها الله فى خلقه ، حتى يوحد تكافؤ الفرص بين البشر ، كالمهن ، والحرف ، والعقريات ، والمواهب ، فلا يوجد إنسان متكامل فيه المواهب كلها ليصح مجمع مواهب .

(١) حقيقاً - سالماً فى الإكرام وإجابة حاجته على سبيل البر واللطف به . وقد جاء استغفار إبراهيم لأبيه فى القرآن مرتين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقْرَأُ الْحَصْبُ ﴾ (١١) ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَاعْفُ رَأْفَةً لِّى ﴾ (١٢) [الشعراء] ولكن هذا قيل أن يتبين له أن أباه عدو لله .

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام حصان حرم كثيره فقال: ﴿إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: فيه عليه السلام من خصيان الخير التي تتفرق في الأمة. وبعد ذلك يعطينا الخيشية التي جعلت من سيدنا إبراهيم أمة ، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل ، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينصده بعشق<sup>١</sup> ، لا معهود تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره ، بل هو ينفذ التكليف بعشق ، واقرأ قول الله سبحانه :

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ ۖ ۙ﴾ (٩٧٤) [الأنعام]

أَيُّ أُتِيَ بِهَا عَلَى التَّمَامِ ، فَلَمَّا أَتَمَّهَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُمَهَا ، فَقَالَ :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ [٥٧٤]

فهو إذن مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة ، أى أنه يشترك مع الناس فى أنه بشر ، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس ، حتى لا يقول أحد : إنه فعل الخير لأنه ملك ، وله طبيعة غير طبيعة البشر ، لا . - إنه واحد من البشر ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ (١٢٤) [البقرة]

أى. أسوة وقدوة ، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من لحم  
نفسه فلا تكون من جنس مختلف ، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة ؛  
حتى لا يقول أحد : وهل أتأستطيع أن أعمل مثل عمه ؟ ولذلك يقول  
الحق سبحانه وتعالى في عرض هذه القضية :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنْ لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَوْتِ ۚ﴾  
﴿٩٤﴾ [الإسراء]

فحين تمجّب بعض الناس<sup>(١)</sup> من أن ربنا قد بعث من البشر رسولا أنزل  
الحق هذا القول وأضاف سبحانه .

﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُونَ عَظَمَتَيْنِ لَوَلَّيْنَا عَنْهُم مِّنَ السَّمَاءِ  
مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

فما دُتمم أنتم بشر فلا بد أن يرسل بكم رسولا منكم لتحقيق الاسوة ،  
لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ ﴾ (٩٦) [الأنعام]  
ولتر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكليف بعثى ، فلتنظر  
إلى قول الحق سبحانه .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... ﴾ (١٢٧) [البقرة]

ومعنى رفع القواعد أى إيجاد البعد الثالث ، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت  
الحرام له طول وهذا هو البعد الأول ، وله عرض وهو البعد الثانى وبهما  
تحدد المساحة أما الارتفاع فيضريه فى البعدين الآخرين يعطينا الحجم ،  
وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذى يبرر الحجم ، وقد  
قال بعض المطحنيين : إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو اذى بنى الكعبة ،  
لا لم يبن الكعبة ، بل رفع القواعد التى تبرز حجم الكعبة ؛ بدليل أنه  
حسب جاء هو وامرأته هاجر ومعهما الرضيع إسماعيل عليه السلام قال :

(١) جمع الله ذكر هؤلاء للمعجبين فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَوْمِ نُوحٍ  
وَإِسْهَاقَ وَيُصْفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبَاتِ لِيُرَوِّا أَعْيُنَهُمْ وَلِقُوا إِيَّاهُ  
كَلَّمْنَاهُ بِمَا أَرْسَلْنَاهُ بِهِ وَإِنَّا لَنَافِي شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ قالت رُسُلُهُمْ لِمَنِ اللَّهُ خَلَقَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يَدْعُوكُمْ لِيَخْلُقَ مِن دُونِكُمْ وَلِيُخَوِّدَكُمْ إِلَى أَهْلِ مِصْرَ فَقَالُوا إِنَّا نَعْبُدُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلُنَا فَرِيضُونَ أَن تُصَدِّقُوا عَمَّا كَانَ  
بَيْنَ أَهْلُونَا فَاتَرْنَا بِسَلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم]

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ قُورَيْشٍ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... ﴾ (١٧)

[إبراهيم]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و« المكين » فالذي فعله إبراهيم هو إقامة « المكين » أي المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أي شيء سنصلي ؟ إلى أن نقيم المكين إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليست للمكين

ويقول الحق عن البيت الحرام :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ... ﴾ (١٧)

[آل عمران]

وآيات جمع ، وبيئات جمع ، ولم يأت من لآيات البيئات إلا « مقام إبراهيم »

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾ (١٧)

[آل عمران]

أي : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البيئات : لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانيات التي تساعد في الرفع ، لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوي ما تطوَّره البدان ، لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدرج وجاء بحجر ليقيم موقفه ليطيل في ارتصاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه يتفاد التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ، لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفي هذا آيات واضحة على أن الإنسان

إذا كلف أمراً فعليه ألا يفعل الأمر لينتهي التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدي ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يريد فيه ، وبذلك يؤدي «العرض» والزائد على الفرض وهو «النافلة» .

وبعن هنا في قضية الاستغفار ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾

وهنا وقفه توصل لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذي يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سرف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشغل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله في بعض عباده للتسرية عن عباد له آخرين <sup>(١)</sup> .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة      يواسيث أر يسليك <sup>(٢)</sup> أو يتوجع

أي . أنه إذا أصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فلما أن يساعده في مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه في تعب المصيبة ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة في النفس البشرية

فإبراهيم ﴿ أواه ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يصنع طبع إبراهيم عليه السلام في التأوه

(١) ومن معنى الأواه أيقظ كثير الدعاء والتضرع إلى الله موفياً بالإجابة . انظر اللسان (مادة 'أوه) .  
(٢) يسليك . يكتشف عنك منك .



فى مرضعه لصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن بك به ، فالمسألة ليست فى الطبع ، ولكن فى رب الطبع الذى أمر بذلك .

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء فى العالم كله ، لأنها مسألة تسب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ، بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو لله ومحمد ﷺ من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إتبى خيار من خيار من خيار » ؟

ولو فهمت قول الحق . إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففى هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن : ففى سببه ﷺ أحد أعداء الله ، وفى ذلك نقض لقوله ﷺ : « خيار من خيار من خيار ، ما زلت أقتل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الصاهرات » .

ولهذا نريد أن تصفى هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَكَتْ وأنجيك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر وأبوه يعتبر أب لك أيضاً إلى أن تنتهى لأدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب » كما نعرفه ، لكننا نجد أن القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدى ، وأغنى السرر بالتعرض لهذه المادة « سورة يوسف » : لأن مادة « الأب » جاءت ثمانى وعشرين مرة خلال هذه السورة . فمثلاً نجد فى أوائل سورة يوسف ، قول يوسف عليه السلام

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... ﴾ (٤)

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبي يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث .

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ <sup>(١)</sup> رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلُ ... ﴾ (٦) [يوسف]

والأبوان المقصودان هما إبراهيم وإسحاق عليهما سلام، ثم قال الحق من بعد ذلك: ﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ <sup>(٢)</sup> إِلَيْنَا ... ﴾ (٨) [يوسف]

[يوسف]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١٥) [يوسف]

وفي نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ... ﴾ (٢٠) [يوسف]

ثم يهد إخوة يوسف للتخلص منه ، فيبدأون بالخوار مع الأب :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢) [يوسف]

وبعد أن ألقوه في غيابة الجب <sup>(٣)</sup> ، وعادوا إلى والدهم :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (١٦) [يوسف]

(١) يجتبيك يختارك ويصطفيك ليوفقه وتأويل الأحاديث هو تفسير لأحلام والرؤى

(٢) يقصدون أبا يوسف من أمه وحبله واسمه يمين

(٣) الجب: البئر وغيابه أي قعره، في منبسطه

وكانت هذه هي المرة الثامنة في ذكر كلمة أب في سورة يوسف ، ثم تأتي التاسعة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْتَ يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ... ﴾ (١٧) [يوسف]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريدانه من المحسنين ، وأن عدهم روى يريدان منه أن يدرهما لهما فقال لهما :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا بِأَنْتُمْكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ... ﴾ (٢٧) [يوسف]

ويسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول .

﴿ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٧) وأتبع ملة آباءني إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ... ﴾ (٣٨) [يوسف]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آباءه : إبراهيم وإسماعيل ويعقوب عليهم السلام .

ثم نخرج يوسف من السجن <sup>(١)</sup> وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته لمتجارة فعرفهم ، ويحكى القرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال :

﴿ وَلَمَّا جَهَرُوا لَهُمْ جَوَّاهِرُهُمْ قَالَ أَتَتْنِي بَاخٌ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ... ﴾ (٥٩) [يوسف]

وقال أيضاً :

(١) رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تظهر برأته مما نسب إليه بخاه امرأة العزيز ، لذلك قال لرسول الملك : ﴿ رَجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَمَا سَأَلَهُ مَا هِيَ الْقِسْوَةُ الَّتِي تَطْعَمُ أَهْلَهُمْ ﴾ [يوسف] (٥٩) وتم له ما أراد ، فقالت النسوة : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ وقالت امرأة العزيز : ﴿ الْآنَ صَحِّحُ الْحَقِّ أَنَا وَادْعُهُ عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف] .

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَبَاهُ﴾ (٦٦) [يوسف]

ثم عدوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيه الأصغر معهم<sup>(١)</sup> ، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن أتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر حارح من إرادتهم ، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة<sup>(٢)</sup>

﴿فَمَا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّاقِيَةَ﴾ (٦٧) في رجل أخيه ثم أذن مؤذن أبيها العير<sup>(٣)</sup> إِيَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٦٨) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعِلُونَ (٦٩) قَالُوا نَعْبُدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ رَعِيبٌ (٧٠) قَالُوا نَالَهُ لَفَدَ حِلْمَتُهُ مَا جَنَّا لِنُسَبِّدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧١) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَادِبِينَ (٧٢) قَدُوا جَزَاؤَهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْمَةِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... (٧٣) [يوسف]

قَالُوا - ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ (٧٤)﴾ [يوسف]

قال يوسف

﴿مَعَادَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا فَتَعَاذَ عِنْدَهُ ... (٧٥)﴾ [يوسف]

(١) الماروجة وطلب الإذن منه يرفق .  
(٢) ردبت أنهم قالوا لأبيهم : ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَعْدَ مَا رَفَعْتَ إِلَيْنَا وَبَعِيرَ أَمَلْنَا وَتَحَفُّظَ أَخَانَانَا وَنَزْدَ كُلِّ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف ٦٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٠) : « ولف أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير »  
(٣) الميرة : هي الطعام يمتاره الإنسان أى يحمله  
(٤) السقاية : هو إثناء من عضة كانوا يكتنون الطعام به ، وري شربوا به . ويسمى أيضاً الصراخ  
(٥) لعير : القردة ، ولعير القوم معهم ذرائعهم وأحمتهم من الطعام . قال تعالى ﴿ أَلَيْسَ الْعَبْرُ لَكُمْ سَارِقُونَ ﴾ [يوسف ٧٠] أى أليها القوم الراسلون  
(٦) رعيوم : كليل

وَيَأْمُرُهُمْ سَيِّدُنَا يَرْسِفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ اَرْحَمُوا إِلَىٰ أَيْكُمُ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا  
كَانَ لِلْعَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٨١) [يوسف]

ويعودون إلى أبيهم الذي يماثلهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ  
أَمْرًا... ﴾ (٨٢) [يوسف]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً :

﴿ يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ... ﴾ (٨٧) [يوسف]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال  
لهم . ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوَّةُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي بَأْتٍ بَصِيرًا ﴾ (٩٣) [يوسف]  
ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين . ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ  
الْعَمِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَِّّي لَأَجِدُ رَيْحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتَنُونِ<sup>(١)</sup> ﴾ (٩٤) [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ<sup>(٢)</sup> وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ  
قَبْلُ ... ﴾ (١٠٠) [يوسف]

وما يهمنا في كل ذلك آيتان اثنتان . الأولى هي قوله سبحانه :  
﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ  
وَعَلَىٰ آلٍ يَحِبُّهُ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْنِكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ  
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦) [يوسف]

(١) يفتنون أي يكذبون ويتهمون بالحرف ويضعف الرأي والعمل

(٢) العرش سرير الملك

واسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث. وحين قال يوسف

﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي...﴾ (٢٨)

[يوسف]

و«آبائي» جمع أب. وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال :

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ (٢٨)

[يوسف]

ويعقوب هو أبو يوسف ، واسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ،  
إذن : فإبراهيم أب ، واسحق أب ، ويعقوب أب وهكذا نرى أن كلمة  
«الأب» تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت في سورة البقرة  
تجد قول الحق سبحانه :

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ  
بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُاتِنَا وَإِلَّهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ (١٣٥)

[البقرة]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ،  
وإسماعيل أباً ، واسحق أباً ، ولكن إسماعيل أح لإسحق ، إذن فقد أطلق  
الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا نرى أنه إذا ألحق بكلمة «أب» اسم معين  
هو المقصود بها ، فالعمى يصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت  
من غير تحديد الاسم ، فهي تنصرف إلى الأب المباشر فقط

واحق يقول في شأن إبراهيم مع أبيه

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ...﴾ (٧٤)

[الأنعام]

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحده به آزر<sup>(١)</sup> ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم

إذن : قول الله : ﴿ وَذُ قَالْ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذي انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذي حير الكثيرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدْنَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَيَّرَ بِذِهِ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهُ<sup>(٢)</sup> حَلِيمٌ<sup>(٣)</sup> ﴾ [التوبة]

و« الحليم » هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً<sup>(٤)</sup> عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله ﷺ يخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ، لأن منهج الإسلام نزل في « ثلاثة وعشرين عاماً » . وليس من المفروض مبم أن يأتي بكل أحكام

(١) آزر ، اسم أحمى . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالبسايون والصبوريون على أن اسم أبيه « نارح » وبعضهم قال « نارح » وبعضهم قال : إنهما اسمان . له كما لكثير من الناس وكما كان لعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن نارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للعسم الذي كانوا يعبدونه . انظر في هذا : تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير (٢/ ١٤٩) ومفصل الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة آزر) وقصص الأنبياء . عبد الوهاب النجار (ص ٩٢ - ٩٦)

(٢) أواه . كثير الدعاء والتلو . شوقاً من الله

(٣) الحليم ، الصبر ، و« الحليم » صيغة مبالغة من الحليم ، أي : كثير الحليم ، والصبور صيغة مبالغة من الصبر أي : كثير الصبر ، والصحيح هو الصبر والمعرفة

لإسلام عند بداية إيمانه ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتسر مسلماً ، ومثال هذا محيريق اليهودي <sup>(١)</sup> الذي لم يصل ركعة واحدة في الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالي كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً لأنه لم يكت زماً يتخذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذي مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذي مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائياً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافراً؟ لا ، إنه مسلم ، والذي مات قبل أن يعلم أن القبلة قد تحولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً <sup>(٢)</sup> وشيء آخر أن يبين للمستمعين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحي

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥)

[ التوبة ]

وهذا يوضح ما نعرفه في عرف التفتين البشري أنه لا جريمة ، لا بصر ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فحزن لا يعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذي يعاقب عليه ، وأن يكون لنص المحسد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل

إذن . لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بصر . والذي لم يسمع

(١) محيريق التفسري لإسرائيلي من بني نصر ، أسلم واستشهد في أحد ، وكان حاله وقد أوعى بأمواله للنبي ﷺ فجعلها النبي ﷺ صدقة أنظر الإحصاء في تبيين الصحابة (٦/٧٣) وسيرة النبي (٨٨/٣)

(٢) عن ابن عباس قال : ما وَجَّهَ النبي ﷺ إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف يا أخوان الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ ﴾ [البقرة] وأخرجه الترمذي في سننه (٢٠٨/٥) وقال : حسن صحيح . والمحاكم في مستدرکه (٢/٢٦٩) وصححه وأقره الذهبي . قال ابن حجر العسقلاني في المتح (٩٨/١) «الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس» وذكر أسماءهم ، ثم قال : فهؤلاء المشرك متحق عليهم»



المر ، لأنه مات قبل أن يوجد النعم ؛ لا نأخذنه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوي ، إنما الرجعية فقط عند البشر ، ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ..﴾ (٢٧) [الساء]

إذن : فلا تحزبوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه ، إسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استروا بلدي يؤدبها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق .

﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا يَعْهَدُ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿١٥﴾

وهذه الهداية هي هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى الترام أمر الله ونهيهِ ، فإذا وقفوا البيان هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّا لِلَّهِ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَسْبِ وَبُحْبُوحَةٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٦)

ومادة لـ (م. ل. ك) يأتى منها « مالت » ، و« مَلِك » ، و« ملك » ، ومنها «مُلْك» ، ومنها « ملكوت » ، و« الملْك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معك وملك غيرك ، فهذا هو الملْك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتديره ، فاسمه مُلْك ، فشبح القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [الأنعام: ٧٥]  
وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت » ، و« عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنحك أن تستغفر لأبائك ، وأنت إن قاطعتهم فذلك يخل بوجردك فى الحياة ، لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شيء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ، فقل :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... ﴾ [آل عمران: ٢٦]

وهى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء الملْك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شر ، وإعزاز الناس خيبر ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله يده ، الخير والشر ، وإنما قال في كل : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن . فحين يؤتي الله إنساناً ملكاً ، يقول : هذا خير وعليك أن تستغله في الخير . وحينما ينزع الله منه الملك يقول له . لقد طغيت وخفف الله عنك جيروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعدك حقاً ، وإن أدلهم الله ، فمقصود ألا يعطوا أو يتجهروا . إذن فكلها خير

﴿ تُوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... ﴾ (٢٦)

[آل عمران]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً<sup>(١)</sup> ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن الملوك راعى الله في كل أموره لرقق عليه قلب ماله . ولذلك يقول لنا في الحديث القدسي : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ومواصيها بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعوني أعصمهم عليكم » .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادث له حكمة<sup>(٢)</sup> في الوجود .

(١) الملك العضوض : هو ملك شديد ظلم وأمر . وهي من صيغ المبالغة ، والعضوض : جمع عض و هو الخبيث الشرس . رتبني هذا ملك عضوضاً كانه يعرض الناس .

(٢) الحكمة : الصواب والسداد والحق والحكم والمداد والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل قال تعالى ﴿ وَبَلَّغْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١١٥) [البقرة]

وان رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم<sup>(١)</sup> ، فنعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يرى الأشرار بالأحياء ؛ لأن الأحياء لا يعرفون كيف يربون<sup>(٢)</sup> ؛ وقلوبهم تمسلى بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَكِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ (١٢٤) [ الأنعام ]

والخير لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شيء بعلم الله ؛ لأن سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت ، فإليك أن تُمتن فى غير مخالفتك أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطعانه ، لا يستطيع أن يحى نفسه من أحياء الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وبياً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يأتى لنا بالأمر الذى يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيى الجماد » ، و « يميت الحيوان » ؛ لأنهم ظنوا أن أحياء هى الحس والحركة التى تراها أمامنا من حركة وكلام ودهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » . قطعة من حديث أخرجه أحمد فى مسنده (٢٨٧/١) والحاكم فى مستدركه (٣٣/١) (٤٤٧/٢) (١٦٥/٤) . وصححه ووافقه الذهبى ، وعراه الهيمى فى مجمع الروائد (٢٦٨/١٠) لأحمد . وقال : رجاله وثقوا ، ومن بعدهم خلاف .

(٢) البرية ما يحمى التأديب والرجز ، وهذا ملمع دقيق جداً ، بالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرفقة والبرقة والعمو والصنع ، ولذلك عند تطبيق حد الرنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الرأفة والزاني فاجتنبوا كل واحد منهم مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة لى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وتشهدوا عذابهما طائفة من المؤمنين (٥) ﴾ [ التور ] .

هي ما أودعه الله في كل ذرة في الكون ، مما تؤدي به مهمتها ، ففي ذرة الرمل حياة ، واحتيل فيه حيلة ، وكل شيء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبِمَعْنَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ... ﴾ (٤٦) [الأنعام]

إذن . فالحياة مقابلها الهلاك ، وفي آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . وإذا كان الحق سبحانه

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... ﴾ (٨٨) [القصص]

إذن . فكل شيء قل أن يكون هالكا كان حيا . وهكذا نعرف أن الحياة ليست هي الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمي الهائل في المجاهر الدقيقة تكشف لنا حركة وحس كائنات كما لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التي ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن . فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه علو جثت بعمق مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أي حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة

بعد ذلك يقول الحق .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ  
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ  
مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ  
تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بخلق ، وهي أيضا رحمة بالذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان في المعاصي بمجرد انحرافه مرة واحدة ، وإذا استشرى في المعاصي فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : ومشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، ومن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل للذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... ﴾ (١١٨)

[التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، ويعد أن يتوبوا ، يقبل الله اتوبته .

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف<sup>(١)</sup> على النبي ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ، أى شيء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له .

﴿ عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... ﴾ (١٢٣)

[التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبي ﷺ في التحلف من العزوة<sup>(٢)</sup> ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا<sup>(٣)</sup> .. ﴾ (١٢٧)

[التوبة]

(١) العطف هو إشتراك ضمير أو أكثر في حكم ما .

(٢) هي فريضة تبوك ، وهي آخر غزوة غررها رسول الله ﷺ ، وقد كانت في شهر رجب همام تسع من الهجرة ، وقد كانت في شدة حر وجذب وغبر يسما للدينة بها الظلال والأشجار وقد طابب الثمار ، ولذلك كانت امتحاناً حسيماً لربل القلوب ، ومراوحة ردود الأعداء لجاء الاستجابة بنفسه على حسب الإيمان لدى يسكن القلوب .

(٣) خبالاً أراد أصابكم بالفساد والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء .

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالبطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المهاجرين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثل هذا من حياتنا والله المثل الأعلى . أنت إدرايت ولك يذاكر عشرين ساعة في اليوم ؛ فلذلك تدخل عليه حجراته لتأخذ منه الكتاب أو تطفئ مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام » وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل في منهج وأسلوب عمل يرمق به نفسه <sup>(١)</sup> .

وحين سمع النبي ﷺ لقوم أن يتحلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا في الحرب لكثرت ثوابهم حتى ولو حرموا الأمتعة أو قاسوا بأي عمل ، إذن ، وإذنه ﷺ لهم بالتحلف هو تصويب بالأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبي الله ، إنما كان عتياً لصاحبه لا عليه فسيحاته يقول له :

﴿ لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ... ﴾ [التحرير]

(١) من أس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحمل عدد من سديين فقال : ماذا قالوا : لرب تعلى فإذا كنت أو تريت أمكت به فقال : « جلود » ليصل أحدكم بشاظه فلا كسل أو ترفعه . أخرجه البخاري في صحيحه ( ١٥٠ ) ، ومسلم في صحيحه ( ٧٨٤ ) .



والنبي ﷺ لم يحل ما حرم الله يل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكان الحق يسأله . لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبي ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم<sup>(١)</sup> الأعمى يسأل رسول الله في أمر من أمور الدين ، وكان ذلك في حضور صناديد قريش<sup>(٢)</sup> ، فالتفت ﷺ إلى انصايد وهم كاسرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ، فنزل القول الحق :

﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۚ﴾ [عس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيماني ، ولن يجادل مثله يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار لرسول ﷺ الأمر الصعب الذي يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصاح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿عَسَىٰ اللَّهُ عَنكَ لَمَ أدْنَبَ لَهُمْ ۖ﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا في الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتخرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تخرج<sup>(٣)</sup>

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال عمرو أما ابن أم مكتوم فهي مائكة بنت عبد الله أسلم قديماً بمكة وكفى من المهاجرين الأولين استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه في الغزوات . (الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٧٨٥)

(٢) صناديد قريش عظاماؤهم ، وعليه القوم فيهم وهم هنا عقب بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والميسر بن عبد المطلب ، وقد كان يروجوا إسلامهم . وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فاجعل يقول : أرشدني . وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبي يعرض عنه ويقبل عليه الآخر ويقول : أتري بما أقول يا أسأ ؟ فيقول لا . فقصى هذا أنزل ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عس] أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٣١) وقال حديث غريب . ابن حبان (١٧٦٩ - مرار الطمان)

(٣) وقد قال بعض العلماء : إنما ذكر النبي ﷺ في التوبة ؛ لأنه ما كان سب نوبتهم ذكر معهم . نقه القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٧٠)



وهذه المسائل انى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ ويرى . ميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ، لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى لعسرة الصيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والحوار ، وليس عندهم راحل<sup>(١)</sup> كافية ، فكل عشرة كان معهم يعبر واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجلدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود .

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فمصها بصبه يستعملها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليعطيها قليلاً ، وهكذا إلى أن نصير على الثواة ، وكان لشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : « حتى إن الواحد ما كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير » . كل هذه أصعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة .

إذن . فالتوبة كانت عن اقتراب زيف قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظروف العسرة ، ولذلك تبا بالخواطر انى كانت فى نواياهم ومنهم أيضاً من هم ألا يذهب ، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة<sup>(٢)</sup> الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرة عشرة أيام ، ودخل لرجل بستانه فوجد العريشين<sup>(٣)</sup> ، وعند كل عريش زوجة له حسناء ، وقد

(١) راحل . جمع راحلة ، وهى كل بعير قلدر على مشقة السفر ، سواء كان ذكراً أو أنثى

(٢) هو عبد الله بن خزيمة الأنصارى السدسى ، شهد أحداثاً ، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية . انظر الإسماعيل

(٧/٥٣) وانظر (٤/٦٣)

(٣) العريش . شئ يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظله بسحب التخيل .

طَهَتْ كُنْ مِنْهُمَا طَعَاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الطلال الباردة ، والشمس المذلى ، فمستنه نفحة من صفاء النفس ؛ فقال . "رسول الله في الفصح - أى الحرارة الشديدة جداً - والرياح ، والقر والبرد ، وأنا هنا في ظل بارد ، وطعام مطهّر ، وامرأين حسناوين ، وعريش وثير<sup>(١)</sup> ، والله ما أدرك بالنصف لك يا رسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلمته المرأتان ، فلم يلف لواحدة منهما وذهب يلحق برسول الله ﷺ . فعان صحابة رسول الله ﷺ يا رسول الله إنا نرى شيخ رجل مقبل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة»<sup>(٢)</sup> ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ<sup>(٣)</sup> مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ قَوْمٍ بِرَيْبِ مَتَهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٧) ﴾

[التوبة]

وفى راحة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيهما على آخرين عترفوا بدسوسهم ، فتاب الحق عليهم حين قال

(١) وثير . يعنى الوسائد والفرش التي فرشت داخل العويش  
النصف . الإصابع والعدل . زمام الراحلة . الحبل الذي يقاد به اليمير .  
(٢) قصه أبي خيثمة وردت تامة في السيرة النبوية لأم هشام عن ابن إسحاق (٤ / ٥٢٠) وذكر ابن هشام أياً لأبي خيثمة في هذا

لعباً رأيتُ النَّبِيَّ في الدُّنْيَا قَاتِلُو	أَتَيْتُ الشَّيْءَ كَانَتْ أَعْيُ وَأَكْرَمَا
وَكَلَّهْتُ بِالْيَمِينِ بَدَى لِمُحَمَّدٍ	قَلَمَ أَكْتُبُ بِشَا وَبِمِ الْهَيْسِ مَحْرَمَا
مَرَكْتُ خَفِيئاً فِي الْعَرِيشِ وَصَرَمَةً	صَقَايَا قَرَامَا بَسْرَهَا قَدْ تَجَمَّمَا
وَكُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ الْمَنَافِقَ أَسْتَحْتُ	إِلَى الدِّينِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثُ يَسْمَا

خصيماً المرأة قد خضبت يديها باحتاء صرمة . مجموعة من المحل صقايها . قد تحملت بالشر بسرهما التمر قبل أن يطيب محمد . أى أخذني الإرباط فأسود

وقد ورد قوله ﷺ «كن أبا خيثمة» في حديث توبة محمد بن مالك عند مسلم في صحيحه (٢٧٦٩)  
(٣) العسرة . من النقة والظهر والراد والماء .

﴿وَأَخْرُوجُوا عَنْهُمْ يَذُنُّونَهُمْ حَتَّى يَسْلَمُوا صَالِحًا وَآخِرُ سَيِّئَاتِنَا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة]

وأرحأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿وَأَخْرُوجُوا مِنْهُمْ لَأَمْرِ اللَّهِ... ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال : ﴿مُتَجِدُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي : ما يث الله سبحانه من أمرهم بشيء ، فلا بد من الانتظار إلى أن يأتي أمر الله ، ويجب ألا تتعرض لهم حتى يأتي قول الله ، وتاب أيضاً على الثلاثة "الذين حلفوا ، في قوله سبحانه :

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٨﴾﴾

قد يظن أحد أن (خلفوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقمعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خلفوا) معناها لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر في غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَأَخْرُوجُوا مِنْهُمْ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار .

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ  
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا  
فَعَلُوا﴾ (١١٨) [التوبة]

ويعلم أن الإنسان إذا شغله همٌ بحدّث نفسه بأن يترك المكان الذي  
يجلس فيه ، ويسيب له الصيق ، لعل الصيق يثفك <sup>(١)</sup> . ولكن هؤلاء الثلاثة  
فأبلاوا لصيق في كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها ،  
لم يجدوا مخرجاً من مكانهم مكالماً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذي  
يحيطهم قد عمّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه  
تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي : ضاقت عليهم  
الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تحفّفت الثلاثة عن  
الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتواني ، وأمر رسول الله ﷺ  
المسلمين بمقاطعتهم ، فكان كعب بن مالك <sup>(٢)</sup> يخرج إلى السوق فلا يكلمه  
أحد ، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوّر <sup>(٣)</sup> عليهم لحيطان  
لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه

(١) يبحث : يتخلص منه الإنسان ومنه «ك التوبة» أي : تحلّصها من العبودية والرق . قال ابن  
الأعرابي : فك فلان أي : يتخلص من رقيق من الشيء . [لسان العرب : مادة «نكك»]

(٢) كان كعب بن مالك يمالأ الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحبه مرارة بن الربيع  
وهذان بن أبيه فقد ندم ما بهتتهما ، أما هو فيقول : «كنت أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو لي  
مجلس بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفّتي ببرد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأما رقه  
النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عني»

(٣) يتسوّر : سلق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَتَاهَا مِنْهُنَّ أُولَئِكَ يَرْجُونَ الْفِتْنَةَ﴾ (١١٨) [التوبة]



وبعد ذلك يتصاعد الأمر في عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نساءهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم<sup>(١)</sup> هكذا بلغ العزل<sup>(٢)</sup> مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً في المجتمع ، ثم في الأقارب ، ثم في خصوصيات السكن وهي المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأن استأذنتك في أن أصنع له ما يقيحه ، قال لها : «ولكن لا يفرنك» . قالت : والله يا رسول الله ما به حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله ﷺ صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له : اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك .

قال . إن هلالاً رجل شيخ ، فمأذون لرسول الله وأنا رجل شاب<sup>٤</sup> والله لا أذهب له أبداً .

وظل الثلاثة في حصار نفسي ومجتمعي لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفي هذا تمحيص<sup>(٣)</sup> لهم ، فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يقص عن حاله قبل العزوة قاتلاً ، ولم أكن قط أقوى ولا أيسر متى حين تخلفت عنه في تلك العزوة ، والله ما جمعت قلبها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك العزوة<sup>٥</sup> . أي : أنه لم يكن له عذر يمنعه

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتي واحد من جبل سلج

(١) وفي هذا يقول كعب : « حتى إذا مضت أربعون من المحسنين واستنبت الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتي ، هذا إن رسول الله ﷺ يأمر أن يعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم حادة أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تنربها »

(٢) وهو ما يسمى بالعزل العام اجتماعياً وأسياً ونفسياً

(٣) تمحيص : ابتلاء واختيار وتخصيص من الذنوب . وقد بلغ البلاء مداه بكعب أن ملك غسان بعث له كتاباً يقول له فيه : « قد بعثت أن صحبك - يقصد محمداً - قد جفاك ولم يجعلك الله بنو هواة ولا مصيبة داخلين بنا نواسك » . فأنقذ به كعب بعد لراءته في النار



فيقول : يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآنً وأنه تاب عليك .

قال كعب : فلم أجد عندي ما أهديه له لأنه بشرني إلا ثوبين فحلبتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ

وقال . يا رسول الله ، إن من تمام ثوبى أن أتخلع من مالى - الذى سبب لى هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ<sup>(١)</sup>

إذن . فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء ، وإعطاء الأسوة بغيرهم فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت ، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قون الحق .

﴿رُحِّمُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ<sup>(٢)</sup> مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ...﴾ (١٨) [التوبة]

أى : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يحرر من نفسه . كيف ؟ أنت تعلم أنك سعة لا يجبرك إلا من يتعقبك ، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً ، ولذلك يقول : أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ<sup>(٣)</sup> إلى الله ليحميك من الله . فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتمثل صفات الجلال فى أنه : قاهر ، وجبار ، ومتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات وفى الحق سبحانه صفات جمان مثل عمو ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فللمجال فى هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الخلال ، ولا يسع العبد وقاية من صفات الخلال إلا صفات الجمال .

(١) فعان له رسول الله ﷺ « أسب بعض مالك فهو خير لك » فقال كعب . فأتى أسب سهمى الذى يجير . والحدِيث بطوله أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩)

(٢) ملجأً بفعل والملاذ والمجير

(٣) اللجوء يكون إلى صفات الجمال للحماية من صفات الجلال ، وهما يكون اللجوء إلى الله ليحميك من الله

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله : «أعوذ بك منك»<sup>(١)</sup>

أي أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك ، فلي يحميني من صفات جلالك إلا صفات جمالك .

ولذلك حتما جاء في الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ :

« إذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلّى الحُبَّارُ بالمَغْفرة » .

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلّى الحُبَّار بالمَغْفرة ؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : « يتجلّى العَفَّار » ؟ ونقول . لا ، فإن المغفرة تقتضى ذباً ، ويصبح المقام لصعة الحيار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سلطتها ، وكأنا نقول : يا جبر أنت الحق وحك ، لكنا نشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك . هذا هو معنى : « يتجلّى الجبار بالمَغْفرة » .

وقد سمع الأصمعي<sup>(٢)</sup> - وهو بطوف - مسلماً عند باب المترم ، يقول . اللهم إني استعجى أن أطلب منك المغفرة ، لأنى عصيتك ، ولكنى تطلعتُ فلم أجد إلهاً سواك .

فقال له : يا هذا ، إن الله يعفر لك الحسنُ مسألتك<sup>(٣)</sup> .

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأحمد في مسنده (٥٨٦/١ ، ١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : لقد سمع رسول الله ﷺ ليلة من الفرائض ، قالت مسته ، فرفعت يدي على بطني قدميه وهو في المسجد ، وهما معصومان وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

(٢) الأصمعي - هو عبد الملك بن قريش أبو سعيد الأصمعي ، أحد أئمة العلم باللفظ والشعر والملائن ، مولده ووفاته في البصرة عن ٩٥ عاماً ، ووفى عام ٢١٦ هـ - الأعلام للزركلي (١١٢/٤) .

(٣) وبما يروى أيضاً عن الأصمعي في نفس هذا المعنى أنه سمع أعرابياً يدعو الله وهو يقول : هربت إليك بعسى ، يا ملجأ الهاربين بأثقال الدروب ، أحملها على ظهري ، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتي بأنك أكرم من تصد إليه المضطرون ، وأمل فيما لديه الرقيقون . انظر الأملاني لأبي علي الثاني (٣٢/١)

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لَتُوبُوا ﴾ والتوبة أولاً - كما عرفنا - هي تشريعها ، ثم تأتي التوبة بالقول ، وقوله ﴿ لَتُوبُوا ﴾ أى : أنها تصح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .  
ويُنهي الحق الآية بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فلا تَوَّاب ولا رحيم سواء سبحانه وتعالى .  
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ ﴾ (١١٩)

وساعة يسادى الحق عز وجل عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ (١٢٦) [البقرة]

والحق سبحانه يُبَيِّنُ لئذٍ آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب في إيمانه ، فيطلب منه الحق إتمام الإيمان . فإذا طلب الله من عباده ما كان موجرداً فيهم ساعة الخطاب ، فال مطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالإيمان ، فهو يوجههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴾ (١٢٩) [التوبة]

(١) ومع يقول العارف بالله ، إن الإيمان إما أن يطلب على جهة الهداية ، وإما على جهة الدلالة ، وإما على جهة الحمية ، فإيمان الهداية بالإدراك ، وإيمان الدلالة بالانصاف مع المبركات ، وإيمان الحمية بالأخيار ، فإتداه إذا تكرر مطلوبه فهو مقامات عيانية ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ بُعِثَ إِلَىٰ رُؤُسِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) [الأحزاب] .





وكنمة ﴿اتَّقُوا﴾ تعنى : اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض : هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية ؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون فى محبة الله . وهنا تأتى ضرورة فهم صفات الجلال وصفات الخلال . إن قوله سبحانه . ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة] لأن النار من جنود صفات الخلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات جلاله .

وهنا يقول الحق : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وفسر بعض العلماء قوله . ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بمعنى كونوا مع الصادقين ، أى : أن «مع» هنا بمعنى «من» وللفصوح أن يعطى هذا القول معنى إجمالياً عاماً . لكنى أقول . هناك فرق بين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و«كونوا من الصادقين» ، بقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى : التحصن بهم فتكونوا معي معيشتهم ، وبعد أن تلتحموا بهم يأتى الميم من بعدكم ويجدرنكم مع الصادقين .

ويقتضى الأمر هنا أن نذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأى قضية نمر على ذهنك قبل أن تقولها هى نسبة ذهنية ، مثل قولك : «محمد زارنى» ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها ، وهذه «سنة ذهنية» . ومن يسمعك لا يدرك بها ، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذى تدرك بها ، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المحاطب ، علم أن نسبة ذهنية جاءت من ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية . فحين قلت . «محمد زارنى بالأمس» ، جاءت فى ذهنك قبل أن تقولها ، فلم سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين : نسبه سمعها عن سنة عندك .

وحين يمتص السامع هذا القول : يعلم أن هناك واحداً فى الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد رارك ، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن :

فالصدق <sup>(١)</sup> هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع . أما إذا قلت . إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر ، فهذا يعني أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب . إذن : فهناك «نسبة ذهنية» و«نسبة كلامية» و«نسبة واقعية» . فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية ، فذلك هو الصدق ، وإن لم تتطابق يكون الكذب .

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة ، والفيصل في هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما نقول مع الواقع أم لا ؟ . أما إن قلت لك : «رُرُ فلاناً» فهذه نسبة . نشاء ؛ لأن الراجع يأتي بعدها ، لا قبلها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿اثْقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ والصدق هو الخَلَّة <sup>(٢)</sup> التي تجمع كل الإيمان ، ولتر التطيين لذلك في قصة الرجل البدوي الذي ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، إن فيّ خللاً ثلاثة لا أقدر على لتخلّي عنها أبداً ، أما الأولى فهي النساء ، وأما الثانية فهي الخمر ، وأما الثالثة فهي الكذب ، وقد حثك يا رسول الله ، لتختار لي حصلة <sup>(٣)</sup> من الثلاثة وتقويني عليها ، وأعاهد ربنا عليها . فاختار رسول الله ﷺ للأعرابي أن يتوب عن الكذب ، وأن يتخلّى بالصدق ، فقال له . كن صادقاً وما عيبك . وحين أحب الأعرابي أن يشرب كأس خمر ؟ تساءل : وماذا إن سألتني النبي ﷺ أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ، قال لنفسه : « وماذا إن سألتني ﷺ وكيف أخرى نفسي بصفة لا تليق بمسلم ؟ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهدت سلوكه . وحين سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم

(١) أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع فهو الصدق ، وإذا خالفت النسبة الكلامية الواقع كان الكذب ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة والمنطق

(٢) الخَلَّة : الصفة والخلل ، جمعها خلالات

(٣) الحصلة : الخلة والصفة . جمعها حصائل وخصلات

فقل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . فقل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا <sup>(١)</sup> . لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الحازمة ، وهكذا نجد أن الصدق هو رأس الأمر كله ،

وقوله الحق : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى : لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أعمالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿٢﴾ [البقرة]

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... ﴾ (١٧٧) [البقرة]

ولنسبته إلى الملاحظ الدقيقة فى هذه الآية ، فقد قال الحق هنا : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ... ﴾ (١٧٧) [البقرة]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فماذا ذن ذكر ﴿ وَآتَى الْمَالَ ﴾ ؟ أقول . لقد ذكر الحق هنا المال الذى يتفق المؤمن دون أن يكون مصروصاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً ، فهذا فوق الواجب <sup>(٢)</sup>

ثم يقول سبحانه :

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث سمعان بن سليم مرسلاً

(٢) البر هو الخير والإحسان ، وهو الإيمان الصادق بعمل الخيرات

(٣) الزكاة فرض ، وإيتاء المال تصدقاً فضيل . والخير لى جمع بينهما

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ<sup>(١)</sup> وَالضَّرَاءِ وَحِينَ  
الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [التوبة]

هذه هي صفات من صدقوا، وهم هنا في الآية لتي نحن نصدد حواطرن  
عنها قد صدقوا واتقوا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الْعَادِقِينَ ﴿١٧٩﴾﴾ [التوبة]  
وقد جاء الحق بصفة «الصدق» هنا؛ لأن المجال هو الحديث عن تخلف  
عن العروا، وكذب في الأعداء التي افتعلها؛ لذلك يأتي التوجيه  
السموي أن ادخلوا من باب الصدق<sup>(٢)</sup>.

يقول الحق بعد ذلك:

﴿مَّا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ  
أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَةٌ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَتَّخِذُونَ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكَافِرَ  
وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ  
صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

(١) البأساء: أي في حال العفر الضر، في حال المرض والسقم حين البأس في حال القتال ولقد  
الأعداء

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ «عليكم بالنصب» فإن النصب يهدي إلى البر، وإن  
البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويحري الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم  
والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب  
ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخاري في  
صحيحه (٦٠٩٤)

(٣) لظماً المعطر والنصب التبع والحمصة المجاعة يطأون يلبسون

والحديث هنا فيه رجوع إلى الدين تحلفوا عن الغروة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أى . أنك تنهى القدرة على الفعل ، أما إن قلت « ما ينبغي » أى . عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله .

وهنا يقول الحق : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَحَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله ﷺ في العرو .

ثم يقول سبحانه . ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهذا حديث عن بوعيين من الأنفس . أنفس من قبلوا بالتخلف ، ونفس رسول الله ﷺ ، وأنت إذا قلت « رغبت » ، معناها : أنك ملت ميلاً قلبياً ، فإن قلت « رغبت فى » كان الميل القلبى إلى ممارسة الفعل وفيها التغلغل ، أما إن قلت « رغبت عن » وفيها التجاور ، هذا يعنى أن لميل القلبى يهدف إلى الانبعاد عن الفعل . إذن . محرف الحر هو الذى يحدّد بول الميل المعنى .

وقوله الحق . ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى : أنهم رهدوا فى أمر صدر عن رسول الله ﷺ وفضلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ﷺ ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك ، لأنكم ما دتمم أمتهم بالله ، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليكم من نفوسكم<sup>(١)</sup> .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضى الله عنه لما سمع أن السبي ﷺ قال . « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »<sup>(٢)</sup> ، فقال : يا رسول الله ، أن أحبك عن أهلى وعن مالى إنما عن نفسى ، فلا

(١) من أسس بن مالك عن السبي ﷺ « ثلاث من كن به وجد خلاوة لإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) ومسلم (٤٣)

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٢٢) وأحمد فى مستدر (٢٣٣/٤) وفى إسناده أحمد بن أبيه وكنى قاعة جيرة عن وهرة بن سعيد . وفى الحديث عن مولى بالسي

وهكذا كان صديق عمر رضى الله عنه ، فكرر رسول الله ﷺ القول .  
« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فعلم عمر أن رسول  
الله ﷺ حزم في هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطروب ليس حب  
العاطفة ، إنما هو حب العقل ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل ،  
فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتي بالتكليف .

وعلى سبيل المثال : فأنت تحب ابنك بعاطفتك ، حتى وإن لم يكن ذكياً ،  
لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكياً وأمياً وناجحاً . وصرنا المثل  
من قبل وقلنا : إن الإنسان قد يحب الدواء المر ، لأن فيه الشفاء ، والإنسان  
لا يحب هذا الدواء بمواظفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ،  
لأن هذا الدواء قد يكون السبب في العافية ، وإن لم يجعله في الصيدليات  
يغضب ويشكر ، ويسرّ يمن يأتي له به من البلاد الأخرى .

إذن : فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة أو من حولهم  
ما كان لهم أن يتخلفوا ، لأن هذا يناقض إيمانهم في أن يكون رسول الله  
ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا في رسول الله  
ﷺ من أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله  
ﷺ إنما يأتي بهم بالخير<sup>(١)</sup> .

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب صيق البضيرة ، سيأتي لهم بالشور ،

(١) وفي هذا يقول رب العزة ﴿ يَأْتِيهَا الْكَلْبُ اشْتَوْا فَاسْتَجِبُوا لَهُ وَفَرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا  
يَحْيِيكُمْ ﴾ (٢٤) [الأنفال] أي يحيي دينكم وقلوبكم . وقد روى البخاري في صحيحه  
(٤٦٤٧) عن أبي سعيد بن الملقى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم  
أجيب ، ثم أتته فقلت : يا رسول الله . إني كنت أصلي فقال ﷺ : ألم يغفل الله عروجي .  
(استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ثم قال ﷺ : لا علمك أعظم سورة في القرآن  
قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ، فذكرت له فقال ﷺ : هي الحمد لله رب العالمين ،  
السمع الثاني .

وإن جاء لهم بعبير فخير، موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حمهم  
لرسول الله ﷺ عن أنفسهم يأتي لهم بخير الثابت الدائم الذي يتناسب مع  
قدرة الله سبحانه

ثم يقول سبحانه : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ و﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى  
حيثيات الترغيب التي يأخذون بها لجزء الطيب من الحق سبحانه بأنهم ﴿لَا  
يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم في جيش العسرة لدرجة أن  
المقاتل كان يذبح المعبر ، ويصفى الماء الذي في معدته ليبل ريقه ، وريق  
زملائه

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ والنَّصَب : هو التعب ، وكانت نعروه في جو حار مرمو .  
﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أى : المجاعة ، وقد كانوا يأكلون التمر الذي أصابه  
الدود ، والشعير الذي انتشر فيه السوس . وإن كانوا قد عبدوا من كل ذلك  
فهر في سبيل الله القادر على أن يمن عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه في  
سبيل نصرته

﴿وَلَا يَطْفِرُونَ مَوْطِنًا يَفِيظُ الْكُفَّارَ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من  
الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويحرجونهم عن هذا  
المكان ، وينزلون إلى الوديان والساتين التي يملكها الكفار ، فهذا أمر يعط  
أهل الكفر ، إذن : فهم حين يطأون موطناً ، فهذا يعط الكفار .

﴿وَلَا يَأْتُونَ مِنْ عَدُوٍّ بِلًا﴾ أى يأخذون من عدو منالاً ، والمعنى : أن  
يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسار ، حينئذ يأخذون الجراء الخبير من  
الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطىء ينبط  
الكفار والبل من عدوهم بيلاً كل واحدة من هذه الأحداث لها جراء  
يحدده الحق : ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ .

إذن : فالدين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد

خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه من عمل صالح جزاء لكل حادث قبله من خرجوا مع الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

ويُسمى الحق سبحانه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً

ثم يأتي بأحداث أخرى غير الظما والنصب والخمسة وروطه الموطىء الذي يغيظ الكمار ، والتيل من عدو الله نبلاً ، يقول سبحانه :

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً  
وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ لَا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ  
اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾

كل شيء - إذن - محسوب ، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا ، قاله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه ، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا لوديان ليلاحقوا برسول الله ﷺ في غرواته ، قاله سبحانه يكتب لهم الخير وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين فليلاحقوا بالسرايا التي يبعثها رسول الله ﷺ لنشر الدعوة .

وجه قول الحق .

(١) هذه الآية تلتزم وجوب التعبير على أحد المسلمين ، وقد قال بعض العلماء : إنها منسوخة بالآية الآتية بعد ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ (٩٢) [التوبة] . وقال قتادة : كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ ، إذا حاربته ليس لأحد أن يختلف عنه إلا بعذر ، فأما غيره من الأئمة والولاة فمن شاء أن يختلف عنه من المسلمين إذا لم يكن بالنسب حاجة إليه ولا ضرورة . وقال آخرون : إنها محكمة قال القرطبي : قول قتادة حسن ، بدليل غزوة تبوك . انظر : تفسير القرطبي (٣٢١٧/٤)



﴿ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ  
 مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا  
 قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢)

هذه الآية جاءت عقب آيات المتحلفين عن الغزو مع رسول الله ،  
 وجاءت بعد أن يبر الله سبحانه مراد المجاهدين وما يشيهم الله به جراء هذا  
 الجهاد في قومه سبحانه :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا  
 يَطْنُونَ مَرِطًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ  
 صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٣) وَلَا يُعْفُونَ بَعْدَ عَفْوٍ صَغِيرَةٍ وَلَا  
 كَبِيرَةٍ وَلَا يَقْطَعُونَ رَأْدًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا  
 يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٤)

[النوبة]

كانت تلك هي الحيشات التي ترغَّب الناس في الجهاد ترغيباً يحررهم  
 عما ألفوا من العيش في أوطانهم وبين أهلهم وأموالهم ، لأن الثمن الذي  
 يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية .

وحسبما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تبسة لآيات الجهاد ،  
 وما دام الله قد رَغَّب في الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا ،  
 بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ،  
 فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تحبوا على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول  
 الله ﷺ يستقبل وحى الله .

واستقبال وحى الله يقتضى وجود سامعين ليلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة فى الجهاد ، فيُنْزِلَ الإسلام مُنْزَلًا من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه فى الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحي بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحي بماله ، حيث لا يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التى يبذل فى سبيلها العالى والرخيص

لكن يبقى أمر آخر ، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام ، فإذا كان الماضون المضحون بالنفس ، والمنفقون المضحون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعنى الاستعناء عن هؤلاء الدين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحى به الله .

إذن فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولاً ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً ؛ ليسيحوا به فى البلاد ، مباحة لإسلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله ﷺ هى استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فمادام يعلمون ؟

إذن . فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين . أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام<sup>(١)</sup> بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد فى سبيل الله فقد حققتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ تستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهلون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ﷺ ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَلْزَمُوا كَافَّةً ﴾

(١) لأن جهاد من سبيل الله خلافة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حلق الدعوة ، أما الجهاد الإعلامى فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول مادام هناك باطل يناهض حقاً

وساعة تسمع «كان» متفية ما علم أنها جمود بهذه المسألة ، أى ما كان يصح أن ينصر المسلمون كافة ، أى : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد .

﴿كَافَّةٌ﴾ مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول : «أريد أن أكفّف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكفّفها حتى لا تنفكث نسيج الثوب ، إذن : فمعنى كلمة ﴿كَافَّةٌ﴾ : جميعاً .

ولما أن نتساءل : لماذا لا ينصر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله ؟

نقول . نعم هو إعلام وسياسة بمنهج الله في الأرض ، ولكن الذي يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتي في زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ .

إذن . فلا بد من أناس يسمعون وحى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض<sup>(١)</sup> جميعاً ، ولما انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَهْرُؤُوا كَافَّةً﴾ وفي هذا نرى أمر فيه انقضاء أى . لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنعيد ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم .

وبحق نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ في أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوى يسمر ، وكان في هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

(١) إن الإعلام الدينى هو جهاد له صنف الاستمرارية ، لأن وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتعليم فرضي الأرض ، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتصادى في الباطل لطمس معالم الحق . ﴿بَلْ نَدْفَعُ الْبَاطِلَ بِمُسَدِّهِ إِذَا هُوَ رَاقٍ﴾ (٥٥) ﴿الأنبياء﴾

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ،  
ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾ (٦٦) [يس]

أي أنه ﷺ كان يستطيع أن يتعوق في ذلك ، لكن الحق سبحانه لم  
يُعلِّمه اشعر ، لأنه لا ينبغي له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن  
أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم  
الناس أن محمداً ﷺ مُرتاض " على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد  
ذلك يُفاجيء الديب بالبيان الأعلى في القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان  
ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً ، فكل  
ما جاء به ملاحاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد

وقوله الحق: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي لا يصح أن يكون هذا الأمر، رغم  
استعداد محمد ﷺ لذلك، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون  
القول؛ ولذلك حينما قال أناس إن القرآن من عند محمد، جاء القول  
الحق مُبلغاً محمداً:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَتَلَا تَعْقِلُونَ..﴾ (١٦) [يس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً وبم يقل قصيدة أو مقالة .  
ومن الذي يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد  
بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أي في العقد الثاني من العمر،  
ولا أحد يؤخر ظهور عبقرية .

(١) برناردس أي معتمد على من الشعر ، قد ذلت له العزالي والبحور والآراء الرائعة ينظم ، شاء ،  
بعداً لا ينبغي لرسول الله ﷺ ، ولا كان موضع طعن في القرآن

إذن : فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترعيب في الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين ؛ فجاء قوله الحق :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْهَرُوا كَافَّةً قُلُوبًا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٩٧)

[التوبة]

وفي هذا القول الكريم محافظة على أمرين ؛ أمر استقبال وحي الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتوسع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تُعلم وترسل ؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً ، فكيف يصل الوحي من الرسول ﷺ إلى المؤمنين ؟ ولرأنهم جلسوا جميعاً في المدينة فمن الذي يسبح في الأرض معلماً الناس ؟ أما إذا بقي الرسول ﷺ والمؤمنون معه ، في فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف ؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط .

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه ؛ لأن الرسول القادر على استعمال الوحي من الله موجود معهم ، وكذلك للإعلام بالرسالة موجود

إذن : فالمشكلة كانت في حالة هدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد ، فإذ ما خرج لقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله ﷺ في المدينة ، وعليهم أن ينقسموا قسمين : قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال .

حين كان لرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوه ، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ ، وأرسل جماعة للقتال سُميت العمية بـ «السرية»<sup>(١)</sup> .

(١) كان عدد الغزوات التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غزواتاً سبعاً وعشرين ، وقد قاتل بنفسه في تسع منها ، هي : بدر ، وأحد ، ولرسيس ، والحندي ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطف . ولعل عدد بعثته أو سراياه سبعاً وأربعين ؛ وقيل : بل نحواً من مئتين .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُميت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة<sup>(١)</sup> .

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتى تحدث فى الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل و مستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمى تلك المعركة بـ «السرية» بل هى غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً .

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت عدم الانطباق على مؤنة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فى المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان فى القتال فيلبه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه<sup>(٢)</sup> ، أى : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ

وهى الحملة القتالية الوحيدة التى خرجت بهذه التعليمات، من بين مشيقاتها من الحملات المحددة التى لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مقدماً بـ سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال .

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ فى المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال : أخذ الراية فلان<sup>(٣)</sup> هى غزوة مؤنة ، ومؤنة هى ديرة من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٦١) عن عبد الله بن عمر قال : «أمر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤنة ريد ابن حارثة فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد جعفر ، وإن قتل جعفر فزيد بن دواحة . قال عبد الله : كنت معهم فى تلك الغزوة ، قالتمنا جعفر بن أبى طالب ، فوجدناه فى القطن ، ووجدنا ما فى جسده بضعاً وسبعين من طعنة ورمية .

فَقُتِلَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا بَعْدَهُ فَلَانَ فَقُتِلَ ثُمَّ قَالَ : وَأَخَذَهَا بَعْدَهُ فَلَانَ ، وَكَانَ ﷺ يَقُصُّ الْمَعْرَكَةَ <sup>(١)</sup> وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ فَقَالُوا : لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ شَهِدَ .

وَحِينَمَا عَادَ الْمُقَاتِلُونَ عَرَفَ الصَّحَابَةُ مِنْهُمْ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ دَارَ كَمَا رَوَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَدِينَةِ ، وَفَدَّ حَدَثَ مُطَابِقاً غَايَةَ التَّطَابُقِ ، فَقَالُوا : شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ؛ وَمَا دَامَ قَدْ شَهِدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهِيَ عَزْوَةٌ .

وَنَعُودُ إِلَى الْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الْحَقُّ :

﴿قُلُوا لَا تَقْرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَذَكَّرُوا فِي الدِّينِ ...﴾ (١٢٧) [التوبة]

وَسَاعَةَ تَسْمَعُ كَلِمَةَ «لَوْلَا» فَلَنْ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ فِي الْكَلِمَةِ الْفَاعِلَ قَرِيبَةً مِنْ بَعْضِهَا ، فَ«لَوْ» وَ«لَوْلَا» وَ«لَوْ» وَ«لَوْ» ، هِيَ - إِذَنْ - الْفَاعِلُ وَارِدَةٌ فِي الْلُغَةِ ، وَإِذَا سَمِعْتَ كَلِمَةَ «لَوْ» فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ حِكْماً بِامْتِنَاعِ شَيْئَيْنِ . شَيْءٌ امْتِنَعَ لَا مَتْنَاعَ شَيْءٍ ، مِثْلُ قَوْلِكَ : «لَوْ كَانَ عَبْدُكَ رِيدَ لِحَنَّتِكَ» وَهَذَا يَمْتِنَعُ مَجِيئُكَ لَا مَتْنَاعَ مَجِيئِ زَيْدٍ ، فَكَلِمَةُ «لَوْ» حُرُوفُ امْتِنَاعٍ لَا مَتْنَاعَ ، وَتَقُولُ : لَوْ جِئْتَنِي فِي بَيْتِي لَا كَرَمَتِكَ . إِذَنْ : فَأَنَا بِمِ الْأَكْرَمِ لَأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ .

وَتَقُولُ : «لَوْلَا رِيدَ عَبْدُكَ لِحَنَّتِكَ» أَيْ : أَنَّهُ قَدْ امْتِنَعَ مَجِيئِي لَكَ لَوْ جُودَ رِيدَ . إِذَنْ : فَ«لَوْلَا» حُرُوفُ امْتِنَاعٍ لَوْ جُودَ . وَنَلْزِمُ أَنَّ «لَوْلَا» هُنَا جَاءَ بَعْدَهَا اسْمٌ هُوَ «زَيْدٌ» ، فَمَاذَا إِنْ جَاءَ بَعْدَهَا فِعْلٌ ، مِثْلُ قَوْلِكَ : «لَوْلَا فَعَلْتُ كَذَا» ؟ هُنَا يَكُونُ فِي الْقَوْلِ حُضْرٌ عَلَى الْفِعْلِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ الْحَقُّ .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ (١٢٨) [التوبة]

(١) مِنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَالٍ : عَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأَصَابَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرُ ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رُوَاحَةَ فَأَصَابَ وَإِنْ عَيْثُهُ لِنَذْرَقَانَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَالِدٌ مِنْ خَيْرِ أُمَرَاءِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَسْرِي أَنَّهُمْ عِنْدَنَا أَوْ قَالَ : مَا يَسْرِيهِمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١٢٦٢) وَاحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١١٤/٣)

ومثل قوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا غِيَةً بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ (١٣) [التوبة]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَرَأَى مَا فَاتِيَا بِالْمَلَانِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧) [الحجر]

وأيضاً قولك: «هلاً»، فهي أيضاً تحضيض مثل قولنا «هلاً ذاكرت دروسك؟» وأنت بذلك تستفهم بـ (هل)، وجئت بالمد لتصبح (هلاً)؛ لتحت على المذاكرة. أو قولك: «هلاً أكرمت فلاناً؟» وهي هذا حت على أن تكرم فلاناً<sup>(١)</sup>.

والأسلوب هنا في الآية التي نحن بصدد حواطرنها عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَلْفَةٍ﴾ ثم يأتي الحث على أن يتقسموا إلى قسمين في قوله: ﴿فَقُولُوا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثاني يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل مهج السماء.

وقوله الحق: ﴿فَقُولُوا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة «نَفَرْنَا» وهي من النفور لكنها استعملت دائماً في مسألة الخروج للحرب، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْقَلْتُمْ<sup>(٢)</sup> إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) [التوبة]

ولماذا يحىء الحق بالنفرة في الجهاد؟ نقول: لأن الذي يعوق الإنسان عن

(١) الأدوات الثلاثة (لولا - لوما، هلاً) لا يليها إلا المصدر طاهراً أو مقبلاً. فإذ دخلت على ماضٍ خلصت ومنه مستقبل، بشرط أن تفيد التحضيض ومنها الآية التي مع، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْاٰخِرَةُ اِلٰى اٰجُلٍ قَرِيْبٍ...﴾ (٥٥) [المنافقون] وانظر: الجواليقي لعيان حس.

(٢) أنقلتم - نقلتم وأخذتم إلى الأرض، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم انظر: لسان العرب.



الجهاد حبه لدَعَتِه<sup>(١)</sup> ، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، وإذا ما خرج للقتال شق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ (٢٤٠) [البقرة]

وفى ذكر أمر الكُرْهُ بنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحصِر الجزء عليه فهو يحتقر ما يبركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك ينهر المؤمن الحق من الذى يملكه ، وينهب لثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحليل فى أنهم سموا الجهاد نفرة ، فعين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يسكه عن الجهاد لتساو : ما الذى يجعلنى أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿فلولا نفر﴾ فهموا أن هذه الآية من تنمة الكلام عن الجهاد ، ولتقى طائفة من المؤمنين ؛ لتسمع من رسول الله الوحي ، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين﴾ ، هل يقول اسلم نفسه . وهل تنفر الطائفة التى تنفقه فى الدين ، إنها الفرقة لبقية والمستقرة مع رسول الله فى المدينة ؟

وحبيب : إن قوله الحق . ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ نجد فيه كلمة «فرقة» وهى الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف . مثلما نسمى فى الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة» ، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى : «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التدمير» و«الشئون المعنوية» ، ونجد كلمة «طائفة» وهى تعنى «بعض الكثرة»<sup>(٢)</sup> .

(١) الدعة . نرف العيش والراحا .

(٢) الطائفة الرجل الواحد الى الألف . والبليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجمع قبله تعالى : ﴿ولله طائفتان من المؤمنين المصلحون المصلحون بينهما﴾ (٢٦) ثم قال ﴿إنما المصلحون شرة لأصلحوا بين أخويكم﴾ (٢٧) [المحجرات] .

وما دام الحق قد قال . ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين ، إحداهما تنفر ، والأخرى تبقى لتتبعه في الدين . إذن . فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائى كل ينفر لمهمته .

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿ لِيَشْهَدُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه ، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه ، وحين يرجع المقاتلون يبلّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحى ، ويتناوب المسلمون للجلوس مع الرسول في المدينة ، والقتال ، وكل طائفة تؤدى مهمتها .

ومناك من السماء من رأى رأياً آخر ، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها ، وقال . إن من بقى مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة ، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علماً حديداً ، يتبادل مع المقاتلين في ساحة القتال بعد أن يعودوا ، فالمقاتلون في ساحة اجهاد يعودون بما يؤكد بصره الله للقة على الكثرة ، وإسداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة ، وتهدم العدو ، والمعجزات التى رأوها من رسول الله ﷺ كسوع الداء من بين أصابعه فى حال قلة المياه عند العطش .

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الخالسين ثلثى العلم أخبار الوحي والمقه ، وهكذا يتكافأ المؤمنون فى المهام ، وكأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد ، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد ؟ نقول : إن الجهاد إعلام تنهج الله فى الأرض ،

(١) ميل لجابر بن عبد الله . كم كم يوم الساعة ؟ هل كالألأ رحمسمائة ، وذكر عطناً أصابعهم ، قال . أتى رسول الله ﷺ بماء فى نور ، فوضع يده فيه . فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال . مشربنا ووسمنا وكمنا ، قال قلت كم كنتم ؟ قال . لو كنا مائة ألف كدنا . كما ألعأ ورحسمائة . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/١١٥)

والإعلام بمنهج الله في الأرض يقتضي المنهج المعلوم من السماء الذي يوضح مصير المجاهدين ، ومصير المتخلفين وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما يجاهد من أجله .

﴿فَلَوْلَا نَصْرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي : يذهب بعض المسلمين إلى ليلاد التي حول المدينة ؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأنصأ أن يأتي آخرون من البلاد الأخرى ليعلموا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم ويكون قول الحق - ﴿فَلَوْلَا نَصْرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ؛ ليحلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا ، ويتفقهوا في الدين ؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان .

إد . فالآية إما أن تكون من تسعة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد عنهم المكان عن منبع المهج ، وهو رسول الله ﷺ ، وهو يعلم من يأتون إليه من أي مجتمع ؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويلقوهم مطلوبات المهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال .

يدن تكون النمرة للنفقة في الدين على أي معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التي تنفقه ؛ لتعلم الطائفة التي تجاهد ، أو الطائفة التي تجاهد تنفقه بالمعجزات و بالأحداث التي حدثت أثناء قتالهم وتعلمها بالطائفة التي لم تخرج للقتال .

أو أن المعنى هو الأمر الثاني الذي لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ ، وقد سماها الحق «نفرة» ؛ لأنها جهاد في البحث في المهج وتعلمه ، وهي نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيشات الدفاع عن هذا المهج امرئ من الله .

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُ مَنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علما منه أن الفرقة هي الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ، لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام حصر من شاهدين اثنين بأن النبي قال كذا وأبلغ كذا ، وكذلك قد يصحح أن يكون المبلغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين ؟

وقد جاءت الآية صريحة في أنه ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُ مَنْ كُلِّ فِرْقَةٍ طَائِفَةٌ ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليعقدهم في الدين ، ويؤدي البلاغ عن رسول الله ﷺ .

وتحفظ البعض على ذلك بأن قالوا : إن الذي نفر ليس فرداً من الفرقة ، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد ، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة .

والنصرة لها علة محددة يذكرها الحق : ﴿ لِيَتَمَيَّزُوا فِي الدِّينِ ﴾ فالنصرة إذن هو سبب البصرة ، مثلما سعت بعثة في أي بلد متهمم ؛ لتأخذ بعلم الحاضرة ، فإن نخرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب ، ويلهو ، فهو لم يحقق النصرة لا بد إذن من أن يسترهب كل واحد في البعثة أنه قد جاء للتفقه <sup>(١)</sup> .

والنصرة في اللغة : هو التمسك ، ويقال عن أي أمر تفهمه - ففقه الأمر

(١) طلب العلم وفهمه آداب ، منها أن يكون لوجه الله ، لا طلب مجده أو غيره ، نحن كتب في مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليحاري به العلماء ، أو ليحاري به السفهاء - ويعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٤) ، وأحكام في المسدود (٨٦/١) شاهداً ، وابن أبي الدنيا في المصنف (حديث ١٢١) والعقبي في « النعمان الكبير » (١٠٤/١) فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه

الفلانى فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى لعلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ؛ فالفقيه فى الدين هو من يبين للناس حدود المذهب به «افعل» و«لا تفعل»

إذن . الفقه مطلقاً هو لفهم ، لكنه أصبح مصطلحاً يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد لصواب والخطأ ولا يقال : «الفقيه» ، لا لم فقه . وهناك فرق بين فقه وفقه . فقه فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة . الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاوله أى عمن ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه . وهكذا نعرف أن معنى فقه : «فهم شيئاً» . أما فقه فمعناها : صار الفقه عنده ملكة

وقوله الحق . ﴿لَتَتَفَقَّهُوا﴾ أى : ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم : من بعد ذلك ملكة عندهم .

ولكن ماذا إن نفروا لشيء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته : إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون : نذهب إلى رسول الله لسمع منه ، فيذهب معهم لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقه العلم ، على الرغم من أن علة نفوره مع غيره هى التفقه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لا يطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المذهب الحق ، ولينذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحذَرُونَ﴾ أى : يتجنبون ما يضرهم .

وحين ندقق فى هذا الأمر نجد عدة مراحل ﴿لَوْلَا نَعَرَ مِنْ كُلِّ لُفَّةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لَتَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة وهى ﴿ وَلْيَسُدُّوا قُلُوبَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ ليسدوا إليه باسنان مثلاً ؛ تقول له . أنت من الذين قال الله فيهم .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٦) الَّذِينَ ضَلُّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ مَثَلًا ﴿ (١٧) [الكهف]

إذن . فالسفه يكون للدعوة بشيراً وإداراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اقْنِطُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٣)

يقول الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى . ولما أن نسأل لماذا - إذن - جاء الحديث عن المعرة والفقه كحاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب - شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلم الفقه ، ولتعلم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله .

وقد قسم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تسمى مع رسول الله ﷺ . وهذا المستوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تتعلم وتعلم ، وتبادل الفرقان الخبرة الإيمانية والقتالية ، نصبح

(١) السار الأصابع مفرد ما يبله ومنه قوة تعانى ﴿ يلى قادس على أن تسوى بانه ﴾ [الغمامة]

قال الفارسي أى علمها كحب البحر فلا يتبع بها فى صاعه - بعله ابن منظور فى اللسان

(٢) فمنه التعلم والنعم من ما يمر به حديثاً بالتوجيه المعنوي ، والتوجيه المعنوي أسس الانطلاق

الإيماني نحو ما يريه الله سبحانه لدعوته

اسلكت الإيمانية متسائلة غير منعقدة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ وهذا يعني أن هاك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهاك قوم أبعد منهم ، والحق قد قال ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...﴾ (٣٦) [التوبة]

إذن ، فهاك أولوييت في القتال ، وقال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن ينطلب دواخل ولا مؤونه بلسر البعيد ، كما أن العدو الصرب منك أنت أعظم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم موطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيانتهم فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمحاربة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تراجع العدو اسعد ؛ فتتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك «كماشة» بلعة الحرب ، فلا بد أن نحمل طهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب.

إذن ، فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب ، ولا تعارض بين قوله الحق : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ؛ لأن معنى ﴿كافّة﴾ أي : جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية . فعدو القريب منك ؛ لتصمه إليك ، ومتى ضمنت إليث بقصت أرضاً من عدوك ، وأصبح رائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دحمت المعركة ماوفعت سيفه من يده ، فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيقه معه

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى لنكفار اعتبروا أبها الكفار ، فأسم لا يرون لأرض كل يوم وهي نقص من تحت أقدامكم<sup>(١)</sup> ، وما يقص من

(١) ما عر رحل : يوم يروا أن تأتي لأرض نقصت من أطرعها (٢) [الزمر] قال ابن عباس في تفسيره ، أسم يروا أنا نضع للمحمد ﷺ الأرض بعد لأرض وهو الأولى في غير هذه الآية ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٥٢٠)

أرض الكفار يزيد في أرض الإيمان وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجراءة تُجرى على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد في مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسن منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا يزع من قلبه الأمل في الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغِلْظَةُ صفة ، ويقال غِلْظَةً ، وَغُلْظَةً ، وَغُلْظَةً<sup>(١)</sup> ، والمعروف أنها الشدة ، محين تضرب عدوك بضربة بقوة ، وبجراءة ، وبشجاعة .

وحين يحاول عدوك أن يصريك استقبل الضربة تحملاً ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة في حالتين اثنتين ؛ في حالة الإرسال منك ، وفي حالة الاستقبال منه ، فلا يكفي أن تضرب عدوك بضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحمّل على عدوك ، وغلظة تتحمّل من عدوك

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق :

﴿اصْبِرُوا...﴾ (٣) [آل عمران]

ولكن هَبْ أن عدوك يصبر أيضاً ، غيأتي الأمر من الحق .

﴿وَاصْبِرُوا...﴾ (٢٠٠) [آل عمران]

أى : حاول أن تغلبه في الصبر . وحلّل الحق من إلقاء السلاح بعد انتهاء

(١) قال الفراء : ساء أهل الحجاز ويصرون أسد غلظة يكسر الغين . وبخه من تميم « غِلْظَةً » بضم الغين . وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات غِلْظَةً ، وَغُلْظَةً ، وَغُلْظَةً . انظر : لسان العرب مادة ( غ ل ظ )



المعركة ، لأن العدو قد يستنم<sup>(١)</sup> المؤمنين ؛ لذلك جاء الأمر من الحق :

[آل عمران]

﴿ وَرَابِطُوا ... ﴾ (٢٠٠)

أى : استقر أيها المؤمن في الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تستظره إن حاول الكرة من جديد أو حدثته نفسه بالقتال مرة أخرى إذن : فالعلقة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمل ، والتحمل يقتضى صبراً ، والتحمل يقتضى شجاعة ، فإذا ما كان في حصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصبره أى : تصبر أكثر منه ، وهى مأخوذة فى الأصل من «نافس فلان فلانا» أى سابقه وحاول أن يسبقه ، و«نافسة من الناس» والحق يقول :

[المطففين]

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢١)

أى : تنافسوا فى الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شيء مرة أو مرتين فى اليوم ، وتحتاج إلى شيء آخر خمس أو ست مرات فى اليوم . وتحتاج إلى شيء ثالث دائماً . فأنت فى الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفى الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان .

وقلنا قديماً : إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعام إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التى فى جسمه ؛ لذلك لم يملك الحق سبحانه الماء مثلاً مَلَكِ

(١) يستنم المؤمن ، أى يتنهم منه يومه أو غده من سلاحه . ويقوم مرد رجل : «طوء الدين كفروا لو تفلون» من ألعنكم وأتبعنكم ليعيدون عليكم مرة واحدة . ﴿ النساء ﴾ فالغلبة عن السلاح والتنازع أثناء القتال من حرم للكافرين يتحيدون به أى فرصة لحضوتها يميلوا على المؤمنين مرة واحدة ، فياحبوبهم مرة واحدة

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يمتك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمومين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمي استنشاق الهواء ورفرفه بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفس وهي مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نفس الهواء الذي يضمن استمرار النفس في الحياة .

وقد ما نامت العدو فأنت تصطاد الشيء النفس ، وهو إعلاء منهج الله . ونحن نصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة "لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهذا يقول سبحانه : ﴿وَتَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمل من العدو ، وأد تصبر ، وتصابر ، وتربط .

وكيف يطلب الله منا أن نكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَصَوْا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .. (١٥٩) ﴿[أد عمرا] فهد بنفى الغلظة ، وأقول لنفرف بين أمرين ، أمر الغلظة هي أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التي يتطلبها القتال ، أما المعاشة والمأكل والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورقة .

وقوله الحق ﴿وَتَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ بعد أن الغلظة ليست صفة دائمة ، بل تعنى أنك إن تطلب الأمر فيجب أن تتوافر فيه ، وكذلك قلنا . إن الله

(١) أصل الرباط من روابط الخيل التي تربط بها في مواجهه الأعداء في الثغور والحدود مع العدو ، فيه معنى التريص به والحذر من عدوه . وما ورد في فضل الرياء في سبيل الله " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الحية خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو العسوة خير من الدنيا وما عليها " أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد في مسنده (٣٣٩ / ٥) والترمذي في سننه (١٦٦٤) ص سهل بن سعد الساعدي ويستعمل الربط في المعاني كقوله تعالى ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ (١) [أنكف] أى لبنا قلوبهم وعزائمهم على الإيمان وهم فنية أهل الكهف

لم يطع المؤمن على الغلبة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على  
لعة ، بل قال .

﴿ أَضْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ ... ﴾ (٢٦)

[فتح]

وقال :

﴿ أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَافٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ... ﴾ (٥٤)

[أدلة]

ونهى الحق الآية

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من  
الكفار بعددك وعدتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ، لتدخل  
المعركة ، وعدتك شيء من الاطمئنان ومثل هذا من يسلك مفاور<sup>(١)</sup>  
أو صحارى مقفرة<sup>(٢)</sup> أو طريقاً موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قطعاً طريق ،  
بحده يستعد بحمل سلاح ، فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا  
الحال مع العدد والعدة .

أما النصر فهو من المدد الرباني من الحق سبحانه وتعالى . وما دام الله مع  
المتقين ، والله معية مع المتقين فلا بد أن يعدهم عدده ، لذلك جاء الحق هنا  
بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ لنتبه إلى أن الداخ في الحق هو من يسلك  
مسلكاً غلبت مع الأعداء ، وقد يسلك بالعظيمة طمعاً في المعصم ، فيدخل  
على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلبه هذا الكافر مستعداً للإيمان ،  
فيقول أسلمت واستسلمت ، لكن من دخن عليه تعجبه عطية<sup>(٣)</sup> هذا  
الكافر ، ويعتريها معصماً .

(١) المفور - جمع مفاز ، ومن الصحراء المهنكة ، رسمت هكذا ، لأن من دخلها وخرج منها وقطعها  
قد حال من شمل المقرة التي لا ماء فيها

(٢) مقفرة - خالية من الكلا والناس

(٣) المعية - السير أو الناقة تتطلى ظهرها أي - تركب - وجمع عطية

لذلك يأتي التحذير في قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلم لك واستسلم ، فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مخم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل العناثم ، أو لتكسب مكانة في مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك باخلاق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحرب لتكون كلمة الله هى العليا "وها تكون معيه الله لك ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٣) .

إذن ، فالغلظة لا تعنى أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ، فلا بد أن يوجد فى طبيعتك الدين والمودة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة ، وفى السلم وداعة ، وخيركم من كان فى الجيش كميّاً وفى البيت صميّاً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ، لأن ذلك وضع لبطاقة فى غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٣)

[التوبة]

أى . كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

(١) عن أبي موسى الأشعرى أن رجلاً أعربياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل لسمع ، والرجل يقاتل ليدكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن هو سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله أعلی فهو فى سبيل الله . وفى رواية : هو العلي فهو فى سبيل الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤)

استعملها الله ، يتضمن أن تكون في معية الله<sup>(١)</sup>

ويقول سبحانه بعد ذلك :

وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢١﴾

قوله الحق : ﴿وإذا ما أنزلت﴾ يعنى : إذا نزلت ، ومعلم أن هناك «نزل» و«أنزل» و«نزل» ، «أنزل» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزله الحق مجزأ<sup>(٢)</sup> ، فالتنزيل معناه : مرحلة النزول لأبغاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على سيدنا محمد ﷺ .

وفد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزل جبريل عليه السلام بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ...﴾ (١٠٥)

وهي آية أخرى يقول سبحانه .

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٦٢)

[الشعراء]

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : «المرو عروان ، غامما من اتقى وجه الله ، وأحاط الإمام ، وأنفق الكريمة ، وبأسر الشريفة ، واجتنب الفساد ، فإن يومه وسببه أجبر كله ، وأما من عراه خرا وريه ، وممعة ، وخصى الإمام والفساد في الأرض ، فإنه لم يرجع بالكفاف» أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/٥) وأبو داود في مسنده (٢٥١٢) والنسائي في مسنده (١٩/٦)

(٢) على حسب الخواص

وهذا يقول الحق : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والسورة هي الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص : أوله مثلاً : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وآخره تأتي بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وماخوذة من السور الذي يحدده المكان<sup>(١)</sup> . وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن

وتتابع الآية : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ والمقصود بهذا المناقرون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وبه أسر وقاعلية شرقية في صدام النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له<sup>(٢)</sup> ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .

وهذا الأمر يسبب لاستعداد لتلقيه ، لأن المسألة في كل لأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل - والله المثل الأعلى أنت تأتي بمطرقة مثلاً ، وتغرق قطعة حديد فتترك وتريد مساحتها ، أما إن صرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرف شيء وقابلية الطرف شيء آخر . وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، وللمطلوب من القابل للشيء أن يسبقه بغير خصومة له بابعة من قبله . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما في قلبه مما هو صد

(١) فالسورة في التفسير اصطلاحاً هي قرآن يشتمل على أي دوافع فاعلة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وكل سورة معجزة وآية من آيات الله تعالى ، ومنها سر طوالت وجهد نصار ، ومع هذا قصورة مثل سورة الكوثر وهي ثلاث آيات لها نفس إعجاز سورة البقرة . انظر تفصيل هذا في البرهان في علوم القرآن لبركشي (١/ ٢٦٣ - ٢٦٥)

(٢) من هؤلاء الوليد بن المغيرة الذي حاول معه الكفار أن يصف القرآن بأنه كهانة أو تخليط مخنون ، أو أنه شعر . وأنه قول بلامر فقال والله إن لقوله علاوة ، وإن أصله لحق ، وإن فرجه جنة ، وما أنتم بغائبين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . سيرة النبي لابن هشام (١/ ٢٢٠)

القرآن ، ويضع القرآن وصدده خارج قلبه ولنسمع هذا وهذا وما ينعذ إلى قلبه بعد هذا فليصدق له لكن أن يستقبل لقرآن مما في قلبه من كراهية القرآن ؛ فمن يأتى به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا . لم تأثر به .

وسب هذا أن هناك ما يسمى بالحسر ، وعدم التداخل في الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشئ ويقرضه ، فلا تملا قلبك بمغصك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت لقرآن ولم يؤثر في . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، وجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر في الاثنين لترى ما الذى يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول . إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعنى أنك لم تنسبه إلى الفرق بين افعال والقابل ، ولم تنسبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالرجاجة ذات الفوهة لضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن صيق الفوهة لا يساعد الهواء لدى بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدحول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الرجاجة واسعة تسمح بحروج لهواء ودحول الماء ، وعند ذلك سنرى بمقاييس الهواء وهي تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك فى الحسيات ، فما بالك فى الأمور المعنوية وهي مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخرج ما يناقض الحق من ذلك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استقبل الاثنين . لا يمكن لك فى مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل " الحق " ويصف سبحانه المصيرين على الكفر :

﴿ وَطِيعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ... ﴾ (٩٧)

[التوبة]

(١) مصداقاً لقوله تعالى . ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفَرَأَى أُمُ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِهَا ﴾ [محمد] . قال قلبى معلى بحير الله ، ويعبر كلامه فلم يتذكروا

أى . أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليهم ، وما فى داخلها لا يخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد حتم على قلوبهم ، فلم تفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معانٍ وقيم<sup>(١)</sup> ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون تمسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما فى القرآن من جادة وسال يؤثر فيه وتطمش إليه نفسه

وبذلك حين قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم درأ لقرآن واستقر فى قلبه<sup>(٢)</sup> .

إذن : لا بد أن تخرج ما فى ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء<sup>(٣)</sup> . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم

(١) وما يرويه ابن إسحاق من هذا فى السيرة النبوية أن بعض كبار قريش خرجوا ليلة ليستمعوا خفية إلى القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلى فى بيته ، وبنوا يستمعون له ، وكل منهم لا يعلم بالآخرين ، حتى إذا طلع الصبح اضربوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا على عدم تكرار ذلك ، إلا أنهم عادوا للاستماع للقرآن هذه المرة - وسال أحدهم (الأخس من شريين) أبا سفيان أخيرمى يا أبا سفيان من رأيت فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف من غيرها ما لم يكن فى القرآن من قبله ، وما يرويه ابن إسحاق من هذا فى السيرة النبوية أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم درأ لقرآن واستقر فى قلبه<sup>(٢)</sup> .

(٢) قصة إسلام عمر بن الخطاب أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ ، ٣٤٦) نقلاً عن ابن إسحاق

(٣) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ أَحْسَنَ لِمَنْ يَشَاءُ وَلَمْ يُلْقِ جُلُودَهُمْ وَفُلُوحَهُمْ إِلَى دُنُورٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الزمر]



من يقول . ﴿يُكْمُ رَادَّةٌ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ وتعطيت الآية معنى أسوأ أمام فريقين :  
واحد يقرأ ، والثاني يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذي يتساءل مثل  
هذا السؤال إنما يوجهه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثي  
الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخرجوا انكهار أو بعصه من  
قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال  
فيهم الحق

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا حُرُّوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا  
الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنبَأًا ...﴾ (٦٦)

[محمد]

ويقول :

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آدَابِهِمْ وَقُرْآنُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى ...﴾ (٤٤) [انصت]

إذن الفاعل شيء ، والقابل شيء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن  
الحق يقول ﴿إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وسياق الآية يوحي لنا أن هناك همساً  
من بعضهم . ﴿يُكْمُ رَادَّةٌ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ وهذا الهمس يأتي بلهجة  
المتهمي ، وقيل الهمس يعنى أن سمعوه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم  
ينقص ، وهو يهمس لما في مثله ، أو بضعيف الإيمان ﴿أَيُّكُمْ رَادَّةٌ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾  
فيرد الله على القضية انصبية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين  
قسم كافر أو منافق ، وهذا لقسم يزيده القرآن كُفراً<sup>(١)</sup> ، أما القسم المؤمن  
فاستقباله للقرآن يزيده من إيمانه<sup>(٢)</sup> .

(١) وقر . نقل في السمع ، وثقل . هو الصمم  
(٢) ودلت في قوله تعالى الآية بعد ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ لِي قُلُوبُهُمْ مُّزَّجَتْ قُرْآنَهُمْ رَجَسًا إِلَىٰ رَجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ  
كَافِرُونَ﴾ (٥٥) [النوبة] .  
(٣) مصداقاً لقوله تعالى . ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّا لَنُوتُ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ رَادَّتْهُمْ إِيْمَانًا وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ  
يُوحَىٰ﴾ [الأنعام] .

إذن : الماعص شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فممنهم من يقول أئكم زائدة هذه إيماناً ﴾ فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص ويزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تسرب معركة بين عقلاء لا إذا كانت جهة المصم في الأمر الذي يختلفون فيه منفكة ، فممنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، وممنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى .

فالتدس قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ملحظة أن يتألق الإيمان في القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله ، أن لا إله إلا الله ولا معبود سواء ، وأن محمداً رسول الله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يريد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام على كرم الله وجهه . لو انكشف على الحجاب ما ارددت يقيناً

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد أو ينقص ، فقد فصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج من صدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن في جزئيات التطبيق نجد من يعطي عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذي استقل به الإنسان الكليف وهو التوحيد ، فلا يريد أو ينقص . وهؤلاء المتأفقون عندما قالوا ﴿ أئكم زائدة هذه إيماناً ﴾ هل تداولوا ذلك سرّاً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سرّاً وفصحهم الحق سبحانه ، وكان يكفي أن يعلموا أن الله

(١) الذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نظروا إلى معنى الإيمان المعنوي أي التصديق والإقرار ، وهذا لا يحتل نقصاناً أما الآخرون فقد نظروا إلى أن الإيمان تصديق بالقلب وقبول باللسان ، ومن بالجوارح فالممن بالجوارح يريد ويمن معنى الإيمان في قلب العبد إن كانت في طاعة ، أما إن كانت في معصية فهي ناقصة بمعنى أنها تجرد من ثباته في القلب ، انظر في تفصيل هذا كتب علم الكلام والمقائد

يخبر رسوله ﷺ بكل ما يكتُمونه ، ولكنهم احترموا الحاجة <sup>(١)</sup> ؛ لذلك قالوا : ﴿يَكُمُ زَادَتْهُ هِيَ إِيمَانًا﴾

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و ' يستبشرون ' أى يبلا السرور بشربه ، فترى الريق ، والفرحة ، والاسباط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذى يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لرسول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويرداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذى يكره أن يتزل حكم جديد من الله .

هذا هو معنى ' يتشر ' .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

والرجس <sup>(٢)</sup> : هو الشيء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية فالهيئة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم - كما نعلم - له مجريان ؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتشفيه الرئة والكلى من

(١) الحاجة : جدال الرأى بعير حق لسان العرب مادة (ل ج ح)

(٢) الرجس : العذر والنقص حسياً ومعنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع ، والرجس والرجس مناعهما واحد ، ويطلق الرجس والرجس على العذاب قال تعالى ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رِجْسِكُمْ إِحْسٌ وَغَشِبَ (٧٥) ﴾ [الأعراف] وقوله ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ (٧٦) [التوبة] يعنى ' قلادة مسوية ومسية وقوله ﴿ وَنَادَوْا فَعَلَيْهِمُ الرِّجْزُ (٧٧) ﴾ [الأعراف] أى : العذاب .

الأشياء الضارة التي تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقيته عن طريق المرتين والكلية يصير دماً صالحاً .

وقد مات الحيوان متى فيه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الخيوان قبل أن نأكله . وبصحي بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والحمير أيضاً نجاسة حية ورجس . وهناك رجس معنوي ، ولذلك قال الحق .

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ "رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ" .. (٩١) ﴾ [التوبة]

إذ : فهناك رجس حسي ، ورجس معنوي ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق لرجس على همسات الشيطان ووسوسته وفي ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ يَعْشِكُمُ النَّعَاسُ آتَاةٌ مِنْهُ وَيُبْرِئُ عَنْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ .. (٩١) ﴾ [الأنعام]

وهنا يقول الحق . ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركباً ، وهكذا نجد الشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويوتون على ذلك الكفر .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

(١) الأنصاب : كل ما عيذ من دون الله من الأصنام والأوثان التي كان الكفار يصيرون حول الكعبة لعبادتها والذبح عندها . أما الأزلام فهي سهام لا ريش لها ، مكتوب عليها بعضها "اعمل" والبعض الآخر "لا تفعل" فإذا أراد رجل السفر أو الكناح أتى بدين الكعبة حاله . أخرجه لي رنأ ، فإن خرج به "اعمل" فعل ، وإن كانت "لا تفعل" لم يفعل . انظر : لسان العرب مادة (ن قس ب)

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً  
أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾



وقوله الحق : ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ﴾ أى : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون فى كل عام مرة بالمصائب ومرة بالمضيحة ، فنجد رسول الله حين يراهم يحرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اصرح يا فلان فلانك منافق »<sup>(١)</sup> . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهما يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله ﷺ يصفىهم كل عام مرة أو مرتين

الأصل فى العنة أنها امتحان واختبار ، وهى ليست مذمومة فى ذاتها ، لكنها تدم بالنتيجة التى تأتى منها ، فالامتحان - أى امتحان - غير مذموم ، نكن المذموم هو أن يرمي الإنسان فى الامتحان ، إذن الابتلاء أو العنة<sup>(٢)</sup> فى ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتى النتيجة على غير ما تشتهى ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم مصائبهم وكيدهم للمسلمين ، وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ، لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لئلا يخالوا خير الإسلام ،

(١) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن فىكم منافقين ، فمن مصيب فيقيم ثم قال : ثم يا فلان ، ثم يا فلان ، ثم يا فلان حتى سقى ستة وثلاثين رجلاً " أخرجه أحمد فى مسنده (٤٧٣/٥) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢٨٦/١) قال الهيثمى فى المجمع (١١١/١) " فيه عياض من عياض عن أبيه ولم أر من مرجعها "

(٢) لكلمة العنة معان كثيرة ، فى اللغة ، تدور كلها حول الاحتيار والإيقاع فى امتحان بعد امتحان ليسير الطيب من الخبيث ، وأصلها مأجود من فئة الفضة والذهب أى [إذا أذنتهما بالنار لتعرب الردى] من الحديد ، منهذا قالقرله تعالى ﴿وَيُلَوِّغُهُمُ فِي النَّارِ وَالْخَيْرُ خَيْرٌ مِنَ الْفِئَةِ (٢٤)﴾ [الأنبياء] .

فحبيره محدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن تعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله في الكون ، من إتانا محمد أن النبي ﷺ في بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبي ﷺ أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق لأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوته سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ ۞ ﴾ (٦٨) [آل عمران]

فأول شاهد بالأكوهمية الحق هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن يؤمن بأنه سبحانه يزاوِل قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن" وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أي كائن أمراً تسخيراً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا ينهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا . ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ ۞ ﴾ شهادة الذات لذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لنهيب أن يلعبنا بالرسالة ، وبعد أن آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق .

﴿ وَأَنْذَرُ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ ۞ ﴾ (٦٩) [الشعراء]

وطل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

[التوبة]

﴿فَاتَّبَعُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ.. (١٢٢)﴾

إذن : في لبداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ لدعوة إلى قريش ومساكن الجزيرة ، وتعتبر دعونه بعد ذلك من الحرية إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإن لم تتعد بالفعل ؛ حتى يأتي أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام في كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية في إرسال الكتب . كتاب لفلان وكتاب لفلان وكتاب لفلان<sup>(١)</sup> ؛ ليفهم العالم أن دعوة النبي ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هي أمته<sup>(٢)</sup> .

أما محمد ﷺ فقد كانت لرسائله مراحل : أس بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك في العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مؤمنة على حمل الدعوة ونشرها في أي مكان ومعها حجتها وهي القرآن .

وشاء الله أن يختتم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذي يغلب الخصارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً<sup>(٣)</sup> ؛ حتى لا يقاب عن

(١) بعث رسول الله ﷺ كتاباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجه كلاً منهم إلى وجهة ، وقال لهم : " إن الله بعثني رحمة وكفاة ، فأدوا عني يرحمكم الله " أوردته ابن هشام في السيرة النبوية (١٠٧/٤) في ابن إسحاق .

(٢) وهذا ما خص به رسول الله ﷺ ، فمن جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ : " أعطيت حسناً لم يعط أحد قبلي " كان كل نبي يبعث إلى قومه خاص ، وبعث إلى كل أحمر وأمسرد وأحلت لي المناثم وسم محل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأياها رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، وتعبرت بالعرب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة<sup>(١)</sup> متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥) ومسلم (١٥٢١) .

(٣) قال رب المرة في هذا : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يفر عنكم آياته ويذكرهم ويبيّنهم الكتاب والحكمة وإن كنتم من قُلِّ لبي حلال مهيأ﴾ [البقرة]

الإسلام أنه مجرد وثنة حضارية ، وجاء لهم مبهج غلب احضارات المعاصرة له فارس والروم في وقت واحد .

إذن - فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون نمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية<sup>١</sup> لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جملة وحيثته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة في أي مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل لأغنام والأعنام العشب ، يتنقل العربي مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء : ليعرف مسار الشمس وأين ستعطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلر كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لنصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة في الأرض .

والآلة التي نحن بصددتها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ أي : كن لا بد أن يتوبوا أو يتعلموا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يعجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويصمغون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته في الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ بَيْنَ أَجْدٍ ثُمَّ أَصْرَفُوا صرفاً اللَّهُ قُلُوبُهُمْ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۖ ﴾

(١) تبكي الرجل ، أقدام يابانية ، وقيل للبادية بادية نظهورها وبرورها انظر : السان (ب د و)



ومن قبل جاء قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ  
إِيمَانًا... ﴾ (١٢٤)

أى : أن هؤلاء المنافعين يشعرون بالصيق والخصر ، ويحافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل بـ ﴿ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالكثايف ، أما هي الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها فليس فيها تكاليف جديدة

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكان النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ ، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ ومثلها مثل قولك : ما عتدى من مال ؟ أى أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال ، والقول الكريم أبغ بالقطع من أن تقول : هل يراكم أحد .

إن قوله الحق : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ دليل على أنهم فى خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطبقون لاستمرار فى الاستماع ؛ لأن منطلق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فيسحبون ، ويصرف كل واحد منهم ؛ لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (٢٦) [مصلح]

وقد قبلوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ،  
فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه  
يستمر الله عنها

وإذا ما أنت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ، هنأئيه  
هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول من معنا  
لا تسمعوا هذا القرآن لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، وإذا  
صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك  
قالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا  
من الاتباع أن يلغوا فيه ، أي : أن يشوشوا عليه :

﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) [مصلح]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا  
عند سماع القرآن ؛ حتى لا يندم القرآن إلى القلوب (١) .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ كانوا  
يقومون ذلك ؛ لأنهم كمسافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون  
أنهم متقدمون في تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء  
الصلاة في الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما

(١) الفراق فيه الخطأ فيه ، أي : تكلموا بصوت عال ، بكلام مبهم مختلط وجليل وضيق ، حتى لا يفهم  
منه أحد شيئاً ، وتلقى قلوب أتباعهم في غطاء عن قبول هدى الله

(٢) وقد كان هذا باب المشركين والكفار مع كل وحى يأتي من السماء ، مثل قوم نوح الذين قال عنهم  
﴿وَأَنَّى كُلُّنَا دَعَوْتُهُمْ لِنَقُولَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابَهُمُ لِي آذَانَهُمْ وَاسْتَعْصَفُوا لَهَا فُجُورَهُمْ وَانْصَرَفُوا﴾ (٢٧)

يقول المثل : يكاد المرء أن يقول خذوني وينظر بعضهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَأَى مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ لأنهم لا يطيقون الخلو من إلى الرسول ﷺ أو إلى المزمين . وينهى الحق الآية .

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسياً إلى التماق ؛ فيساعدتهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعيداً عنه ، فالحق لم يصرفهم إلا باختبارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما دبرهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم ﴿ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى . لا يفهمون<sup>(١)</sup> .

والفهم أول مرحلة من مراحل الفات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعلم . فالعلم يعنى أنك تلك القدرة على تفهم ذاتية الأشياء ملكة بيك ، لكن العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك . ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفهمون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذى لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلموا ، وأصرروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة .

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة]

(١) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا أَرْوَاحَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصافات] عن قوم مرسى

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بـ يبرر هذه المشقات المتقدمة ، بيِّن لنا . إياكم أن تنفضوا عن الرسول أو تعضيه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إليك مثلاً إن رأيت عدواً ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لترى عن ابنك خطراً إذن : فهناك فارق بين حرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً

إذن . لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذي أجرى المشاق عليك ، فإن كان بك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ  
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

وتلاحظ هنا أن الحق قد نسب المعنى هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤمله للرسالة<sup>(١)</sup> ، وبمجرد أن برز عليه الوحي امتلك «دفاعاً ذاتياً» لأداء الرسالة ، ولم يحتج من يدفعه لأداء الرسالة ، لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول ﷺ الحجىء ذاتياً ، ولكن هذا الحجىء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة " جاء " .

وكلمة ﴿رَسُولٌ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة " جاء " تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى أمور الشاقة لى تتبعكم ، ولكن انظروا بمن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل فى إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالى نعمه عليكم حتى وأنتم فى معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يتر عليك<sup>(٢)</sup> ، فلا تشكك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكالييف على أنها من حبيب فلا تقن : إنها مشقة . فأنت - والله - مثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه فى بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدى ابنك يعصيه الطيب حقنة من الدواء الذى جعده الله سبباً لشفاء .

(١) لأن فطرته هى الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش متفعلاً بالإيمان سمواً ، وبالمعنى تفكيراً فى الله ، وبالمعنى سكنة إليه وبإحسان حركته له ، وبالقرب نورانياً رسيماً . فكان الحجىء ذاتياً بحبه الله يقوى الحق . ﴿وَأَنَّكَ عَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم]

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلطه . ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته» . ومن مرجع عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) . ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن مجزوء من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقصت

إِذَنْ . فَلَا يَأْخُذُ بِأَحْوَالِ بَوَارِدَاتِهَا عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ خَلِّهَا بِبَوَارِدَاتِهَا مِنْ قُدْرَتِهَا وَقَضَائِهَا ، وَهُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وَهُنَا يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَي : أَنْ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْتِ بِإِنْسَانٍ غَرِيبٍ عَلَيْكُمْ ، بَلْ جَاءَ بِوَاحِدٍ مِنْكُمْ قَادِرٍ عَلَى التَّفَاهُمِ مَعَكُمْ . وَلَقَوْلُهُ الْحَقُّ : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ ، فَمَرَّةٌ يَكُونُ مَعْنَاهُ بِ" مِنْ جَنْسِكُمْ " ، مِثْلَمَا قَالَ الْحَقُّ عَنْ حَوَاءَ :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴾ (١)

[النساء]

أَي : خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ نَفْسِ جَنْسِ آدَمَ الشَّرِيِّ ، فَلَا يَقُولُنَّ أَحَدٌ كَيْفَ بَعَثَ اللَّهُ لَنَا بَشَرًا رَسُولًا ؟ لِأَنَّ الْحَقَّ أَرَادَ الرَّسُولَ مِنَ الْبَشَرِ رَحْمَةً بِالنَّاسِ ، وَلِلَّذَلِكَ يُؤَكِّدُ ﷺ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَفِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ <sup>(٢)</sup> . وَالْقُرْآنُ يَقُولُ :

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٦١)

[الإسراء]

إِذَنْ فَبَشَرِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تُوْخَذُ عَلَى اللَّهِ ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ لِلَّهِ ؛ لِأَنَّهُ أَرْسَلَ وَاحِدًا مِنْ بَنِي الْحِمْلِ ؛ لِيَكُونَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَفَاهَمَ مَعَ الْبَشَرِ ، وَتَكُونَ الْأَسْوَةُ بِهِ سَهْلَةً . وَلِلَّذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ :

(١) يَقُولُ عَمْرُو بْنُ جَعْلٍ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ . ﴾ [فصلت] وَقَدْ أَكَّدَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرًا جَدًّا ، مِنْهَا :

- لَعَنَ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَنَّهُ سَمِعَ حَصُومَةَ بَيَاتِ حَجْرَتِهِ ، مَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لِمَا أَلَّا بَشَرًا ، وَإِنَّهُ بِأَنْفُسِ الْخَصْمِ ، فَلَعَنَ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَحْسَبُ أَنَّهُ حَيْدَقُ خَائِضِي لَهُ بِذَلِكَ ، فَمِنْ قَضِيْبٍ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ نَطْعَةٌ مِنَ النَّارِ ، فَيَأْخُذُهَا أَوْ يَتْرَكُهَا ، أَخْرَجَهُ الْخَلْرِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٤٥٨) وَمُسْلِمٌ (١٧١٣)

وَمِنْ مَجَابِرٍ فِي عِيدِ اللَّهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنِّي اشْتَرَعْتُ مِنْ رَبِّي عِزًّا وَجِنًّا ، أَيَّ عَبْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ سَيِّئَةٍ أُرْشِدْتُهُ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةٌ وَأَجْرًا » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٦٠٢) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢ / ٣٩١ ، ٤٠٠)

﴿ قُرْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ لَمَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنرُنَّا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ  
مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

وقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : من جنس العرب ، ولم يأت به من  
الروم أو من فارس ، لكن احتار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى  
﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : من نفس القبيلة التى تتعمون إليها معشر قريش .

أو أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ تعنى : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل  
لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛  
ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض .  
ولقد سميت به الصادق الأمين ، والوفى ، وكلها مقدمات كانت توحى  
بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله ، وإن كانت سلسلة أعماله معكم  
تثير فخركم ، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذركم ، ويعلى من شأنكم .  
فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة فى البيت الحرام ، وقد جاء محمد  
ﷺ ، ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت ،  
فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٤١)

[الرحم]

فهو بين للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا  
برسالته وأن يزيدها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت  
السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها  
كل قبائل العرب من أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهبة هائلة ؛ لأن  
كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها فى

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض  
أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تصدر  
قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها

وكل هذه لمكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله  
الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أمة من هدم البيت لتظل السيادة  
لقريش ، فلو انهدم البيت احرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد  
أبرهة ، فمن أين تأتى اسيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ <sup>(١)</sup> ﴾ [العن]

وأتبعها بقوله :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ <sup>(٢)</sup> إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ <sup>(٣)</sup> ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فبأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَتَقَبَّلُوهُمْ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ <sup>(٤)</sup> الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ  
خَوْفٍ <sup>(٥)</sup> ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولا يدعو أولاً الصناديد ،  
والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة  
الحريرة الذين نهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف  
قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته من آذان  
الصناديد ، والسادة ، وسبقه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم  
جاءه الإذن بقتلهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به  
الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى معها النصرة .

(١) كعصف مأكول : له معنيان أحدهما أنه جعل أصحاب العيل كورق أخذ ما فيه من الحب وقطع هو  
لا سب فيه . والآخر أنه أراد أنه جعلهم كورق الثبات الذى أكلته البهائم ثم راثته وكلاهما فى بيان  
العرب ( مادة - ع ص ١٠ ) .



فلو أن النصره جاءت من السادة لمالوا . جاءت نصره الإسلام من قوم ألفوا الياذة ، ولما ظهر واحد مهم يقول : إني رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الخزيرة العرسه ، بل الدسا كلها ، فتكون العصية لمحمد هي التي حلفت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصره من الضعيف ؛ حتى يهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب في العصية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أى . مرسل من الله و﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو ملع عن الله ، فلم يأت بشيء من عنده ، بل كل البلاغ الذي جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذي خلق لكم ما استتفعون به من السموات والأرض وسبحانه يقول :

﴿ وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الرعرع]

ويقول

﴿ وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٩٥) ﴾ [لقباد]

إذن : فالمخلوق هو الخليقة الإنسان ، وما خلقه الله في الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقررون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذي جاء لكم من عنده بما يعدكم ، وقد استقبلتم غيره قبل أن يأتى لكم بالمكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذي أرسل رسوله بالمكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جسم الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم في الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول مكا ، فقال الحق :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَسِّحُونَ مِطْمَئِنِّي شَرَقْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴿[الإسراء]

أى . إن كنتم تريدون مَلَكًا ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن . فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦﴾ [التحرير]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَكٌ مصبر على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمة سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أو الروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول أذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن . فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فمستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لتردوا على أنفسكم : هو بشر وليس ملكاً . هو من العرب

وليس من العجم . هو من قبيلكم التى شأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فم كذب على لبشر فى حق البشر أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكي هذه الآية : ﴿ مَنْ أَمْسِكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالقياس البشرى هو من أفدركم وأحسنكم " وبذلك حينما جاء لوسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هن انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلا منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت فاضجة التكوير والمكر والعقل ، وعلمت بما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ، مع أن المؤلف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى حوته فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زوج لهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ورعاء أم تحتضنه وتربث عليه

قلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مشما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قراء العقلية ، لكن خديجة اعاقلة استعرضت القصة استعراضاً عقلياً بحناً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى ربي " من الجن . قالت

(١) لئلا انحصه الله بصفات حية ومعوية تحببه من أنفس خلق الله على الله ، يقول الحق ﷻ (٢) (١) إذا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (٢) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (٣) [الأحزاب] .

(٢) ربي من الجن . تابع هذا ألمه الإنسان من كسرة رؤيته له . وقد تكون من رأى أى أنه صاحب رايه وانظر الممان (مادة رأى)

له " إئتت لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . والله لا يخزيك الله أبداً " (١) .

ذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة م يدل على صدقه بعد البعثة

وكذلك أبو بكر رضي الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعى أنه رسول قال أمو قاتها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره (٢)

وبعد ذلك يقول الحق - ﴿ غَيْرُ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ وكلمة ﴿ عرير ﴾ أي لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العرير أي نادر الوجود . وقد تقول لإنسان " قد تكون وريراً " ، فصمت رجاء ، لكن إن قلت له " استصعب رئيس ودرء " فيقول هذه مسألة مستعصية وكيرة على بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتي لاستناع شيء إما لقدرته ، أو عرير بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعرير - هو الأمر الذي يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : " عر على أن أصل لي قمة الحل " ﴿ غَيْرُ عَلَيْهِ ﴾ أي شاق عليه أن يعتكم بحكم ، فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتي لكم بالأحكام

(١) ذلك ان رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل من عند حراء ، رجع إلى السيدة خديجة فترجع بواجره فقال : " وملوي وملوي " فملوه حتى ذهب عنه الروح ثم قال خديجة : " أي خديجة مالي " وأخبرها الخبر فقال لقد خشيت على نفسي فقلت له كلا أيسر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إئتت لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق " أخرجه البخاري في صحيحه (٢) ومسلم (١٦٠) عن عائشة بواجره . اللحمة التي بين الكتف والعنق دالة على شدة الفزع . وملوي فملوي فملوي تحمل الكل أي : تنو على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإملاق تقري الضيف أي : أنك تكرم جواه تطعم الضيف نوائب الحق حوادث الخير والشر

(٢) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال عن أبي بكر : " هل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ " (مريون) إلى قلبه . " بأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت " . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبي حاتم في السنة (٥٧٦/٢)

لكي تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبي ﷺ : مثلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فمما أضاءت ما حوله جعل انفرادي وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغله فينقحمن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا أحد يحجزكم عن النار . هم عن النار . هلم عن النار . فتعلموني تقحمون فيها<sup>(١)</sup> .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفسكم أو من أنفسكم أو يحكمكم حباً يعز عليه أن تكونوا في مشقة . إذن . فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأي فيها ، وذلك هو القانون التربوي الذي يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ومناه : ' افعل كذا ' و ' لا تفعل كذا ' لا تذهب إلى المكان الفلاني ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أيك الذي تعرف حبه لك ، والذي يشقى ليوم لك بناء مستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أمي ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صغاليك بخروجك عن طاعة أيك إلى اللهو وإلى الشر وانظر إلى والدك الذي تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تعب فهو أولى بأن تسمع كلامه

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات في الدين تمثل في التكليف التي يطلبها لإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أحلد

(١) سبق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، من أبي هريرة ومعنى (أحلد بخجركم) أي . أخذ بما قد أركم ومراويناكم لحجرة هي معقد الإزار ، ومن السراويل موضع النكاح

في الآخرة ؛ بذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم في الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهي ، لكن تعب الآخرة هو الذي يرهق حقاً ويتعب .  
ولذلك بقول الحق في تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَمَّا لَكَ بِأَخِي<sup>(١)</sup> نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم يتوبوا فسوف يجدون العنت كله في الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هي التي يجب أن نتلافاه ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التي تورد ثماراً

فمحن قد يجد الرجل بقول لابنه مثلاً اخرج إلى الحقل ، واحمل السباح فوق الحمار واحرث وارو ؛ كل هذه مشقات مستجدة لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من حير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك . ولو ترك الأب نته لكسله فهذه هي المشكلة الأكبر ، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لعبة<sup>(٢)</sup> الضياع .

وقد يأخذ الأب انه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أن يجري للابن جراحة تحببه وتنقله من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليحلم الابن أن

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلاني في الفتح (٦ / ٤٦٤) عن أبي جهم الغراني في المحرقين تهاقت الفراش على النار وتهاقت العصاة على الوقوع في النار أنه قال : ( التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهورات من الإنسان بكباب الفراش على تهاقت في النار ، ولكن جهل آدمي أشد من جهل الفراش لأنها باعترارها بظواهر الضمير إذا احترقت انتهى عديها في الحال ، والآخر يبنى في النار منذ طويلاً أو أبداً )

(٢) باجع فصل أي مكث في لومها وقهرها

(٣) لعبة من كل شيء عاقبه وآخره .

هذا المشرط سيمرُّ أنك قبل أن يمسك ، وعلى ذلك إذا أمرت بشكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو من تعز عليه ومن تحبه ومن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك : فعلبك أن تقسل ولا تسيء الظن ، ولا ترمق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عك مصارف الشر ، لأنك إن احتججت في عملك ، فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشرد وتخرج ، وسوف تذق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عاماً يلخص الحكمة التي تقول «من يأكل لقمتي فليسمع كلمتي»

وهنا يقول الحق ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ، حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر ولدنك قلنا : إن لرسول ﷺ قد صور هذه المسألة بقوله ﷺ . «مثلي ومثلكم كمثل رجل أورد برأ فجعل الحادب والفراش يقمن فيها وهو يذبهن عنها وأن أخذ بحجزكم من النار - أي أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدي»<sup>(١)</sup>

والحق يُسرى عن رسوله ﷺ فيقول

﴿مَعْلَكَ بِأَخٍ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ...﴾ [٦]

[الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله

﴿لَعَلَّكَ بِأَخٍ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٣]

[الشعراء]

(١) هذه رواية عبد مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق بحريجه من حديث أبي هريرة عند البخاري

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل في الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة في الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يرهق إنسان واحد في الآخرة ، ولذلك قال الحق

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ن تَشَأْ تَتْرَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا حَاضِعِينَ ﴿٤﴾ [الشعراء]

أى : إليك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمروا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم حاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخضع

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرة ، وأموراً تجلب منفعة . وسلب المضرات - دائماً - مُقَدِّمٌ على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقَدِّمُ على العمل لضره <sup>(١)</sup> ما يضر ، ثم نتجهز لعمل النافع .

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت في حال متساوية ولا بد أن تدرك عن نفسك الأمر الضار الذي يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذي يزيد من الارتقاء .

وحتى تقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأصرب هذا المثل الحسن : هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يصريك به ، وآخر يريد أن يقدفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تشغل أولاً بضر الضر ، ثم تقبل على جلب المنفعة



ومثال آخر هب أنك ترى إنساناً يخرق أمامك في البحر ، فهل توبّحه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم لعموم ؟ أم تنفذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّحه وتعاقه بعد ذلك جراء إهماله ؟

إنك تنفذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبتة فهو يقبل منك العقاب أو الهر<sup>(١)</sup> ؛ لأن صنيعك أنفذه من الموت .

والحق يقول : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ نَازَ ۖ ﴾ (١٨٥)

[آل عمران]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففى هذا سلب للمضرة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان فى موقعه لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ؛ بهذا هين أيضاً . وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله .

ورداً كانت هذه هى بعض من خصال الرسول ﷺ . ﴿ وَسُئِلَ مَنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، و ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، و ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، و ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup> ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يدفع إلى اتباع هذا الرسول .

وقوله الحق : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ يرى فيه لوصف بـ «الرءوف» والرافة هى سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و«رحيم» هو السى يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء .

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

(١) الهر الوجع والإعصاب

(٢) والآية الكريمة تعطى دواعى لك ومع رسوله ومع النفس والدعوة إلى القرب .

الوصفيين<sup>(١)</sup> ﴿رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه .

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) [الحج]

إذن فالرسول ﷺ لا يسلك به عنده ، من يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلى الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة لعلى الأعلى وكان الحق سبحانه يبين لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التى عنده ، كما يبلغكم المشقات فى التكليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات فى لرأفة ، وترقية المعلمات بالرحمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . .﴾ (٨٢) [الإسراء]

وبعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أى . أن القرآن يسلب المصوبة أولاً ، ثم يأتى لنا بالمنفعة بعد ذلك وهى الرحمة

وقوله الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُزْمِرِ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هذا القول خلاصته : إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ، فاعلموا من جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئها بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأحلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهى بانتهاء من التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يحظر على ناله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من العدم ولشرب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم<sup>(٢)</sup> .

(١) وقد ورد القرطبي من هذا قول الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسماء إلا لنبى محمد ﷺ فإيه قال : ﴿مُؤْمِنِينَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٥١٨) [التوبة] ، روى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٥) [الحج] . انظر [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٢٨]

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَتَنظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ تَشْتَهِيهِ فَيَحِرُّ مِنْ يَدَيْكَ مَشْوِيًا﴾ أخرجه البراء (٣٥٣٢ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمى من النجاشى (٤١٤/١٠)

وإن نظرن إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا في حياتهم ، يستأجرون من يقرم لهم بالأعمال التي كانوا يقرمون بها لأنفسهم ، فالثرى الذي كان يظهر طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعده له طعامه ، والفلاح الذي كان يسي بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبنى له ، وكل الأعمال التي تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه ، صار يستأجر من يقوم له بها ، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش في رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُنْ﴾ .

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء في هذه السورة بمشقات التكليف ، والشواوب عليها وطمان المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل الموصفات المرحية : من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلمهم إلا بالمشقات التي تنجيهم من المسقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم .

فإن استمعوا إلى هذه الحثييات وآمنوا ، فأهلاً بهم في معسكر الإيمان ، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحثييات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن - يا رسول الله - أنك منصور بهم ؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك " وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركك الشديد " هو الله ، لذلك يحتم الحق السورة بقوله :

(١) تبرأ أعرضوا ورفضوا الهدى والتبرأ من أسماء الأهلداى بها جعل يفترو وضعه فان تعالى " وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم " (٢) [محمد] أى إن أعرضوا عن الإسلام ويقول سبحانه " ومن يولهم منكم لإبه منهم " (٣) [لذلك] أى من يتبعهم ويصبرهم .

(٤) الركن الشديد - القوى الذي لا يعلب من النجا وركن إليه - ومنه قوله عز وجل عن نوح عليه السلام " قال لو أن لي بكم قوة أو إني ركن شديد " (٥) [مرد] وقد قال رسول الله ﷺ " رحمة الله على نوح لقد كان يؤتى إلى ركن شديد ، فما بحث الله بعده من منى . لا فى ثروة من قومه " أخرجه أحمد فى مسند . (٦/٣٣٢) والترمذى فى سننه (١٦/٣١٦) من حديث أبي هريرة

## ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٨)

ولم يقل الحق لرسوله . «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله»<sup>(١)</sup> ، لا ، بل أعلنها للناس كافة ، حتى يسمعوها ، ولعل هي إعلانك لها ما يلصقهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ لم تقولها إلا وعملك رصيد يبعث بها ، وإن فعل أحدهم شيئا ضلك ، سوف يعاقبه الله .

وحين تعلن : «حسبي الله» بعد أن كذبوك ، فالأحداث التي سوف تأتي بعد إعلانك «حسبي الله» ستؤكد أن حسبك في مكانه الصحيح ، والله المثل الأعلى أنت تقول «حسبي نصره فلان» ، لأنك تثق في قدرة فلان هذا ، ولكن القدرة في الحياة أغوار ، حين تقول : «حسبي الله» فلا إنه غيره سبحانه ، ولا إنه آخر يعارضه في هذا أو في غيره .

وقل : «حسبي الله» برصيد «لا إله إلا هو» ، و «لا إله إلا هو» نفي ، و «لا هو» إثبات ، إذن : قضى هذا القول «لا إله إلا هو» نفي منطقي مع سلب ، وإثبات منطقي مع الإيجاب ، وهما نفي أي الوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال<sup>(٢)</sup> شاعر باكستان الكبير ، فقال :

إنما التوحيد إيجاب وسلب  
فهما للنفس عزم ومضاء

إيجاب في «لا هو» ، وسلب في «لا إله» ، فهما للنفس عزم ومضاء ، أي . هما للنفس قطبا الكهرباء ، فاسلب الأثرية من غير الله وأنتها لله .

(١) الحسب اسم بمعنى كاف وحسبي الله ، أي . يكتفي بالله

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامي جاهد بقلمه وبنه في سبيل الإسلام وتحرير بلاده . وله آثار أدبية وشعرية غبيل إلى الإسلام وتدرس في المؤسسات العلمية ، وهو باكستاني المنشأ إسلامي الرطن ، عالمي الفكر - ترجم له في مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوي شعلا

والناس - كما نعلم - ثلاثة أنسام : قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً ، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذي يوحده المسلمون ؛ لكن له شركاء يتمتعوننا عند الله . وقسم ثالث يقول بوحداية الله .

وساعة نقول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول :

﴿إِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِي ، ويمكن أن نعرفه بالحساب ، ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب واحسبها فمن تجدد لا الله وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه ييسر عليك حمايته ونصرته لك ، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدي رسولك ، الذي أبلغك البلاغ الكامل عن الله ، وأن تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يمرض عيك أن تغفل في معيَّته سبحانه ، ومعية الله مرحلتان : الأولى يأخذ الأسباب التي أمدتها خلقه ، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك ، فأت تلجأ إلى مسبب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى - مثلاً - الناس وهي محتاج إلى المياه ؛ لأنها ضرورة للحياة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن المياه التي تأتي من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، ولماذا ؟ لأن المحزون من ماء المطر الذي كان يأتي من أعالي الجبال ويسرب تحت الأرض قد نفذ ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء ؛ لتجري إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر .

وإذا جفَّت الآبار المحيطة بنا ، هل نيامس ؟ لا ؛ لأن ربنا يأمُرنا : ارفعوا أيديكم لربكم . إذن : فمن إذا استفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به فجلدون الإجابة مع الرشد

المسبب ، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه ، ويلجأ إلى الله فيرده .

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول : أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها ، وبعد ذلك يقول . ليس لي منجى إلا أنت سبحانه ، وافرأ إن شئت قول الله سبحانه :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. ﴾ (٦٦)

[النس]

والمضطّر . هو من استنفد أسبابه ، وليس له إلا الله . لكن أن يقول إنسان : أنا أدعو الله ليل نهار وأسبّحه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائي <sup>(١)</sup> . ونقول مثل هذا القائل : أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، حذ بالأسباب التي خلقها الله ، أولاً ، ثم ادع بعد ذلك . ولا تدع إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبب ؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطى كلها لعُتِنَ الإنسان بالأسباب ، والحق سبحانه يقول .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ (٦٧) ﴾

[العلق]

لذلك نجد الحق يبين دائماً أن كل الأسباب بيده ، فبرى من يحوث ويذر ويروي ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتي موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : نخذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً في مالك ، وهنا يصح تركك على الله .

(١) من أدب الدعاء ألا يستطعم الدعاء استجابة الله بدعاءه . فتجده بين ويدع الدعاء ، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصبع لعنه ، فقد يدعو خدماً يظن أنه خير له ، ويكن علم علام العيوب أنه شر له ، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ : لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بأثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل يا رسول الله ما لا مستعجل ؟ قال يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم أرحم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحدث

وكثير من الناس يخطئ في فهم كلمة «التوكل» ، وأقول : إن التوكل يعني أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التي خلقها سبحانه في كونه ، فإن عزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة : فأنجى إلى الله ، مصداقاً لقوله . ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير ضطرر وبهمل الأسباب ، والمثل تجده في حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لي حتى أبحج» ونجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هي : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهي بذلك تدنسها على ضرورة الأخذ بالأسباب .

إذن فمعنى التوكل ، أن تستنفذ الأسباب التي مدتها يد الله إليك . فإذا استنفذتها ، إياك أن تيأس ، لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر . إذا كنت سائراً في الشارع ومعك جيب واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرِق ، ولا تملك في البيت أو في البنك مليحاً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان في البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان في البيت عشرة جنيهات وفي البنك مائة جتية ؛ فمن تحزن أو تغضب لضياح الجنيه الواحد

وهكذا تنق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تنق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن . ماشركل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب<sup>(١)</sup> . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

(١) يقول عمر وجل : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِثْرًا ﴿٢٠﴾ (الطلاق) .

وكان من الممكن أن يعبر الحق الأسلوب في الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق ، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلاً . «وعلى فلان وعلى فلان» يكن قولك : عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق ، مثلما تقول في الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي . لا نعبد غيرك ، فتكون قد نصرت العبادة عليه سبحانه .

وبوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذي استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت في الأرض تحوئها ، وتبذرها ، وترويه ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذي استقبلك ، وأصبح هذا الكون مسحراً لك ، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون

صحيح أنك قد تُسخر الدابة وتربطها وتمطيها وتحمل عليها السجاد مثلاً وكل ذلك مسحرك وفي قدرتك ، وهذا من نص الله عليك . ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسَخَّرَةٌ لك ، وليست في قدرتك ؛ فالشمس مُسَخَّرَةٌ لك ؛ تشرق كل يوم بالدماء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس في قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك .

وربك ورب الكون الذي استقبلك مسخرك ما ليس في يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذي يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذي يدير كل هذه الأشياء فلا تنظر إلى ظواهر اعطاء فقط ، بل انظر إلى مسببات العطاء في ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أي ظاهرة كثير .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم ، هو رب الكون الذي استقبلك وسخر لك ما في يلك وما ليس في يدك ، وما وراء المراتب من



عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء ، وكل ما في لكون منك لله .  
وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن  
العرش هو السقف <sup>(١)</sup> ، فحين تسي دوراً واحداً تصنع له لسقف ؛ ليحييك  
من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فليمانى تهبط ، وبين  
السقوف حتى تحمي الخدرا من عوامل التعرية .

وقول الله سبحانه : ﴿ العرش العظيم ﴾ معناها . استواء الأمر استواءً  
يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً في ملكة ساء  
على لسان الهدهد فقال

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ  
عَظِيمٌ ﴾ (٢٢) [انمل]

العرش ، إذن ، رمز السيطرة ، وفي حياتنا - والله المثل لأعلى - نجد أدا  
الذي يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ في تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث  
عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ، حتى تستقر له الأمور ،  
ثم يجلس بعد ذلك على العرش .

إذن فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك  
الأعلى .

وسبحانه يقول :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ... ﴾ (٧) [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» حذاها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ،  
وأن كل شيء دخل في حيز قدرته ، وفي حيز ﴿ كن ﴾ ، كما يستقر الأمر

(١) العرش الملك ، واسم الملك على عرشه . أي ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله  
تعالى ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٢) [المل] ومنه أيضاً مقب البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها  
معان تدل على استقرار الأمر ولياته . انظر اللسان ( مادة عرش )

للملك المحس\* ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور هدا ما نراه في الأمور الدنيوية ، فما بالنا ناستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ..﴾ (٥٤)

أى : أن الأمور قد استتببت له وهكذا نجد أن كلمة «العرش» وردت في عروش الدنيا ، وهي عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا<sup>(١)</sup> توهم إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالسبب لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينقص عليه شيء ولا يخرج من ملكه شيء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاصص لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفي أذهان الناس عروش الملوك التي رءى في حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن مكة مبأ :

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ<sup>(٢)</sup>﴾

[المن]

أى : بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

[التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١٦) [الشورى]

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت

# سُورَةُ يُوسُفَ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وتبدأ سورة يونس <sup>(١)</sup> بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن ، ولكن المختلف فيه : أمي آية من كل سورة ؟ أم نزلت بين السور لفصل والابتداء ؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوائل مائة وثلاث عشرة سورة ، ومرة واحدة في صلب سورة النمل .

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢٠)﴾ [الملء]

بدن ب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة لمل بعض آية من القرآن ، وآية من السورة ، ومن قال من العلماء : إنها آية من كل سورة ؛ يجهر بها في الصلاة ، ويسمّيها الآية رقم واحد ، والآية التي تأتي بعدها برقم اثنين . ومن قال : إنها نزلت لفصل بين السور ، فنقول له : إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لفصل بين السور ؛ فما كانت لتأتي في سورة الفاتحة ، لأن الفاتحة أول سور القرآن . ولكن صاحب هذا الرأي ، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تركاً .

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة ، وقد حسبوها كذلك في طباعة المصاحف ، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي الآية الثانية ، ولكن في بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات

ويعتبر آياتها مكية على اختلاف بين العلماء ، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هي آيات : ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ﴿وَلَوْ كُنْتَ فِي شَكٍّ (٩٥)﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ وقال الكلبي إنها مكية إلا قوله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ (٩٦)﴾ [يونس] . ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهم إلى أن السورة كلها مكية

الرُّحْمِ الرُّحْمِ ﴿ كَايَة أُولَى ، بَل تَرْقُم الْآيَة الَّتِي بَعْدَهَا فِي لِسُورِ الْقُرْآنِيَة  
بِرَقْمٍ وَاحِدٍ

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هي آية من القرآن ، ولكنها ليست آية  
من كل سورة ، إلا في لفاتحة . وفي بداية خواطرنّا حول القرآن الكريم  
قلنا إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ،  
فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القادر  
له ، هأت تحرت الأرض ، وتفسح البذور ، وتروى الأرض ؛ وينت لك  
الحق الزرع صحيح أنك حرثت لكك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف  
وضع الحق سبحانه في البذرة كل النبات الذي سوف يخرج منها ؛ ولذلك  
يقول الحق .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ  
الزَّارِعُونَ (٦٤) [المواقعة]

وهناك أعمال للإنسان تستجيب له ، لا يقدرته عليها ، ولكن لأن الله  
شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العاصف التي في  
لأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً في النبتة البسيطة الخارجة من  
لبذرة أو من حبة الفول التي تضعها في رطوبة الأرض سوف تلتفت  
لتجدها قد نبتت وخرج منها الزيان<sup>(١)</sup> البسيط ؛ ليكون الخنزر ، فكيف  
لهذا الزيان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة في  
جبل ، فهذا الزيان يدخل في أي فتحة في الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو  
لزيان البسيط لنافه في رؤية الإنسان .

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة في المياه ، وهي قدرة هائلة

(١) الزيان : أصله في اللغة زيان المعرب أي طرفاً قريبه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة  
وانظر اللسان ( ر ب د )

لدرجة أهم في الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخري ، قبل اختراع «الدباميت» ، كانوا ينثرون ثقباً في الجبل الصخري ، ثم يضعون فيه وتدّاً من الخشب ، ويدقون في هذا الثقب حشياً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالماء ينفجر الجبل .

وأنت حين تصح الحبة في الأرض ، فالحبة تخرج سناً بسيطاً ، لتتكون منها الجذور لتي تمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتي اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر في الأرض - وتُرقّ ملتصقة الحبة إلى أن تصير ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهي من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علمياً .

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقوة من سحر الأرض لك ، وحين تأتي لتزرع وتقول : باسم الله أرعك ، بهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذي سحر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شيء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستثمر قوة من الذي خلقتك ؛ لأنك قد تأتي لرفع الشيء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد .

إذن . فإن أقبلت على كل عمل ، فافهم أنك لا تُقبل عليه بقدرتك على العمل ، ولكن تفصل المسحور للمتفعل لك . فأدخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أذاكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذي سخر لك كل شيء .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر» .

(١) الأبر : الأقطع ، ومن صيغة أفعل تؤدى معنى المبالغة ، والبتر : القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنْ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَامْتَحِنُوا﴾ [الكوثر] أى المبتطوح الذكر . والقصود أن العمل إذا لم يبدأ به باسم الله أو باحمد فهو منقطع الخير وغير تام

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن يتفعل لك شيء ، فكل شيء يتمعل ؛ لأن الله جعله مفعلاً لك ، إذن : فابدأ كل شيء باسم الله وفي أعرافنا السيامية يقول القاضي لحطة الحكم : باسم الدستور حكمت بما يلي ، أي : أنه يقر أنه لم يحكم بدته ، بل باسم الدستور

إذن : حين تقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تدكر المعنى لك بأنه لا يتفعل لك أنت ، وإنما يتفعل لمن خلقك وخلقه .

وساعة تقبل على أي عمل وتذكر واجب الطاقة لك ، وواجب الشيء المضمل لك ، وواجب الحركة ، وواجب كل شيء ، تكون قد برئت من حولك ومن قوتك .

وهو يقول الحق ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وها الرحمة بالخلق ، ليرفع عن العاصي الخرج في أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذي عصاه ، ويدكر الحق بأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى هي سورة يونس :

### ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُرْكَبِ ﴿١﴾

﴿الر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقها سورة ابقرة بـ ﴿آلَمْ﴾ و ﴿لَمْ﴾ في أول سورة آل عمران ، وفي أول سورة الأعراف ﴿الْعَم﴾ وهنا ﴿الر﴾ في أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿آلَمْ﴾ و ﴿لَمْ﴾ و ﴿الر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أن اسمي الشعراوى صحيح ، والمسمى هو صورتي . فإذا أطلق الاسم جاءت صورة المسمى في الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتي إلى الذهن « ما علاك » . وساعة نقول : « المسجد » يأتي إلى الذهن المكان المحيّر للصلاة .



إد - فهناك فرق بين الاسم والمسمى - وكل إنسان أمي ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم . وفي الإنجليز طلب ممن تعلمها أن يتهجى أسماء الحروف .

إد - فالكل - كل متكلم - يعرف الطق بمسميات الحروف ولكن الذي يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلم . وحرف أنك حين تقول : « أكلت » ، بهذه الكلمة مكونة من ( همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء ) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بدأت بـ ( الهمزة ) وهذه أسماء حروف ، لا مسميات حروف ، ومحمد ﷺ أمي لم يتعلم ، فمن الذي علمه أسماء الحروف ؟

هي ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمي ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميम " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت<sup>(١)</sup> ، وهي نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالأستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التي تأتي في فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف لقطعة التي من أول السور وحقق المكرر منها ، فكان مجزوعها أربعة عشر حرفاً ، وكتبوا منها جملة جاءت هكذا : هي قاطع حكيم له سر

وندد بخلف الملاء في معنى هذه الحروف هي أقوال

١ - أنها بما استأثر الله بعلمه

٢ - أنها دلالة على أسماء السور .

٣ - أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتاح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (الرحيم)

من رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعل<sup>(١)</sup> ، وبدأ الله بها  
على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ١﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١﴾ [القلم]

إذن : ثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل . ﴿طه﴾ . ﴿يس﴾ . ﴿طس﴾ ،  
﴿حم﴾

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿آلَم﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ،  
وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .  
وهناك سور قد بدئت بـ ﴿آلر﴾ .

وثلاث سور تتفق في الألف واللام . وتختلف في " الميم والراء " .  
و﴿آلر﴾ في أول سورة يونس و﴿آلر﴾ في أول سورة يوسف . و﴿آلر﴾  
في أول سورة إبراهيم ، و﴿آلر﴾ في أول سورة الحجر

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فبعض صفات لها أصداء مثل ( الجهر ، الهمس ) -  
( الشدة ، الرخو ) - ( الاستعلاء ، الاستفال ) - ( الانصاع ، الإطباق ) ( الإصمات ، الإدلاق ) .  
وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهي الهاء ، الخاء ،  
الشاء ، الهمزة ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف أثناء رجمتها قولهم " ففتة شخص سكت " .  
وما عدا هذه الحروف فهي " حروف جهرية " أي فيها قوة في النطق بها . انظر تفاصيل هذا في كتاب  
" هداية القاري إلى تجويد كلام الهادي " للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفي (ص ٧٩ - ٩٣) رحمه الله له  
ررحمه

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿الْمَعْر﴾ في أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة البرعد بدأت بـ ﴿الْمَعْر﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿كَهَيْمَقْ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿حَمَّ ١ عَسَقَ ٢﴾ .

ومرة يطلق لحرف أو الحرفان في أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ، بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿طه﴾ ، و﴿يس﴾ أما في سورة النمل فهي تبدأ بـ ﴿طَر﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : مرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتي خمسة حروف مثل ﴿كَهَيْمَقْ﴾ ، وكل هذا يدللك على أن القرآن توقيفي<sup>(١)</sup> . ومن تأت آياته على سق واحد ، ينتبه إلى أن الحق مسحاته أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك لمجد كلمة " اسم " في القرآن في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتكتب من غير ألف<sup>(٢)</sup> ، وهي ألف وصل ، أي : نطقها حين تقرأه لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ويكتفى لا تسقط عندما تكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١﴾ [علق]

(١) تم بيحه أي أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شيء في القرآن من مواضع السور والعوامل بين الآيات وترتيب السور في المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة .

كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل

(٢) وردت كلمة (باسم) في القرآن ٤ مرات في قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١﴾ [علق] ، و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ في ثلاثة مواضع [الواقعة ٧٤ ، ٩٦] ، و[الحاقة ٥٧] .

ووردت كلمة (بسم) بغير الألف ثلاث مرات في القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا . ١٠﴾ [هود] ، و﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ فَرَحِمَنَ الرَّحِيمِ ١٥﴾ [الجم] . بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة في بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية في أولها .

ومثال آخر لو استعرضت في القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها  
 ألفاً بعد الباء ، وثلاثي مرة من غير ألف<sup>(١)</sup> ، وكلمة « البنات » نجدها مرة  
 بألف ومرة من غير ألف<sup>(٢)</sup> ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتبة  
 كتابة ؛ لأنها لو كانت رتبته كتابة ؛ ل جاءت على نظام واحد

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كشافة لقرآن معجزة ، كما كانت  
العاطلة ونراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول  
الله ﷺ لم يَكُوسُوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية  
بالكتابة لما كتبوا « بسم » من غير ألف في موقعها ، لقد علموا أن القرآن  
يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة  
توقيفية ، أي : كما أمر الحق سبحانه <sup>(٣)</sup>

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن ميسية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتصق لتجد الكلمة التي في ختام أى سورة مشكبة بغير السكون .

(١) كلمة تبارك وردت في القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف في قوله تعالى ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ (٧٨) [إبراهيم] ، وقوله ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ (٢٠) [الملك] أو المواضع السبعة الأخرى فهي ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ (٢٥) [الأعراف] ، ﴿ تبارك الله أجمن السماوات ﴾ (٤٤) [الزمر] ، ﴿ تبارك ﴾ (١) ، (٢١) ، [حافز] (٦) ، [الزخرف] (٨٥) .

[illegible]

(٣) هذا عدم فهم من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث فيه العلماء وبيّنا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأئمة في قواعد الرسم القرآني ، وأن لهذا الرسم حكماً أخفياً تكلم فيها علماء انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٧٦/١ - ٤٢١) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١١٥/٤ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ وجاء لحرف لاخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتي : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة بعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عَضِيْبٌ ﴾ <sup>(١)</sup> فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصلاً عن غيرها ، بل القرآن كله موصول ، فليس في القرآن من وقف واجب <sup>(٢)</sup> ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهي بالفتحة فانت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فنحذف لا نُسَكِّن الحرف الأخير في أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها

وحتى في الحكم السجويدي إن وجد إقلاب سطره إقلاباً ، وإن وجد إظهار <sup>(٣)</sup> سطره طهراً ؛ لأن آيات القرآن مسة على الوصل .

ولفائل أن يقول إذا كان القرآن قد بني على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التي بدئت بحروف المعجم تثبني على طريقة المعجم فلا نقول ( ألف لام ميم ) بل نقول " ألم " .

(١) عضيب ، أى أحراء مصرفة ، ومنه قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضًا ﴾ [الحجر] ذكر المفسرون في الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزموه أجزاء فامتزوا ببعض وكفروا ببعض

(٢) أى أنك تجد بهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك بهايات السور ، وإلا فهلك وقف لازم في داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى ﴿ وَإِن يَسْتَجِيبِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْعَوْنُ يَخْتِمْ إِلَهُ لَمْ يَزَلْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنعام]

(٣) الإظهار والإقلاب - حكماء من أحكام مجريد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين

- أم الإظهار فهو ذ ربح بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الخلقية أى التي يخرجها من الحلق وهي الهاء ، العين ، الحاء ، العين ، الحاء ، عذها يجب الإظهار ، أى إظهار نون الساكنة والتنوين عند ملاقاتها بحرف من هذه الحروف

أم الإقلاب فهو أن تأتي ياء بعد نون الساكنة أو التنوين فنقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار العنة ، ومثال هذا : ﴿ أَنْبِئْنِي - ﴾ [١٢٠] ﴿ [البقرة] ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [١٢١] [التغابن]

ونقول لشل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التي بدئت بها لسور يحب أن ينطقها كما هي ، فتتطق " ألف " ثم تقف ، وتقرأ " لام " ثم تقف ، وتقرأ " ميم " ثم تقف ؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلمها جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ هكذا ، حتى لا نقول رتبة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سوء فهمتها أنب لأن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأي هفوة ؛ لدخلوها منها للتشكيك في القرآن ، ولكن أسمعتهم رغم وجود الكافرين البتة أن واحداً قال . ما معنى ﴿ آلم ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك . رغم حرصهم على أن يأتوا بمطامن في القرآن ، بل اعترفوا بطلان بلاغة القرآن الكريم ، بما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿ آلم ﴾ بملكته العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطنخوا في القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحبة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على المهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿ آلم ﴾ ؟ لم يحدث ، بما يدل على أنهم انمعلوا لقتلها بسر الله فيها ، لا بفهم عنولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم يقله العقل فهو لا ير فضه<sup>(١)</sup> مع استراحة النفس له .

(١) عن عيسى بن أبي طالب مال : لو كان الدين بال رأي فكان أسهل الخلف أولي بالسبح من أهلاء ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسبح على ظاهر خصيه ، أخرجه أبو داود من سننه (١٦٣) والدارقطني من سننه (١٩٩/١)

وضربا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا<sup>(١)</sup> ساء بسى  
إسرائيلين وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى<sup>(٢)</sup> لها الله  
ما جاء خبره فى القرآن .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي  
الْيَمِّ ۖ﴾ (٧) [التقصير]

هات أى أم و قل لها . حين نحافين على وليدك فدرميه فى البحر ،  
طبعاً لن نعلم أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن نحول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متحيز ،  
ولكن هذ أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان ،  
ليعارضه أبداً ، ولذلك طمأنا الحق سبحانه : لأن الآيات وردت

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ﴾ (٧) [التقصير]

(١) استحياء النساء أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ فِرْعَوْنَ عَلِمَ أَنَّهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَجَدَ إِلَٰهًا  
شَيْعًا يَتَّبِعُ خَافَ أَنَّهُ يَكْفُرُ بِهِمْ لَبِئْسَ أَهْلًا لَهُمْ وَشِئْنًا مَّا كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١٤) [التقصير] وكان  
هذا على سبيل الإهانة لبني إسرائيل والاعتقاد والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تنبؤ  
أن يظهر بهم ويكون سبباً لهلاكه وحده ذلته

(٢) مائة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله - رجع للعجم المقهر من لألفاظ القرآن الكريم :

ص ٧٤٦ ، ٧٤٧

والوحى فى اللغة : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقى إلى  
عبيدك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى عمله ، والبحث  
والأمر والإيحاء والإشارة والتضمين شيئاً بعد شيء ويرد لوحى ليعبر إعلام الله لأنبياءه مثل قوله  
تعالى : ﴿يَا أُوْحَىٰ بُرِّكْ إِلَى الشَّجَرِ ۖ﴾ (١٣٥) [الشجر] والوحى هنا بمعنى الإلهام ، أم الذى يحكى  
الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والمرسل

وكان هناك تمهيداً يعلمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحسب جاء الأمر

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٢٨) أَنْ اقْدِيبِي فِي التَّابُوتِ (١) فَاقْدِيبِي فِيهِ (٢٩) ۝ ﴾

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت لتنفيذ ، وطمانتها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذه إلى الشاطئ :

﴿ فَلْيُلْقِ الْإِثْمَ بِالْمُسَاحِلِ (٣٠) ۝ ﴾

وأصدر الحق أوامره إلى العدو أن يأخذه ، ليديه :

﴿ فَلْيُلْقِ الْإِثْمَ بِالْمُسَاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ (٣١) ۝ ﴾

إذن ، وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿ آتَم ﴾ سر الله فيها ، لا يفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعيداً ألا يشغل نفسه بملعنى ، عنى خلاف من يقول : " اقرأ لتستبسط " ؛ لأن من يريد أن يستبسط هو الذي يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن لتعبد ؛ فتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً ينقصك لبشرى ؛ لذلك في قراءة التعبد تأخذ اللفظ بسر الله في اللفظ ؛ وليس كل بائس لقرآن متخصصاً في اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير من أمي ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

(١) التابوت الصندوق .

(٢) اليم يطلق على ما كان مازحه مدحاً ، أو الهزء الكبير العذب الماء ، والرواية هنا مظهر اليم بمصر وساحل اليم شاطئه



والمثال من حياتنا - والله المثل الأعلى - محد الحيش يصع كلمة اسمها: " كلمة السر " ، وهذه لكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو يضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة " عدس " على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتبته ويطلق بكلمة " عدس " ، ها يعرف حارس بوابة المعسكر أنه مهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل - ومن يقولها ، إما ينطقها بسر من لفته إياها .

وقد فهم العربى القديم عن الحروف التوقيفية فى أوائل بعض السور أشياء ، وللغة فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر<sup>(١)</sup> يقول :

\* ألا هُبى يصححك فأصبحنا \*

ويقول :

ألا لا يجهلن أحدٌ عليا      فنجهل فرقَ جهل الجاهليتا<sup>(٢)</sup>

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالعنى واضح بدونها ، لكن لعربى القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة لفهام وبهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك لرمم فى أن يكلم ، أو لا يكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، وقد ما ألقى الكلام إلى لسامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن يتبه لكلماتك ، قد تفوته جرئية من جرئيات الكلام ؛ تشبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوص كل ما قلت<sup>(٣)</sup> .

(١) هو عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال حيرة العرب ، ساد قومه تشب وعرفى ، وعبر طويلاً ، ترمى بحر عام ١٠ قبل الهجرة من أشهر شعراء معلقة ( لأعلام بنزركلى ٨٤/٥ )

(٢) هذه الأبيات من معلقه عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهي من بحر الباهر

(٣) هـ ألا هنا حرف استفهام يفيد التشبيه ، ويدل على تحقق ما بعده . ولها أربعة معان أخرى هي النفي والاستفهام عن النفي والحث والتخصيص والترقيق والإنكار

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيئ الأذهان - ﴿آلَمْ﴾ - حتى نسمع ، ثم تأتي الآيات الحامئة للمهيج من بعد ذلك ؟

وما المانع في أن يفهم أن السبى الأسمى لا يعرف كيف يتعلق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإثما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا تفهم منها أيضاً أن وسائل المهم لا تنتهى إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند الشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم بشر ، وسبحانه قد شاء أن يعترف من معاني كلماته لكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفته لا تنهى في الكمال ، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له .

ولماذا لا تفهم أن القرآن الذى بين الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نفع فيه قومه ؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه . ويقول لهم : هاتوا مثيلاً له ، ولن نستطيعوا " ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم في الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا .

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التى يتحدثون بها ، وبالكلمات التى يعرفونها في لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الختام التى تبني منها

(١) يقول تعالى ﴿قُلْ بَرَكَةُ الْبَحْرِ مِمَّا دَاكِلُ الْكَلَامِ وَبَرَكَةُ الْبَحْرِ قُلْ إِنْ تَقْدُ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جَعَلَا بِطَلْهُ مَدَا (١٥٨)﴾ [الكهف] ، ويقول ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَكْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعًا أَبْحُرًا مَا نَقِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (١٥٩) [لقمان]

(٢) ومن هذا يقول تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٣) [البقرة] ، ويقول سبحانه ﴿لَمْ يَقُولُوا اقْرَأْ قُلْ هَؤُلَاءِ بِعَثَرٍ سُوْرَةٍ مِثْلِهِ خَفَّتْ مِنْ أَنْتُمْ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٤) [هود] .

الكلمات وهي ا حروف ؛ بل بلمعاني والنسق " لذى جاءت به الحروف ،  
فالمادة الخام - وهي الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم  
هو الله .

وضربنا من قبل المثل لتقرب ذلك إلى الأذهان . هب أننا نريد أن نقيس  
مهارة من يسجدون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل  
الصوف وعزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها  
عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل  
صنف لتعرف الأفضل في النسج .

ونسجع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف مسيج خشن ، وناسج  
القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً  
ناعماً ، أما إن أعطينا كلاً منهم نوعاً واحداً من الغزل ، صوباً أو قطعاً  
أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بمعبر حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛  
لقالوا : لو كانت عندي هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتيسر بأحسن  
مها<sup>(٢)</sup>

(١) النسق من كل شيء ، ما كان على طريقة نظام واحد  
(٢) قد يقول غاش : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألماظ أعجمية كثيرة مثل : أبهى ، أراك ،  
يشري أكواب ، أسعار اجبت وغيره كثير ذكرها البركشي في البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠)  
والبيوطي في الإقذار (٢/ ١٠٥ - ١٢٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين حشيه وبطييه وسريانية  
ورومية وقروسية وغيرانية وقبطية وعبرية نقول : اختلف العلماء في هذه الكلمات ، فبح الشيعي  
وابي جرير والفصلي أبو بكر القول بأن في القرآن كلمات أعجمية مستلطن بقوله تعالى : ﴿ فقرأه  
عرباً . ﴾ (٢٣) [يوسف]

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمي فيه وإن هذا لا يعني أنه ليس قرآن عربياً ، فهذه الكلمات  
السيرة لا تخرجه عن كونه عربياً

قال أبو حبيد القاسم بن سلام : الصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن  
هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وجدت للعرب ، فعربتها ( أي - الكلمات )  
بألسنها وحررتها عن ألماظ المعجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وبدأ احتلظت هذه  
الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق .

لذلك شاء الحق أن يأتي القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد للغة العريية مواءمة مثلما كان الحال أيام برون لصرآن ، ومن كانوا يحلون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التي في أوائل بعض السور وقلوها ، وألحق سبحانه يقول .

﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① ﴾ [يوسف]

﴿ تِلْكَ ﴾ : إشارة ، ولا بد أن يفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن العنصر يخلط بينهما ، فالإشارة هي التي تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا ، أو تلك ، وهذا . إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا العلم جميل ، أما قولنا تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهي حرف للخطاب ، فالتاء . إشارة للآيات وهي مؤنثة ، و«الكاف» في ﴿ تِلْكَ ﴾ . للمخاطب ، وهو محمد ﷺ . فإله يقول لرسوله : تلك الآيات يا محمد .

وعنى صوء الفوارق بين الإشارة والخطاب نختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق .

﴿ قَدْ آنِكَ بِرُؤُوسَانِ ② مِنْ رَبِّكَ ... ③ ﴾ [القصاص]

و«دَائِكَ» : إشارة لشيئين اثنين : للمصا .

و ﴿ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ... ④ ﴾ [النحل]

ويقول الحق أيضاً

﴿ ذَلِكَمَّا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ... ⑤ ﴾ [يوسف]

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه .  
وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل -  
«دا»<sup>(١)</sup> .

وحين دعت امرأة العزيز النسوة : ليُشاهدن جمال سيدنا يوسف ،  
وأعطت كل واحدة منهن مكيئاً ، وقالت : اخرج عليهن ، ولأنه مفرد  
مدكر ، ومن جماعة إنثى ، فالمعبدة تأتي بحطاب بصيغة الإناث ،  
وشارة إلى المفرد المدكر فقال :  
﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ...﴾ (٣٢)

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف ، و«كن» خطاب للنسوة والقرآن حين  
يخاطب جماعة يقول .

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَّمْ بِرَبِّكُمْ...﴾ (٣٣) [فصلت]  
هذه فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فال «ت» إشارة للآيات ،  
والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالكيف هو رسول الله ﷺ

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية ، والآية " هي الأمر

(١) من الأبواب البحرية الدائمة بقيت عن باب الإشارة مما يقال ( اسم الإشارة من شير إليه ، والكاتب  
من يخاطبه ) وتتضمن هذه البشارة الأمرين الآتيين  
الأول - أن أسماء الإشارة يراد في لفظها ما يشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مدكراً أو مؤنثاً .  
الثاني - أن حرف السجدة ( الكاف ) قد تعرض عنها ( مرعى في لفظها للمخاطب - مفرداً أو مثنى  
أو جمعاً ، مدكراً أو مؤنثاً  
فالكاتب حرف مجرد للخطاب لا موضع له من الإعراب ، فهي إذن حرف للمخاطب لا للمخاطب ،  
وهكذا يصعبها المفسرون ( النحو المصنف ص ١٤٦ - ١٤٤ )

(٢) آية العلامة الزمخشري : لأنها علامة على صفة الرسول ، والآية إشارة الدالة على العظمة ،  
والآية من القرآن مسمية آية ؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة كالقوة تعالى ﴿ ما تنطق من آية أو منها  
نأت بغير منها أو منها... ﴾ ( البقرة ) وقد تعالى ﴿ رجعتا إلى ربك وأنت آية ﴾ ( طه ) ﴿ ما تنطق من آية  
أو معجزة تالة على قدرة الله وعظمته ، وقوله ﴿ ولا تكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ ( البقرة ) أي  
معجزة خارقة للعادة ، وهناك آيات تدبر في كتاب الله ، وتجميع الآية على أي وآيات ،  
وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول إنها آية في الحسن أو آية في الجمال ،  
أو آية في لحن ، أو آية في الروعة .

فالآية إذن هي الشيء العجيب ، أو الشيء الذي بلغ من احسن ومن  
الجمال درجة هائلة . ونطلق الآيات إطلاقاً متعددة : فهي إما أن تكون  
المعجزات التي أمدَّ الله بها رسله ؛ ليثبت صدقهم .

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُحْجِرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٢)  
[الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة في الكون مثل قوله الحق  
﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ . . . ﴾ (٣٧)  
[يس]

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ . . . ﴾ (١٧)  
[الإسراء]

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً . . . ﴾ (٥١)  
[المؤمنون]

إذن : فالآية إما أن تكون شيئاً في الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة  
التي جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، وقد يكون  
المقصود بها آيات القرآن .

إذن . فالآيات تطلق على ثلاثة أمور . الآيات الكونية للنظر والاعتبار ،  
وآيات إعجازية بصدق الرسول ﷺ في لبلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل  
الأحكام والتحدي للمشركين أن يأتوا مثلها .

(١) قاله آل فرعون لموسى ، فعاد بهم الله فأرسل عليهم الظفاد والجراد والفُصَّل والصَّاعِدَ والنَّمْلَ  
(٢) نسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجه لا يبقى معه شيء من ضوئه ؛ لأن النهار مَكُونٌ على الليل .  
فإذا آل ضوؤه بقي الليل فاستلخاً قد عشى الناس . ويسلخ الله النهار من الليل أي : يخرج منه .

وهت في قوله الحق : ﴿الَّذِي تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المراد بها : الآيات  
القرآنية<sup>(١)</sup> ، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق  
المعجزات ؛ وهو منزل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها  
واحد .

وقوله ﴿الَّذِي تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) [يوس]

وكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ معناها : الذي يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة ،  
فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويخفل ما قد يأتي به من مصرة  
ولله المثل الأعلى أقول : إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يخلصك  
من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدي إلى شيء أضر ، وهذا هو السبب في  
اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة ، ولذلك يجد الطبيب الحاذق يكتب  
عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر  
الإمكان أن يُجبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهذه حكمة ؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذي قد يأتي  
منه أثر ضار ، بل يكتب معه دواء آخر يخفف من ضرره ، وهذه حكمة منه  
لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبي .

وهي أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقتلوا من أثر تهديد الحشرات  
للمرروع ، واحترعوا مادة اسمها «د . د . ت» لمقاومة الحشرات ، وافتخروا  
بهذا كل الصحر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة  
تقضي على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

(١) المعروف عليه عند المحررين أن اللام في تلك المبدأ ، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه  
هنا هو الكتب السابقة على القرآن ، ذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست بليعد ، وأن تلك بمعنى  
هذه ، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن ؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة ، ولأن الحكيم  
وصف للقرآن ، دليل على ﴿الَّذِي تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) [هود] .

الأخرى ، والآن تُرفع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة . قد يأخذ منه ظاهر البقع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سُمِّمَ احيوانات ومسمِّم الزروع .

إذن ، فالحكمة "تمنى" أن توضع الشيء في موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد .

وقد أسرى الله المهبج في الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح . فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتي منه كل نفع ، ومن يأتي لك أي ضرر ، وضررتنا المثل في المعطيات التي أعطاها الحق لنا في الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لأخذ من لبها ، وأخذ من أصوافها ، وأخذ من جلودها ، وبأكل من لحومها . وهو القائل :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ...﴾ (٧)

[النحل]

أى . أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عما هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمّل أمتعتها فوق الحمار أو البغل . وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عبدا للسيارات الكبيرة التي تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم تنمت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوّثه على عكس فصلات الحمار أو البغل ، التي تميد في حضوبة الأرض .

(١) الحكمة الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والخير والحيوة والفرق والإيجل قال تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (١٥٩) [البقرة] والحكيم ذو الحكمة والرشاد الذي يتقن كل أمر يتولاه من حكم ينكم حكماً بهر حكيم والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى ﴿وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ...﴾ (٢٩) [البقرة]



إذن فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادعها بأسلوب ما ،  
ههي اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق  
الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وفدرتها على حمل  
المصانع ، ونخلص عما تسببه من ضرر . وهكذا نعرف أن الحكمة هي .  
وضع الشيء في موضعه المصيد فائدة فائده لا تأتي من بعدها ضرر .

ولقد ثل أن يقول وما معنى قول الحق : ﴿الكتاب الحكيم﴾ هل الكتاب  
يتميز به له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب ؟ ويقول : إن معنى  
﴿الكتاب الحكيم﴾ أنه الكتاب الذي يمتليء بالحكمة الصادرة من الله ،  
أو الكتاب الذي أنزله لرب الحكيم وكلمة «حكيم» على وزن «فعليل» ،  
ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتي مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة  
فعليل<sup>(١)</sup> ، وموضعها هو الذي يبين لنا ذلك

ومعنى كلمة «الحكيم» يتضح لنا من سياقها فإن سبب الأمر إلى الحكم  
هو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت اوصف معنى فاعل فهو  
من حاكم ، والحاكم هو الذي يحكم في قضايا ، ليسين وجه الحق فيها ،  
والقرآن يحكم في كل قضايا الإيمان . وقمة العقيدة التي يحكم فيها القرآن  
هي لا إله إلا الله ومن يفعل عكس ذلك هو الضالم ، وسببها القائل .

[لقد]

﴿إِنَّ الشَّرْكَ يَكْفُرُ عَنِ عَظِيمٍ﴾ (١٣)

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو حاكم فاعل فيها<sup>(٢)</sup>

(١) صيغة فاعل تصاغ لمدح أو لعلل اسم فاعل من فعل فاعل الثلاثي المتصرف ، وفاعلاً على هذا ، فإن  
فعل (كريم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (يبتلى) تصاغ (بائل) وهذا يدل على معنى  
طريق غير ثابت ، أما إن كان المعنى ليس طرناً حادثاً وإنما هو دائم ، فيسحب التصريف بتعبير صيغة  
«فعل» الدالة على حدوث إلى غير ذلك على الثبوت كذا يقول كريم ، يبتلى ومن هذا أيضاً  
حكم . فهي صيغة لها ثبوت ودوام في حق الله ، ولذلك عبرت بالصيغة من «فاعل» إلى «فعليل»  
انظر (البحر الوافي ٣/ ٢٤٢)

(٢) القرآن حكيم ، لأنه صادر من أحكام الحاكمين

فإن قلت : « محكم » تكون قد نسته الله ، وإن قلت : « حاكم » فهو  
الفاعل وهو يحكم في قمة العقيدة « لا إله إلا الله » ، وهي شهادة ذات  
لغات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ... ﴾ (١٨) [ال عمران]

وساعة يفصل المرآة في هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً بين  
وجه الحق في قمة العقائد . وهو حاكم في الأفعال ، فيبين الحلال من  
الحرام ويضع حداً فاصلاً في الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم في  
الأحلاق

إذن : « حاكم » تعني ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار  
والمعسكرات المتضاربة .

و « حكيم » : إما أن تكون بمعنى « فاعل » وإما أن تكون بمعنى (مفعول)  
ورفعت الحكمة من قائله عليه ، فصار « محكماً » ، وإن كانت كلمة الحكيم  
بمعنى فعل تكون بمعنى « حاكم » وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين  
فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأمر الحاكم ، ليفصل بين  
الأمريين ، وليعدل وينصف

وقد جاء القرآن مؤكداً : حاكماً في أمر القمة التي اختلف الخلق فيها ،  
فمهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومهم من قال : إن الإله هو غير  
الله ، ومنهم من قال : الإله شريك غيره ، فجاء القرآن ، ليفصل في هذه  
المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبين : يا من تقولون : لا إله ؛  
أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا  
من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛ أنتم كذابون ، بل هو إله

واحد ، وهذا أول حكم في قضية القمة .

وما دام الحكم في قضية القمة قد صرح ؛ إذن : فالاستقبال للمهيج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذلك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة في لتكاليف للناس جميعاً ، ويُعرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً في الأفعال ، فقد يختلف الناس في تقييمهم لعمل واحد . فهذا يقول : فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، وبحسب القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ، فيأمر به ؛ ويحدد الفعل القبيح ، فينهى عنه ، وبين القرآن لنا الحلال من الحرام<sup>(١)</sup>

إذن . فالقرآن حكم في العقائد وفي الأفعال وفي دوات الأشياء حلاً وحُرمة ، وهو يحكم أيضاً في قضية هامة تلي قضية الحكم في قمة لعقيدة ، وهي صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذي يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم في هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول فإن عجزتم ؛ فالرسول نفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالفه وخالفكم .

وسواء أكانت «حكيم» بمعنى «فاعل» أم بمعنى «مفعول» فقد دللنا على أنها تعني وضع الأشياء في نصابها وضماً بحقق النفع منها دائماً ، ولا يتبع عنها صارة أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

(١) وفي هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْمَعْنَى لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أي أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق

﴿ أَكَادِرُ النَّاسِ عَجَبًا أُرْوِيحُنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ  
 أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَكثيرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ  
 عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَيرٌ  
 مُبِينٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ما هو العجيب <sup>(١)</sup> - إذن - في أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم  
 إنذار الله وبشارته؟ ما الذي تعجبتم منه؟ وما موضع العجيب فيه ؟ وجاء  
 تحديد العجيب فيه ما ذكرته الحثية في آخر سورة السابقة من أنه :

﴿ رَسُوْنٌ مِّنْ أَلْفِكُمْ ... ﴾ (١٢٨)

[الروية]

أي: من البشر، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون  
 كل حلقه ، فما العجيب في أن يرسله الله رسولا إليكم ؟ إنكم قد ائتمتموه  
 على أموركم من قبل أن يرسل عليه الوحي من الله ، فكأنكم احترمتهم طبعه  
 الكريم ، وأنكم في كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم في بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن  
 أولى بأن نضع بأيدينا أهدس شيء في الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك  
 اختلفت القبائل ، فما كان إلا أن حكموا أول داخل ، فشاء الله أن يكون

(١) الشيء العجيب ، غير المألوف للناس ، ولأدنى إيماء يتعجب من الشيء إذا عظم موقعه عنده ، وسمي

عليه سببه . وقد تعجب أبشركون من قصصهم لم تستطع عقولهم استيعابها ، واحتج الأمر من القرآن أن  
 ينسب العجيب عن هذه القضايا ، وأن يدل على عكس ما في أذهان هؤلاء المشركين ، أما القضايا فمما

١ - قصة نوح - الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ اجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجيب ﴾ [ص]

٢ - قصة إرسال رجل منهم أي من البشر ، فقالوا : ﴿ راجعوا إن ياءمهم شأنهم ﴾ . [ص]

٣ - قصة البعث ، فقالوا : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أننا كنا ترابا ، فما لشي خلق جديد ﴾ [الزهد]

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة (١) ، ولم يكن قد نزل عليه وحى بعد ؟ إنها الفطرة التي جعلته أهلاً لاستقبال وحى الله فيما بعد ، فماذا صنع ؟ ليسهئ هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه ، وتلك هي الفطرة السليمة . ورأينا أيضاً سيدنا أب بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التي كان بصوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ، قال : « إن كان قد قالها فقد صدق »

من أي أحداث جاء حكم أبي بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدقه بمجرد أن أعلن أنه رسول . فقد جربه في كل شيء ووجد صدقاً ، وجربه في كل شيء ووجد أنه أمين . فما كان محمد ليصدق فيما بين البشر ، لكذب على الله

وكذلك حديجة بنت حريد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتيني كذا وأحباب أن يكون كذا ، فيثبت له أن المفاهيم التي في حياته لا توحى بأن الله يتخذ له ريمصحه ويسلط عليه الخن . « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينئذ ٣٥ سنة ، أي : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلعت فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه ، وأصبحوا للقتال ، وتناقد بنو عبد الدار وبنو عدى على الموت ، ووصفوا أيديهم في جمة مملوءة دماً . وفي الأمر من هذا أربع ليالٍ أربعاً . ويروي ابن اسحاق في السيرة (١٩٧/١) ارتضاء قريش حكومة محمد في هذا الأمر أن : أباً أمية بن لبيبة قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بيحكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بيحكم فيه فعمرو فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضيه ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم آخره الخبير ، قال ﷺ : هل من شيء ثوباً ، فأتى به ، فاحذ الركن (أي : الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة باجبة من الثوب ، ثم ارموه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا لمس به موضعهم وضعوه ثم بيده ، ثم بي عنقه .

الكلّ وننصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً<sup>(١)</sup> وبذلك كانت السيلة خديجة أول فقيه مستنط<sup>(٢)</sup> في الإسلام .

وقوله سبحانه : ﴿ أَكَادَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ يعنى : التعجب من أن يصدر منهم العجب ، ولقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقي ألا يكونوا قد تعجبوا ؟ لأنك حين تتعجب من شيء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما يرى صفة جملة ونقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتساءل ما الذي جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصفة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجددين في إمكانه أن يصنعها . والمثال على ذلك نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشيء الذي يفوق تصوره . وقد يتعجب من شيء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ (٢٨)

[القرة]

(١) حديث يده الوحي من عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري في صحيحه (٣ ، ٦ ومواضع أخرى) ومسلم في صحيحه (١١٠)

- كان أسيد خديجة بهذه المقولة قد تلخصت رسالة الرسول في كلمات " تعيش مشاكل الناس ماضياً للمظلوم مساعداً للمحروم ضاملاً الكل

وصية الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفعه الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجود الجماعة وهناك الإخاء وخصائص المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وهذا صدق قول الشيخ فإني أول قضية تحيط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحي .

(٢) الاستنطاح في المقام هو استخراج الفقيه بالأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه ومنه قوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَخِطُّونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء] والاسباط في اللغة استخراج الماء من نعر البئر إذا حشرت

أى: قولوا لنا: كيف قبلتم لأنفسكم الكفر؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتأق مع العطرة.

وهنا يقول الحق:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ...﴾ [يونس]

وهنا تتساءل: كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب في الرائد ، فكيف تعجبون ؟<sup>(١)</sup>.

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء ، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب ، ونحن نتعجب من عجبكم هذا

وحين تتعجب من العجب ؛ فانت تبطل التعجب .

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ...﴾ [يونس]

أى: أن إحياءنا لرجل منكم كان عجباً عندكم ، وما كان يصح أن يكون أمراً عجباً ؛ لأنه أمر منطقي وطبيعي .

ثم ما هو الوحي؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحي هو لإعلام بحقاء . وهناك إعلام واضح مثل قولك لا بئس: يا بني اسمع كذا ، وافعل كذا . هذا إعلام واضح . وهناك إعلام بحقاء ، كأن يدخل عنك صيف ؛ ثم يسهر خادمك - مثلاً - عن نحيته ، فتشير للخادم إشارة ؛ تعنى بها أن

(١) روى ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسلاً أنكرت الكفار ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسلاً مثلاً محمد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، روى قتادة المشركون ، فوجد الله من يومئذ إلا يقيم أبى طالب ؟ انظر أسباب النزول للواحدي (ص ١٥٩) وتفسير القرطبي (٤/ ٣١٣٢) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٦)

يُسْرِعُ بِتَذْيِيمِ تَحِيَّةٍ لِلصَّيْفِ ؛ مِنْ مَرْمِيَّاتٍ ، أَوْ حِدْرٍ ، وَهَكَذَا تَكُونُ قَدْ  
أَعْلَمْتَ خَادِمَكَ بِحِفَاءِ .

والحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الجماد ، فسبحانه يقول . ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ  
الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا ۚ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ ﴾ (٣)  
يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا ۚ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحِي لَهَا ۚ ﴾ [الزلزلة]

أى : أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً حقيقياً ، وهى قد فهمت  
بطريقه لا نعرفها .

وسبحانه يوحى للمحيوانات ، فهو القائل

﴿ وَأَوْحِي رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ۖ ... ﴾ (٩٨) [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول : أن سميت الله وهو يوحى للنحل ، لأن  
الوحى إعلام بحفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التى عم بها هذا الرحى ،  
والنحل قد فهم عمه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية  
هذا الوحى ﴿ وَأَوْحِي رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنْ الْقِصْبِ الْبَيْتَ ۚ وَمِنَ  
الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٩٨) [النحل]

أى . أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من العرائز .

وسبحانه يوحى للملائكة وهو القائل :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... ﴾ (١٢) [الأعاد]

ويوحى الحق سبحانه إلى غير المرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

(١) فان الترجيح جاز أن يكون سمي بحفاء ؛ لأن الله عز وجل جعل النفس الحسنة الذى يخرج من بطونها



﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾  
[النصر] . (٧) ﴿

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً

إذن : فسبحانه يوحى للحمام ، ويوحى للحيوان ، ويوحى للملائكة  
ويوحى للصالحين من غير الأنبياء . ويوحى للأنبياء وللرسل  
والرعي - كإعلام بحقاء - يقتضي مُعلماً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ،  
ومُعلماً ، وهو إما : الأرض ، وإما السجل ، وإما الملائكة ، وإما إلى بعض  
الصالحين من غير الأنبياء ، وإما إلى الرسل والأنبياء .

وقد يأتي اوحى من غير الله ، فسبحانه يقول : ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّقْنَا لِكُرْبِ  
نَبِيِّ عَدُوًّا شَاطِئِ الْإِنْسِ وَأَلْجِي يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾  
عُرُوراً<sup>(١)</sup> . (٨) ﴿ [الأنعام]

إذن : فالشيطان يُعلمون بعضهم البعض إعلماً حمياً .

ويقول الحق : ﴿رَبَّنَا أَوْحِنَا إِلَيْكَ﴾... (٩) ﴿ [سباء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ ، وهو وحى خاص بالرسول ،  
فلا تقل أن لم أسمع ماذا أوحى إلى محمد ، ولا أعرف كيف نزل

(١) زخرف زخرف الربة ، والمراد به التزيين والتشويق ، وزخرف القوم عروراً أي حسي  
القول بتزيين الكذب

(٢) العُرور : ما عرك من إنسان وشيطان وحيهما ، والعُرور : الشيطان ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ (٣٥) ﴿  
[الأنعام] والعُرور : الأباطيل ، ويحذر أن يكون العُرور جمع غارة ، مثل شاهد وشهود والعُرور :  
الدياروت عنها ، والعُرور : الإغراء بلوعده الكاذب والتسمية ﴿يَأْتِي الْإِنْسَانَ مَا عُرِكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ  
(٤٠) ﴿ [الأنعام] و ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (٣٩) ﴿ [شعاشع] والعُرور : الخداع وتزيين لشر  
والخداع ، وغير بقية وماله بغيره أو فترة عرضهما لئلا يهتك من غير أن يعرف والعُرور : الخداع  
وقد يهتد رسول الله ﷺ عن بيع العُرور ، وهو مثل بيع السمك في الماء والطير في الهواء والتمرير .  
حمل النفس على العرور

الوحي<sup>(١)</sup> ، فقد جاء جبريل إمام رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الرحي من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضرباً للمثل من قل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال موى إلى مصدر ضعيف فهو لا يسرب الطافة من القوى إلى الضعيف دفعة واحدة ، وإلا لما تحمل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحرك يتحمل طاقة لقوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثل ذلك هو شراؤنا لمحور كهربى حين نقل الكهرباء من مصدر طافه على الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى نضيئه فى المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا يرتطم بالأشياء ، وهو ما سميّه بالعامية «وتاسة» . إذن فمهنة الدحول أن يستقل من مصدر الطاقة القوى ، ليضئ لمصدر الطاقة الضعيف .

هكذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تستقى بالبشر ؛ وهذه خاصية السلك .

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقىه للوحي ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد<sup>(٢)</sup> العرق من جبينه ، وإذا انصرف

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن الخارث من هشام سأل رسول الله ﷺ عما كان يدور حول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فمهم على وعد وعنت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى لى لك رجلاً فيكلمنى فأص ما يقول » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣)

(٢) تصد العرق أى سالت العرق من جبينه . وقد نالت عائشة رضى الله عنها ولقد ولدت بزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيصم عنه وإن جبينه ليغضد عرقاً أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى .



ينقلب المثلث إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عمله لتحويل جاءت في الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبي ﷺ ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم احتفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : « هذا جبريل جاءكم يُعلمكم أمور دينكم »<sup>(١)</sup>

هذه هي الصورة الأولى في الوحي ، والتحول فيها كان من جهة لإرسال فلا مشقة فيها على النبي ﷺ

أما الصورة الثانية ؛ فقد كان عليها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن المثلث يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضي عملية كماواة نفسه بجهد ؛ فيقول بعد أن يسرى عنه : « رملوني »

وشاء الحق أن يتعطف برسوله ، ففتر الوحي فترة من الزمن وقال الكاهنون من العرب : إن رب محمد قد قلاه<sup>(٢)</sup> وهذا غناء منهم ؛ لأنهم

(١) عن عمر بن الخطاب قال : لما حضر عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفه على مخدتيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال ﷺ : للإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتسلم رخصتان ، وتجمع البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال صدقت قال فعجب له يسأله ويصفه قال فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صليت قال فأخبرني عن الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ومسلم في صحيحه (٨) والشاهد من حديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ في صورة بشرية ، فلم تكن شاقه عليه ﷺ

(٢) عن حبيب السجسي قال : أنطأ حبريل على رسول الله ﷺ فقال لشركوك قد ودع محمد فأرسل الله عز وجل ﴿ وَالصَّحَى ﴾ (١) والنيل في السجى (٢) « ولعلك شك وما هي (٣) » [الصحى] أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩٧) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) وقال حديث حسن صحيح وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٥٢٢/٤) من الطريق الذي أخرجه مسلم من الترمذي حديثه إلى جندب ، بقوله « هذا المشركون ؛ ودع محمد أربه »

اعترفوا أن لحمد ربنا ، وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف<sup>(١)</sup> وعباء ، وأرادوا بذلك أن يسبوا النقص لحمد ﷺ ، فقالوا : إن الله قد قلى<sup>(٢)</sup> محمداً .

وقد شاء الحق أن يقطع الوحي عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتكشف تراياهم ، وتثبت قلة بصيرتهم ، واقتادهم للمحقق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لحمد ربنا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقرروا بالالوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن يسبوا النقص لرسول الله ﷺ

ولو قاصيناهم إلى عقولهم ، وإلى اىكون الذى عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حدث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له : أنت جئت بالآية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث وما دام الله غير حدث ، فلا زمان بحدده ، ولا مكان يُحيره ؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به . والأحداث هى عند البشر ، فهم من يستقرون فى المكان ، ويتوالى عليهم الزمان

والزمان الذى يحدث فيه أى حدث اسمه «ظرف زمان»<sup>(٣)</sup> ، والمكان

(١) الصلف : مجاوزة الحد فى الادعاء والتكبر

(٢) قلىه : كرهته غاية الكراهة ، فتركت . والقلى : البغض

(٣) الظرف : هو الرمس أو المكان الذى وقع فيه الحدث ، ويسمى الحصة «المفعول فيه» أى أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) فى زمن ما ، ومكان ما

الذي يحدث فيه الحدث اسمه «طرف مكان» ؛ «طرف المكان طرف قار»<sup>(١)</sup> ثابت ، بينما طرف الزمان غير قار ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتى المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً .

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل واحال والماضى ، والليل والنهار هما أوضح صرر طرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه<sup>(٢)</sup> ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سببانه الليل ظلاماً ؛ للسكون والراحة ، فإن لم نرتج بالليل ؛ لا تقوى على العمل فى الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملأ للنهار لا منافضاً له<sup>(٣)</sup> .

وكذلك شاء الحق أن يكون الروحى بهذا الشكل ، فحين جاء الروحى لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الروحى يستريح ﷻ ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الروحى من بعد ذلك

وحين قال الكافرون : إن رباً محمد قد قلاه ، رد عليهم الحق سبحانه

(١) قر مستقر ثابت ومنه أيضاً اللزوم بمعنى الاستقرار ، كقوله تعالى ﷻ الذى جعل لكم الاوهى نارا واتشاه به .. (١٥٩) [خافى]

(٢) قال عز وجل ، ﴿إِنَّمَا هِيَ ظِلٌّ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفٌ مِّنَ الظُّلُمِ وَالنَّهَارِ﴾ (١١٥) إلى قوله تعالى ﴿لَا تَأْتِى الْقَوْمَ بِخَلْقٍ﴾ (١١٦) [البقرة] قال اس كثير فى تفسيره (٢٠١/١) : أى ' مديبى - ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة ويقول سبحانه أيضاً ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (١٢٧) [العرقان] أى جعلهما يتعاقبان بوليتاً لعباده عباده به عز وجل ، من فاته عنس فى الليل سببانه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار سببانه فى الليل وقال سبحانه وتعالى خلقة ، أى ' مختلفين ، أى هذا بسواده ، وهذا بضيائه

(٣) يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَةً لِّمَن يَعْلَمُ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّمَن ابْتِغَا فَضْلًا مِّن رَّبِّهِ﴾ (١٢٥) [الاسراء] وهاتان آيتان على روحيد الله وأن لهذا الكون إلهاً واحداً ، وتلك يقول رب المرء : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جِئَ اللَّهُ بِالنَّهَارِ سَرْعًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ لَكُم مِّنْهُ آيَاتٌ لِّمَن يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢) [المصم]

وتعالى. ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالضُّحَى ضُحوة النهار وهي - كما قلنا - للعمل والحركة ، فهذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده

إذ: فمتور الوحي لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية. وقد أقسم الحق سبحانه بالضحي والليل ، وهو قسم بالظاهرة انكوبية المشاهدة والتي يعترف بها كل إنسان ، مؤمهم ، وكأبرهم

أقسم الحق بالضحي أنه ما قلَى رسولهُ (٣) ، بل شاء بفتور الوحي أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الرحي. وبدلك أعانه الحق على مهمته ، وفي هذا أبلغ ردُّ على من قالوا: إن رب محمد قد فلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحي أن تكون كالليل سكوباً ، ليهباً ﷺ بعد الضحي المحجد الذي استعمل به الوحي.

(١) أقسم الله بالضحي والليل إذا سَجَى ، لأن عظمه الأمل تتجلى فيهما ، وذلك لاستقبال المقاطعات الإلهية قانلاً ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (١) [الضحي] وهذه حمية ﴿وَلَا أَخْرَفَكَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٢) [الضحي] عدم العتاب ﴿وَسِرَفُ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٣) [الضحي] إسمه الرمي به ثم تمام له الدليل على المنطق - قانلاً ﴿كَلِمَ يَجْعَلُ يَتَقَوَّى﴾ (٤) ووجده ضالاً لهدى (٥) ووجده عاقلاً قافى (٦) [الضحي] ما جعلت أعطيت هذه المقدمات الثلاث فأطلب منك ثلاثاً ﴿فَأَنَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرُ﴾ (٧) وأن المال فلا تهر (٨) وأما بقية ربك فحدث (٩) [الضحي] ويهدى يكون إشراح الصدر

(٢) سَجَى سكن وأظلم وأمسد والليل إذا سَجَى إذا سكن بالسي أو إذا لسن الناس وسَجُو لليل تغطيته للنهار سَجَى يسجو سجواً وسَجَى يسجى وأسجى يسجى عطش شجأب والسجبة المعطبة

(٣) تأمل هذا المعنى الذي أشد إليه فضيلة الشيخ في القسم بالضحي محل الحركة والكذب والتمسك بالليل محل السكون لتجديد الطاقة ، ومطابقة هذا لرسول الوحي وجهد السي في استقباله تم المقاطع لتحديد طاقته الرسول ﷺ وقد أصناف ابن القيم مبعثاً مكملاً لهذا المعنى في كتابه «البيان في أقسام القرآن» فقال «تأمل مطابقة هذا القسم وعبور الوحي الذي والله بعد احبائه عنه ، حتى قال أهذا هو ودع محمد ربه ، فأقسم بفسوه النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الرحي ووروه بعد ظلمة احتباسه واحتجابه» هذه السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (٤/ ٥١).

وبعد أن تتجدد حيويته ﷻ يأتي الوحي من جديد : لذلك قال الحق

﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾

[الصحي]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه في سورة الشرح : ﴿أَمْ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَرَضَعْنَا عَنكَ وَزِجْرَكَ (٢) أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَنْقَضَ ظَهْرُكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ .

وهكذا بين لنا الحق أن مسألة سرور الوحي وعودته هي عملية متكاملة ، لكن الأعياء فقط هم من يظنون أنها مشاقصة ويقولون : (طلعة وضوء) ، و(ليل ، ونهار) والحق أنها متكاملة

ومثل هذا الأمر نجده أيضاً فيمن يحاولون حلّو عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يصحّهما أن الذكر متمم للأشي ، وأن الأنثى متممة للذكر

وهنا يقول الحق : ﴿أَكَاذِبُ لِلنَّاسِ عَجَبٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... (٢)﴾ [يوسف]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشيء يمكن أن تتلافاه أما البشارة<sup>(١)</sup> فهي لإخبار بخير بحثك من ييسرك على أن تقنيه . وأنت تنذر من يهمل في دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفي المقاييس فأنت تبشر المحنّهد بالمجّاح وبالمستقبل الطيب .

[دس : فالإنذار يعني أن نحث الإنسان على ألا يقبل أو يُعَدِّمَ على

(١) الورر : الحمل القليل أنقص ظهره . أثبتت جملة

(٢) البشارة بلفظه لا تكون إلا بخير ، أما البشارة المقيدة فتكون بالشر كقوله تعالى ﴿فنبشّرهم بعذاب أكبر﴾ (٣) [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والمخزية.



ما يصره . والتبشير بغنى أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لئلا ما يحبه .  
والأمور في الأحداث كلها تدور بين سلب وإيجاب .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

لنقول : إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين في صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لئلاً من ضرورة التحلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذي يأتي بالضّر أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرء<sup>(١)</sup> المفسدة مُقَدِّم على جلب المصلحة<sup>(٢)</sup>

ولحد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والبأس : هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين ضد كلمة «ناس» ، وأرادوا أن يدخلوها من خلالها إلى مشاهات التشكيك في القرآن ، وقالوا : إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هي سورة «الناس» حيث يقول الحق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ

(١) الدَّرء الدع يقول تعالى : ﴿ وَيُدْرَأُونَ بِالْحَصَاةِ السِّتَةَ أُولَئِكَ نَعْتَمِدُ الْقَدَارَ (٥٦) ﴾ [الرعد] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٦٠) أي : يدفعون القبيح بالحصى ، فإذا أذاهم أحد نابوه بالغميل صجراً واحتمالاً وحشماً وعمواً

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشريعة الأساسية ، والتي دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها ، وهي : حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال . فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يضر بها فهو مفسدة

الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ<sup>(٢١)</sup> الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ<sup>(٢٢)</sup> مِنَ الْجِنَّةِ<sup>(٢٣)</sup>  
وَالنَّاسِ<sup>(٢٤)</sup> ﴿الناس﴾

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» في كل موقع هو معنى مختلف وضروري ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جاذبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضاً في كلمة «الناس» ؛ هو قول الحق سبحانه ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ<sup>(٢٥)</sup> النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٥١)﴾<sup>(٢٦)</sup> [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن .  
مقرله الحق : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ .. (٥١)﴾<sup>(٢٧)</sup> [النساء]

إلما يعني أن هناك أناساً حاسدين<sup>(٢٨)</sup> ، وآخرين محسودين . ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا في حالة الحكم العام.

(٢١) حسن يحسن حسوساً وختاماً اتقبحن وتأنقر . والوسواس الخناس يتخين للعرض مساهة ضعف النفس ينقض ، وساهة غربة النفس ينقض ، وهو الذي يوسوس في صدور الناس من الإنس والجن ، وهو إبليس يوسوس في صدور الناس ، فإذا ذكر الله حسن ، ومن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان واضح خطمه (مقدم آفه وحمه) على فم ابن آدم ، فإن ذكر الله حسن ، وإن سئى اتقم قلبه فذلك لوسواس الخناس» أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٧٨/٧) وأبو يعلى في الحذيفة (٢٦٨/٦) ضعف إسناد ابن حجر في المفتح (٧٤٢/٨) وقال : «فيه عيسى بن أبي حمزة ، وهو ضعيف وقيل إن له رأياً قرأه بخطه ، يجهل حتى الغلب ، فإذا ذكر العبد الله تعالى سحر الشيطان وحسن ، أى ابتعد كس صدم أو أصابه شيء أبعده . والرسوسة . هي الإيهام بالشر

(٢٢) الخسة هم الخن ، سموا بذلك لاستنارهم عن «عين الناس» ومنه . حسن عليه الدين ، أى : سره ، ومنه الحس ، سمي بهذا لاستناره في نظر أمه

(٢٣) حسد من باب نصر وصرب - حسداً : كره بعمد الله على غيره وثقت . والله ، وقد يسمى لهؤلاء قال تعالى ﴿ومن ضر حسد إذا حسد (٢٤)﴾ [العلق] . أى : إذا حاول أن يربل بعمد الله بمختلف الوسائل وبطرائد الحسد مبيحها الحق ، فالمرس القوم بلقرآن الكريم « من ١٥٣

والمثال هو قوله الحق : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران]

وهذا القول لحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لُدُنْ<sup>(١)</sup> آدم ، وآدم هو أبو الناس

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذي وضعه هو من غير الناس ، فالذي وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد : إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذي وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هي رفع القواعد من البيت ؛ ألا لو قلنا : إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذي بنى البيت ؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق :

﴿وَأَذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ<sup>(٢)</sup> مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ...﴾ [سورة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده في الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب في العمل .

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً<sup>(٣)</sup> ؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ...﴾ [٣٧]

[إبراهيم]

وهذا يعنى أن البيت كان موجوداً قبل ذلك .

(١) لُدُنْ : ظرف زمان ، والمراد من زمن آدم عليه السلام

(٢) القواعد : جمع قاعدة وهي السارية وأساس البناء .

(٣) كان عمر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة ، أما كونه كان رضيعاً فهو من الأسرانيات المتخلفة عن أمر الكتاب .

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا : إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من نى الكعبة فنقول لهم : وماذا عن الخلق البشرى من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؟ أليسوا نساءً ؟ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون السبت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله

وكلمة الناس إذن عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة في مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ (٥٤) [النساء]

وأما سورة «الناس» التي قال بعض المفسرين : إن فيها تكراراً ، فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك منكة لهم اللغة

وحين ننوّد كلمة «الناس» بالاستقراء<sup>(١)</sup> الدقيق في هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (١) [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذى أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق .

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرّد منه ؛ فهو سبحانه يقول :

﴿ مَلِكُ النَّاسِ ﴾ (٢) [الناس]

أى . أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار في أشياء ؛ ومع عنهم

(١) الاستقراء : الترامّة مع التفكير الدقيق في النص ؛ للوصول إلى المعنى المراد به . وفي الاصطلاح تتبع الجريئات للوصول إلى نتيجة كنهية . (المعجم الوسيط)

الاختيار في أشياء ، ولم يقل سبحانه «ملك الناس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجسورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين في الأمور التي هي مناط للتكليف<sup>(١)</sup> ، وغير مختارين في أمور هي ليست محللاً بهذا<sup>(٢)</sup> .

وأقول لأى واحد ممن تمردوا على الإيمان ؛ فكفروا بآله ؛ أقول : أت متمرّد على الله ، وتكفرو به ، وتنكرو الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقياً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التي يصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له : لا ، لى أمرض

فلا أحد يستطيع أن يذم عن نفسه قلراً شاء الله ؛ لأن الأحداث<sup>(٣)</sup> متناهل من كل إنسان ما قدره الله له .

إذن : فكل إنسان هو مملوك لله . وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه . ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) ﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿ ملك الناس (٢) ﴾ [الناس]

و«الناس» في الآية الأولى هم المربوبون ، والناس في الآية الثانية هم المملوكون لله ؛ فلا أحد يخرج عن قدرة الله في الأمور الفهرية .

وتأتى «الناس» في الآية الثالثة : ﴿ إله الناس (٣) ﴾ [الناس]

(١) مناط للتكليف أى محل وموضع للتكليف مثل الإيمان أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولو أزمه وشروطه . وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها ، فله أن يؤمن أو يكفر . وهذا آمن عليه أن يلتزم بمقتضيات هذا الإيمان ، وهو أن كان ملتزماً بهذا إلا أن به الاختيار في أن يفعل أو لا يفعل ، وبموجب هذا يكون الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة

(٢) أما الأمور التي يكون الإنسان فيها محيراً غير مختار فهي التي تتعلق بوجوده في هذه الحياة من زمن ميلاده ومكان وظروف المحيط به ورزقه وهن وغيره من هذه الدنيا

(٣) الأحداث : حوادث الدهر وحدائقه أى : نوبة وما يحدث منه ، واحده حدث ؛ وأحدثت من أحداث الدهر شبه تنازلة والرد والمصيبة

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذي يقبك مما ستأتي به الآية  
الرابعة . ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (٤) [الناس]

والآية الخامسة ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥) [الناس]

والوسواس الخناس : هو الذي يزين لك أفعال الشر في أدبك ، وهو  
حناس ، لأنه يخنس ساعة يسمع قولك . «أعوذ بالله من الشيطان  
الرجيم»<sup>(١)</sup> ، وهو يوسوس في صدور الناس المومنين إليهم .

وهكذا نجد أن كلمة «الناس» قد جاءت ، لتعبر عن المومنين ،  
والمملوكين ، والمثأوهين ، واليوسوس<sup>(٢)</sup> إليهم ، وأن من يوسوس قد  
يكون من الجن ، وقد يكون من الناس .

إذن : فليس هناك تكرار في جاءت الكلمة الواحدة بمعنى ياسب كل  
موضع جاءت فيه .

والمثال من حياتنا والله المثل الأعلى - قد أكون معلماً غميراً واختارتني  
الكلية لتي أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم  
الصحية ، ومشرفاً عليهم في الرحلات ، ومراجعاً لتصحیح أوراق  
إجاباتهم ، وهكذا تكرر كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف في كل موقع .

(١) الشيطان . فيقال من شطن إذا بقى ، وهو كل عات متعبد من الجن والإنس والبواب والشيطان .  
الحديث .

والرجيم الرمي بالحجارة . رجيمه يرجمه رجماً ، فهو مرجوم ورجيم ، والرجيم اللس ، ومنه  
«الشيطان الرجيم» ، أى المرجوم بالكواكب ، صرفاً إلى محيل من معمول ، والرجيم الملعون ،  
المرجوم باللعنة ، المنبذ ، المطرود . والرجيم ما رجم به ، والجمع رجوم . والرجيم والرجوم النجوم  
التي ترمى بها الشياطين . ﴿وجناتنا رجوماً للشياطين﴾ (٥) [الناس]

(٢) اليوسوسة والوسواس في اللغة الصوت الخفى الذى يشبه الهمس . وهو أيضاً صوت الخلق (وهو خلق  
للرأى)

والحق يقول في الآية اني نحن بصدد خواطرها عنها . ﴿أَنْ أَلْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ <sup>(١)</sup> عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ﴿٢﴾ [يوس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم .

يُذَن : بالمراد بإلذار الناس هنا ؛ هم جميع الناس .

وما لمقصود بقوله . ﴿بِأَنَّ لَهُمْ لَقَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ... ﴿٢﴾ [يوس]

إن القدم <sup>(٢)</sup> كما نعرفه : هو آلة السعى إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء ؛ فتقول : فلان له يد عندي ، أو تقول : أنا لا أنسى أياديك على حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه ؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه ياولك لها سديه .

يُذَن فكل جارحة <sup>(٣)</sup> لها ظاهر في الحركة ؛ وفي الأعمال . فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك في العطاء ، والأذن في السمع ، والعين في الرؤية . وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدركوا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

(١) قدم صديق كل ما قدم من غير قال ابن قتيبة . أي : أن لهم عملاً صالحاً قدموه . وقدم الصديق

المتزلة الربعة والسابعة ويقول ذو الرمة

وَأَنْتَ أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ نَيْبِ ذُوَانِ

لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَقَامٌ

(٢) القدم ما يمشي الأرض من الرجل ويجمعه أقدم . قال تعالى : ﴿وَبَشِّرْهُ بِالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الأنفال] وهذا

بث روح الشجاعة في نفوس المؤمنين . ويدل على اللفظ عن طريق الكتابة في قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ

بِالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الرحمن] كتاب عن شدة العذاب . والقدم يستعمل مجازاً إرسالاً للتأثير

والكلام التي يمدحها أهل الخير كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ... ﴿٢﴾

[يوس]

(٣) جارحة جمعها جوارح ، والمراد بها أعضاء الجسم وهي ما عرفت من الجرح بمعنى الكسب جرح

الشئ واحتججه كسبه . كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْفَأُكُمْ بِالْأَيْدِي وَيُجْعِلُكُمْ فِي النَّهَارِ﴾ ... ﴿٥٦﴾

[الأنعام] ويقول سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمِلَهُمْ كَأَنْدِينَ أَشْرًا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿٥٧﴾ [الحانية] جرحتم كسبتم وجرحتمم اكتسبتم

يا محمد أن تبشرهم بالجنة . ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق .

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يحلعه الأماقون على تواريج الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب .

قدم الصدق إذن - هو سابقة في الفضل أهلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق . والصدق - كما نعلم - هو الحصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنحى عنها ، فهذا يعنى التنحى عن الإيمان . وحينما سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال . نعم ، فقليل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال . نعم ، فقليل له . أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا <sup>(١)</sup> .

إذن : فالصدق هو جماع الخير . وعلى الصدق تدور الحركة النفعية في الكون

وحين يصدق التجرف في ثمن الأشياء ، ويصدق العامل في إحلاصه للعمل ، ويصدق الصحن في ثقل الخبر ، ويصدق كل فرد في المجتمع ، مما يتكامل المجتمع وينسجم ، لأن الفساد في الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذي يحل بحركة الحياة

لذلك أتى الله بكلمة لصدق في القرآن في أكثر من موضع ، فهو القائل . ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ ... ﴾ (٩٢) [يوس]

(١) أنشرب الإمام مالك في موطأه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلًا

(٢) بَوَّأَ أَزَلَّ وَسَكَى والمَبْوَءُ المكاد الذي أنزله الله تعالى فيه



فحين قالوا . ﴿ لَنْ نُصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ۖ ﴾ (٦١) [انقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، " فلم يجدتهم مسجانه ، ويأتى الحق سرّة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ "صَدَقَ فِي الْأَحْرَبِ" ﴾ (٦٢) [الشعر]

أى . اجعل لى دكراً حساً يمين يأتون من بعدى ، فلا يقال لى تاريخى كلام كذب ، وألا يخلع علىّ الناس ما ليس لى

وقد قل الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿ رَوْحَنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حُمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهِ " ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنًا قَالَ رَبِّ ارْحَنِي " أَنْ أَشْكُرَ بِعَمَلِكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي لِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦٥) [الاحقاف]

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وأصلحهم الله من شر عيون وخودده . وأمرهم عليهم امرى : أنسلوى طعاماً لهم ، فقالوا : ﴿ وَإِذَا قُمْنَا بِأَمْرِي لَنْ نُصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ قَادِحٌ لَنَا وَنَلَكُ بِهِمْ بَخْسٌ بَا سِدَ تَمِيتُ الْأَرْضَ مِنْ بِلَادِي وَفَنَادِي وَفَرَمَهَا رَعْدُهَا وَجَعَلَهَا قُلُوبَ اسْتِدْلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا عَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضَرِبَ عَلَيْهِمُ الدَّبْدُ وَأَسْكَنُ مَا هُمْ فِيهِ وَبَغَضُوا لَكُمْ أَرْبَابَهُمْ بِمَا كَفَرُوا فَاتَىٰ اللَّهَ وَفَعَلَ مَا تُلَدُّونَ الْيَوْمَ بِخَيْرِ الْعَمَلِ فَلَنَكُودَ مَعَهُمْ وَكَانُوا يَحْقِرُونَ ﴾ (٢) [التقرة]

(٢) اللسان معروفا وهو فى تحريكه المص يحرك الطعام ويكيف الصوت ونوعه . قال تعالى : ﴿ لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانًا لَّيَجْلِبَ بِهِ ﴾ (٣) [القيامة]

واللسان أصله حراس الدوى والطق . قال تعالى : ﴿ وَتَسَاءَلُونَ عَنْ رُسُلِكُمْ فَلْيَسْأَلْهُمْ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٤) [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ تَلَا تِلْكَ الْفُتُورَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْفُسِ فَاصْطَلْ وَأَنْفُسُكُمْ ﴾ (٥) [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ الَّتِي نَقُصُّ عَلَيْكَ لَعَلَّ تَتَذَكَّرُ ﴾ (٦) [التقرة]

(٣) اللسان أصله حراس الدوى والطق . قال تعالى : ﴿ وَتَسَاءَلُونَ عَنْ رُسُلِكُمْ فَلْيَسْأَلْهُمْ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٤) [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ تَلَا تِلْكَ الْفُتُورَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْفُسِ فَاصْطَلْ وَأَنْفُسُكُمْ ﴾ (٥) [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ الَّتِي نَقُصُّ عَلَيْكَ لَعَلَّ تَتَذَكَّرُ ﴾ (٦) [التقرة]

(٤) أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، " فلم يجدتهم مسجانه ، ويأتى الحق سرّة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>

[الاحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإيفائه .

ولذلك قال الحق لنا : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا إِنَّمَا أَنَا فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٦) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴾<sup>(٢٦)</sup>

[الكهف]

إذن : لا بد لك أن تسبق أى وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تعد ؛ قد لا تمهلك إيفاء ما وعدت به ، فقد تعد بتساقاً بأن تلقاه فى الغد فى مكان ما لتحدثنا فى أمر ما .

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثانى الذى قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذى من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُعبر أنت رأيت فى هذه المسألة ؟

إذن . لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر لوفاء له ، وأمسك كل عمل إلى من يملك كل العنصر ، وقل :

﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴾<sup>(٢٦)</sup>

[الكهف]

إذن : فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد بمن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج<sup>(١)</sup> الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

(١) مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَيُوَقِّلْ عَلَى الْغَيْرِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾<sup>(٢٠٥)</sup> [الفرقان] ، وقوله ﴿فَمَا أَصْبَرْتُمْ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٢٢٥)</sup> [آل عمران]

لأنه باقٍ ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً تعبر بل بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ السُّقَيْنَ فِي جَنَاتٍ وَنَهْرٍ ﴾ (٤٥) في مقعد صدقٍ عند ملكٍ يقيتير ﴿ (٤٥) [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين <sup>(١)</sup> بأنهم سوف يقعدون في حصرتهم مقعد صدق وهو الملك المنذر . وسبحانه يقول : ﴿ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ ... ﴾ (٨٠) [الإبراهيم]

أي : أدخلني في هذه لبلدة مدخل صدق للغاية انتى لا أستحي من أن أقولها ، لا أن أدخل بفرض أمام الناس وأنا أنصى عرضاً آخر ، وكذلك أخرجني منها مخرج صدق .

إذن : فكلمة الصدق دائرة ﴿ قَدْ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُبَوِّأً صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُنْعَبَدٍ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ وكل هذا يُحبس في الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفصائلها ؛ وحيراتها ، وما يتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق <sup>(٢)</sup>

ومنا في الآية التي نحن بصدد خواطرتها عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَشِيرُ الدِّينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدْ صِدْقٍ ... ﴾ (٢) [يونس]

أي : أن لهم سابقة فضل عند ربهم يجاريهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

(١) من هؤلاء المنابر الذين وردت الآية بأنهم في مقام صدق عند الله عز وجل ، انقسطوا ، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : « إن انقسطوا عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وحولاء » أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٢٧) والنسائي في سننه (٢٢١ / ٨)

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ بذلك يقول فيه الحق سبحانه : ﴿ قَالِ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بحبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ومقول : إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَأَتَتْهُمْ بَعْضُهُمْ رِسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَاحِرٌ <sup>(١)</sup> .

وحاء قول الحق على هذه الصورة الميئة مآلية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً <sup>(٢)</sup> ، لأن لباقية السامع مستتهى ، ليها ، فلا يريد أن يكرر القول وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان :

﴿ أَحِطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ﴾ (٢١) [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له : لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكان هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن لأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب من دوننا ما يُعَلِّمُهُ لنا ، ألم يُعَلِّم الغراب كيف يوازي سواة الميت ؟

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم في الرصف الذي يردون إصلافه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة في الموسم فأوافقوا أن يجمعوا على رأي فيه ، لو رد ابن هشام في السير السيرة (١/ ٢٧٠) : اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان داسين فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا المرسوم ، وإن وفود العرب ستندم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاسكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا يحتفل فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأت يا أبا عبد شمس ، مثل وأقم لنا رأياً نقرل به ، ولنتهى الأمر على القول بأنه ساحر رحم الشافق فيما بينهم

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز ، ويكون حسباً لقوة الدلالة عليه ، أو بقصد به تعدد أشياء ، فيكون في تعدد طوك وسأمة ، فيختلف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تقول في الأشياء المكتص بالخال عن ذكرها

﴿لَجِئْتُ اللَّهَ عُرَابًا يَتَحَثُّ فِي الْأَرْضِ...﴾ (٣١) [المائدة]

ويقول قاييل : ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُرَآى سَرِئَةً﴾ (٣٢) ﴿أَحْيَى فَأَصْبَحَ مِنَ النََّادِمِينَ﴾ (٣١) [المائدة]

وهكذا يعلم الإنسان من هو دونه ، ومن سحره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى حبراً ، لا بد أن يسغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ، فانهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿أَحْطَبُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ (٣٣) ﴿بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ (٣٤) [المل]

ويتخذ سليمان قراراً يفضده الهدد : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلُ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣٥) [المل]

وتتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ (٣٦) [النمل]

فكان الهدد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته : جمعت قومها : لتخبرهم وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رويت تكون تكراراً ، ولكن حاتم المسألة بهذه الصورة : ليدلنا الحق على أن أوامر التلقى كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، عالتهم الأوامر معاً

(١) السبوة في اللغة ، العورة والسراة الفرج قال تعالى ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لُبّاً لَهُمَا مَا وَوَرَى عَنْهُمَا مِنْ سُرَّتِهِمَا﴾ (١٥) ﴿[الأعراف] وقال ﴿يَدْعُ لَهُمَا سُرَّتَهُمَا﴾ (٣٧) ﴿[الأعراف] وقال ﴿يَا بَنِي إِدْمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُرَّتَكُمْ﴾ (٣٨) ﴿[الأعراف] وأمراد بالسراة هنا جسم امت (ليل)

(٢) سبأ اسم بلدة باليمن كانت تحكها بلقيس ، وهي مدينة تعرف بمآزب عربية من صنعاء وسبأ ، اسم رجل يجتمع عامة قبائل اليمن ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

إذن . فقله الحق . ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس]

جاء متسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقبلوا ذلك الاتهام ، لا بعد أن بلعهم ﴿﴾ أن الله قال له : بَشِّرْ وَأَنْذِرْ ، فلما بَشِّرْ وَأَنْذِرْ ، جاء قولهم بأن الرسوب ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ للإنذار ، أو بلاغ بالبشارة .

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التي إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطّلها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء في لقطة أخرى في قصة سبأ ، فيبعد أن اقتصم الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فالتقاء إلى ملكة سبأ ، وقراته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن <sup>(١)</sup> ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها <sup>(٢)</sup> ، فوجد سيدنا سليمان عليه لسلام يسأل من حوله :

﴿ أَتَيْكُمْ بِاتَّبَعِي بِعَرَشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْلِمِينَ ﴾ [المل]

(١) قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أِيَ يَأْتِيَنِي إِلَى كَهْمَا كَرِيمٍ ﴾ [١٥] إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿﴾ لَا تَحْمِلُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَوْلًا بِمَا تَكُنْتُمْ أَفْعَالًا مِمَّنْ كُنْتُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [١٦] قَالُوا دَخَلْنَا قَرْيَةً وَآتَيْنَا بِأَمْرٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكُمْ فَانظُرُوا هَذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [١٧] قَالَتْ إِنَّ الْمَثَلَ لَنَا دَخَلْنَا قَرْيَةً

الْمَدِينَةَ وَاسْتَلَوْا أَمْرًا أَهْلِهَا أَذَلَّةٌ وَكَذَلِكَ يَفْتَرُونَ ﴾ [١٨] [المل]

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها . ﴿ دَانِي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فاحذروا ﴾ [٢٩] ﴿ [المل] ثم جدها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ هَلْ جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَمْنُونِ بِمَا لَمْ يَأْتِ إِلَّا خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ أَفْرَحُونَ ﴾ [٣٠] أَوْجَعُ إِلَيْهِمْ فَمَا لَهُمْ بِمُحْتَدٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَنَحَرْتُهُمْ فِيهَا لَذَّةً لَهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣١] [المل] حيث دالت بلقيس ، قد والله عرفت ما هذا بملك وماله من طاقة ، وما تصنع بمكائبره شيئاً ، ويعتد إليه [س] قادمة عبيث بموك قومي لأنظر ما أمرك ؛ وما تدعوننا إليه من دينك . ثم أمرت بمسير ملكها الذي كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مصص بليقوت والزهرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة أديات بعضها من بعض ثم أفضلت عليه الأبواب ، ذكره من كثير من تفسيره (٣/٣٦٣)

إذن فهو قد علم أنهم مقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا فاهمين في الطريق ، فعلى من يذهب لبغك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادي ، ولذلك لم يتكلم الإنس العادي ، لكن الذي تكلم جنى غير عادي ، ذكي ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك .

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ عَفَرْتُ<sup>(١)</sup> مَنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ<sup>(٢)</sup> ﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات<sup>(٣)</sup> . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ<sup>(٤)</sup> أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ<sup>(٥)</sup> .. ﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا لقول يحتاج إلى ذهن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كن ذك ، ولكن القرآن جاء بالقصة في تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بحبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ<sup>(٦)</sup> .. ﴾ [النمل]

(١) العفريت الشبيه القوي وقد يكون من الإنس أو من الجن وقيل : إن اسمه كرور وأنه كان كأنه جبل من فضة جسمه وقوته .

(٢) قال السدي وغيره . كان سليمان يجلس لسان للقطعة والحكومت من أول النهار إلى أن تزل الشمس

(٣) هو أصعب بن برغيه كاتب سليمان ، وكان صدقياً يعلم الاسم الأعظم قبل . إنه قال : إذا احلال والإكرام وقيل إنه قال يا إلهنا وإله كل شيء إلهنا واحداً لا إل إلا أنت انتن بعزك . قاله مجاهد فيما نقله بن كثير عنه في تفسيره (٣/ ٣٦٤)

وهكذا حذف التفاصيل التي يسهل معرفتها ، والتي وقعت بين قول مَنْ  
عنده علم من لكتاب ، وبين تهديد نفل عرش بلقيس ،

وكذلك حذف لقرآن قدرأ من الأحداث في الآية التي نحن بصدد  
حواطرن عنها ، فعندما بلغهم رسول الله الإنذار ، ها قال الكافرون : ﴿ إِنَّ  
هَذَا لَسَاحِرٌ كَذِبٌ ﴾ (٤) . [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن :  
إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد إنه ساحر<sup>(١)</sup> . ولنسأل ما معنى  
كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو لذي يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛  
وهي ليست بحقيقة .

وبذلك يجب أن نفرق بين اسحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال :  
إن معجزة موسى عليه السلام وهي العصا كانت من جنس ما برع فيه سحره  
فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست  
سحراً ؛ لأن الخو شاء أن يُعبر من حقيقة العصا جعلها أفعى ، أما سحر  
قوم فرعون<sup>(٢)</sup> فهو لا يعبر حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها  
تغيرت .

(١) وردت الآية بقرنين ، فقد قرأها بين مجيئس والكوريون عما هم وحمره وانكماشوا : ساحر وساحرة وجاء  
لرسول الله ﷺ وقرأوا الياقون (للسحر) وصعدا للقرآن نقله القرطبي في تفسيره (٤/٣٢٣٣)  
والقراءتان مؤنسان واحد

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر من يضح آيات من القرآن .  
﴿ وَلَئِنْ الْدِّينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ مِمَّنْ ﴾ (٥٠) [سبا]  
﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ ﴾ (٥١) [الرحرف]  
- ﴿ وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ رَبِّكَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سَحَرٌ مِمَّنْ ﴾ (٥٢) [الأحزاب]  
﴿ وَمِنْ آيَاتِ أُخْرَى أَنَّهُمْ إِتَمَّوا مُجْتَمِعاً ﷻ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ  
﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٥٣) [ص]

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التشييل والأخد بالعجز والشبهة ، ومبناه على أن البصر قد يحطى .  
ويشتغل بالشئ أعين دون غيره ، ولذلك قال تعالى ﴿ يَهْدِي إِلَهٌ مِنْ سَحَرِهِمْ أَنَّهُ لَسَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [مله]



والسحر يقتضى ساحراً ، ويقتضى مسحوراً ، ويقتضى عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التى تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... ﴾ (١٦٦) [الأعراف]

أى سحروا لأعين التى ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشيء لمسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، بكن المعجزة - معجزة موسى - ليس كذلك ، لأنها لا تُغير من الرأى ، بل تغير من " حقيقة ادنى فعلاً " وقد دللنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين احتار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١٧) قال هى عصاى أنورُكأ عليها وأعش<sup>(١)</sup> بها على غمضى ولئى فيها مأرب<sup>(٢)</sup> أخرى (١٨) [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حية تسمى :

﴿ قَالَ أَتَقْنَاهَا يَا مُوسَى ﴾ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) [طه]

فعند رأى موسى عصاه ، قد تحولت إلى حية تسعى على الأرض ، فرأى هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذى سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة . ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سُبِّحْهَا سُبْحَ رَبِّهَا الْأَوَّلَى ﴾ (٢١)

(١) السحر هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو سحر وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إلهجار وتعير ما به الشيء بعدونه ، والسحر يطلق على الشيء الحميل بلوناً مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ " إن من البيان لسحراً ، ورب من السحر الحكمة " وقد يكون السحر معادة من الخواص فيقال عيب سحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام فى المخلوقات التى أبدعها الله

(٢) ﴿ وَأَعْشَ بِهَا عَلَى غَمَضَى ﴾ (٢٠) [طه] أى امر بها الشجرة ليتساقط برزخها لترعاه غمضى منه عين كثير من تفسيره (١٤٥/٣)

(٣) مأرب أخرى مصالح وسافع وحاجات أخرى غير ذلك

إذن : فلم يكن هناك سحر في عيني موسى ، ولكن كان هناك تغيير فعلى حى حقيقة العصا فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلقط العصا ، لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث في حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقعوا في منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له ﴿ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ (٦٥) [طه]

وهل موسى عليه السلام التمردى ، ونجد القرآن يصور المسألة فيقول ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْفَى ﴾ (٦٦) [طه]

وقوله . ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ يعنى . أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسع . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعلى تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلمون الإيمان ، لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهى أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن - فالساحر<sup>(١)</sup> يرى الشيء على حقيقته ، والمسحور هو الذى تتغير رؤيته إلى الشيء ، فيُخَيَّلُ إليه أنه شيء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد . إن موسى تعلم السحر ، وإن من علمه عليهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا .

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (٧٠) [طه]

ولم يقولوا : أما بموسى .

(١) الساحر اسم مفعول . قال تعالى ﴿ وَلَا يَفْعَلُ السَّاحِرُ شَيْئًا ﴾ [طه] والمسحور والمسحور به صرع أو جنون يظن السحر أنه من عمل الساحر ، والسحر صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى ﴿ يَأْتِرُكَ بِكُلِّ مَكْرٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء] والسحر الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى ﴿ وَالْمُسْتَظْهِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [ال عمران] .

إذن ، فالتخيل إنما يحدث في عيسى المسحور . أقول ذلك حتى نفهم خباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيحرج الولد عني أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمرّدون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فبماذا لم يُسحر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمسيح وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَمِنْ بَعْدِ إِذْ يَخْلُقُ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فبلغتهم إلى قضية فرق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يرو العجب في غير مسألة الوحي إلى الرسول ﷺ .

أي : كن عليكم أن تروا هذه المسألة المعجبة ، وهي خلق السموات والأرض وتأملوا صنعها ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذي خلق لسموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطراً على عالم ، وعلى كون معد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة بل أي شيء آخر .

(١) القرآن الكريم مشوّث بالآيات التي تدعو إلى التفكر والتأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، يقول عز وجل ﴿الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (٥٦) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (٥٧) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (٥٨) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٥٩) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٦٠)﴾ [الغاشية] .

وصبرتنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أَنْ نَسْأَلَكَ رَكِبَ طَائِرَةٍ ، ثُمَّ نَعِدْ وَنُؤَدِّهَا وَنَسْقُطُ فِي الصَّحَرَاءِ ، وَكُنْتُ لَكَ الشَّجَاةَ وَتَلَمَّتْ حَوْلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً أَوْ طَعَاماً أَوْ أَى دَلِيلٍ مِنْ أَدَلَةِ الْحَيَاةِ ، ثُمَّ غَلِبَهُ الْيَوْمَ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ ، وَجَدَ مَائِدَةً عَلَيْهَا مِنْ أَطْيَابِ الطَّعَامِ ، وَأَطْيَابِ الشَّرَابِ ، أَمْ كَانَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ : مَنْ الَّذِي صَنَعَ وَأَحْضَرَ كُلَّ هَذَا الطَّعَامِ ، وَكُلَّ هَذَا الشَّرَابِ ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيما أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس في متناول قدرتك ، ومحرر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق أنما خلقت السماء ، وخبقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلت هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذي خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلهاً

وما دام لم يظهر معارضة له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارضة ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارضة .

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أَنْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْدِقَاتِكَ جَاءُوا

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه على هذا المعنى من كثير من الآيات فمثلاً سبحانه وتعالى في سورة النمل ﴿إِنِّي خَلَقْتُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْتُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتُ بِهِ حَدَائِقَ ذَاتٍ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِمَنْ قَوْمٌ يَعْتَبُونَ (١٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاسِرًا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِمَنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَمْطِطُكُمْ خِلَافَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (١٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرٍّ مِنْ رِيحِهِ وَيُخَبِّرُ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّهُ عِنَّا يُشْرِكُونَ (١٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلٌّ مَا تَوَافَرُوا يُرْهِقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَادِقِينَ (١٤)﴾ [النمل] وقال تعالى ﴿لَوْ كَانَ هِيمًا آتِهَا إِلَّا اللَّهُ لَسُدَّتْهُ . . . (١٥)﴾ [الأنبياء] .

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، وسم تعرف لمن هي ، ثم بعثت بخادمك : ليسأل من كانوا في زيارتك ، وقالوا كل واحد منهم : إن حافظة نقوده سم تضع منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هي حافظة نقودي . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل في الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن يجب أن نصدق أنه الخالق

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون سُحْراً<sup>(١)</sup> أهلاً تتركون له حرية أن يختار رسولا منكم إياكم ؟ فب وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق مطلقهم حين قالوا :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الرحمن]

إذن . هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساحطون ويعيشون في ضيق ؟ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبي طالب<sup>(٢)</sup> .

ويكشفهم الحق أيضاً فيما يأتي من جاء على ألسنتهم ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِبْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِمَاةَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال]

(١) سحراً أي مبتلاً ومقهوراً لخدمة الأديس ، ومنه قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ مِجْرَافًا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ وسخَّر لَكُمُ الْفُلْكِ وَالْقَمَرُ وَالْيَمِّ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٥﴾ [إبراهيم] .

(٢) أي داله اشركون في هذا ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب ، فنزلت ﴿وَإِن كَانَ ثُلَاثُ عَجَبًا إِنَّ لَوْحًا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَلَدَ الْفُلْكِ﴾ [إبراهيم] قوله القرطبي في تفسيره (٢٢٢٢/٤)

وسم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهتنا .

فلعداوة هي لرسول الله ، وهي عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أمياً عليه إلا محمداً

إذن : علمانا لا تعشون أنفسكم في مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فبماذا استأتمتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذي هاجر وترك على بن أبي طالب ، يرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتي القول والفعل .

وهنا يقول الحق ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي مِئَةِ أَيَّامٍ ... ﴾ (٣) [يونس]

وفي موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) [حافز]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التي دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرُونِ عَظِيمٍ ﴾ (٢٦) [الرعرع]

ذو : لا شك عندكم في أن القرآن لا طعن فيه ، بل يعلمون في مسألة

(١) يعصد بالقرنين هنا حكمة والطائف واختلعت الأحوال في تحديد هذين الرجلين ، فقليل إيهما الوليد ابن الميمرة ، وعروة بن مسعود الثعفي وقيل إيهما عسير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة . وقيل ابن حيد ياليل ، والمقصود أنه رجل كبير من أي البلدتين كان انظر ابن كثير (١٢٧/٤)

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتمييزتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقلبونه . وأنتم في هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا في قسمة الله ورحمته في أن يرسل الوحي على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه .

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا في الرحمة العليا من الله في أن يختار رسولا ؛ ليلفكم عنه . وتتأسبون أنكم في هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ ﴾ (٣٢) [الرحم]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣٢) [الزحرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة في الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه ، فكيف لكم إذن - أن تطمعوا في تقسيم الأمر العلوي وهو رحمة الله العليا في أن يرسل رسولا .

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد تحواطرن عنها : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ ﴾ .

ومساحة تسمع كلمة «رب» ينصرف الدهن إلى الخلق وإلى اشترية ، وبذلك نحن مستعمل هذه الكلمة ونقول : «فلان رب هذه الأسرة» أي : أنه المتولى تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله <sup>(١)</sup> ، فهو

(١) من عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله قسم بينكم أملاككم، كما قسم بينكم أرواقتكم، وإن الله عز وجل يعطي الذئب من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمرحب» أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في مستدركه (٢٣/١) (٢٤٧/٢) (٤٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وعراه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/١٠) لأحمد وقال رجاله وثقوا في بعضهم خلاف

(٢) الرب في اللغة يطلق على - المالك، والسيد، والمدير، والمربي، والفهم، والمعلم والصاحب - ولا يطلق غير مصنف إلا على الله عز وجل . وإذا أطلق على غيره أضيف ، فيقال : رب كذا، مثل رب الإبل، رب العيمة . انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَمٍ وأَمَدُ من عَدَمٍ" ، وهو بهذا الوصف ربّ لكل خلقه . المؤمن والكافر ، والصانع والمعاصى .

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق إبريق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر بوااسس "الكون وأَسْأله أن يعطى له أو لا يعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ، أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق .

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفره الحق النجاح فى الأسباب

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون . لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ويتأخرون نحن ؟ أقول لهم . لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية . وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ، حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المنفرج ، بل المصروض فيكم أن تبغوا الكفار إلى عطاء الربوبية

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهذا إعطاء لا يناله ، لا من آمن به

إذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله من آمن به . إذن هناك فارق بين

(١) الْمَدَمُ، وَالْمُدَمُّ، وَالْمُدْمُ فتداعى الشيء وانماده . وهذه المادة لم ترد فى القرآن ، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى . (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) (١) [الإنسان]

(٢) بوااسس الكون . الأسرار التى أودعها الله فى الكون ، من قوانين تنظم حركة أجرامه ومكوناته ولثاموس أيضاً صاحب سر الملك أر برجل لذى يطلعه على سره وباطن أمره ويحصيه بما يستره من غيره . ومنه الثاموس حبرول ؟ لأن الله تعالى حصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلع عليهما غيره .



عطاء الإله . وهو المنهج المتمثل في «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل في الأمور المادية وهي شركة بين كل لدن المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي . وحين يُحسن الكافرُ لأحد بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ فَرِزْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن . فراجع على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأحد بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك في الأحد بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة في أن يفرص عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول الحق سبحانه . ﴿إِنْ رِزْقُكُمْ اللَّهُ ... (٢١)﴾ [يونس]

أي . أن الذي رزق ، هو الذي كلّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه . ثم يقول سبحانه . ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٢٢)﴾ [يونس]

وكلمة «ستة أيام» هذه وردت في كل آيات القرآن التي تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهي في سورة فصلت

﴿قُلْ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَّبِعُونَ لَهُ

(١) يوم خلق الأرض من جملة الأربعة بعثت ، والمعنى في ستة أربعة أيام ، وهي مع يوم خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والاثني لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للمعجّل المذكور في الآية وما بعده ، ويوم الخميس وجمعة لخلق السموات فانه أبو يحيى ذكرها الأمازي في كتابه «فتح الرحمن» يكشف ما يتيسر في القرآن من ٣٧٣ وانظر ابن كثير (٩٣/٤)

أَنْدَادًا<sup>(١)</sup> ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ<sup>(٢)</sup> وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ<sup>(٣)</sup> مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا  
وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْقَاتَهَا<sup>(٤)</sup> فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلثَّانَتَيْنِ<sup>(٥)</sup> ﴿١٠﴾  
[فصلت]

وهذه ستة أيام

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ  
اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ<sup>(٦)</sup> فَفَضَّلَهُ<sup>(٧)</sup> سَبْعَ مَسَابِقٍ فِي يَوْمَيْنِ  
وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّتْ السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَضَابِيحٍ وَحُفَظَاتٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ  
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ<sup>(٨)</sup>﴾  
[فصلت]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام ، وهذا هو الغم السطحي ؛ لأن آيات  
الإحمال جاءت كلها بحبر الخلق في ستة أيام وتعلم أن كل مجمل يفسره  
مُفَصِّلُهُ إلا العدد ؛ فإن مفصله محمول على مجمله ، فلأرض خصها الله  
في يومين ، وجعل فيها رواسي ، وبارك فيها ، وكل مخلوق ثان هو تَمَّةٌ  
للأول ، فالיוםان الأولان إنما يدخلان في الأربعة الأيام ، وأخذت بقية  
الخلق لليومين الآخرين ، فصار المجموع ستة أيام .

إذن . فالزمن تَمَّةُ الزمن . ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة  
أطول من عامها ؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون  
يوماً ، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يوماً .  
ذن . فالיום على كوكب الزهرة أطول من العام فيها . واسر في ذلك أن  
كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف في سرعتها عن سرعة الدورة التي

(١) الأنداد جمع ند ، وهم السبه والظير والمثل والأنداد الأصنام المعبودة من دون الله  
(٢) الرواسي : الجبال الثابتة الراسخة وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه  
﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهَا مَاءً﴾ [الأنبياء] أي : لئلا تتحرك بهم وتضطرب ، فلا يصلح  
لهم عيش عليها .

(٣) الأنوار : سبع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً  
(٤) فضي الشيء فضاه ضمه وقدره فضاهض هـ بمعنى : علقهن وعمدهن وصمتن ومطعن وأحكم  
خلقهن

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة ، ودورته حول الشمس سريعة .

إذن : فكل كائن له نظام .

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم في اعتبارنا هو دورة لأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار . ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه ﴿ سَبِّحُوا فِيهَا بِحَمْدِ رَبِّكَ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ وَمِنْ أَجْلِ آلَاءِ رَبِّكَ لَا تَسْبِّحُوهَا وَأَبْصَرُوا يَوْمَ الْقِيَامِ ﴾ [سجدة : ١٨] .

ومن جعل الحق اليوم للضوء والكبح ، والليل للظلمة والراحة والحساب الفلكي يسمى الليل والنهار يوماً .

وسين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوماً للأخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] .

ويقول الحق في موضع آخر : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٢] .

إذن . فالأزمنة متعددة ، ومسوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

(١) تعرج أي تصعد . عرج يعرج عرجاً . وفيه ﴿ عن الله ذي المعارج ﴾ [المعارج : ٢] . [المعارج : ١] المعارج . المصاعد والدرج . قال قتادة : ذي المعارج أي : ذي المواصل والنعم . وقيل معارج الملائكة هي مصاعدها إلى تصعد وتعرج فيها . وقال الصمّاء : ذي المعارج من ربنا الله : لأن الملائكة تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك ، والفرق : كسهم على الماء في نوبه . ﴿ تعرج الملائكة ﴾ [المعارج : ٢] . [المعارج : ١] إلا ما ذكر عن جد الله ، وكذلك قرأ الكسائي

(٢) للمفسرين في لفظ الروح في الآية من عدة أقوال هي

١ - جبريل ، ويكون من باب عطف الخاضع على العام ( أي : الملائكة المذكورين قبله )

٢ - اسم جس لأرواح من آدم ، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء

٣ - خلق من خلق الله يشبهون الناس ولهموا أناساً

كوكب إلى آخر . وما أظهره الله لنا في القرآن من الأرملة ثم يدب على اختلافها ، لا على استعاضة والتناقض<sup>(١)</sup> .

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ووقف العلماء عند كلمة «استوى»<sup>(٢)</sup> طويلاً ، واستعرضوا القرآن كله ؛ ليحصروها في كتاب الله ؛ فوجدوها قد جاءت في اثني عشرة سورة : البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصاص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد .

وأول سورة جاء فيها ذكر منواء الله على عرش هي «الأعراف» يقول الحق ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ الْهَارِ بِظُلُمَةٍ جَثِيثًا<sup>(٣)</sup> وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ

(١) ما يورث الذي كلف به . أي كل يوم من الأيام إلى خلق الله فيها السموات والأرض فإنه من عيسى ومجاهد وعكرمة ، ومن عليه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الترغيب والترهيب» .

أما اليوم الذي كلفه ألف سنة ففيه أربعة أقوال

١ - أربعة مائة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو مدار لأرض السابعة

٢ - مدة بقية الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة

٣ - المدة يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس : استوى كيف استوى ؟ فقال : الكيف غير معلوم ، والاسم غير

مجهول ، والأصل به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وقوله عز وجل ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾

(٣) ﴿[القصاص] قال أبو منصور : كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذي تم شمله وذلك

إذا ثبت له ثمان وعشرون سنة ، ويحتمل أن يكون يدور الأربعين ساعة الاستواء وكسالة المفضل

[اللسان مادة (سواء)]

(٣) غشي الشيء تغطية إذا غطيت ، وغشي الأمر وتغشا وغشيت له يعم . تعالى ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ الْهَارِ

(٤) ﴿[الأعراف] رجال اللحياني وفريه (يغشى) وفريه في الأفعال ﴿يُغْشَىكُمْ الْغَمُّ﴾

(٥) ﴿[الأفعال] أو (يغشاكم) ، و(يغشاكم) وغشاه كل شيء . ما تغشاه كغشاه القلب والسرير

والرحل والسيف ونحوها . وغشاه بلساناً غشياناً إذا جاءه ، وغشاه تغشاه إذا غطاه . وغشى الشيء إذا

لأه . قال تعالى ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١)﴾ [الليل] وقال ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (٢)﴾ [النجم]

[اللسان مادة (غشأ)]

(٤) حيثما أي مرعاً حراً . ورجل حيث ومحتوث . حادث سريع من أمره كأن نفسه تحته . والحث

لإعمال في اتصال . وقيل هو الاستعمال وحته وحته ، أي حصته وتحتله على فعل شيء .

[اللسان مادة (حَثَّ)]

مُسْخَرَاتٍ<sup>(١)</sup> بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْحَقُّ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ [الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولا ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلا منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتثت<sup>(٢)</sup> فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خراطرتها هنا يقول فيها الحق . ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، أى : استتب له الأمر

ثم تأتى سورة الرعد . ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ﴿٢﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤحد على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ... ﴿١١﴾ [الشورى]

ومشاه هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علم بأهلك تقرا الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولك يعلمون ذلك ، ولكن أعلم الله يساوى علمك وعلم من حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

(١) النجوم مسخرات جاريات مجازيها وتسخير الشمس والقمر والنجوم لناس هو الانتفاع بها هو يلزم ما يتوهم ، والاعتناء بها هو مسالكهم ، والتسخير ، التدليل ، اللسان مادة (سحر) (٢) يفتت ، سخرت ويكذب

علم أزلّي<sup>(١)</sup> ، علم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ، لذلك فأنت إذا علمت شيئاً ، وعلم الله شيئاً ، فعلم الله يناسبه ، وعلم البشر يناسبك . وأيُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وأيُّ صفة من صفاتك نسبية ، لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلّي ، وأنت في هذه الحياة مجرد حدث محدود العمر بين قوى الميلاد والموت .

فالله غني ، وقد تكون أنت عيباً ، لكن عنك لا يمكن أن يتساوى مع عي الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك لا يمكن أن يقاس بوجود الله . فذات الله ليست كدواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفعاتنا ، وفعنه ليس كفعولنا ، واستوازه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذي يتسدد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى . قعد . أو فلأخذ الاستواء كتمثيل للسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شيء ، والاستواء : يعنى التمكن . وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ...﴾ (١) [التقصير]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال في الذات . والإنسان منا وهو صغير - قبل البسوع - إنما تنقصه بعض من درجات النضج في الجهاز العصبي ، وكذلك في الجهاز التناسلي ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال : ( استوى ) أى : صار قادراً على إلهاب مثله ، ونمت له رجوته ويقال عن الشجرة : إنها ستوت ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ [العنق]

أى . نضحت نضجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها .

(١) الأزلّي هو القديم ومنه لمولهم هداش - أزلّي ، أى قديم وقيل إن أصل هذه الكلمة قلوبهم لتقديم : لم يترك ، ثم نسب إلى هذا فم يشتم (لا بالاختصار) فقالوا : يركى ، ثم أبدلت الياء ألماً ، لأنها أخف فقالوا أزلّي

(٢) المقصود هنا موسى عليه السلام ، أى : لما اكتمل تكوينه ، وقيل إن هذا يكون عند سن الأربعين

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ ۚ﴾ ... ﴿٤٤﴾ [هود]

أي : استقرت على الجبل واستتب الأمر

إذن : فكل استواء فيه يجب أن يؤخذ على أنه استواء يلين بدائه ، وصفاته ، السى قد يوجد فى البشر مثلاً ، لكنها صفات مطلقة فى إطار : ﴿لَسْ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ... ﴿٤٥﴾ [الشورى]

وفعل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا فى حديث الإسراء<sup>(١)</sup> : إن لكفار المعاصرين للإسراء حينما كذبوا النبى ﷺ فى أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدعى أنك أتيت بيت المقطم فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟<sup>(٢)</sup> وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة .

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون لمعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تم بالروح ؟ ويقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، ومعهم أن الإسراء قد تم بالحسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

(١) الجودى موضع ، وقيل جبل ، قال الزجاج هو جبل بآمد ، وقيل جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام

(٢) أسريت ربييت إذا سرت ليلاً يقول تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (١) [الإسراء] وأسرى بعبده ، ستر عبده وأسراه ، وأسرى بمعنى واحد ويقول تعالى - ﴿وَالَّذِى إِذَا يَسَرَ (٢)﴾ [الحجر] معنى يسر أسرى فيه وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل سنة عشر شهراً

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح فداعى قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس هب والله الأمر البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفينهب ذلك محمد فى بيته ومعه ويخرج إلى مكة ؟ (سيرة النبى لابن هشام ٤ / ٢) والإمر : هو الشئ بالعظيم المعجيب للتفكر

وتدعى أنك أتيتها في ليلة ١٢ بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس في رؤيا أو حلم <sup>(١)</sup> ؛ لأنه لا أحد يكذب رؤيا أو حلماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة

ونقول لمن يدعى أن الإسراء إنما تم بالروح : افهم جيداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسرى بي» .

إذن : فعل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشري ، ولكن بالقانون الإلهي .

والزمن في مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ والقرآن يقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أي أن الله منزّه عما في مال البشر من المسافات والقوة وغيرها .

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابه الرضيع قمة جبل «إفرست» ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل

وهكذا - ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

وبعض في محالها البشري تختلف قدراتنا في قطع المسافات وأرمانها ، فمن يركب عربة يجرها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية في

(١) من جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : لما كذبني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس فمت في الحجر : فجاء الله لي بيت المقدس ، فطعنت أعبرهم عن آياته وأنا أنظر إليهم . أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٧٧) ، والبيهقي في صحبه (٢٧١٠) ومسلم (١٧٠) . ووصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً وبافذة نافذة وأعمدة والطريق إليه ، وهذا لا يمكن أن يكون حُكماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صالحة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل



أبام ، ومن يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين ، ومن يركب طائره فقد يصلها في نصف ساعة

إذن : فكيف رادت الهموء تجد الزمن يقل ، فما بالك بقوة القوى ؟ أليكون معها زمن ؟ طبعاً لا .

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿ فَإِذَا اسْتَفْوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ ﴾ (٢٨) . [النازعات]

أى . بعد أن ركب معك يا نوح من آمن من قومك ، واطمأنت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها .

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... ﴾ (٣) [يوس]

يعنى ، أن الأمور قد استتست وتمت . وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (١١) [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتى تمثيلها ليقرّب المعنى فقط ولا يعطى حقيقة المعنى ، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء . وهكذا فسبحانه لى استواء يلين بدياته ، لا كاستواء البشر .

والشاعر أبو تمام<sup>(١)</sup> حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التى اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل امثال كان نعة الكرم .

(١) الفلك السميعة ، تُذكر وتؤنث ، وتقع على الواحد والاثني والجمع . قال تعالى ﴿ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ (٥٥) [الشعراء] ، وقال ﴿ وَلَرَى الْفُلْكَ يَمِيرُ مَوْجَهُ ﴾ (٥٦) [فاطر] ، وقال ﴿ وَالْفُلْكَ لَمِنْ تَجَرَى فِي الْبَحْرِ ﴾ (٥٧) [الفرقة] وقال : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجِهْتُمْ نَجْمًا ﴾ (٦٦) [يوس]

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، مشاً مشاة متواضعة ، حيث كان يحمل صبيّاً لمالك توفى (٢٣١ هـ) ص ٥١ صاماً

واعترة<sup>(١)</sup> هو قمة الشجاعة ، والأحف بن قيس<sup>(٢)</sup> قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو نمام عن الخليفة :

بقدام<sup>(٣)</sup> عمرو في سماحة حاتم      في حلم أحف في ذكاء إياس  
وهكد صار الخليفة منجم فضائل ، لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم لأحف ، وذكاء إياس ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وصفت ، هؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار . وكان أحد الشعراء :

وشبيهه اندأح في اليأس<sup>(٤)</sup> والندى<sup>(٥)</sup>      بمن لو رآه كان أصغر خادماً  
ففي جيشه خمسون ألفاً كعشر      وفي خرائكه ألف ألف حاتم  
، حين سمع لشاعر الأول ذك ، وكانت قصيدته الأولى «سنيه» ، أي : أن آخر حرف في كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال :

لا تُكثروا ضربى له من دونه      مثلاً شروداً<sup>(٦)</sup> في الندى والياس<sup>(٧)</sup>  
ولله قد ضرب الأقل لتوره      مثلاً من المشكاة<sup>(٨)</sup> والسرّاس<sup>(٩)</sup>

(١) هو اعترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حشيه اسمها ربه ، تولى بحر ٢٢ قبل الهجرة

(٢) هو الأخف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل في الحلم ، ولد في البصرة (٣ ق هـ) وأدرك من النبي ولم يره ، تولى مكنوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً

(٣) الإقدام ، هو المضي إلى الأقدام بجرأة وشجاعة .

(٤) اليأس - لشدة في الحرب ورجل شديد اليأس ، شجاع

(٥) الندى ، السجدة والكرم والجود

(٦) مثلاً شروداً - خارجاً عن المألوف والعادة

(٧) اليأس هو اليأس خفت عمرتها لصروده الشعر

(٨) المشكاة ، كوة في جدار البيت ليست بتافهة يعرف في قرآننا «نطاقة» ، مع نطق العاف همزة

(٩) السرّاس - المصباح والسراج والشاعر هو يقصد قوله تعالى ﴿مِثْلُ نَوْدَى كَعَشْكَاءَ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمُنِيرِ﴾ في رجاءه .. (٢٥) ﴿وَلُور﴾

إذن : فهناك فرق بين تمثيل الشيء : وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ﴾ (٢٤) ﴿ [النور] فهذا مثل توضيحي للبشر . وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك . ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود . وحين نسمع فأنت تسمع مرئي غيرك ، وما لا يحطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول في وضعه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما سمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يحطر على البال ؛ لأنه ﷺ عدم أن اللغة هي ألفاظ تعبر عن معان ، والمعاني توجد أولاً ثم تأتي لها بالألفاظ ، ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق . ﴿ ثُمَّ ابْتَئَى عَلَى الْغُرَى ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا تأخذ الامتواء على المعنى الذي يدل على مكان محيز ؛ لأنه سبحانه منزّه عن أن يكون متحيزاً في مكان ؛ لذاته سبحانه ليست كالأدوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات

(١) حطر الحاطر . ما يحطر في القلب من تدبير أو امرء والحاطر الهامس ويقال حطري بالي وعنى بالي كذا إذا وقع ذلك في ذلك ووجهك والجمع خواطر

(٢) عن سهل بن سعد الساعدي قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وضع فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا يحطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ تصفون جنّهم عن أعضائهم يدعونهم حوفاً وطعفاً ومما رزقناهم ينفقون ١٦ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قهره أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [المائدة] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٣٣٤/٥) من طريق ابن رهب عن أبي بصير عن سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم من مسنده (٤١٢/٢) من طريق عبد الله بن سويد عن أبي بصير . وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الدمعي

ثم يقول بعد ذلك . «بَدِئَ الْأَمْرُ أَي : أنه برتب الوجود ترتيباً يجعل كل شيء موضوعاً في مكانه بحكمة والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هي التي تصنع كل شيء في مكانه بحكمة وصفة الإرادة هي التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه . وصفة القدرة تبرز المراد لله

إذن فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تيسر المراد على وفق العلم ومن المنطقي أن يدير الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق السموات وخلق الأرض . واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يسره بـ "كن" . وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدير سبحانه للإنسان أمور ماديته ، وأمور نعيمه

أما أمور الماديات فقد ظهرت في خلق لسموات والأرض والشمس والقمر والسحوم والماء والهواء. وما في الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه في قوام حياته ، وهو سبحانه الذي خلق كل دلت قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون خليفته والسيد.

إذن . فالإنسان هو الذى طرأ على هذه الأمور المادية ، وكما لا بد أن  
يُنزَل الحق سبحانه فيما يحيا بها الإنسان كخلق في هذه الأمور المادية

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لأُحسب في نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد ؟ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .. ﴿٦٤﴾ [الأنعام]

[illegible]



وإذا نظرت إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشيء الذي لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو عسى أم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشيء الذي للإنسان فيه عمل واحتير ، ولا معنى ذلك أن كل أعمال الإنسان تعنى من الخلل ، لكن الأعمال التي يعانى من الخلل هي الأعمال التي يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله ولو احترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها ، كما استقامت لما توامس الكون العليا<sup>(١)</sup>

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذي لا تساولونه بأيديكم ولا تدخل لكم فيه ، يعمل عناية في الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختبارية بعناية الدقة ؛ محذوا منهج الله في الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أمول قائماً : إنك إذا ما رأيت عورة في الوجود ، يسبب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عطل . وإن وجدت أمة متحلقة ، وعدم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعاني من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويعطى مَنْ يقصر قَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع في المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة في ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، لكل هذه هي رؤوس الإسلام تشحن العبد بعمل وفق منهج الله ، فالصلاة هي إعلان الولاء لله خمس مرات في اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

(١) قال سبحانه وتعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليهيئهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ [الروم] والعسدها قد يكون النقص في الزرع والثمار على البر وأحد المعنى عصاً في البحر فيه ، كان يعرف بأعمال القرصة ، وقد يكون خللاً يحدث في البيئة

والركاة إنما هي من فائض المال ، والحج هو تركُ العمل والأهل والولد .

كن ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجهُ الطاقة إلى عملٍ آخر . ولتأخذ الصلاة مثلاً ، وأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُفعلك وتُنبقي حياتك ، وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلى !

إذن فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطعم ما لم يكنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضار واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ يتبع ذلك ، ومن يتبع الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبدور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام فمن يزرع يحتاج إلى محارث تحث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وأحريين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحارث .

إذن ، فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهكذا تجد أن كل الأعمال التي تُسهلُ لك العبادة هي أعمال واجبة . والمثال . أنك حين تصلى تحتاج إلى سنن عورتك ، لذلك تشتري القماش ليُفصلَ لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التي تنتج القماش وتصنع الثياب هي أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو النيل وغيرها إلى انفاذ ومصانع النسيج ، وغير ذلك . وهكذا تجد أن كل الأعمال التي يتم الواجب بها هي أعمال واجبة ، فسُنن العورة أمر شرعى ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدي إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح

والمثال الذى أصره دائماً هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

وَالْعُسْنُ مِنَ الْجَنَابَةِ<sup>(١)</sup> وَطَهُوِ الطَّعَامَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَدِيمًا يَشْرَبُ مِنَ الْآبَارِ ، ثُمَّ تَطَوَّرَ التَّفَكُّيرُ إِلَى إِقَامَةِ شَبَكَاتٍ لَتَوْزِيعِ الْمِيَاهِ بَعْدَ تَنْصِبَتِهَا ، كُلُّ هَذِهِ أَعْمَالٌ تُزِيدُ الْأَمْرَ الصَّالِحَ صِلَاحًا ؛ لِأَنَّكَ أَخَذْتَ الْمَاءَ مِنَ الْمَطَرِ الَّذِي مَلَأَ السَّهْرَ ، وَأَعْلَيْتَ أَمَاءَ فِي حِزَابَاتٍ لَتَنْفِيقِهِ ، ثُمَّ اكْتَشَفْتَ فَوَائِشَ الْأَسْطَرِاقِ<sup>(٢)</sup> وَمُضْجَعَاتِ الْمِيَاهِ ، لِيَصِلَ الْمَاءُ الطَّاهِرُ إِلَى كُلِّ مَنْ يَحْتَاجُهُ . وَهَكَذَا تُرِيدُ لِمَصَالِحِ صِلَاحًا بِالتَّفَكُّيرِ وَاسْتِخْدَامِ الْعِلْمِ بِمَا يَفِيدُ الْإِنْسَانَ ، إِذَنْ : فَهَذَا عَمَلٌ عِبَادِي مَا دَامَتِ الْبَيْتَةُ فِيهِ اللَّهُ .

وَنَظُرٌ إِلَى يَوْمِ السُّوقِ فِي أَيِّ قَرْيَةٍ ، تَجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ وَمَعَهُ لِمَا شِئَتْهُ وَالْأَنْعَامُ<sup>(٣)</sup> الَّتِي يَرْغَبُ فِي بَيْعِهَا ، وَتَجِدُ مَنْ يَدْخُلُ بِالْفَوَاكِهِ وَالْأَصْعَمَةِ ، وَمَنْ يَدْخُلُ وَمَعَهُ الثِّيَابُ أَوْ أَدَوَاتُ الْمَرْبِ ، وَتَجِدُ مَنْ يَدْخُلُ بِيَسٍّ مَعَهُ شَيْءٌ ، وَبَعْدَ انْتِهَاءِ السُّوقِ تَجِدُ كُلَّ إِنْسَانٍ قَدْ خَرَجَ بِمَا يَحْتَاجُ ، لَا بِمَا دَخَلَ لِبَيْعِهِ . وَهَكَذَا أَلْقَى اللَّهُ الْخَوَاطِرَ فِي قَلْبِكَ وَتَمَكُّبِ الْإِنْسَانِ مَا لِيَبِيعَ مَا لَا يَحْتَاجُهُ ، وَآخِرُ لِبَيْسَرِي مَا يَحْتَاجُهُ مِنْ إِنتَاجٍ غَيْرِهِ .

وَأَنْتَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى قَرْيَةٍ مَا ، سَجَدَ وَاحِدًا مِنْ أَعْيَانِهَا يَرْغَبُ فِي بَيْعِ أَرْضِهِ وَقَصْرِهِ ، وَيَرْغَبُ فِي الرِّحِيلِ إِلَى بَلَدَةٍ أُخْرَى ، وَهَكَذَا تَرَى الْمِيزَانَ الْاِقْتِصَادِي الْإِلَهِي ، الَّذِي يُوَزِّعُ الْعَادَ فِي الْأَمْكَانِ الَّتِي نَلِيقُ بِكُلِّ وَاحِدٍ

(١) الْجَنَابَةُ : بِرَأْلِ الرَّجُلِ مَاءً مِنْ جَمِيعِ أَوْبَانِهِ ، وَسُمِّيَ الرَّجُلُ جَنَابًا لِأَنَّهُ يَجْتَنِبُ الْفَصْلَةَ وَالطَّرَافَةَ حَالَ جَنَابَتِهِ . وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْاِغْتِسَالُ غُسْلَ الْجَنَابَةِ وَلَهُ كَيْفُهُ دَكْرَتُهَا سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، هِيَ عَائِشَةُ وَغُسْلُ اللَّهِ عَنْهَا قَالَتْ : «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ يَدًا فَيَغْسِلُ يَدَيْهِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِرَأْسِهِ عَلَى شِمَالِهِ ، فَيَمْسَحُ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ رُضْرُوءَهُ لِمَصْلَاةٍ ، ثُمَّ يَأْخُذُ الْمَاءَ ، فَيَدْخُلُ أَصَابِعَهُ فِي أُصُوفِ الشَّعْرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّ قَدْ امْتَلَأَ حَقْنُ رَأْسِهِ ثَلَاثَ حَقْنَاتٍ ، ثُمَّ يَمْسَحُ عَلَى سَائِرِ جَسَدِهِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ رِجْلَيْهِ» . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي مَجْمُوعِهِ (٣١٦) وَابْنُ حِبَرٍ فِي مَجْمُوعِهِ (٢٤٨) بِمَوْجُودٍ .

(٢) الْأَسْطَرِاقُ : هَذِهِ أَسْمَاءُ بِمَجْتَمَعِ الْأَحْجَامِ وَالْأَشْكَالِ ، مُتَّصِلٌ بِبَعْضِهَا بِأُخْرَى أَقْنِيَّةً ، «إِذَا وَصَلَ سَائِلٌ فِي وَحْدَى هَذِهِ الْأَتَابِيبِ ارْتَفَعَ سَطْحُ السَّائِلِ إِلَى مَسْوًى أُخْرَى وَاحِدٍ [لِلْمَجْمَعِ] التَّوَسِيطِ» . مَجْمُوعُ النُّسَخِ الْعَرَبِيَّةِ

(٣) الْأَنْعَامُ هِيَ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْعِجَمُ وَمِثْلُهَا لِمَنْطَبٍ ، وَمَعْنَى لِمَنْشَاءٍ لِمَنْشَاءِ أَيِ الْبَيْتِ الَّتِي تَمُوتُ وَتَكْتُمُ . وَهَذَا الْأَنْعَامُ بِهِ الْقُرْآنُ ٤٢ مَرَّةً ، كُلُّ نَزْلٍ سُورَةٍ بِاسْمِهَا وَهِيَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ



منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة في مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه وهذا هو التدبير الإلهي على أحسن ما يكون

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد نضج به على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى واليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً في الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالمعنى أن خط الطفل باليد اليسرى جميل

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبي للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى<sup>(١)</sup> ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنين ، مثل سيدنا عمر - رضي الله عنه - وكان «أصمط»<sup>(٢)</sup> أي . يعمل بيديه الاثنين .

وعلمنا أن يحترم أقدار الله فيما خلق ومن خلق ، فحاشاه يخلق ما يريد ، لا وفق قوالب . بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خلق مراد معين . وكما أحسن الخلق تدبير ما ليس لكم دخل فيه ، فاعلموا أنه قد أتى المصحح

(١) المقصود به هنا من خلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذي يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدي بسماله ويفضلها عن اليسرى فقد خالف استجواب استخدام اليد اليمنى لدى ورد به من رسول الله ﷺ ، فمن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم شيئاً فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد في مسنده (٣٣٢٨/٢)

وهو سبعة من الأكرخ أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : «كل بيمينك» قال لا أستطيع قال لا استطعت ما معي ولا أكبر قال فما رفعها إلى فيه أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استكف أن يطعم رسول الله ﷺ في مثل هذا الأمر لا أن عنده عذراً خفيّاً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فسلط يده

(٢) الأصمط هو الذي يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه ذكره ابن منظور في لسان العرب (جدة صمط)

لِيُحَسِّنَ مَا لَكُمْ فِيهِ دَخَلٌ ، وَيَجْعَلَ أُمُورَكُمْ مُنْتَظِمَةً ، وَكُلَّ ذَلِكَ يَدْخُلُ  
خِصْمُنْ تَدِيرُ الْأَمْرَ .

وَأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شيء يشأ ، وإذا  
عدلت سبحانه عن قول «شيء» إلى قول «أمر» ؟ ، لأن كل شيء  
لا يوجد في الوجود إلا بـ «كن» وهي أمر وسبحانه القائل : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا  
أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٤) [يس]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن  
أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله به «اعمل»  
و«لا تعمل» ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حر فيها .

وإذا ما سأل سائل : ولماذا أتبع المنهج ؟ أقول : إن الحق شاء أن يحقق  
الإنسان على هيتين : هيئة إرغامية "قهرية" ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها  
الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؟ أنت مقهور في  
التنفس ، وتنفس البأ دون تدخل منك ، تنفس مستيقظاً أو نائماً ،  
ولو كان اشعس باختيارك ، لاحتجت إلى مَنْ يدبر حركة تنفسك  
وَأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمه سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك  
نضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية  
للأعضاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز اعصارات  
الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور به ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن  
تشتري من البائع الغلاني ، أو بائع غيره ، وأنت مُخير في أن تحتار أصناف  
الطعام التي بهواها .

(١) لرغمة : حيلة على ما لا يقدر أن يمنع عنه . والرخم : القصر والإجبار .

والمساحات في الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين أخرية في الحياة ،  
وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى به «افعل» و«لا تفعل» ، لا يجرح عن  
أمر محصورة تصوبك وتصون مجتمعتك ، وكذلك الكون لدى نجما فيه .  
وإن مارست أيها الإنسان حريتك في الأمور المباحة على أي لون شئت ،  
فذلك لا يفسد الكون .

وقد شاء الحق سبحانه - أيضاً - أن تكون مقهوراً في بعض الأمور حتى  
لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت  
حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى في الأمور المباحة ؛ فلا مانع  
لذلك . وكل أبشر يختلفون .

وآراد سبحانه أن يحمي الإنسان وأنكون ؛ لأنه علم أولاً أن أهواء البشر  
تتضارب ، وهو لقائل : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ  
وَالْأَرْضُ ﴾ (٢١) .

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحْكَمٌ ، وما يسير  
بدون تَدَخُّلٍ من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل  
نواميس الكون تعمل بدقة يدهش بها المؤمنون بالثبوت والكافرون به <sup>(١)</sup> ،  
فسبحانه يحكم في ملكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن  
لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلي أو الجزئي

(١) هو النص إرادتها ، واجمع أهواء الهوى . محبة الإنسان الشيء وعيبته على فيه ، قال  
تعالى ﴿ رُبُّهُمُ الْبَشَرُ مِنْ هَوًى (١٠) ﴾ [الزمر] أي نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من  
اللباس . وحتى تُكَلِّمَ بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مدفوعاً حتى يُبْتِ بما أُفْرِجَ عنه ، كقولهم عَرَى  
حَسْرَةً وهوى موافق للصبوات .

(٢) نواميس الكون أسرارها ، والناصوس في النفس صاحب سر الملك أو الرجل الذي يطلع على سره  
رباطن أمره ويحضره بما يشتره من غيره .

لِلشَّمْسِ أَوِ الْقَمَرِ بِدَقَّةٍ مِنْهُنَّ ذَلِكُمْ بِاسْتِقْرَارِهِمْ لِمُعْطَيَاتِ الْكَوْنِ .

وَمَا دُمْتُمْ أَنْتُمْ تَتَمَيَّزُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، فَحَدِّثُوا مِنْهُجَ اللَّهِ فِي حَيَاتِكُمْ ، لِتُسْتَفِيمَ أُمُورَكُمْ بِمَنْ اسْتِفَامَةُ الْكَوْنِ .

وَلَدَيْكَ قَالَ سَمِعَانَهُ : ﴿ يَدْبُرُ الْأَمْرَ ... ﴾ (٣)

وَبُضَيْفَ : ﴿ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذٍ ﴾ وَجَاءَ الْحَقُّ بِمَسْأَلَةِ الشَّفَاعَةِ بَعْدَ مَسْأَلَةِ تَدْيِيرِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَعَجَّبُوا مِنْ إِرْسَالِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ ، كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا لَا يَصْرَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : إِنْ تِلْكَ الْأَصْصَامُ تَشْفَعُ لِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ، مُصَدِّقَاتُ لِقَوْلِهِ الْحَقِّ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . ﴾ (١٨) [يونس]

وَلِذَلِكَ يُفَصِّلُ الْحَقُّ سَمْعَانَهُ مَسْأَلَةَ الشَّفَاعَةِ . مَا لِلْإِنْسَانِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةِ عِنْدَ مَنْ يَمْلِكُ الْأَمْرَ إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ جُرْماً أَوْ حَدَّثَ مِنْهُ تَقْصِيرَ فِي أَمْرٍ مَا . وَالْآيَةُ أَوْضَحَتْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَا لَا يَصْرَهُمْ إِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ ، وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِنْ عْبَدُوهُ ، وَأَقْرَبُوا أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْأَصْصَامِ إِنَّمَا تَشْفَعُ لَهُمْ ، وَالشَّفَاعَةُ مِنَ الشَّمْعِ ، وَالشَّمْعُ صَدُّ الْوَتْرِ وَالْوَتْرُ هُوَ مَا لَا يَقْبَلُ الْقِسْمَةَ عَلَى اثْنَيْنِ ، فَيَكُونُ الْوَتْرُ رَقْعاً مُرْدِئاً<sup>(٣)</sup> .

(١) الْكَسْرُفُ : احْتِجَابُ مَوْرِ الشَّمْسِ ، أَوْ مَصْنَعُهُ ؛ يَوْقُوعُ الْقَمَرِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ وَهُوَ لِلشَّمْسِ كَالْخُشُوفِ لِلْقَمَرِ

(٢) شَمْعٌ : صَبْغَةٌ مَبَالِغَةٌ مِنْ (شَامِعٌ) وَهُوَ الَّذِي يَشْفَعُ أَيْ يَطْلُبُ الْعَوْرَةَ لِشَخْصٍ آخَرَ ، وَالشَّامِعُ الْعَالِمُ لِبُخْرِهِ وَاجْتِمَاعِ شُعَاعِهِ قَالَ تَعَالَى ﴿ مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا فِيهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ (٥٥) [الْأَنْعَامُ]

(٣) الشَّمْعُ : خِلَافُ الْوَتْرِ ، وَهُوَ لِدَوِّجٍ نَقُولُ كَانَ وَتْرُ أَشْجَعَةٍ شَفْعاً وَشَفْعٌ لَوْتَرٌ مِنَ الْعَدَدِ شَفْعاً أَيْ حَبِيرَةً وَرُجْأً وَالشَّمْعُ مِنَ الْأَعْدَادِ مَا كَانَ رُجْأً نَقُولُ : كَانَ وَتْرُ أَشْجَعَةٍ بِأَخْرَجَ . هَذَا بِمَعْنَى ﴿ وَالشَّمْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ (٤٧) [الْعَنْجَبَرُ] قَالَ الْأَسَدُ بْنُ يَرْبُودَ : الشَّمْعُ هُوَ يَوْمٌ وَالْأَخْشَبُ وَالْوَتْرُ هُوَ يَوْمٌ هَرَقَ . وَقَالَ عَطَاءُ الْوَتْرُ هُوَ اللَّهُ ، وَالشَّمْعُ خَلْقُهُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْوَتْرُ أَدَمُ شَفْعٌ بِرُوحِهِ . وَقِيلَ فِي الشَّمْعِ وَالْوَتْرِ : إِنْ لَأَهْدَادَ كُنْهَا شَمْعٌ وَوَتْرٌ

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله القوي يعبد به ، وهو غير قادر على مراحته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتي بأخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعصيد<sup>(١)</sup> لفرد بواحد آخر ؛ يستقل من كونه وترآ إلى كونه شفعا

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْهِ . . (٤)﴾ [نور]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هي الأربعة العناصر في لشفاعة . والذي يستشفع هو المقصر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء بهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو بحسب العذاب أو إنهاء العذاب .

إذن . فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر في الشفع ، والأمر في المشفوع له ، فهما مختلفان . وأنت - على سبيل المثال ، لا تأتي بإنسان يسير في طريق وتوسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كنت لك حاجة عند أي منهم ، بل تأتي بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله مصلحة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإدراك أن يكلم المحافظ أو الوزير في أمور الناس .

وإذا كان هذا هو الحال في الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

(١) الاعتقاد ، التوكل والاعتماد ، واعتصمت بعلان استعصية ، والمعصية للمعونة وهي مأخوذة من المعص وهو الساعد ، أي ما بين المرفق إلى الكتف والمعص القوة ؛ لأن الإنسان إذا جرى به عصبه استعيت القوة به ، قال تعالى ﴿يَسْتَعِذُّ عَصْدُكَ بِأَعْيُنِكَ﴾ [التقصير] .

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بين الحق هنا أن الشفع لا بد أن يكون  
بإذن من سبحانه ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ... ﴾ (٣) [يوسا]  
وهي سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا  
بإذنه ﴾ (٢٥٥) [البقرة]

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الْوَحْشُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (١٦)  
[طه]

ذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضا من الله

أما المشفوع له فقد قال الحق

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى . ﴾ (٢٨) [الأنبياء]

هكذا بين لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع  
عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهي معروفة .

ولفائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضى عن عبده ، فلماذا  
يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لنتنبه إلى أن الإنسان يمرض لأعمال كثيرة، وله نقاط ضعف في  
حياته ؛ قد تكون كثيرة، وقد تكون قليلة، فإذا جاء في نقطة الضعف وأذنب  
ذنبا، فعليه أن يريد من جعل النقاط القوية التي نكتب له بها الحسنات ؛ لأن  
المعير هو : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ كَالْظُلُمِ السَّيِّئَاتِ ... ﴾ (١٠٤) [هود]

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هي أعمال طيبة يفعل الخير مطلقا وذهب بعضهم  
إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصدقات الخمس ، واستشهدوا بحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه  
قال : «أرأيتم لو أن بابا أحدكم بهرا غمرا فغسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دراهم شيء» .  
قال : «نعم» مثل الصدقات الخمس ، يمحوا الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه  
(٥٢٨) ومسلم (٢٨٣)

فاعد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يريد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُقبل أحد من ملكوت الله .

وَمَا أَنْ إِنْسَانًا بِهِ نَقْطَةُ ضَعْفٍ ، وَأَدَبٍ دَنِيًّا ، وَعِنْدَهُ نَقْطَةُ قُوَّةٍ يَطِيعُ فِيهَا اللَّهُ بِسَهْوَةٍ وَيُسِّرُ ، هَذَا لِإِنْسَانٍ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ لِأَجْلِ نَقْطَةِ قُوَّتِهِ هَذِهِ ، وَقَدْ يَرْحَمُهُ اللَّهُ مَسْحَانَهُ فِيمَا أَذْنِبَ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَيَجْعَلُ الْمَأْدُونُ لَهُ فِي الشَّمَاعَةِ يَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ مَسْحَانَهُ .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

ثُمَّ أَلْحَقَ ذَلِكَ حَتَّى لَا يُحَرِّمُ الْعَامَمُ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يَجْعِلُهَا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ . وَيَحْكِي لَنَا الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا لَقِيَ كَلْبًا يَنْهَثُ مِنَ الْعَطَشِ ، وَلَمْ يَجِدْ الرَّجُلَ إِثَاءً يَمْلَأُهُ مَاءً مِنَ الْبُئْرِ لِيَسْقَى الْكَلْبَ ، فَمَرَّ الْبُئْرُ وَمَلَأَ حَفَّهُ <sup>(١)</sup> ، وَعَادَ إِلَى الْكَلْبِ لِيَسْقِيَهُ . وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ لِيَنَاقِقَ الْكَلْبَ ، بَلْ مَتَّيَّهِ الرَّحْمَةُ بِهَذَا الْحَيَوَانِ ، كَذَاتِ حَقِّهَا اللَّهُ ؛ لِذَلِكَ غُفِرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِهَذَا الرَّجُلِ <sup>(٢)</sup>

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات وقد جعل الحق سبحانه الشماعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك في المأدون له في الشماعة ،

(١) مَكُوتُ اللَّهِ : مَسْحَانُهُ وَعِظْمَتُهُ وَلِلْكُرْتِ مَلَكُ الْإِعْمَامَةِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ فِي يَدَيْهِ مَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ (٥٧) [الْمُؤْمِنُونَ] قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : مَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ مَعَهُ : الْعُدَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(٢) الْحَبْلُ الْعَلِيُّ يَتَّبِعُهُ الْإِنْسَانُ فِي قَدَمِهِ

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ أَثْنَتُ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بُئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرْبَ مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبُئْرَ فَمَلَأَ حَفَّهُ ثُمَّ أَسْكَنَهُ فِيهِ دَسْتِي الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ وَغُفِرَ لَهُ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرٌ ؟ فَقَالَ : فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ . أَخْبَرَهُ ابْنُ خَلَّازٍ فِي صَحِيحِهِ (١٠٠٩) وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٤٢) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأبيه ، وأن الأب قد يشفع لاهله " ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع في كرامه الشفاعة بعمل الخير وإحلال النية

وإذا رأيت إنساناً محسناً في دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه في دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة لقاحته يقول : ﴿إِيَّاكَ بَعَدُ وَإِيَّاكَ نَسُوعُ﴾ <sup>(١)</sup> [العنكبوت]

وكان الحق سبحانه قادراً أن يرسلها : «إيك أعبد وإيك أسعين» ولكنه شاء أن تنز عسى صورتها تلك ؛ حتى يأتى سبحانه بقبول الصلوة من كل فائيتها ، فيتقبل من عبادته أعمالهم بما يعبر لبعضهم الأشياء المعية .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً في العبادة فلا تسخر منه ولا تنهأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة واشغاله بالعبادة قد ينفعك أنت

وساعة تتدقق أمراً من رسول الله ﷺ وتجدد شاقاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرحع الذي قد يشفع لك في الأمور التي لم تقدر عليها

(١) هذه الشفاعة مقيدة ألا تكون في حد من حدود الله ، ومداً ما دل عليه السنة الصحيحة ، من ما شاة رضى الله عى أن قريشاً أهمهم شأن امرأة التي سرفت في عهد النبي ﷺ في عزوة المنح ، قدوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجزىء عيه لا أسامه بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكنبه في أسامة بن زيد ، فتعود وجه رسول الله ﷺ فقال : " أنشفع في حد من حدود الله ؟ " فقال له أسامة : ستمرلى يا رسول الله ! أتعلمت ! أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٨٨) والبخارى في صحيحه (٦٧٨٨)

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أو الأثم يأتى العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ودع هاجر وإسماعيل إلى النبي المبرم قال : ﴿ربنا إني استكسب من ذنوبى واد غير ذى ذرغ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل الهدنة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا﴾ [إبراهيم] والعبادة سفت ، والعبادة وسيلة العبادات والشفاعات والعبادة بآتى العون



ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع به ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيده عمر بن الخطاب ، فسأل الرائي سيده عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا بن الخطاب ؟ فقال سيده عمر : غفر الله لي . فسأل الرائي : بمذا ؟ أجاب سيده عمر : لأبي رأيت علماً يبعث بعصفور فاشترته حتى لا أفجعه في عصفور يملكه . وأخذت العصفور وأطلقته

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل بن الخطاب أعمالاً تزهله لغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص عمر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهي لرفع الدرجات .

وفي القرآن آيتان جاءتتا بنص متقارب ، فالحق يقول

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ...﴾ (١٨) [البقرة]

والآية الثانية تقول : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ...﴾ (١٧) [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين يفرص لظعن في القرآن ، هم من الغريب عن اللغة ولا يملكون ملكة<sup>(١)</sup> لبيان متى يمكن أن يسبقوا الأساليب بها ، ولو امتدوا هذه الملكة يعلموا أن لصدور في الآيتين محتمل

(١) عدل : نداء أو بذل

(٢) الملكة : صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي حاصل لتأويل أعمال معينة بحدود ومهارة ، مثل الملكة الغوية

لوحهين ، فهناك نفس جارية هي التي تستشفع ونفس مجزى عنها هي التي  
تُشفع لها

والضمير الذي يأتي في قوله الحق ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾  
و ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح  
أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان ما إذا ما كان عليه شيء  
لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرئ دمه منه ، فهو يلجأ إلى صديق  
لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . ومور أن يذهب صاحب المكانة  
إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتي بفلان ؟ فإن قال صاحب  
الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : بـ . سادع  
العلل ، أي : ما يساوي قيمة ما كنت سأستشفع له فيه . وهكذا نجد أنفسنا أمام  
نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أي من النفسين .

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عليهما : إنهما  
متشبهتان ، صدر كل منهما مسجوم مع عجزها .

ونتهي لحق سبحانه الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها بعد أن أوجزت  
لآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويحذر من يقدم  
له الشفاعة ، فيقول : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٤) [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق  
الإنسان لي عمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا  
إله إلا هو ، وحين يشهد لحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأد  
أوامره في كونه نافذة .

وقوله سبحانه ﴿ذَلِكُمُ﴾ أي : إشارة إلى ما تقدم من خلق  
السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم  
وعبدوه ؛ لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات  
الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأي فائدة ، فسبحانه منزّه عن  
فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا في ملكه شيئاً ، وإن لم  
تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً<sup>(١)</sup> . والعبادة يعود بعمها عليكم ؛  
لأنكم سآخذون بها مهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى  
اسوَجٍّ واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛  
فيتكس العالم .

دب : فالعبادة توحد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف<sup>(٢)</sup> الإنسان  
بما أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من  
مخلوق لخالق ، وبذلك نستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم  
غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة في أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه  
الأركان الخمسة هي الدعائم التي تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام  
هو كل أمر لله وكل بهي له سبحانه ؛ ولذلك حين تتابع تسلسل الأمور ،  
سجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم  
الواجب إلا به فهو واجب .

(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ حيث روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادي ، لو أن أولكم  
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زد ذلك في ملكي شيئاً .  
يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من  
ملكى شيئاً . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد في مسنده (١٥٤/٥ ، ١٧٧)

(٢) يأنف يكره .

ويقول الحق في آخر الآية: ﴿أفلا تدكرون﴾ والدمن أو المنيح كما نسميه فيه ملكات متعددة مثل: ملكة التحيل، وملكة الحفظ والاحتزان، وكثير من الملكات الأخرى منها ملكة التذكر ومعنى التذكر أن شيئاً سبق لك إلفاً<sup>(١)</sup> به، فطراً عليك ما أنساك، وحين تسمى أمراً يحضر أحد أقرانك، فهو يقول لك: تذكر يا أخي الأمر القلاني، وهو لا يأتي لك بأمر مجهول لم تعرفه أولاً، بل يأتي لك بأمر كان معلوماً لك، ولكك نسيه

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيرة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً، وهذا الأمر لا تأخذه من الفلاسفة، بل من رجل الشارع، وداعى الشاة: فقد حاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعراً<sup>(٢)</sup> في الطريق، فقال: إذا كان البعر يدل على العبر، والسير يدل على المسير، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير ١٩

والمثال من حياتنا اليومية: أن عمالة الملابس الكهربيه - وهي لا تدل على شيء ضروري في الحياة، بدليل أن السابقين عليهما كانوا يعملون ملابسهم يدونها، فهي ثقل ثرفاً، لا ضرورة - تحذ الناس يعرفون من الذي اسكوها، ومن أوصدها بالكهرباء ومن صنع لها توقيتات دورات الغسيل، ومثلها مثل المصباح الكهربى الذى يفسد بعد عدد معين من الساعات، ونجد السلاميد يدرسون تاريخ من صبعه، فهل يمكن أن نسى من خلق الشمس التى تضيء الكون؟

(١) ألفت الشيء وألفته لزمته، أو أسببه، أو اعتدته، فهو مألوف نال معالي: ﴿لا يزال فرحهم﴾ (٢) البعرة واحد البعر، وهو رجيع الخف، والظلف من البعير

(٢) البعرة واحد البعر، وهو رجيع الخف، والظلف من البعير

بن ونجد في زماننا العالم الكافر وهو يحدث بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد من يسجله ؛ حتى لا يسرقه غيره ، فما بالما بالشمس التي تضيء وتلطف ، والقمر الذي يحدد الشهور ، والنجوم التي تدل الناس على الاتجاهات " ولا شيء في كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعرف من خلق كل ذلك ، ما هو ذا سبحانه يدلنا على من خلق ويلفنا ما يسجل له ملكه ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذي خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى من يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه ، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن تأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف تأخذ الدليل من كلمة : لكفر نفسها ، هذه الكلمة ( كفر ) تعني : ( ستر ) ، فهل يُستتر إلا موجود ؟

إذن : هل كفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سترًا ، فالكفر أمر طارئ ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتي لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس في حركتها ؛ لذلك قد يعمل الإنسان متاسيًا أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس

فحين يُحرّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

(١) ملا الله سبحانه الكون بدلائل ربوبية ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو الديم الذي أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأبصار

منها الشمس التي قال عبي سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَفَاجًا ﴾ [الباء] وقال عبي وعين القمر ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مِزَاجًا ﴾ [يونس] وعن المجوم قال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام]

وحين يأمر بك بغضٌ بصرك<sup>(١)</sup> عن محارم جارك ، فهو يحمي محارمك أن تنظر إليها غيرك .

إد : فالإيمان جاء بالنعبة لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، محد الحق سبحانه يقول<sup>(٢)</sup> : ﴿ اذْكُرُوا ۖ ﴾ (٣) . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تحركه شهراته فهو يهتدى إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يأت صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . ونجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه في الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التي تحرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذي خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ، بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية في الكون .

وحين نعلم أن الآلية التي يصنعها الشر في بعض المعدات تتسبب في إحداث جمود ، فالعقل الإلكتروني ليست له قيومية على المعلومات المحتزنة فيه ، فلا يستطيع أن يحفى منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يحفى ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) يَدْرُكُ بِهِ بَصَرُكَ ۖ فَوُضِعَ الْبَصَرُ ۚ فَاذْكُرْ ۚ فَمَا يَتَدَخَّلُونَ

(٢) وَقُلْ لِلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْضَرُونَ نُزُجْهَنَ ﴿٣٥﴾ [النور]

(٣) ﴿ مَنَافِئُ النَّاسِ أَذْكُرُوا ۚ نَعْتَبُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ۚ مَن مِّنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ ﴾ [فاطر]

والنعمة موجودة أوجد الخالق سبحانه في الكون ، وعرف الإنسان على الكون ، ولكنه تعامل فاحتاج إلى التذكير من خالقه

﴿لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]

فما دام قبل للإنسان لا تكتم الحق إذن : فيه قدرة على الإحفاء  
والوردة الطبيعية . على سبيل المثال - حيويتها في ذبولها على عكس  
الوردة الصناعية التي تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ..﴾ [٨٠]

أو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ..﴾ [٤٠]

فهو يحرض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن  
يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكير والتدبر  
والاعتبار .

وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل  
للصوف تشتري مائشاً متمزناً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده  
بيديه ليبين لك مثاقفه ، ثم يأخذ من حيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف  
خالص نقي ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛  
لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على  
مخلوقاته أسرار الكون ويدعهم عبر منهجه إلى التذكر والتفكير والتدبر  
والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب ما ذلك ثقة منه في أن الإنسان مت ، إن هعس  
ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

(١) التيسر عليه الأمر اختط واشتهر . التيسر كالتدبير والتعليل . إلياس الحق بالباطل حطه به  
ومنه قوله تعالى ﴿أَوْ يُلَاحِظْكُمْ خِيَفًا﴾ [الأنعام]

وإياكم أَد تَضَوْا أَنْ اللهُ خَلَقَ لَكُمْ ، ثُمَّ خَلَقَ لَكُمْ ، ثُمَّ أَرَلْ لَكُمْ الْبَهْجَ  
لِيَسْعِدَ حَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ اعْتَزَلَكُمْ . لَا ، بَلْ هُوَ قَيُّومٌ  
حَيَاتِكُمْ وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، وَلَا يَفْلِتُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا أَحَدٌ بِقَادِرٍ  
عَلَى أَنْ يَحْتَسِبَ مِنْهُ شَيْئًا .

وهي الحديث القديس . « يَا عِبَادِي إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي لَا أَرَاكُمْ  
فَالْخَلَلُ فِي إِيْمَانِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي أَرَاكُمْ فَلِمَ حَمَلْتُمُونِي أَهْوَنَ  
التَّاطِرِينَ إِلَيْكُمْ » .

وَأَنْتَ فِي الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ تَعْرِفُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْتَرِبُ مِنْ إِنْسَانٍ قَرَى مِنْهُ  
وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُو  
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمَسُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ  
بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ <sup>(١)</sup>  
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

وَحِينَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فَبِهَذَا إِعْلَامٌ لِّكُلِّ الْخَلْقِ أَنَّ  
كُلَّ الْأُمُورِ مَعْلُومَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ ، فَقَدْ أَرَلْ التَّكْلِيفَ الَّذِي هُوَ بَطْعُ : وَقَدْ  
يُعْصَى . فَمَنْ أَطَاعَ بِفَرْحٍ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، وَمَنْ  
عَصَى يَحْزَنُ ، لِأَنَّهُ سَيَلْقَى عِقَابَ الْعَصَاةِ حِينَ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ <sup>(٢)</sup> .

(١) الْحَمِيمُ : مَاءٌ شَدِيدُ الْحَرَارَةِ وَالسَّحَرَةِ .

(٢) وَتَدُلُّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ لَوْلَاهُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ لَا أَتُكَلِّمُهُمْ مُّشَاقِقِينَ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهِ مِنْ  
أَهْوَالٍ وَهِيَ لِعَظَمِ إِيْمَانِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، وَأَنَّهُ سَيَحْلِلُهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَلَئِنْهُمْ يَعْمَلُونَ ، طَاعَاتٍ  
وَيُخَافُونَ إِلَّا نَفْسًا ، وَفَقَرُونَ فِي الْخَاضِ وَيَحْشُرُونَ الْأَيَّامَ لَهُمْ . يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ الَّذِينَ يَحْشُرُونَ رُفُفَهُمْ  
بِالرُّبِّ وَهُمْ فِي السَّاعَةِ مُخْفًوْنَ ﴾ (٢٥) [الأنبياء] .



ونجد القرآن يقول مرة : ﴿يُرْجَعُونَ﴾ ومرة يقول : ﴿يَرْجِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، فمن عمل صالحاً ، فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر ، فهو يحزن ويحاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجع رغم أنه ، والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ يُدْعُونَ<sup>(٢)</sup> إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دُعَاً<sup>(٣)</sup>﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا في الآية لتي نحن بصدد حواطرتها عنها : ﴿لَهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً<sup>(٤)</sup>﴾ . [يونس]

وسمى هذا المرجع في نفس الآية . ﴿وَعَذَابُ اللَّهِ حَقّاً<sup>(٥)</sup>﴾ . [يوس]

ولنقاتل أن يقول : ولكن الوعد يطلق على الأمر لذي مباتى بحير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصى لن يرى في الرجوع حيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصى وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما يشه الإنسان لما يتظره في المنقش ، ويحظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعداً والصيغة التي يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهي تعنى نمرُ ارجع ، فكلاً يرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ<sup>(٦)</sup>﴾ . [المائدة]

إذن : فالطائع يفرح بحراء الله له ، وعلى العاصى أن يراجع نفسه قبل أن

(١) ورد قوله تعالى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ في ستة مواضع من لقرآن الكريم في آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والبر (٦٤) والقصص (٣٩) وشافراً (٧٧) .

٢ أما قوله سبحانه ﴿يُرْجَعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة [البقرة : ١٨] ، [آل عمران : ٧٢] ، [الأعراف : ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف : ٦٢] ، [الأنبياء : ٥٨ ، ٩٥] ، [النحل : ٢٨] ، [الروم : ٤١] . [المسجد : ٢١] ، [سج : ٣١ ، ٥٠ ، ٦٢] ، [الزمر : ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحزاب : ٢٧] .

(٣) يدعون بدفعهم دفعاً عيباً والدفع الطرد والدفع : ﴿وَالَّذِي يَدْعُ الْبَشَرَ﴾ [الأنعام : ٢٢] . [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت تنه التلاميذ إلى أن يذكروا طوال العام ، فالذي يذاكر معلماً ، يصرح بالامتحان ، لأنه سوف ينجح فيه ، والذي لا يذاكر قد يرجع نفسه ويقبل على المذاكرة مخوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً .

ويصف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول : ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يصف وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشيء الثابت ؛ فإن خيّل إليك في بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبت له ولا سيادة .

وسبحانه يقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا<sup>(١)</sup> رَابِيًا<sup>(٢)</sup> وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ<sup>(٣)</sup> كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً<sup>(٤)</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر نجد كل واحد يأخذ من الماء على قدر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القش يطفو ومعه الحشائش والأشياء التي لا فائدة منها ؛ لأن الماء في لحظة النزول إنما يتنطف المكن الذي ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة .

(١) الزبد هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موحى وبحر مريد، أى مائج يقذف بالزبد وزبد ماء طاهر، ولقوله والجمع أرباد

(٢) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون على سطح الماء .

(٣) جعته السيل - هو ما يقذفه من الزبد والوسخ وتعوها .

كذلك الباطل إنما يطمو على السطح لكنه لا يعمد ولا يرعزع الحق الذي يستقر وينبع الأرض والناس ، وطمو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مثله مثل الألم الذي ينشأ للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذي لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التي يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً

إذن ، فالألم كالباطل يسه جنود الحق ، ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيح الإسلام من أى عدد ، نجد الحماسه وقد دبّت في الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ، للدفاع عن الإسلام .

وفي الأمراض التي تتقل ببعض الفيروسات ، نجد الأطباء وهم يطعمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن فالباطل جندي من جنود الحق ، كما أن الألم جندي من جود لعافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿إِنَّهُ مَرْجِعُكُمْ<sup>(١)</sup> جَمِيعاً﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ، لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزّه عن الكذب وعن الخديعة ، لأنه القائل : ﴿وَمَنْ أَضِدُّ مِنْ اللَّهِ قِيلاً<sup>(٢)</sup>﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ، وعش خلق . ولا تخونه إمكاناته ، لأنه يملك الكون كله .

وكلمه «الرجوع» في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ تفيد أن تكون

(١) مادة رجع من باب ضرب يرجع رجوعاً ، ورجع عاد إلى مكانه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غير أماده ورجعه متعدي بنفسه ، ورجع بصره ورجعه مرة بعد مرة لمس اللازم قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُ رَجْعَ عَرَسٍ إِلَى قَوْمِهِ<sup>(٣)</sup>﴾ [الأعراف] أى عاد ، ومن المتعدي : ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى ظِلَّةٍ مِنْهُمْ<sup>(٤)</sup>﴾ [التوبة] أى أعادك وردك ، ومن المعوي قوله : ﴿لَمْ يَرْجِعِ الْبَصُورُ كَرَّتِينَ<sup>(٥)</sup>﴾ [الملك] - القاموس القويم ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

على شيء ثم تفارق هذا الشيء وبعد ذلك يرجع له ، فهي وجود أولاً ، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود لأول . فإذا كنت في مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع .

والقول هنا يُميد أننا سموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]  
وقد قال الكافرون ما ذكره لقرآن : ﴿ أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ .

كانهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : ﴿ أَئِنَّا مِتْنَا (١) فِي الْأَرْضِ أَثْنَا ثَلَاثِي حَلْقٍ جَدِيدٍ (٢) ﴾ . [السجدة]

أى . أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدفن وتحلل الجثمان (١) إلى عناصر تمتزج بعصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور (٢) ؟

وجاء هنا قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ليعبد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على

(١) خبنا في الأرض أى ذهب أثرنا في الأرض وحسبنا بسب تحلل أجسامنا .

(٢) الجنان ، الجسد قال تعالى ﴿ فَأَنبِئْهُمْ فِي دَافِعِهِمْ مَا لَهُمْ (٢٧) ﴾ [هود] أى أجساداً متناهية في الأرض

(٣) النشور بعث الموتى يوم القيامة قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا بَلَغَ الْهُدَى (٥٩) ﴾ [عبس] أى : أحياء وبعث

وقال ﴿ وَإِلَى الْغُورِ (٥٩) ﴾ [الملك] ومنه يوم النشور يوم القيامة

وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها ، ويحكي عنهم القرآن

قوله : ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا أَفَنَعْمَرُّونَ خَلْفًا جَدِيدًا (٢٨) ﴾ [الإنشراء] ويقول سبحانه

﴿ وَحَرَبٌ لَّهُمْ مِثْلَ نَبِيِّ خَلَقَهُ قَالُوا مَنْ يَنْجِي الْعِظَمَاءَ مِنْ يُحْيِي الْعِظَمَاءَ وَمَنْ رَسَمَ (٢٩) قُلْ يُنْشِئُهَا الَّذِي أَنشَأَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٣٠) ﴾ [يس] .

الحياة إلى مقبلها وهو اسوت ، ومن بعد ذلك البعث .

وقد وقف الكافرون عند هذه القطة واستسلموها ، فأراد الله أن يبين لنا هذه المسألة ، لأنها تنمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لن : ياكم أن تظنوا أنكم أحذتم الحياة ، وأصتم بها وتمتعتم ، ثم يتهي الأمر <sup>(١)</sup> ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِنَّهُ مَرْجِعُكُمْ حَمِيمًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا...﴾ (١٠)

[يوس]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ، أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل .

﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (١١) .

[مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا ، كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِّتَ <sup>(١٢)</sup> بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ <sup>(١٣)</sup> مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ﴾ (١٢)

[ف]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجراءكم وذراتكم ومصماتكم ، فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِّتَ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ .

(١) وفي عدة يقول سبحانه وتعالى ﴿لِيَحْسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُفْرَكَ سُوءُ﴾ (١٢) [العبادة] قال ابن زيد وصاحبه ، أيقن بين آدم أنه يخلق بهللاً فلا يؤمر ولا ينهى . وقيل : ليحسب الإنسان أن يترك في قبره كللت أبداً لا يبعث . ذكره البرهاني في تفسيره (١٠ / ٧١٥٢) .

(٢) مِّنَ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ حَجَرَ حَتَّى

(٣) ليس الخللط الأمر ، والثنت

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة<sup>(١)</sup> ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال .

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً...﴾ (٥) [الحج]

أي : أرضاً ميتة وليس فيها أي حياة .

﴿فَإِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ فَهَبَتْ رُوحًا<sup>(٢)</sup> وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ (٥) [الحج]

إذن فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة . والحياة التي تراها أمامك ليست إلا دورة ، لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر .

وخذ مادة واحدة وهي المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد في حياته أي قدر من المياه ، تظل المياه كما هي ؛ لأن هذا الإساس يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه .

إذن ، فما أحدثته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذي يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يبخر ماء ، وعملية التبخير هي

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات والافتراءات نشأت في عقولهم من استعالة البحث بعد الموت وأعطوا أمثلة ظنوها تؤيد فكرهم السقيم منها : من أكلته أسماك رحوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش معسرة ، وهي شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ من مذهب الملاحة من أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتعامل بقوانينها الذاتية ، أي - أن الله ليست به قيومية على كونه . وقد رد القرآن على هذه الشبهات بـ صريح يقول الله سبحانه عن خلق هذا الكون وقيومته عليه وعلمه الذي يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مقال ذرة وهو سبحانه القادر الذي لا يخرج عن قدره شيء . وما دام الله قد خلق الكون من عدم ، فإن إعادته بعد خلائه أهون عليه سبحانه ، ويقول عز وجل ﴿وَقُلْ أَلَمْ يَبْدَأْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ رَهَرُ أَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ﴾ (١٥) [الروم] ويقول تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَشْوَاقًا لِّمَن يَخْلُقُ ثُمَّ يَمُوتُ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) [البقرة]

(٢) رُبَّتْ عَظُمَتْ وَانْتَعَمَتْ وَرَادَتْ .

تقطير<sup>(١)</sup> للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها<sup>(٢)</sup> لتعود مياهاً من جديد .

إذن الماء له دورة ، نرعى منه الزرع ، فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الراكد عن حاجته في عملية التبخر<sup>(٣)</sup> ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتسحر ، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخر هذه .

وأنت حين تُحضّر كوباً من الماء المظفر في الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنايب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البحار ، ولكن هذه مسألة تحدث في الكون ملايين المرات ، ولا يدري بها أحد .

وبعد أن تبخر المياه تصير سحباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطرة . ولذلك نجد أن مساحة رقعة ماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقي (اليابسة) ! لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذي يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف .

مثلاً نهيء أنت بكوب ماء ، وتضعه في حجرة ، ثم يعيب شهراً عن الحجرة ، فبعد عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسبح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البحر

(١) التقطير : بقية الماء ونصيبته مما قد يعلو به من مواد غريبة ضارة .

والتقطير : تحويل السائل إلى بخار بخراطة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط)

والبحار : كل ما يصعد كالذباب من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء : تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار

(٢) التكثيف : هو تعرض بخار الماء إلى سطح يبرد ليتكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة (بواسطة جهاز التقطير) .

(٣) تبخر : رشح ، يقال : تبخر المعرق من الجلد ، وتبخر الإناء بما فيه وتبخره الحفرة ، وتبخر الماء من البساتين تبخر أي : خرج منه الماء الراكد عن حاجته [المعجم الوسيط (بصرف)] .

إذن ، الكمية التي خبئها الله من المياه كما هي ، لم تزد ولم تنقص ،  
تدور الدورة التي شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشيء يعود إلى أصله مرة  
أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك في كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول

﴿ وَالْأَنْهَارُ ذُرُوءًا ۝ (١) فَأَنْهَامِلَاتٍ وَفِرَآ ۝ (٢) فَأَنْهَامِلَاتٍ يُسْرًا ۝ (٣)  
فَالْمُفْسِمَاتِ أَمْرًا ۝ (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ نَصَابِقَ ۝ (٥) ﴾ [الأنهار]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التي تحمل السحاب ، وتطر كل سحابة  
على الموقع المحدد لها بأمر من الله ، ويلقينا الحق سبحانه بها إلى دورة  
الماء ، الذي هو قوام الحياة ، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً .

تأمل الوردية ، تجد لها نعومة ومسارة ؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من  
المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية نفوح ، فإذا قصفتها تساقط أوراقها  
وتجف ؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر ؛ مما أخذته الوردية من الماء عاد إلى  
مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل في أوراقها الدبلة إلى أن تنتهي ،  
وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة .

إذن حياة كل كائن في الوجود والعالم في حركته ناشئة عن هذه  
الدورة ، فإذا كانت ضائية حياتكم تدور ؟ أتستبعد أن تدور أنت  
بكوناتك ؟ هب أن إنساناً وجد ومات ؛ بحروج الروح من الجسد ويؤارى  
الحثمان ويتحجر ما فيه من ماء ، وتحلل مواد الحثمان مع عناصر الأرض

(١) الأنهار الرياح ذرت الريح التراب وغيره ندروء خرواً أطارته وأذعته . قال تعالى ﴿ تَذُرُّهُ الرِّيحُ ۝ (١) ﴾ [الكهف] والهاملات وقرأ : السحاب والهاملات يسراً السفن . والمفسمات أمراً الملائكة ورد  
ثبت عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع سيرا الكوفة ، فقال لا تسألوني عن أية في  
كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنيأتكم بذلك . فقام إليه ابن الكواء فقال : يا سيرا  
للمؤمنين ، ما معنى قول تعالى ﴿ وَالْأَنْهَارُ ذُرُوءًا ۝ (١) ﴾ قال علي رضي الله عنه الريح قال  
﴿ فَأَنْهَامِلَاتٍ وَفِرَآ ۝ (٢) ﴾ قال : السحاب قال ﴿ فَأَنْهَامِلَاتٍ يُسْرًا ۝ (٣) ﴾ قال السفن ،  
قال ﴿ فَالْمُفْسِمَاتِ أَمْرًا ۝ (٤) ﴾ قال رضي الله عنه . الملائكة . [ ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٣١ ]



لتصير تراباً ، فهل يحجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟  
طبعاً لا يمكن أن يعجز .

الحياة - إدن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء  
عليها ، ولم ينقص منها شيء .

واقراً القرآن بتبصر تجد قوله الحق :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق]

وهكذا يبين لنا الحق أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في  
مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العناصر ثابت ، وإذا كان  
العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكون الكائنات ، فهذه  
العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عندها ، فالزيادة في عدد  
العناصر ستكون أيضاً ثمانية الكم لكل عنصر .

وقال العلماء : إن الستة عشر عنصراً هي : الأوكسوجين ، والكربون ،  
والهيدروجين ، والنيتروجين ، والمغنسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، وغيرها  
كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتحلل .

هكذا يصدق قول الحق :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا : هب أن  
إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

(١) كل كشم هو من أسرار ميب سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون  
بحسب تأملاته وانتماعه . وما دام القرآن خالداً فمسلماً الكشف سيظل وارداً ، وفي ورده انتفاع نحو المراد  
يقول الحق ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّ الْقُبُورُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبُحْرُ قَبْلَ أَنْ تَعْبُدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف]

كائنات أخرى ، مثل شجرة أشجنت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت في أجزائه ، إذن: فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات في إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كل إنسان من جديد ؟

ونقول: أنت عرمت شيئاً ، وعانت عنك أشياء. انظر مثلاً إلى السمّة والنحافة كظاهرة موجودة في الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمّة أن كمية من مادة معينة تزيد في الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر الحفيف . وقد يظنّ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين الشخصيات وبين تكوين الشخصيات من العناصر .

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التي في الأرض تكفي كل الكائنات ، ويورعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت في كمية تكوين الكائنات .

مثال ذلك: أنت تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ، فيهزل وينقص وزنه إلى مبيعين كيلو جراماً ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراماً الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعده يقف عندها الوزن إلى من معينة ، وتعتبر هذه هي القاعدة التي يريد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة .

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوي - في الكمية - ما يأكل ويشرب لَمَا كبر . ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوي

ما يدخل إليه ، ثم تأتي الشيشوحة فيخف الورن ، وهذا يعني أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ ففسأ المحافة .

وَهَبْ أَنْ طَبِيباً حَاقِظاً<sup>(١)</sup> استطاع أن يعلم الداء الذي يسبب إصابة مريض ما بالهرال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته<sup>(٢)</sup> ومعها ما فقد من الوزن ، وتضمن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا امريض ؟ صعباً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء

إذن فلا تقل . إن هلك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب يحفظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتي بعناصر معينة ، ويأمرها بـ (كن) فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه .

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ، ليثبت عقدياً<sup>(٣)</sup> وعقلياً ؛ لأننا آمننا بأن هناك مهجاً من المكلف ، والمنهج عُرضة لأن يطاع أو يعصى ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ فَإِنَّ الْمَنْهَجَ ، فهو بحد ذاته حرمة ، والذي لم يُطِيعِ اللَّهَ واستسلم لضيق فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته<sup>(٤)</sup> ؛ لا يمكن أن يستوى مع من

(١) الحقيق للهارة في المعنى تقول ، حكى فلان من عمله فهو صادق ماهر

(٢) مادة عما تقول مصادر اللغة عفا المنزل يعمو عقواً وعقواً أي درس ، وعنه الريح يستعمل لازماً ومتعللاً ، ومنه ، عفا الله عنك أي ، سحاً فتوبك ، وعقوت عن الحق ، أسقطته - وعفا الله

سحاً عنه الأسقام والعافية اسم منه ، وهي مصدر جاء من ماعلة كفاشة - لصباح ص ٤١٩

(٣) حكى إلى العقيدة ، والعقيدة صيغة مبالغة من العقد والعقد العهد والإيمان ، والعقيدة الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، والعقيدة الدينية ، يقصد بها الإيمان والاعتقاد في الدين ،

كعقيدة وجود الله ، وبيعة الرسل والعقيدة الإسلامية هي الاعتقاد بصحة الدين الإسلامي وحده

(٤) يكبح شهواته يتحكم فيها فلا تطفئ عليه ، وهذا كالرجل ، لمسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تخرج منه وتفلت من قياده . (لسان العرب مادة ك ب ح) .

عبث<sup>(١)</sup> ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجارى بالطيبات من سار على المهج ، ويعاقب من خرج على المهج .

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بالعصا «لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسن جزاءه ، وينال من أساء عقابه ، ولذلك قال الحق :

﴿إِنِّي مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ...﴾ (١) ﴿يُوسَى﴾

جاء هذا القول مطمئناً للملتزمين بالمتبع بأن هناك معثاً وحساباً ، لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصي الشرير الذي شئت الدنيا كلها بعصيانته العقاب ، ولذلك لا بد من الإعادة ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط<sup>(٢)</sup> . والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هي القاف والسين والطاء . تنطقها مرة «القسط» بكسر القاف ، وتنطقها مرة أخرى «القسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ، والقسط «بفتح» هو الظلم . ولذلك تجد قوله الحق :

(١) وهذا هو مبرر العدل الذي يثاب به الطائع ويجازى به العاصي ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَسُوا الْحِسَابَ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَوَازٍ﴾ فَيُحْيَاهُمْ وَمَعَانِهِمْ مَا مَا يَجْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ [الحجرات]

(٢) قسط من أسماء الله تعالى الحسنى «القسط» هو المعادل يقال أُنْظِرَ ، يُقْسَطُ ، فهو مُقْسَطٌ إذا عدل . والقسط ولإقساط . العدل يقال : أَقْسَطْتُ ونُسِطَ إذا عدل . قال تعالى ﴿وَأَرْقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (١٢٧) [الأنعام] وقال سبحانه ﴿وَزُيِّنُوا بِالْقِسْطِ الْفُسْطِ الْمُنْقِصِ﴾ (٢٤) [الإسراء] وهو أقدم الموارد وقال عز وجل : ﴿وَأَقْسِرُوا عَلَى اللَّهِ يَحِبُّ الْقُسْطِينَ﴾ (٢٤) [الحجرات] .

ومن معنى القسط أيضاً : الحصّة والتصيب ، والميزان ، والتكياس . وقُسِطَ الشيء ، فُرِقَ وقُسِمَ . أما القُسْطُ والقُسُوطُ فهو الميزان والعدل عن الحق ، [اللسان مادة قسط]

﴿وَأَمَّا الْقَاسِيُونَ فَكَأَنَّمَا رُجِّمُوا بِحِجَمٍ حَبْلًا ۖ﴾ (١٥) [الحس]

والمقصود بالقاسطين . الحائرون على حقوق غيرهم .

وتجد قوله الحق :

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بِنُهْمٍ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١٦)

[المائدة]

والمُقْسِطُونَ هم العادلون بين الناس .

إذن : فهناك «قسط» و«قسط» ، وهناك شيء اسمه «قَسْطٌ»<sup>(١)</sup> بالفتحين وهو الانحراف في الرجلين . إلا أن المستعمل في كلمة «قسط» هنا مقصود به العدل ، واسم الماعل منها «قاسط» واستعملت في الجور . وهي مأخوذة من قَسَطَ لا من القَسَط ، وتجد من أسماء الله «المُقْسِطُ»<sup>(٢)</sup> ، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل ، أي . ابتداء بالعدل أولاً ، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسِط ، لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل .

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه : ﴿يَجْزِي الدِّينُ آثَمُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي : جزاء منه بالعدل ، وأيضاً يمكن أن نقول : إنه سبحانه يجزيهم ؛ لأنهم عدلوا في العقيدة ؛ لأن القرآن الحكيم كتب نعلم - جاء حاكماً ومصلحاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختبار في الأعمال

(١) الخطب : أعد من الشجر لإشغال لدر . والمراد أنهم سيكونون في عذاب شديد ؛ إذ جعلهم الله من جهنم بمثابة الخطب للشار . رتبة في عذابهم ، وتحقير شأنهم

(٢) قَسَطَ : عيب في الرجل ، والرجل القَسْطَاء من التي في ساقها اعرجاج حتى تتباعد القدمان وتنقسم الساقان . [اللسان مادة قسط]

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً ، بل على سبيل الإشارة ، قال تعالى ﴿حَسْبُ اللَّهِ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ وَأَتَوَلَّوْا الْعِلْمَ فَلَمَّا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران) ، وهو من صفات الأنبياء ، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا ينم ولا يبعثر له أن ينم» . يحتض القسط ويرفعه أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/٤٠٠ ، ٤٠١) وابن ماجه في سننه (١٩٥) .

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المسجع بدون ظلم لله فلم يشركوا به  
أحداً ، والحق سبحانه هو القاتل :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ . [لقمان]

إذن . فهم يعدلهم وينسطهم في أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك  
الذى هو ظلم عظيم (١٣) ، وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، وهم يأخذ  
واحد منهم لنفسه منحة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدي  
الطويل ، وهم لم يظلموا الناس . ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على  
لعمل الصالح بسبب عدلهم وتسطنهم

وقد يقال : إن إجراء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان  
الجزء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر  
أمثالها ، وبضاعف سبحانه من شيء (١٤) ، هذا هو عدل الله بالتشريع .  
أو أن الجزاء يعنى بلا زيادة ولا نقصان جراء العدل ، ولكن ذلك لم  
يحدد المفضل في هذه الآية ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام في  
قول الله سبحانه :

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ يَقْسِمُونَ بِأَنَّهُمْ لَأُؤْتَيْنَ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ : وأنت لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : إنه  
ليس الذي يبرون ، ألم تسموا ما قال العبد الصالح ، ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾  
[لقمان] إلى هو الشرك ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢) وأحمد في مسنده (٣٧٨/١) .

(٢) يقول سبحانه وتعالي : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا أَمْثَالُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعام] ، وكان العبد والنفس يقتضي أن يكون جراء حسنة مثله ، وجراء السيئة  
سبعة مثله ، ولكن فصل الله ورحمته بأحسن عشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دللت أحاديث  
رسول الله ﷺ ، فمن بين عباس عن رسول الله ﷺ : بما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : «إن ربكم  
عز وجل رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت به حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمئة  
صنف إلى أصناف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة»  
أخرجه مسلم في صحيحه (١٣١) وأحمد في مسنده (٣٧٩/١) واللفظ لأحمد . وس دعاء العارفين  
اللهم عاملنا بمصلك لا بعدلك وبإحسانك لا بغيرك

[النجم]

فقال بعضهم إذا كان للإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على حسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك ماذا عن صلاة الحزاة ؟ وهل يتمتع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة <sup>(١)</sup> ؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن يتفع بها ميت ، فلماذا كلنا الحق سبحانه بصلاة الحزاة كحرص كفاية ، لا فرض عين <sup>(٢)</sup> ؟

ونقول : إن وجود اللام في قوله : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ﴾ يفيد المثلث ، أى : الحق ، والآية تعطى الحق ولكنها لم تمنع الفصل ، أو تقول : هل يصى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجَازى بصلاتنا عليه ، أى : جزاء عمله

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان ولعمل الصالح

إذن : بالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ، لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا صيتم على الميت فاحصلوا له الدعاء أخرجه ابن ماجه في سنه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه حديث ابن إسحاق ، قال تسمى الحق في شرحه لسنن أبي داود (٣٤٤/٨) لكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسمع وصحته

ومن الأدعية الماثورة الواردة في حديث ذكره أبو هريرة قال : «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة ، يقول : اللهم اغفر لحيا وميتا ، وشاهدا وغائب ، وصغيرا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا اللهم من أحبه ما أحبه على الإسلام ، ومن توفته ما توفته على الإيمان اللهم لا تحرم أجره ولا تضل بعده أخرجه ابن ماجه في سنه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد في سنه (٣٦٨/٢) .

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إن قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين ، وإذا لم يقوم به أحد أثم الجميع أما فرض العين فهو الفرض الذي يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعمار وتحققت شروطها في حق أفراد المسلمين

يدينهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجع أن القسط هنا هو قسطهم هم .

وكلمة «حميم» مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهي مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة .  
والحق سبحانه يقول في آية أخرى :

﴿ وَإِنْ يَسْمِعُوا يَمْنُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ "يَسْمَعُونَ الْوَجُوهَ... (٢٩) ﴿ [الكهف]  
و«كالمهل» أى أنه يعلى ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء العليان تكون أعلى من درجه حرارة عليان الماء ، فالحاس مثلاً حين يعلى تكون درجته أعلى من درجة عليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول :

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الرُّقُومِ ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْإِثْمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلَى فِي الْبَطُونِ (٤٥) كَعَلَى الْحَمِيمِ (٤٦) [الدخان]

(٤١) المهل : النحاس المنصهر أو الزيت الملعلى قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ (٤١) [الإنعاج]  
[السنن مادة (مهمل)] ومن معاني المهمل أبيض الماء السبط مثل قودى الزيت وجل هو كالدم والصح  
(٢) الرقوم طعام أهل النار قال ابن سبويه لما أنزلت بة الرقوم ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الرُّقُومِ ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْإِثْمِ (٤٤) [الدخان]  
[الدخان] لم يعرفه فرس ، فقال أبو جهل إن هذا لشجر مايت في بلادنا ، فس منكم يعرف الرقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من إفرقية ، الرقوم بلغة إفريقية ، الزبد بالتمر ، فقال أبو جهل يا جارية ، هاتى لنا تمر ورزداً مرده قمه ، فحملوا يأكثون منه ويهرسون أمهدها بخرقة محمد في الأجرة ؟ فبين الله تعالى ذلك في آية أخرى ، فقال في صفتها ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَمِيمِ (٤٤) طَعْمُهَا كَالَّذِي رَدَّ مِنْ الْقِيَاطِ (٤٥) ﴾ [الصافات]  
وهال لأمرى النتن يذكر هذه الشجرة جمعها من مشركى مكة ، فقال أبو جهل ما يعرف الرقوم إلا أكل التمر بالزبد ، فقال لجارية رقبها وقال رجل آخر من المشركين كيف يكون في النار شجر ، ولئن تأكل الشجر ؟ فأذن الله تعالى ﴿ وَهَذَا جَعْلُا تَرَوْهَا إِلَى أَوْبَانِكَ إِلَّا لَصُفَّةً لِنَاسٍ وَالشَّجَرَةُ الْمَقْنُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ (٤٥) ﴾ [الأنعام] أى وما جعلنا هذه الشجرة إلا لقت للكفار ومن معانى الرقوم ، كل طعام يقتل ، والرقعة ، الطامون . [اللسان مادة (رقم)]

(٣) ناد القراء الإثيم الساجرة وقال الزجاج عني به ما أبو جهل بن هشام ولايثم صبيحة مسالعة من الإثيم أى كثير الخوب [اللسان مادة (أثم)]



إذن : مدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة .

وإن نظرت إلى كلمة «حمام» و«استحم» ، فهي تعني أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور . لصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية عس ، والصورة الثالثة استحمام . والمسح أن تبل شيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والعمل أن تُسِيلَ الماء من لحسد المعصول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، دون أحدث<sup>(١)</sup> فأنت تقوم لتوضأ .

[المسألة]

﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ﴾ (١)

تنفيذاً لأمر الله وهو عس التطهير ، ونقوم مقامه التراب في حالة عدم وجود الماء وهو التيمم<sup>(٢)</sup> . أما إذ كانت المسألة تنظيفاً فهي تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون ضمنية ، وبعد ذلك تنظراً عليها أتربة تسلكها ، وهذه اسام أعضا من الإنسان وأعض من تراب صاهر جاء على الجسم ، وهي لا تنجسه ، فإن غُتِست فيكفى أن تُصب الماء على الجسم ، ولو بقي بعض من دوات لتراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتي بماء حار ؛ ليذيب انقذاره وينقى المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة .

(١) الإحداث : خروج شيء من أحد السبلين من ماء أو ضراط أو براز أو بول ، وكل هذا يجب توضؤه للمسألة

(٢) التيمم من اللغة هو القصد وفي اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره ، لمسح الوجه واليدين عند خذلان الله حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم اليه ثم يسمي الله تعالى ، ويصرب يديه الصعيد الطاهر ، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى المسموعين ، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث حماد بن يانس أنه من تيمم بالتراب أن يعض يديه ويضعهما منه ، ولا يهربه وجهه

إذن . هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير ؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة . ونأخذ منه حمام ، إذن : مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة<sup>(١)</sup> وفيها السخونة .

ويقول الحق ها : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ، وكلمة ﴿شَرَابٌ﴾ تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله ها ؟ إنها تصعد للعذاب ؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطب جوفه ، فإذا ألهمه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى :

﴿وَأَن يَسْتَغِيثُوا﴾<sup>(٢)</sup> يُقَاتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ ... (٢٩) ﴿[الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط لأمس فى صدر الآية ﴿وَأَن يَسْتَغِيثُوا يُقَاتُوا﴾ وهم يستشفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون ياسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُقَاتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ .

إذن : ف ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى سبب كفرهم وعرفنا أنهم كفروا بالقصص الحقدية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

(١) حم الماء يحم حماس باب فرح قال تعالى ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٧٥) [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والمعى معاً ويطلق الحميم : على القريب المشفق لأنه ذو حرارة وجدة قال تعالى ﴿فَمَا بَكَ مِنْ شَفَاعَةٍ﴾ (٥١) ولا تصديق حميم (٥٣) [الشراء]

(٢) يستغيثون يصرحون طالبين العوث والماء من شدة العذاب والمطش ، يأتيهم العوث (الموت) عذاباً جديداً ، ماء شديد السخونة كالبريت المعنى يحرق وجوههم وهو عوث مناسب لأعمالهم السيئة وشربهم وإثامهم فى الدنيا [اللسان مادة (غوث)]

(٣) بئس كلمة تطلق على كل ما يستحق الذم الشديد ، [اللسان مادة (بئس)] .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا  
وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ  
مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

وبعد أن بين الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره  
للإنسان جاء لنا بعم من آياته التي خلقها لنا ، والتي جعلها الله سبحانه  
وتعالى سبباً لقوام<sup>(١)</sup> الحياة ؛ فالشمس هي التي تُنضج لنا كل شيء في  
الوجود ، وتعطي لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر  
المياه - كم قلنا من قبل - لتنزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً<sup>(٢)</sup> ، يرتوي منه  
الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروي به الزرع.

والشمس هي الأم لمجموعة من الكواكب التي تدور حولها ، فدورة  
الأرض حول الشمس تمثل سنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم.  
فيقول الحق سبحانه هنا .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ولو نظرت إلى المعنى

(١) سائر القمر ، موضع تحركه ، أي مداره حول الأرض ، وموقعه بين الشمس والأرض ، تبعاً لتغير  
هذه المواقع تتغير صورته التي نراها عليها ، قال تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ  
(٥٧)﴾ [يس] ، وقال سبحانه ﴿فَاللَّهُ الْإِمْتِنَاعُ وَجِبِلَّ الشَّيْلِ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا (٦٦)﴾ [الأنعام]

(٢) قوام كل شيء ، أي ما يقوم به ، وما لكل شيء ونظامه ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَأُ السُّهَاءَ  
أُمْرًا لَكُمْ أَنْتُمْ لَكُمْ لِقَامًا (٦٠)﴾ [الساء] أي : تقوم بها معاشكم من لتجارات وغيرها

(٣) القرات الماء الشديد العذوبة ، يقال ، ماء قرأت ، وهو قرأت قال تعالى ﴿وَجَزَىٰ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ  
هَذَا عَذَبٌ قَرَأٌ (٦٧)﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿وَمَا يَشْرَىٰ الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ قَرَأٌ سَائِعٌ طَرَانَهُ (٦٧)﴾  
[الفرقان] ، وقال ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا مَّاءً مَّحَاتٍ وَأَنْتَقِبَاكُمْ مَاءً قَرَأًا (٦٧)﴾ [المرسلات] . [النعجم

الوسط - مادة (قرت)] .

السطحي في الشمس والقمر لقلت إن الشمس تعطي نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرّق بين الاثنين ، فالشمس تعطي ضياءً ، والقمر يعطي بوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل في أن الضياء تصحبه الحرارة والذهب ، والنور إنارة حيمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ، فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها .

إذن . فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضيء مثل الشمس أما القمر فضرؤه غير ذاتي ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرأة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهي بعكسه .

إذن . القمر مصيء بعينه ، أما الشمس فهي قضء بذاتها . لذلك قال الحق هنا ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ .

وكلمة ﴿ضِيَاءٌ﴾ إما أن تعبرها مفرداً مثل صام صيماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً وإما أن تعبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض - جمعه حياص ، ومثل روض - جمعه : رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء .

إذن كلمة ﴿ضِيَاءٌ﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجيء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعاني كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر ، وضوء أصفر ، وغيرها " .

(١) ضياء تصلح للإفراد باعتبار أن الضياء مصدر ألوان الطيف ، وتصلح للجمع باعتبار الألوان المنبثقة من الضياء ، وهذه إشارة لأسرار الله في كونه .

إذن : فـ ضياءٌ تعبر عن تعدد الألوان المخزونة في ضياء الشمس ، فإن قلت . ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيم ، فهذا يصلح في المعنى العام .

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العفول المعاصرة لتزوله انتهى لا تعرف المعاني العممية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إنني أرى الشمس حمراء حطة الغروب ، وأراها صفراء حطة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هي حمرة في الرقبة لطول الأشعة الحمراء ، وهي لا تظهر إلا حين الغروب حيث تكون لشمس في أبعد نقطة ، فلا يصل إليها إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأصواء فهي تشع في الكون ولا تصل إليها .

إذن . كلمة ﴿ضياء﴾ ، إما أن تعنيها جمع ضوء ، مثل سوط وسباط ، وحوض وحياص ، ودوخ ورياص ، وما أن تعنيها مفردة هذه صالحة للمعنى العام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلي ، ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ۖ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ۚ وَقَهَرَا ۖ صَبْرًا ۝٦٦﴾  
[الفرقان]

والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس .

(١) من معاني البروج النواكب والمجمر والمصور ، وبروج (أبراج) الفلك وهي اثنا عشر برجاً تبدأ بالحمل . قال تعالى . ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝٦٥﴾ [البروج] وقال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا مُنِيرًا ۖ وَالْقَمَرَ ذَاتَ الْأَنفَاسِ ۝٦٦﴾ [الفرقان] .

(٢) السراج المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل ، ويضاء بشمس بالسرديج ، لأنها سراج النهار ، أي مصباحه ومصدر نوره . قال تعالى . ﴿وَجَعَلَ سَرَاجًا وَفَاجًا ۝٦٧﴾ [النبأ] . وقال ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي سِرَاجٍ مُنِيرًا ۝٦٨﴾ [الفرقان] .

نوراً وجعل الشمس سراجاً ۝٦٩﴾ [الفرقان] .

وهما يقول الحق : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَدْرًا ﴾ ، وكلمة ﴿ وَقَدَرَهُ ﴾ تعود في ظاهر الأمر إلى القمر . لكن في الواقع أن الشمس لها منازل <sup>(١)</sup> أيضاً ، وقال الحق : ﴿ وَقَدَرَهُ ﴾ لأن هك شيتاً اسمه «الحمل» <sup>(٢)</sup> ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياءً ، وجعل القمر نوراً

إذن فالحمل جاء بأمرين اثنين : جعل للشمس ضياءً وجعل للقمر نوراً ، هذا الحمل نفسه جعله الله لتقديره الزمن ، فهو صالح للثنتين : للشمس وللقمر ؛ لتعلم عدد السنين والحساب .

وفي العبادات يحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان <sup>(٣)</sup> ؛ لممارسة عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج <sup>(٤)</sup> ، وكذلك نحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة <sup>(٥)</sup> ، وكل هذه التقديرات نحصع للهِلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر

(١) قال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِّعَمَلٍ لَّيَالٍ مُّسْتَقَرَّةٍ ﴾ (الرحمن) ، وقال ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ يَدْرِكُ ذَلِكَ نَبَإٌ لِّمَنْ يَخْتَلِفُ أَلْسِنَتُهُ لِيُذَكِّرَ الْبَاقِيَ ﴾ (الرحمن) ، وقال ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن) .  
(٢) حمل حقيق أو صبر قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ (الأنبياء) وقال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ مَا نُقُولُ ﴾ (الليل) وقال ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْكُمْ شِجَابًا ﴾ (ج) وجعلنا الليل ليلاً (د) وجعلنا النهار نهاراً (هـ) [اللسان مادة (جعل)] .  
(٣) من عبادة بن صمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «السنه تسع وعشرون» ، فإذا رأيتم الهلال فاصوموا ، وإذا رأيتموه فامطروا ، فإن هم طعنكم فاقعدوا له ، أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٨٠)

(٤) شهور الحج في سوال ، وهو القصد ، وعشر من ذي الحجة قال ابن حجر رضي الله عنهما أشهر الحج شوال وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة [ص ١٦٢ / ١] وفي شهر ذي الحجة تسعة .

(٥) العدة مأخوذة من العدد لإحصاء أي ما يخصه المرأة وبعضه من الأيام والأقراء وهي أربع بحسب حال المرأة ، فإن كانت زوجة غير مدخول بها ، فلها حائض ، إذا طلق فلا عدة عليها ، أما إن مات زوجها فعندها العدة أربعة أشهر وعشراً ، أما إن كان مدخولاً بها ، فرب أن تكون من يحض ، فتكون عدها ثلاثة أشهر ، وإما أن تكون من لا يحض ، فتكون عدها ثلاثة أشهر ، أما عدة الحائض فهي بوضع الحمل ، سواء أكانت مطلقاً أم متوياً عنها ، زوجها انظر تفصيل في هذه المسألة في شرح سيد سابق (٢ / ٣٢١ - ٣٥٠)

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ۚ﴾ (٢٩) [س]

و«العرجون» هو ما سمي به «الساعة»<sup>(١)</sup> التي تحمل «شمس ريخ» ابلح ،  
وكانوا يصنعون منها قديماً المكائس التي يكتسرون بها بيوت البادية والريف ،  
وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التي عاش فيها العربي القديم .

وفي أول كل شهر كلنا نرى لهلال كعلامة محيرة عن ميلاد الشهر ،  
وهكذا نعلم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر ، وبالنسبة  
للسنة ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ ۖ﴾ (٣٦) [التوبة]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلالياً . أما ليوم فيقدر بالشمس ؛ لذلك  
فهو ندخس في تقدير المنازل . وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل  
«لجعل»<sup>(٢)</sup> لأمرين ؛ مجعول الشمس ، ومجعول القمر ، مصداقاً لقوله :  
﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِددَ السِّنِّينَ وَالْهِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ .

والحق - كما أوضحنا - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير - وحين تأمل  
مسار الأملاك<sup>(٣)</sup> ، ومسار الشمس ، ومسار القمر ، لا نجد فيها خلافاً ،  
بل نجد مراصد الكفار تعمل مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس ،  
وهذا تواجد الأرض بين القمر والشمس ، ويتسبب هذا في ظاهرتي

(١) العرجون . العدق اليابس أو العص الجاف ، قال ابن عباس : العرجون هو أصل العدق وهو العفود من  
الرطب إذا عنت ويس وانجنى . والقمر في آخر الشهر يكون صغيراً ويشبه العرجون [اللسان : مادة  
عرجن] .

(٢) المراد بالبطء : جريد الدخيل اليابس  
(٣) القدك مدار النجوم وتلك كل شيء مُستداره ومُعظمه . قال تعالى : ﴿كُلُّ فِي قَلْبٍ يُنْجُونَ﴾ (٣٦)  
[الأنبياء] [الإنسان : مادة (نك)] .

لكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية في الدقة .

﴿ وَلَا الَّتِي سَابِقُ النَّهَارِ رَكَلٌ فِي فَلَكَ يَسْبِقُونَ ﴾ [١٠]

[يس]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، مدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذي يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذي يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابله ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل .

وجاء القرآن إلى القصبة لفتح عينا وتركها ، وهي أن لنهار لا يسبق الليل مثمنا اعتقاد العرب ، ونفى القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المحاضر - إذن - يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل .

وهكذا عرض لحق سبحانه للكونيات عرصاً رمزياً في القرآن ؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمي لذلك لكذب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعرض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما رثنا نجد من يعارض تلك الحقيقة في أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ، بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربي البسيط لها .

وما دام الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر - إذن ؟

ونقول : هل خلق الله الشمس مواجئة لسطح لأرض أولاً ، ثم غابت الشمس فجاء الليل ؟ كان هذا الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ،



ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك ديب على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فباتى النهار إلى القسم الذى كان ليلاً ، وباتى الليل للقسم الذى كان نهاراً.

يذن . فخلق سبحانه حكى فى القرآن الكريم عن الأمور الكونية - التى سوف تستكشفها العقول بعد بزور القرآن - وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... ﴾ (٦٦)

[المزاد]

ثم باتى التعليل :

﴿ لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٦٦)

[المزاد]

فالليل خلفة النهار ، ومعنى خلفة أى : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجد فى دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقفاً ما - مدة ست ساعات مثلاً - وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثلث ، وبذلك يحلّف واحدٌ الآخر ، لكن من الذى بدأ المهمة الأولى فى الحراسة قبل أن باتى إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر فى الليل والنهار ، يبين الحق سبحانه أن الليل والنهار خلّفه ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جَاءَ النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى غابت عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار هكذا فصّل الحق سبحانه آياته

لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفَعِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْتَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

ويقول سبحانه بعد ذلك .

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي لِقَوْمٍ يَعْتَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وهكذا بين الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكّل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان .

ولو نظرت إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل في نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكّل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نفس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نفس الهواء مقدار شهيق وزفير .

لذلك شاء الحق أن يملك قوم طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد في ذلك على إدانة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل من يملك الطعام

(١) فصل عن المكان من باب صبر جازية قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنفَعُ الْغُرُوحُ﴾ [يوسف] والفصل  
الطعام ، قال تعالى ﴿وَفَصَّلَ الْيَتَامَى﴾ [النساء] والفصل التمييز يوم الفصل ، يوم  
القيامة وفصل الخطاب القول الصائب المميز بين الحق والباطل ، قال تعالى ﴿وَنَوْمُ الْفَصْلِ كَادَ  
مُهْلِكًا﴾ [النبا] ، وفصل الشيء جمعه أقساماً متشعبة قال تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانٌ فَفَصَّلَا  
﴿[الإسراء] وقال تعالى ﴿آيَاتُ الْفَصْلَانِ﴾ [الأعراف] ، أي مبهات ومنه قوله  
تعالى : ﴿يُفَعِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْتَمُونَ﴾ [يوسف] : القاموس القريم ص ٨٢ ، ٨٣

يخفف من القيود ، أو لعمل الإنسان الخانع يجد طريقه ليعال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكاك البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يملك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العصر الأساسي للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النفس ، ونفس ، ونفس .

ولو نظرت إلى الهواء في الوجود كونه لوحده عامل صيانة لكن الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المباني التي عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الخصال ، كل ذلك يقص الهواء ؛ لأن تياراته التي تحيط بحوائط كل الأشياء هي التي تثبتها ، وإن تخلخل الهواء في أي ناحية حول تلك المباني والجبال فهي تهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذي يحفظ التوازن في الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضت ألفاظ لقران لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصرف<sup>(١)</sup> الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقة خالق ، بدقة إله حكيم ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ<sup>(٢)</sup> ... ﴾ (٤٧) ﴿ [الحجر]

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والعرف  
وهو الشيء من حال إلى حال . وتصريف النقود تعبيرها أو إنفاقها ، وتصريف المعجزات إعجازها ،  
ويعرف العلوب - تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى - ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ (٤٧) [التوبة]  
القاموس القديم ج ٩ ص ٧٤ ، ٧٥

(٢) قال ابن السكيت والأمرى لواقح أي حوامل ؛ لأنها - الرياح - تحمل الماء والسحاب وتعليقه  
وتصرفه ، ثم تستلذه قال تعالى ﴿ وهو الذي يرسل الرياح ينزّل به غمامه حتى إذا ألقت سحباً  
فبالأعقاب ينفث نهرات فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ (٤٧) [الأعراف] [الإنسان : ملأه  
الفتح] بتصريف .

لكن إذا جاء يذكر ريح ففي ذلك العقاب ، مثل قوله .

﴿بَرِيحٌ عَرَصَرٌ<sup>(١)</sup> عَاقِيَةٌ (٦)﴾

[الحاقة]

ومثل قوله :

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا<sup>(٢)</sup> مُسْتَقْبِلَ أَرْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ  
مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . . (٢٥)﴾

[الاحقاف]

لأن الرياح تأتي من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهي تأتي  
من ناحية واحدة تدهم<sup>(٣)</sup> ما في طريقها .

وهنا يقول سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات  
الأخرى مجملة بعد أن جاء مذكر الشمس والقمر كآيتين مفصّلتين ، ثم  
ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ،  
ومسحاب ، ومجوم وعناصر في السكون ، كل ذلك مجمل في قوله :  
﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصل لذكر كثيراً  
من الآيات والنعم ، وهو القائل :

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ... (٢٤)﴾

[إبراهيم]

(١) ريح عرصرصر شديدة اليرق والصوت قال تعالى ﴿كَعَطْلٍ يَبِيعُ فِيهَا مَرْ (١٧)﴾  
[الاعمران] . وعصر العاتر صاح ، وعصر الباب يصرصريراً أصر صوتاً عابياً عتداً ، والصرة  
الضربة والصيحة والنفث من الكرب والحرب وغيرهما [اللسان - مادة (صرر)]  
وعاقية شديدة جداً والمائي الجبار . [اللسان - مادة (عاق)]

(٢) العارض السحابة إذا كانت في ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون [اللسان - مادة  
(عرض)] .

(٣) تدهم تهجم بشدة حتى تعشى من وما في طريقها [اللسان - مادة (دهم) بتصرف] .

والقرآن ليس كتاباً بسيطاً لمسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء به إن « وهي التي تفيد الشك في قوله : ﴿ وَإِذْ تُعَذِّبُ نَحْمُ اللَّهُ لَا تُعْصِرُهَا ﴾ ، لأن أحداً مهما أوتي من العلم ليس بقادر أن يحصى نعم الله في الكون ، ولأن الإقبال على العَدِّ فرص إمكان الحصر ، ولا يرجد إمكان لذلك الحصر ، لذلك سمى بآيات به « إد » ، بل جاء به إن « وهي في مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضي التكرار ، ولم يقل الله سبحانه وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء به « نعمة » وحلة ، ورد استقصيت ما في النعمة لوجدت فيها آلاف اسم التي لا تُحصى .

وبهي الحق الآية بقوله : ﴿ لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يُفْقُونَ ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات لإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثاني على المعجزة الدالة على صدق الرسول <sup>(١)</sup> ، ولإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجية من عجائب الكون الواضحة في الوجود <sup>(٢)</sup> الدالة على عظمة الله سبحانه

وهذه الآيات خلقها الله لتُلفت إلى مَكُون <sup>(٣)</sup> هذه الآيات ، واللفتة إلى مَكُون هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان في انسجام مع لكون الذي أنشأه

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجرات الدالة على صدق الرسول قد جاء به القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه ﴿ وَقَالِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَالُنَا آيَةً ﴾ [البقرة] ويحس قوتهم ﴿ وَقَالُوا بَلْ لَا تَكُولُ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ بَلْ إِنْ اللَّهُ فَاقِدٌ عَنْ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لَكُرْهُمَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام] .  
(٢) وهي الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتغيير الكون وتسييره بنظام لا يخل ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافُ أَسْفَلَ السَّمَكِمْ وَأَلْوَانُكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِعَالَمِينَ ﴾ [٢١] ومن آياته معانكم بالليل والنهار وابتعاؤكم من فضل إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٢] ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ويتركب من السحاب ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفْقَرُونَ ﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المَكُون يقتضي مراحل ثلاث : مرحلة الإدراك ، ومرحلة اليعمال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تنعش بها ، فإن اتعمقت استقرت المَكُون فترجى بها حب وعناية بصفاء وانسجاماً بأخلاق ، ومما تتم النعم بحية الله

من أجله ، بحيث لا يأتي له بعد ذلك ما ينقصر هذا الانجم ، فهب أن  
إنساناً ارتاح في حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة شقاء وجحيم ، مما لذي  
استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التي تنتهي إلى زوال لا يمكن أن تعتبر نعمة دائمة ؛  
لأن النعمة تعني أن تستعم بها تشعماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت  
لا تفارنها ، والدنيا في أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمة فيها  
لإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمة .

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى  
معيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا في آيات الكون ؛ لأنهم حين  
ينظرون في آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا مائتين : المائدة الأولى  
أن يصيدوا مما خلق الله ، والمائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذي  
خلق الله إنما جعله وسيلة ومَعْبَراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش  
بالأسبب ، ولكنه يريد أن يُسلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالأسبب وهو  
الله فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، ولذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر  
في الكون وتغر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا  
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿

[يرسم]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما في آيات الخلق من آيات الدالة على عظمة  
قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن ينقروا أنفسهم عذاب الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

(١) أَعْرَضَ يُعْرِضُ إِمْرَاضاً ، فَرَّ مُعْرِضٌ ، وَالْجَمْعُ مُعْرِضُونَ أَعْرَضَ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا رَآهُ ظَهَرَ وَابْتَعَدَ  
عَنْهُ [اللسان مادة (عرض) ، ينصرف]

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ مَا وُعدُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَأُطْمَأْنُونُ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧)

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب  
إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنىك أنه أمر تحبه ، مثل من قال :  
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

هو بهذا القول يبين أن الشاب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأني  
هذا ؟ طبعاً لا إذن : التمنى هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛  
ومثل قول الشاعر ،

ليت الكواكب قد تروى فأطمئنها عثرة مذح فما أرضى لكم كلبي  
وهذا غير ممكن .

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع

وحنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون  
لقاء الله ؟ لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل  
ثواب الله ، لكن لدى من يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء  
تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك <sup>(١)</sup> .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذي يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ،  
ونفسه هي أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لو وثقه بأن من يستقبله

(١) الرجاء - الأمل المتوقع قريباً ، صد اليأس - رجاء ، من باب نصر - يرجوه رجوا ورجاء - يوقعه مع  
برادته إليه وحسروده ، أو مع عوقفه منه ، ويسعمل الرجاء بمعنى خوف ، قال تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لَا  
تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح] - وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [٧] [يونس] أي لا  
يخافون لقاء ما أو لا يأملون لقاءاً ، محذرون على هيئة عرسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ،  
والرجاء الناحية رجسه أرجاء - قال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة]

الاستشهاد خير مما يتركه من الحياة.

إذن فالذي يرجو لقاء الله هو الذي يعد نفسه لهذا اللقاء ، بأن يتقى الله في أوامره ، ويتقى الله في نواهيه ؛ ولذلك تقرر على الإنسان أحداث شتى ؛ وهي في مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يعش أحد نفسه ، فإذا ما كان حياً فقد يجعله الأمل يكذب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المعربات.

أما إذا جاءته لحظة العزفة " في الموت ، فهو يستعرض كل صفحته فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهر وجهه ، ولذلك يقال : «فلان كانت حاتمته سيئة ، وفلان كانت حاتمته متهللة» . وهذا كلام صحيح ، لأن الروح ساعة أن تُقبض فهي تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير .

والإنسان وقت الخروجه لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرص بمرص فهو يأمل في العاقبة ، فإذا أتى وقت انتهاء الحياة تُعرض عليه أعماله عرضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة سفرح أساوره ، لأنه يستشرف ما سوف يلتقي من جزاء

وهذا مثل التسميد حين يكون مُجدداً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ، فيجري عليه مطمئناً وإن كان غير مُجدد ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء من يحمل النتيجة.

كذلك الدين يرحلون لقاء الله ، عملوا استعداداً لهذا اللقاء ويتغفرون

(١) العزير : تردد الروح في الخلق - [اللسان - مادة عزير] . ونحوها العزيرة ووصول الروح إلى الخلق هي التي يقطع عنها قبول التوبة ، من عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبته العبد ما لم يهرم» أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٢) وأبو حنيفة في مسنده (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن عريضة ، وأماكم في مستدرک (٢٥٧/٤) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (٢٤١٩) - موارد الضمان



الجزء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿وَرَزُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة . وقد سمي الله هذه امدار اسماً كان يجب بمجرد أن سمعه ننصرف عنها ، فقال . ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . ولا يوحى اسم أقس من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هي الحياة العليا <sup>(١)</sup> .

والإنسان قد يبحث في عُمر الدنيا ويقول إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت في هذه الدنيا .

إذن ، فالدنيا بالنسبة لك هي مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقي إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهي تطول لعمرِكَ ؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مكث الإنسان فيها ، وهو مظهر وغير متيقن ، وقد يموت وهو في بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المدة . فالذي يرضى بغير المتيقن قصير النظر .

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول :

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعٌ﴾ <sup>(٢)</sup> الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

(١) عن استوردين شداد قال قال رسول الله ﷺ : «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أمسه في اليوم فليظنم يرجع» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد في مسنده (٢٢٩/٤) والترمذي في مسنده (٣٣٢٣) وقال حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر الله تعالى المتع ، والمتع ، والاستمتاع ، والتمتع في مواضع من كتابه الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد والمتع هو كل شيء يشبع به ويشبع به ويتروك ، والصاء يأتي عليه في الدنيا قال تعالى ﴿فَلْيَمْتَصِ الدُّنْيَا قَلْبِي وَالْآخِرَةَ حَبْرَ لَمَنِ اتَّقَى﴾ <sup>(١)</sup> [النساء] وقال تعالى ﴿تَوَبُّوا إِلَىٰ بَيْتِكُمْ فَإِن كَانَ إِلَىٰ أَجْلِكُمْ﴾ <sup>(٢)</sup> [هود] . وقال تعالى : ﴿قَالَ نَادُوا إِلَيْنَا إِنَّا نَكُونُ﴾ <sup>(٣)</sup> [يوسف] وقال تعالى ﴿وَمَا تَصْنَعُوا صَانِعُهُمْ وَجِنُوا بَصَانَهُمْ وَذُتْ إِلَهُهُمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَسْجِدُ إِلَّا مَا تَسْجُدُ بَصَانَهُمْ وَذُتْ إِلَهُهُمْ﴾ <sup>(٤)</sup> [يوسف] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ نَحْنُ لَنَعْلَمَنَّ﴾ <sup>(٥)</sup> [النساء] وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَمْتَصِ بِالْعَمَةِ إِلَىٰ السَّجِّ﴾ <sup>(٦)</sup> [البقرة] [اللسان مادة (مع) بصرف] .

## لاخِرَةُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾

[النوبة]

وحتى إن قسبَ عُمُرَ الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فهي إلى  
 فناء ، وب دامت إلى فناء ، فهي مشاع قليل ، ومن يطعن إلى هذا المتاع  
 القليل فهو عادل ؛ لذلك يُسَمَّى الحق الآية . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾  
 عكس ما قال في الدين يعرفون قيمة العمل للأخرة

حين يقول الحق : ﴿لَا يَأْتِي بِقَوْمٍ يُثْقُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [يوسرا]

والغفلة <sup>(١)</sup> هي ذهاب المعنى عن النفس ، هما دام المعنى موجوداً في  
 النفس ، واليقظة ترجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن  
 النفس ، واليقظة هي استقرار المعنى في النفس .

ونحن نعرف أن المعلومات التي يستقبلها الدهن البشري إنما تلتقطها  
 بؤرة <sup>(٢)</sup> الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة .

وإليك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً  
 أو أكثر ؛ لأن كل الأدهان تتفق في أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ،  
 ويتميز بسان عن آخر في قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛  
 لأن بؤرة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يترشح المعنى إلى حاشية  
 الشعور ؛ لتأني المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفي بؤرة شعورك  
 معنى آخر ؛ لا تثبت المعلومة ؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنين وثلاث  
 مرات ، حتى تصادف المعلومة حلَّو بؤرة الشعور .

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، ولو كان ذهنه مستعداً

(١) أعملت الشيء مركباً عملاً وأنتبه دأكر حال تعاضى ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ (٢٧) ﴿لأغراب﴾ أى :  
 أنهم كانوا في تركهم الإيمان بالله والظن فيه والتبذير له بمرية الغافلين ، أو أنهم كانوا عمداً يرادهم من  
 الإلتفات عليه غافلين [اللسان : مادة (غفل)]

(٢) بؤرة الشعور مراكز الشعور والإحساس والإدراك في المخ . وبؤرة كل شيء مركزه [المعجم  
 الوسيط مادة (بأر) ، بتصرف] .

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة.

إذن : الدمن كآلة الموتوعرايا ؛ ولذلك فخلق سبحانه وتعالى يقول

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلِيلٍ <sup>(١)</sup> فِي جَوَافِهِ ... ﴾ [الأحرار]

فإن كتب تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ دهنك من أى معلومة ؛ لتأنى المعلومة الجديدة ، لتصادف حلاء بؤرة لشعور ؛ فتستقر فيها .

والمدرس الناجح هو الذى يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذى يزدى عمله برثابة <sup>(٢)</sup> وركاكة <sup>(٣)</sup> تُصرف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يلفت انتباه تلاميذه ويفطع الدرس ؛ ليسأل أى واحد منهم عما قال ؛ فيستمع إليه التلميذ من بعد ذلك بانتباه ؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التى قبلت من قبل

والتلميذ المجتهد هو الذى يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور ذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ لفاسل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه .

مثال آخر : إن الفلاح الذى ينم على حافة يثر الساقية لا يقع فى يثرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلب على جنب ما فسوف يقع فى

(١) ويمر عن القلب بالعقل المفكر ، ويستعمله القرآن بمعنى «عقل كثير» لقوله تعالى - ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ لم على قلوب أن يعقلوها (٢) [محمد] ، قال ﴿ وَلَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأحزاب] أى عقول ، والقلب يرفض لثباتية فى الفكر ، ومن هنا تكون بؤرة الشعور فى القبائل المجرودة والفكر الواحد

(٢) الرثابة السير أو التهج على نظام واحد لا يتغير [اللسان، مادة رتب]

(٣) الركاكة ، الضعف فى اللفظ والأسلوب .

البشر<sup>(١)</sup> وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهم في الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانيه ، ولكن إذا نام كل منهما في سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه في ناحية وساقيه في ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحب واليقظة ، ويقال «ملان يقظ» ، وكلمة «يقظ» صمد «نائم»<sup>(٢)</sup> ، لأن اليقظن يحتمظ بالوعي والانتباه .

إذن : فالغفلة هي دهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن يتفهموا بشيء من هذه الآيات ، ثم تأتي لهم محصلة غفلتهم في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿أُولَٰئِكَ مَاؤُنْهْمُ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

وأنت تصوم : «أويت»<sup>(٤)</sup> إلى كذا ، إذا كان هذا هو المكان الذي يعصمك من شيء<sup>(٥)</sup> ، وهب يقول الحق : ﴿مَاؤَاهُمُ النَّارُ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما حارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم بأوون إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى : بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات .

(١) وقد ورد بهي رسوم الله عز وجل عن النوم على ظهر بيت ليس له حجاب (أى : سور يمنع سقوطه من على سطح البيت) ، فعن علي بن شيان قال قال الله عز وجل : «من بات على ظهر بيت ليس له حجاب فقد برئت منه اللعنة» أخرجه أبو جاور في مسنده (٥٠٤١) ومعه عند أحمد في مسنده (٧٩/٥ ، ٢٧١)

(٢) اليقظة : نفس النوم ، وقد تكون ضد العلة وعدم العظة ، ويقال : رجل يقظ ويقظ إذا كان متيقظاً في معرفة وقظة

(٣) أويت : عُدْتُ والمأوى : اسم مكان (مفحم) من أوى يأوى ، والمأوى : المأوى ، والكنان : أى أن مكانهم ومنزلهم واستقر بهم يكون في النار ، لقاء ما فعلوا من الذنوب والآثام وقبيلتهم عن الحق وبيانها اليات [اللسان مادة (أوى) بتصرف]

(٤) ومثال هذا قول ابن مروح عليه السلام عندما عمَّ الطرفان الأرض ﴿سَأْوِي إِلَى سَجَرٍ يَفْصِنُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [مرد] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ  
رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ  
النَّعِيمِ ۝﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل ، وهم الذين آمنوا ، ويعلمنا أنه سبحانه ، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ .

والهداية كما قلنا من قبل معناها الدلالة على الخير ، بالمهج الذي أرسله الحق سبحانه لنا ، وبه ييسر الحق لسبيل أمم المؤمنين والكافر ، أما الذي يقبل على الله بإيمان يعطيه الحق سبحانه وتعالى هدية أخرى ، بأن يحفظ أعباء الطاعة على نفسه ، ويريد سبحانه هدى بالمعروف ؛ لذلك قل سبحانه .

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝﴾

[البقرة]

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب ، فيهورنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ، لتهور عليه مشقتها ، ويمدحه سبحانه أيضاً بالمعونة

يقول الحق سبحانه :

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه لإحياء علوم الدين (١/ ١٧٦) : « الخشوع لغة الإيمان ، ونتيجة الإيمان خاصية بجلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فهو يكون خاشعاً في الصلاة وفي غير الصلاة ، بل في كل شيء ، وفي بيت المال عند الحاجة ، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد ، فمن هذا التعرف يتولد الخشوع وليست محتصة بالصلاة ، يشير الشيخ إلى أن القرآن هداية ، والرسول يسته دليلاً ، والله المعين عليها ، والرسول للمعية هو عين العبد من الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾

وما داموا قد آمنوا ؛ فسيُهديهم ربهم إلى طريق الحق ، وتتمتعهم في آخرتهم ، أو أن لهداية لا تكون في الدنيا بل في الآخرة ، فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الحق .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ نَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ...﴾<sup>(٢)</sup>

أى : أن نورهم يضيء أمامهم أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا : ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَاتِّمِسُوا نُورًا ...﴾<sup>(٣)</sup>

أى : أن هذا ليس وقت التماس النور ، فالوقت - لالتماس النور - كان في الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

(١) الباء هي «بإيمانهم» تحسن وجهين

١ - أن تكون مبيية أى بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجزوه ويخلصوا إلى الجنة

٢ - أن تكون للاستعانة أى : أن يصبح إيمانهم نوراً يمشون به على الصراط انظر تفسير القرطبي (٢٢٢٨/٤) وابن كثير (٤٠٨/٢)

(٢) تقتبس تأخذ قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿لَعَنَ آتِيكُمْ مِنْهَا بِقِسٍ أَخَذَ عَلَى النَّارِ قِسِي﴾<sup>(١)</sup> وقال ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِسُوءٍ قِسٍ لَكُمْ تَصْطَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> [النمل] والقيس - النار . وقْتباسها - الأخذ منها . والافتقار من نور أهل الجنة دليل على شدة هذا النور وقوته [اللسان مادة (قيس) - بصرفه] .

(٣) اتتمسوا اطلبوا واتمسوا الشيء وتلقته طيه . [اللسان : مادة (لمس)]

إذن ، فالحق سبحانه يهدي للمؤمنين نوراً فرق نورهم في الآخرة  
والآية تحمل الهداية في الدنيا ، وتحمل الهداية في الآخرة.

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين في الآخرة فيقول : ﴿تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٦)

وقلت : إن الجنة على حواف الأنهار ، لأن الحصرة أصلها من الماء ،  
وكلما رأيت مجرى للماء لا بد أن تجد حصرة ، والجنان ليست هي  
البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَسَاكِينُ ظِلِّهِ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ (٧٢) ... [التوبة]

ومجد الحق سبحانه بقول مرة :

﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..﴾ (١٠٠) [التوبة]

ويقول سبحانه في مواضع أخرى :

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٢٤) [البقرة]

والحق سبحانه يعطين صبراً متعددة عن الماء الذي لا ينقطع ، فهي مياه  
ذاتية الوجود في الجنة لا تنقطع أبداً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سَبْحُكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ

دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

(١) عدن فلان بالمكان يقعد ويثقل عدناً وعدناً أقام ومركز كل شيء معدنه، وحشاش عدن أي جنات  
قائمة دائمة بمكان الخلد . قال تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (٧٢) [طه] .

(٢) ورد قوله تعالى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ٣٥ مرة في القرآن ، وقد وردت مرة واحدة ﴿تَجْرِي تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ﴾

دعواهم : أى دعاؤهم .

وهى الآخرة دار تكليف ؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لاء ولكنها عبادة لالتذاذ ، وهم كُلُّما رأوا شيئاً يقولون : لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما فى الأرض كان يشبه تلك الثمار ، لكنه ليس مثلها .

﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِى رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ ﴾ (٦٥) [البقرة]

أو يقولون : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يا رب . وبعد أن تأتى لك انعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجأ بأشياء لم تكن فى الحسب من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله<sup>(١)</sup> .

إذن فانت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وتنتهى من النعمة بالحمد لله . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَحْرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . والذى يجعل للحياة الدنيا معنى ، ويجعل لها طعماً ويجعل بها استقراراً ، أن يكون الإنسان فى سلام . ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهِيجات ، ولا مُعْكَرات ، ولا يأتى ذلك إلا بعدم اضطدام هى ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثانى ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، أى لا مُنْخَص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد إحساس الإنسان بالاطمئنان

(١) إن استقبال النعمة بـ ( سبحان الله ) كلمة إعجاب لجعل يقودك إلى التنزيه والتوحيد والتفريد فتستطع بالتوحيد جلالاً وتنزيهاً ، وبعد تمام النعمة يكون الطر تلقائياً ﴿ لَنُحَمِّدُكَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس] فأول الشيء إعجاب بتنزيهه وآخره حمد بيقين .



وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَجِئْتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ . فالسلام ورد في أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ<sup>(٥٥)</sup> هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ<sup>(٥٦)</sup> مُتَّكِئُونَ<sup>(٥٦)</sup> لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ<sup>(٥٧)</sup> سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ<sup>(٥٨)</sup>﴾ [يس]

وهذا هو السلام الذي له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه : سلام يروئك اصعثناناً ونهياً راضية) فقط ، بل هو سلام بانقول من الله ، وانظر أى سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة . وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام . وهذا هو السبب في قوله :

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ<sup>(٥٨)</sup>﴾ [يس]

وهذا سلام الله ، ثم من بعد هذه المنزلة يأتي سلام الملائكة :

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ<sup>(٦٢)</sup> سَلَامٌ عَلَيْكُمْ...<sup>(٦٤)</sup>﴾ [الرعد]

إذن . فنقول الحق هنا . ﴿وَتَجِئْتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ لجد فيه كلمة السلام ومر الرضا والاستقرار في الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التي تحسها هي نفسك ، ولو كانت التامس كلها ضدك . لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدي ؟ وحين تحبب نفسك : «إني لم

(١) فاكهون : ناعمون معجبون بما هم فيه من نعيم الجنة . قال تعالى : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ<sup>(١٨)</sup>﴾ [الطور]

(٢) الأرائك : السرور أو الفرش والأريكة السرير في الحقيقة من دونه ستر ، أو هي كل ما أتى عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْهِ الثُّرُوبِ وَحَسَدَتْ خُرُفًا<sup>(٦٦)</sup>﴾ [الكهف] . [الباء : مادة (أرك) - تنصرف] .

أعمل إلا الخير ؛ فأنث تحس السلام في نفسك . وإذا ما رغب الآخرون بما تفعل ، ولحياة تسير ، بلا صدمة ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ :

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»<sup>(١)</sup> فدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة<sup>(٢)</sup> ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصعب ، وسأله : ماذا تفعل حتى يشترك الرسول ﷺ بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابي . لماذا - إذن - يشترك رسول الله ﷺ بالجنة ؟

قال لرجل . والله إني لأصلي كما تصلون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكي كما تركون ، ولكي أبيت وما في قلبي خل لأحد .

هذا هو السلام النفسي ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيقه الدنيا إن قامت ، و بعد ذلك يصعب أن يوجد سلامه مع

(١) وهذا الحديث أصل من مائة حديث في كتابه قال : كنا جالساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من الأندلس سبطاً حيتاً نظير من رصوته قد بعل بطنه في بطنه الشمال . فلما كان بعد قال النبي ﷺ : مثل ذلك . فطلع ذلك الرجل مثل المرء الأولي ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ : مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولي ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لأحيت (خاضعاً) لبي ، فأقسم ألا أدخل عليه ثلاثاً . فلما رأيت أن مؤذي إلى حد حتى نفسي تمت . قال نعم . قال أس . وكان عبد الله يحدث به بات معه ذلك اللبائي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعذر «السجدة» ونظمت على مرأته ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الصبح . قال عبد الله : غير أني سمعته يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ياب وكذب أن أحقر عمله . فحدث به عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لثلاث مرات : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطمعت لثلاث مرات ، فأردت أن أرى اليك لأنظر ، ما صنعت بأقصدى به ، فلم أرك تعمل كثيراً . ففما أرى بكم بكم قال رسول الله ﷺ فقال : ما هو إلا ما رأيت ؟ قال فلما ولت دهاى . فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً حتى سحر أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطق . أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦ / ٣) وابن المبارك في الزهد (٦٩٤)

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابي من أهل مكة ، كان يكتب في الجاهلية ، ويحسن اللغة العربية ، وأسلم قبل أبيه ، وقد ٧ في هجرته في ٦٥ هـ . كان كثير العبادة ، وقال الأحمدة وكان مشهوراً أنه يغيرت يمينه . (الأعلام للزركلي ٤ / ١١١)

الله تعالى . ومن عنده سلام مع نفسه ، ومع بيته ، ومع مجتمعه ؛ فهو يبال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعاونون من مازق في الآخرة :

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۖ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥) [مرد]

هؤلاء هم الذين شقوا في النار ، أما الذين سعدوا ففي الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا - وهم أهل الأعراف ؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ؛ فقد قال الله سبحانه :

﴿وَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)﴾ [القارعة]

ولم يقل الحق سبحانه بنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب ؛ لأنه سبحانه قال في حديث قدسي :

«إِنْ رَحِمْتِي غَلَبَ غَضَبِي»<sup>(١)</sup>

وبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول :

(١) قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۖ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [الحل] . فليس لنفس أن تتكلم أو تجادل من نفسها إلا بإذن الله ، ولا ينمي ذلك قوله تعالى ﴿عَلَى يَوْمٍ لَا يَظُنُّونَ (٧) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيُظُنُّونَ (٨)﴾ [الرسالات] ، لأن في يوم القيامة مواقف ، ففي بعضها لا يزدن لهم في الكلام ، فيكفون عنه ، وفي بعضها يزدن لهم فيه ، فيتكلمون . قاله أبو يحيى الأنباري في كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يليق من القرآن) من ١٩٣ ، ١٩٤

(٢) ثقلت موازينه : رجحت حسناته على سيئاته

في عيشة راضية في الجنة ، فإذا كانت العيشة راضية فالعائش لها مرضى عنه خفت موازينه : رجحت سيئاته على حسناته .

﴿فَلَنُؤْذِيَنَّ هَآؤِيَّةً﴾ ساقط بأم رأسه في نار جهنم ، وجرحت بأنه يسي . معناه

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥١) وتمامه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الما قضي الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رجحتي غلبت غضبي» وفي بعض روايات الحديث ، تغلب ، ميقب

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف]

ويأتى أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه:

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ<sup>(١)</sup> رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ<sup>(٢)</sup> .. ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم ، وعرفوا الكفار بسيماهم ، وجلس البعض على الأعراف ؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قاثين

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ نَمْ بِدَعْلُوها وَهُمْ يَغْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]

أهل الأعراف - إذن - يسعدون بعبادة الله لأهل الجنة ، ويسمعون أن يقر الله - سبحانه وتعالى - لهم .

ونحن نرى حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون قبل أن يحكم على الجرم بالإعدام ينخفض ورنه ، ثم

(١) الأعراف في اللغة جمع عرف، وهو كل عال مرتفع؛ قال الزجاج: الأعراف أعالي السور . والأعراف، أعالي سور بين أهل الجنة وأهل النار . ومثل من أصحبت الأعراف هم قوم ثارت حسانتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالمحسنيات، ولا النار بالمسيئات، فكانوا على الحجاب الذي بين الجنة والنار [اللسان مادة (عرف) يتصرف]

(٢) السيماء العلامة يعرف بها الخير والشر . وعنه بول تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَفْرِ السُّجُودِ ﴿٢٥﴾﴾ [المنج] ، وقوله: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَهُكَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة] هذا في أهل الخير والفضل أما الأشرار فقال تعالى عنهم: ﴿يَعْرِفُ الْمَعْصُومِينَ بِسِيمَاهُمْ فَمَوْعِدًا بِالْمُرَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن] .

يريد يعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر . والذين يُشَقِّلُونَ بأن يعرفوا مكانهم في الآخرة ، أهو في الجنة أو في النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين .

﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ..﴾ (٤٦) [الأعراف]

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة . ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تكون آخر دعواهم ، أى : آخر كلمة

بالواحد منهم يقول : أنا حمدت رباً على الشيء الفلانى والشيء الفلانى . وآخر حمد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على انعمة فى الدنيا التى نزول ، ويحمدونه فى الآخرة على النعمة التى لا تزول ، فلتن يوجد حمد على النعمة التى لا تزول مهر قمة الحمد<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ  
بِالْخَيْرِ لَفَصَّلَ لَهُمْ أَجَلَهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ  
لِقَاءَ نَافٍ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

وهذه الآية تتناول قضية عقيدية قد تكون شغل الناس الشاغل فى الدعاء

(١) الحمد هى الإيجاد ، والحمد على الإمداد فى الدنيا ، والحمد على نعمه البقاء فى دار الخلود وهى قمة الحمد

(٢) بلى ترك قال تعالى ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دُثْرًا﴾ (٥٥) [نوح] [اللسان مادة (رذ) . بتصرف]

طغيانهم : مجاورتهم الحد فى الظلم والكبر والعصيان . قال تعالى . ﴿وَيَعْمَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١) [البقرة]

(٣) يعْمَهُونَ : الضمّة التحير والتردد فى الضلال ، والضمّة يكون فى الرأى ، والمعنى يكون فى البصر . قال ابن الأثير . الضمّة فى البصيرة كالضم فى البصر . قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إِنَّا لَهُمْ أَعْمَاهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٥٦) [النمل]

له تعالى ، وقد لا يُجَاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء ، ويُحْزَنهم على أنفسهم ، ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقل الله دعائي ؟ أو يقع بعضهم في اليأس .

ويقول لكل إنسان من هذا المريق لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فهو أن الله سبحانه وتعالى قد أجلك في جميع لدعاء ، فسوف يجيب دعائك في الشر ودعائك في الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجل لك دعاء الخير ، لَقُضِيَ إليك أجلك وانتهت المسألة ، وماتك من قالوا : ”

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْ بَعْدَ أَلِيمٍ﴾ (٣٦) [الأعمال]

ولو استجاب الحق لثل هذا الدعاء ، لكن وبالأعلى على مَنْ دعوا ذلك الدعاء .

إذن : لمن مصلحتك حين تدعو على نفسك<sup>(١)</sup> أو تدعو بأي وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن الله تعالى حكمة في الإجابة ؛ لأنه سبحانه

(١) هم بعض كفار ميث ، قيل : إنه أبو جهل ، وقيل : هو النضر بن الحارث بن كلفة . ودعاهم هذا دليل منه رجول وشبه عناد وتكذيب . وكان الأوكى بهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطرنا له ووفنا لاتباعه . ومولا . قال عنهم رب العزة : ﴿وَسْتَظُنُّكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَأَبَدَهُمُ الْعَذَابَ وَلَئِنْ تَبَسَّوْا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ لَبَشِّرْهُمْ بِسُوءٍ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣٦) [الأنفال] ، وحمل الله تأخير العذاب عنهم لمصلحة من فضائل رسول الله ﷺ على عمومه فقبل سبحانه . ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَظُنُّونَ﴾ (٣٧) [الأنفال]

(٢) ثبت في صحيح مسلم النهي عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فمن جازى من عبد الله رضي الله عنه قال : سرتنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن يواط وهو يطلب للجدي بن عمرو الجهمي . وكان التامع يمتدح ما ألقى وألقى ، فذارت عقبة رجل من الأنصار على تاضع له فأناخه فركبه ثم بعته فتلذذ عليه بعض التمدد فقال له : شألك الله فقال رسول الله ﷺ : من هذا اللاعن بعيره؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : انزل عنه فلا تصحبنا فلعنوه ، لا تدعو على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم أخرجه مسلم (٣٠٠٩)

ونعالي مُتَرَةً عن أن يكون موظفاً عبد الخلق ، وَمَنْ يَدْعُهُ بِشَيْءٍ يَجِبُ عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه في تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد .

لقد صان الحق سبحانه عياده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعائك معبر ، ولكن رقابة الحق سبحانه التي نعلم كل شيء أزلاً<sup>(١)</sup> تكاد أن تقول لث . لا ، ليس خبيراً . وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه :

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ..﴾ (٢١٦) [البقرة]

إذن : فمعرفة أنك ليست نهائية في تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَعِ الإله الأعلى - وهو المأمون عليك - أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظلك أنت الخير ، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر ، وفي المنع - أحياناً - حين العطاء<sup>(٢)</sup> ؛ ولذلك يقول الحق .

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِأَشْرٍ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١٦) [الإسراء]

وقد تلح في دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شراً . والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يعجب أحياناً بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً . وأحياناً يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتعبد فيها الخير . وهكذا يصبح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية .

(١) لأزل : القديم ، قال أبو منصور ومنه قولهم : ملا شيء أزل أي قديم .  
(٢) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدع الله بدعوة ليس فيها مأنم ولا نطفة رحم لا أعطاء إحدى ثلاث إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يستغله من الأجر مثلها قالوا : يا رسول الله . إذن . نكسر . قال الله أكثر أخرجه الحاكم في مسنده . (١/٤٩٣) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي في الطبخ . ومن أقوال الشيخ : المنع حين العطاء وقد يكون العطاء بقعة

وقد قال الكافرون "لرسول الله ﷺ

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ  
أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٦) [الأنفال]

ومن قالوا هذا أقول هم العاص بن وائل السهمي ، والوليد بن  
لخيرة ، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود ، وكانوا قد وصلوا  
إلى قمة الاضطراب ؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، ولم  
يتجهوا إلى غباء ما يقولون ؛ لأنه إن كان لرسول الله ﷺ قدرة السحر ؛  
فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً ؟

واضطربوا مرة ثانية ، وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، أو له طبيعة  
الشعر والكلام المسجوع ، والقرآن ليس كذلك . ولو أن جماعة غيرهم  
قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة ، أما هؤلاء  
فهم قوم أهل ذُرِّيَّةٍ على الفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعقدون أسواق الشعر  
والخطابة ، ثم اضطربوا مرة ثالثة ، وحاولوا الطعن في مكانة محمد ﷺ  
وهم يَقْرَءُونَ بحظمة القرآن ؛ فقالوا :

﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣٦) [الأنفال]

(١) هي أنس بن مالك قال قال أبو جهل ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ  
السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٦) [الأنفال] فتركت ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخْذَنَّهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ رَمَاهُ﴾ قال الله تعالى  
وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٦) [الأنفال] أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٤٨) وكذا مسلم (٢٧٩٦) . وقال  
ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» شرح صحيح البخاري (٣٠٩/٨) «رواه أبو جهل»  
ظاهر في أنه القائل بذلك ، وإن كان هذا القول مسبباً إلى جماعة فلعلة بدأ به ورضى المنافقون مسبب  
إليهم ، ولكن سبب إلى أبي جهل أويس ؟

(٢) القريةان المقصودتان هنا مكة والطائف وقد اختلف العلماء في تحديد اسم الرجل العظيم المقصود  
فمن مكة الوليد بن لخير أو عبة بن ربيعة ومن الطائف عروة بن مسعود أو حمير بن عبد المطلب  
قال ابن كثير في تفسيره (١٢٧/٤) «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلعتين كانت» .



والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت في زمن النبي ﷺ مع الكافرين ؛ لا يقتصر في الحدث على ما وقع، ولكنه يعالج قضية عامة كربية إلى أن تقوم الساعة، ويجعل الحدث الحاصل في زمنه سبباً فقط ؛ ليعطى عموم الحكم في كل زمان وفي كل مكان . ولا يقتصر الأمر على معالجة حدث وقع لشخص الحدث وشخص الحكم في القوم الموجودين مع رسول الله ﷺ وقد جاء القرن للثامن كافة، وجاء للزمان عامة، فلا بد أن تكون القضية المعروضة - أي قضية أمام رسول الله ﷺ من قوم عاصروه لها سبب حاصر ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

ويعالج الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضية كربية ستظل إلى أن تقوم الساعة .

فقد دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ :

﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنْ اسْمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾  
[الأنفال]

كما قال قوم عاد ليهود :

﴿أَحْسِنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعْبُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٠)﴾  
[الأعراف]

إذن : هم قد دَعَوْا بِشَرٍّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشر ؛ لأن الإنسان قد يضيق ذرعاً<sup>(١)</sup> بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا صاق ذرعاً بأمور تحيط به في

(١) الذرع الطاقه والقدرة وحسنتُ بالأمر ذرعاً مثل حسنت به ذراعاً؛ فأصل الذرع (عنا هو يسط اليد، فكانت تريد مددت يدي إليه فلم ألقه) وصاق بالشئ ذرعاً وقرباً أي ضمعت طاقته، ولم يجد متخلصاً، ولم يطفه، ولم يقو عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَاءَتْهُمْ لَوْ طَاسِدٌ بِهِمْ وَهَبَتْ لَهُمْ مَرْغَا (٧٧)﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَلِكْ ذَرْعُهَا سَمِعَتْ دَوَاعِيَهَا فَاسْلُكُوهُ (٢٤)﴾ [الشفاة] [اللسان: سادة ذرع] . (تصرفنا) .

دائه من ألم كمرض - مثلاً ، أو عاهة لا تنوى على الصبر عليها ،  
أو لا يقوى على تحملها ؛ فيقول « يارب ، أرحني يارب » ، وهو ما  
يسعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه  
لأنقضت المسألة .

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأمر بأمر أحد من خلقه ،  
ولا يعجل بعجلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير  
مك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشر منك على نفسك ؛ وفي  
ذلك رحمة منه سبحانه

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطيني ،  
فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشر على نفسك ، ولا يجيبك الله ثم  
ألا يضيق الأب أحياناً ذرعاً بمن حوله ، فيقول : فليأخذني الله ؛ لاستريح  
من وجوهكم ؟ هب أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون  
الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يارب أصبني بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو  
المرأة على نفسها أو على أولادها .

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء  
الشر لانتهد حياتكم إلى الفرع ، مثل هذه الأم التي تدعو بالحقايق  
فتقول لولدها - مثلاً : « ربنا يسقيني تاركاً » فتطلب السقيا بالماء ، رغم أن  
السقيا للرؤى ، والنار للحرارة .

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو  
على نفسه بالشر ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن يتره الحق سبحانه  
وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبيد به دون أن يصر الدعاء على حكمته  
سبحانه وتعالى .

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ <sup>(١)</sup> بِالْخَيْرِ لَغَصِي إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ ،  
فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه  
تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛  
فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شرّاً ؛ فمن  
مصلحتك لا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك في الشر على نفسك ،  
أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن  
تحب ؛ لأن الله لا يحجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذي حلفهم ،  
وهو أعلم بهم ، فهو القائل :

[الأنبياء]

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ <sup>(٢)</sup> ... ﴾ (٢٧)

وهو سبحانه القائل :

[الأنبياء]

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (٢٧)

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا :

(١) عجل يعجل - عجلاً وعجلاً أسرع قال تعالى ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ مُدْرِكِي﴾ [احد] وعجل  
الأمر طلبه قبل أوقته بدائع الشهرة - وعجل لأمر سبقه قال تعالى ﴿لَمَعَلَّكُمْ أَمْرُكُمْ﴾ (١٥)  
[الأمرام] وأعجله حملة على العجل أي استعجته أو سبقه قال تعالى ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ هُودٍ﴾  
يا حوصي (٢٠) [احد] وعجل الأمر قدمه سريعاً ، قال تعالى ﴿عَجَلْنَا لَهُ نِهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ (١٢)  
[الإسراء] واستعجل الأمر طلبه عاجلاً قال تعالى ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَغَصِي إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ...﴾ (٢٠) [يونس] . القاموس القديم ج٢ ص ٩٢٨

(٢) العجل والعجلة السرعة قال المراء ، خلق الإنسان من عجل وعلى عجل ، كأنك قلت دُكِبَ على  
العجلة ، بيئته العجلة ، وخلقته العجلة ، وعلى العجلة وبحر ذلك . قال أبو إسحق . خبر طرب العرب  
بما مدق ، والعرب يقولون للمشي يكثر المشي . خلقته منه وقيل إن آدم عليه السلام ، لما بلغ منه الروح  
الركبتين هم بالهوى قبل أن تبلغ القديسين فقال الله عز وجل ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ ﴾ [الأنبياء]  
فأورثنا آدم عليه السلام العجلة وقد تعالى . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء] وقال تعالى .  
﴿ إِنِّي أَمَرْتُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ ﴾ [التحليل]

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا...﴾ (٣٢)

[الأنفال]

لكانت نهايتهم بجس ما دعوا به ، وقضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم .

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ؛ فعليه أن يتحمل ثمة<sup>(١)</sup> الطغيان التي تتمثل في أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب من آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفي ذلك محاوذة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون في هذا الطغيان ، أى : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت - لهم - ولمن بعدهم عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق .

وفي الحياة أمثلة - والله المثل الأعلى - فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليدوم على إدلاله ، والقوى لا يقل حصمه ، بل يؤله ؛ فلا يرفع الخصم رأسه .

والحق سبحانه يقول :

﴿قَدَرُوا الدِّينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

أى : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لنتجمع عليهم سيئاتهم ، وينوثون ويل<sup>(٢)</sup> حصومة الإسلام فلا يرفعون رؤوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف يبأس أهل الباطل من أنهم

(١) ثمة الأمر عاقبه ، وما يترتب عليه من أثر [العجم الوسيط مادة (تبع)]

(٢) ويل كلمة عذاب تعنى حلول الشر ، والويل وادى بهم ، وقيل هو باب من أبوابها قال

بعالى ، ﴿وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [المطهرين] وقد : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات]

سيتصرون على الحق بأي شكل وبأي لون. وهم مهما تحايّلوا في أساليب النكاية<sup>(١)</sup> في الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من مبرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج ﷺ ولم يشعروا ، وقال ﷺ : «شاهت<sup>(٢)</sup> الوجوه» .

وشاء سبحانه ذلك ، ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ ، لا بالمواجهة ، ولا بتسيت المكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنسَانُ عَلَىٰ الْأَمْرِ دَعَا إِلَىٰ جَنْبِهِ ۖ أَتَوْا عِدَا  
أَوْقَايِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ ۖ مَرَّكَانَ لَعِبَدُنَا ۖ إِنْ  
صُرِّمَسَّهُ كَذَلِكِ زِينَةٍ لِلْمُتَسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ



يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالاله ، بمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله في لحظات الأزمات ، ثم يسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك . وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر .

وفي قريبتنا - على سبيل امثال - كان الذي يشرف على رعاية صحة

(١) نكأ العذر نكأياً : أوقع به وهرمه وغلبه . والمراد بالنكاية هنا ، أساليب أعداء الله في محاربة الإسلام والتدبر عليه وعلى المسلمين . رمى أساليب مالها العشر يذوق الله . قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ هُمْ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصافات : ٢٤] [اللسان] والمعجم الوسيط مادة (نكأ) . . . بتصرف .

(٢) شاهت الوجوه تشوه شوهاً قُبْحاً . وفي حديث النبي ﷺ أنه رمى المشركين يوم عتب بن بكاش حصي وقال شذعت الوجوه وفيه قال لأبر عبياد شاه الوجه ويقال بفتح الهمزة لا يصلح فيها عى النبي ﷺ . تنوّه أى ، فبيحة [اللسان : مادة (شوه)]

الناس حلاق الصحة ، إلى أن تخرج أحد أبناء القرية في كلية الطب ،  
فأخذ حلاق الصحة يشع عنه ما لا يلبق . وفي أحد الأيام لاحظ لصاحون  
خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفافة كبيرة ، فأرادوا أن يعربوا ما  
بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مريض وهو يريد أن يذهب به إلى  
الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية  
بالشائعات لكاذبة عن الطبيب .

وكذلك الإنسان مع منعم الله ، قد يخدع الآخرين في لحظة اليسر ،  
لكنه لا ينسى الله لحظة العسر . وساعة يأتيه العسر ، وحسب تعزُّ الأسباب  
عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب» . وأنت تجدها من أعنى الفُجَّار<sup>(١)</sup> ، ومن  
أقسى العتاة ، يجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضر .

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُبِّهِ﴾ .  
والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا  
يرغبون في إبقاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب  
مصوصح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضر ؛ مثلما  
قال النبي<sup>(٢)</sup> :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَأِيًا وَحَسِبَ لِمَنِيَا<sup>(٣)</sup> أَنْ يَكُنْ أَمَانِيًا

أى . يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التي يتمنى فيها الموت .

(١) الفُجَّار جمع فاجر وهو الكثر من المعاصي واسيئات . والفجور أصله الميل من الحق . قال ابن شميل  
المجور الركوب إلى ما لا يحل . قال تعالى : ﴿لِيُزَيِّنَ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ أَفَعَالُهُ الْفَعْمَةُ﴾ [القيامة] وقال  
﴿وَإِنَّ الْفَعْمَاءَ لَفِي حَمِيمٍ﴾ [الانطار] [اللسان مادة (فجر) مصروف]

(٢) لفتى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه في الشعر

(٣) لميَا جمع مَيَّة وهي بلوت . والمي الفكر ، ومتى الله لك شيئاً أى فُتِر لك . ومتى الله عليك خيراً  
يمنى شيئاً . وبه سُميت النية وهي المُرث ؛ لأنها مقترنة بموت مخصوص . [اللسان مادة (مي)] .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر في أكثر من موضع ، فوجد آية تصدر للإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر .

يقول سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا<sup>(١)</sup> إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ<sup>(٢)</sup> نِعْمَةً مِنْهُ لَمْ يَذْكُرْ<sup>(٣)</sup> أَنْ كَانَ يُدْعَوُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ... (٨)﴾ [النور]

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا﴾

ويقول سبحانه في موضع آخر :

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ<sup>(٤)</sup> ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾ [الحج]

إذن فالحق سبحانه يأتي بها مفردة مرة ، ومرة يأتي بها جمعا . ومرة يأتي بها مفردة على ألوان شتى ، ومرة يأتي بها جمعا بألوان شتى ، ومرة يذكرها في البر . ومرة يذكرها في البحر :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ... (٦٧)﴾ [الإسراء]

إذن ؛ لايات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إما ما أصابه ضرر .

١ سبياً راجعاً إلى الله بالنوبة . أقاب إلى الله بانه مهروب . أميل إليه تائساً ورجع إلى الطاعة . قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْتَغِيثُوا لَهُ (٥٤)﴾ [الزمر] ، وقال : ﴿وَيُرِيكُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَفَمَا يُصْكَرُوا إِلَّا مِنْ نَبْءٍ (٦٧)﴾ [صفر]

(٢) خَوَّلَهُ الله نعمة - ملكه إيادها . وهي مأخوذة من التخويل وهو التمليك والمراد : إذا كشف الله عنه الضر ، ووهب النعم من فضل الله عليه ووقع في المصائب [لسان العرب - بتصريف]

(٣) تجأرون : رجعون أصواتكم بالتضرع والنداء إلى الله [اللسان مادة ج أ ر]

ولم يجد مفرعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه . ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله

والآية التي نحن بصدد حراطينا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ أي : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ وهكذا تتناول الآية الإنسان في تصرفاته في الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلب ، بل يقلبه أهله ؛ لئلا يكره قلباً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتي حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشي ، ثم يمشي من بعد ذلك .

والآية هت تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ ، ولم تأت حركة المشي ؛ لأن المتحرك للمشي لا يفعله الصر ، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب ، فقد يناله الصر .

وتلك هي مراحل النقص لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فتوة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشي بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف . ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشي ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جسده ، وقد يقلبه أهله<sup>(١)</sup>

إذن . نقص كل شيء إنما يأتي على عكس بنائه ؛ فكما بيت مراحل الإنسان هكذا جنأ ، فمعوداً فقياماً ، فسعيماً وحركة ، فهي تنتهي بالعكس ؛ لأن لنقص دائماً على عكس البناء .

(١) وهو القائل سبحانه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْضٍ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْضٍ قُوَّةً جَعَلًا وَشَيْئًا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم] .



ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله في إحباطه لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتَ مَخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ (٥١) ﴿

[الكهف]

ولأن الحق لم يُشهِد أحداً على كيفية خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، ونحن لا تأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ (٥١) ﴿

[الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشري لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء . فإن حُدِّثْتُمْ كيف حُلِّقْتُمْ بصورة تختلف عما جاء في القرآن فقولوا . كذبتكم ، وإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلِّقَتِ السموات والأرض بغير ما جاء في كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتكم ، لأن الله هو الذي خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به . ويقول الحق سبحانه :

(١) مَلَكٌ يُقِيلُ مَعْرَصًا ، وَاصِلٌ يُقِيلُ فُهْرَ مُضِيلٍ ، وَالْمُحِلُّ يَكُونُ ضَالًّا وَلَا يَكُنِي بِمِلَالٍ نَفْسٌ يَلُ يُحِلُّ غَيْرُهُ أَيْضًا وَأَقْلَهُ جَعَلَهُ ضَالًّا ، وَالْمِلَالُ ضَلُّ قَهْدِي وَالرَّشَادُ قَالَتْ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ أَحَقِّقْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (٥٢) [الفرقان] وقال . ﴿ وَأَنْتَهُمْ فَسَادِي ﴾ (٥٣) [طه] وقال ﴿ وَمَا يُحِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٤) [آل عمران]

(٢) والمعضد من الإنسان وغيره المساعد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والمرد العفد من العود والماعدة . قال تعالى . ﴿ قَالَ سَلُّوا عُصَدَكُمْ بِأَمْرِكُمْ وَتَجْعَلُ كَمَا تُطِيقُونَ ﴾ (٥٥) [القصص]

﴿وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ (٥٦) [الكهف]

والمضلون : هم الذين يمولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سماهم الحق سبحانه . ﴿المضلين﴾ ولو لم يقل الله تعالى هذه لأبى ، ثم جاء قوم ليقولوا الإنسان كان في الأصل فرداً ، ثقلنا : إن انقرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإصلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فممكن معه شاهد رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا . والخلق لذى به الحياة ينقصه الموت ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأى نقص لشيء - كما عرفنا - إنما يأتي على عكس بانه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالى نهدم بعد ذلك ، فما بُنى أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نقص كل شيء يأتي على عكس بانه .

وبما أن الموت نقص للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وترك الجسم بلا دهن ، فالجثمان ينصلب ، ثم يصير جيفة<sup>(١)</sup> ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل لجسد إلى العناصر الأولى في التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبين أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيباً ، ثم استوى الطيب ، فنصوره خلق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح<sup>(٢)</sup> ، وآخر مراحلها في الإيجاد هي الروح ؛ لذلك نحروج الروح هو أول مرحلة في الموت .

(١) الجيفة ، هي جثة الميت إذا نشت وكان لها رائحة ، والجمع جيف وأجيف (الإنسان مادة جيف)  
(٢) وفي هذا يقول سبحانه ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من عطين﴾ (٧) ثم سئل سئل من سئل من ماء منبهير (٨) ثم سئل من رُوحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تذكر (٩) [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى في هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشي ؛ لأن المشي عنده قدرة فلا ضرر في ذاته ، وإن أصابه ضررٌ ممن غيره ، والضرر مقابل النفع ، والنفع هو مَنْ يُبقى الشيء على صلاحه الممتع المريح ، في الذات أو في الخارج

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكانها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضررٌ ، لكن إذا حدث خلل في أي عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة . هي ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فأعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فأعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضرروسك وتأكل ولا تدري بها . ويوم أن تدري بها فهذا يعني أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف راتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : «آه يا عيني» ، و«آه يا أذني» .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً محصوراً ، وكذلك يقول : على أي عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدي أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة يمس حولك تتحلل هي أن يحققوا لك المنفعة والصعاء بدون كدر . وبذلك تظهر منعتهم لك<sup>(١)</sup>

وكل إنسان له كريات داتى ، يبيها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَن رَّأَهُ اسْتَعْتَى ﴾ (٧) [العلق]

ولا يدل الإنسان إلا حين يعانى من آفة<sup>(٢)</sup> ما ، ولا يأتي طمياحه إلا عند استكمان النعمة في الخارج والنعمة في الداخل ، وإن بدأت النعمة في

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم من صحيحه (٢١) وأخرجه البخاري من صحيحه (١٠) من حديث عبد الله

ابن عمر بن الخطاب

(٢) آفة : علة ، أو مرض ، أو فساد ، أو نقص ، أو عيب . يقال : آفة الطرف المكلف ، وآفة العلم النسيان .

الانقراض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع

والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتي فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يفتخر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبته ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحاباً قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه<sup>(١)</sup> قد حرحوا من جاههم .

إذن : فلا داعي للعسرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شيء ، وليس لك شيء ذاتي<sup>٢</sup> فيك أنداً ؛ لذلك يجب أن بتعدم لغرور ، فما دام كل ما فيك موهوباً من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو يته . فلا داعي - إذن - لأن يفتخر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

ولذلك : قد تكون عادت طيباً ، وهو الوحيد في المكان الذي تقطه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبى أنت ، ثم يأتيك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من تشخيص بالعلم ، فلا يجب إذن أن تعتر أو تتعاني على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ بذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ - (١١) ﴾ [يوسف]

والكافر ما إن يمسه الضر ؛ حتى يقع في شر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسه الضر فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذي يدعو الله ساعة الضر فقط . وأين

(١) الجاه : الثروة والقدرة . قال تعالى ﴿ وَكَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَجِيئًا ﴾ [الأحزاب] .

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرس إلى الإيمان ؟

ونسب إلى الإنسان أمر وارد في تكويده المظري الأول<sup>(١)</sup> ؛ لأن الإنسان حين يعيش في محيط ما . فهو يحب النفع من حارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجى ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحريك أعضائه وخدمتها لبعضها البعض ثم لا يجد له مفرغاً إلا أن يؤمن بمس خلقه أولاً وانظر إلى التعبير القرآنى .

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلُّوا ۖ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَّاهُ ۚ﴾ [الإسراء]

إذن فمن يعبد غير الله - سبحانه وتعالى - يفضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف يتقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذى يتقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعيته ، وهذه الرحمة تتقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام مطلق ؛ لأننا شهدنا بوحداية الله تعالى في عالم الذر<sup>(٢)</sup> ؛ حينما

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿لَقَدْ عَمِيتُمْ إِلَى فِئَةٍ مِنْ قَبْلِ يَوْمِ تَجِدُونَ لَهُ عِزًّا﴾ [طه] ، فحس الإنسان من تكويده النسيان ، ولسلك تجاور الشرع من النسيان والخطأ وما استكروه عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاور لامتى عن الخطأ والبيان وما استكروها عليه» أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/١٩٨) . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي وحسنه ابن رجب الطيبي في جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١ م .

أما السهوان بمعنى التماسى والتعاضل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿فَلَمَّا سَوَّاهُ قَدْرًا دَعَوْنَا إِيَّاهُ فَتَنَّمَا عَلَى قَرْبٍ أَنَّا مَرْحُومًا بِمَا أَوْنُوا أَخْلَنَاهُمْ بِقَدْرٍ إِذْ هُمْ يُنْسَوْنَ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر هو يوم نشر الله طرية آدم من ظهره ومشرها لها سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَلَتَوَّاهُمْ وَكُنَّا قَبْلَهُمْ شَاهِدِينَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأعراف] .

[الأعراف]

أخذ الله سبحانه حينما العهد الأول ، <sup>(١)</sup> وقال لنا :

﴿أَلَمْ تُمْ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾

[الأعراف]

قلنا :

﴿بَلَى ... (١٧٢)﴾

[الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد العقلة أو التقليد ؛ لذلك حين تنفرد الآلهة الباطنة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه .

وقد يدعو الإنسان من يواسيه خطة المرمى فلا يجد ولداً من أبائه ، أو قريباً من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تسمه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي <sup>(٢)</sup> ... (٧٨)﴾

[القصاص]

ويقول : كنت محتاملاً وقد رقت أسوري . ثم بأخذه الحق سبحانه وتعالى أخذ عزيز مقتدر .

فإذا مسكم الضر ؛ فلينجدوا من الشياطين الخارجة عنكم ، ولا من دوات نفوسكم ، ما يعذبكم عن حايقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون

(١) العهد الأول هو شهادة نبي آدم وأحد الميثاق عليهم بأن الله رب الخلاق كلها ، وهنا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطلعش معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثاني فهو التكليف على يد الرسل في الفعل ولا بفعل ، وهو يستند لبصيرة الأول ، ويجمع ذلك كله قوله ﴿وَقَدْ يَآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ . (٢٠)﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهي وعليهما مدار الحساب

(٢) أي أن قارون أنكر فضل الله عليه ، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التي قال الله عنها : ﴿وَلَحْيَافَةٌ مِنْ فُكُورٍ مَا إِذْ سَأَلْتَهُ لَهْرًا بِأَنْعَمَ أُولَىٰ لَقُوءًا﴾ إذ قال له قارون لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين (٢٣) ﴿

[القصاص]

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ،  
وتتذكرون في تلك اللحظة عهد الذرّ الأول ، وتعودون إليه سبحانه  
وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُبِّهِ خَالِدًا  
أَوْ قَالِمًا ﴾

وقوله الحق : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّوهُ ﴾ بصور الصرّ وكأنه يعطى الإنسان  
ويلقه ، فلا متخذ له أبداً ، لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطي كل الإنسان  
وهكذا يعطينا الله تعالى صرورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان  
بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل]

فكان الجوع والخوف قد لفا الضربة كلها ، فلم تعد اسطون وحدها هي  
الجائعة ، بل كل ما في الأحسام جائع وخائف

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّوهُ مَرَّةً كَانُوا لَمْ يَدْعُوا إِلَىٰ حَرِّ  
مُسَّةٍ ﴾

وكلمة ﴿ مَرَّةً ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال : إن فلاناً مرّ على ؛  
مقابلها : وقف عدى .

وبهم من قوله الحق - إن هذا الذي مسه الضرّ كان له وقفة عند الله  
سبحانه ؛ حين لقه الضرّ ولم يجد معيلاً له غير الله تعالى ، أما قبل ذلك فقد  
كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يلعب عنه

(١) كشف الشيء بكشفه كشفاً أظهره أو رفع عنه ما يستره من الحسوسات والنعى قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا  
كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ .. ﴾ [النحل] كأن الصرّ غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ؛ ومن الحس  
فربه تعالى : ﴿ وَكُشِفَتْ عَنْ مَاقِلِهَا .. ﴾ [النس] أما قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ .. ﴾  
(٢) ﴿ الْقَلَمُ ﴾ بهر كناية عن شدة الخوف والرغبة في الفرار ، وقوله ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ .. ﴾  
(٣) ﴿ [الإسراء] أى ، إزالته وهو كشف محوى . القاموس اللوم ، ص ١٦٦ ، ١٦٣

الضرر وينسى الإيمان ؛ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مُسَّةٍ﴾ وكأنه قد نسي تدلله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخصوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبر ، فلم يقف عند من أنقذه من ضربه ، وهذه هي الصفاقة<sup>(١)</sup> .

ويُهيئ الحق سبحانه وتعالى لآية بقوله : ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وما نأبى قصية ثابته ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتى في الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذي زَيْنَ لهم المرور ، ما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحاصل من خلق على صفات موجودة فيه ، فالخلق سبحانه هو القائل .

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ...﴾ (٦٠) [الفرقة]

وقوله تعالى ها

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مُسَّةٍ ..﴾ (٦٢) [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً والإنسان له عمل مكرّر من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقبلة لفعل ؛ فالأثنتان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية في عمومها ، وفي

(١) أصل مادة (صفت) التضمين باليد ، والصرب الذي يُسمع له صوت ، ومنه صَفَقَ الباب أي فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت . ومنه الصفاقة للجهل والبيع والشراء ، ومن حديث رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أصل صفتك» وهو أن يعطى الرجل صوته ويمشقه ثم يقاذه ؛ لأن المتعاضدين يضع أحدهما يده في يد الآخر كما يفعل المتبايعان . (انظر - اللسان - مادة صفت) وللمادة من الممكن أن يخرج منها بمقصود فضيلة التبع من هذه الكلمة

(٢) المرام بالمرض عت الصافي وهو حق فسيم يصيب صاحبه بأشد الأضرار ، ويضر الجميع كذا روصف التناق بالمرض (دإن المرض هو السقم وهو ضد الصحة وتجريض الأهور : توهيتها وريح مريضه ؛ ضبيعة الهبوب وكل ما غلبت فقد مرض ، والرأي للرئيس ، أي : فيه اتعرف عن الصواب . قال تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ (٥٦) [المائدة] [اللسان - مادة (مرض)] بتصرف .



خصوصها، وفي انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين : أسلمنا رسولا إلى حصومه أم نصرنا كل رسول جاء على حصومه ؟ إن السوانق يدل على أن كَلَّا أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَهَاجَرُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١٣ ﴾

فإياكم أن تسول<sup>(١)</sup> لكم أنفسكم أن تغفلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تتلوا منه شتاً ، وميتم لله توره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق .

﴿ الْقُرُونُ ﴾<sup>(٢)</sup> . جمع قرن ، والقرن من المقرنة ، وكل جماعة اقترنتوا

(١) المراد بالمجرمين ، الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا وجُرم الإنسان إذا عظم جُرمه، أي أذنب قال تعالى ﴿ وَمَسْئُومٌ الْقَوْمُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ ﴾ (٥١) ﴿ (مرهم) [اللسان] مادة (جرم)﴾

(٢) تسول لهم أنفسهم شيئا يُرِيهم الخلفا والتسويل . محسن الباطل وتزيينه وتغيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله قال تعالى ﴿ هَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَمُبَرِّجٌ مِّثْلُ ۖ ﴾ (١٥) ﴿ [يوسف] ، وقال ﴿ إِنَّ الَّذِي ارْتَضَىٰ عَلَىٰ آثَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٥٦) ﴿ [محمد] [اللسان مادة (سول)]﴾

(٣) القرن الأمة تأتي بعد الأمة والقرن أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتراح، فكأنه بالمقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم يقال . القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك . والجمع القرون قال تعالى ﴿ قُلْ لِمَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُتَوَارِكاً لِمَ يَلْعَنُونَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ قُرُونٍ مَقْضَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ وَأَوْفَىٰ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ مَتَرَاراً وَجَعَلَ الْآثَارَ مُجَرَّيًّا مِنْ تَحْتِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ رَأَيْتُمْ قُوَّةَ آخِرِينَ ﴾ (٥٥) ﴿ [الأنعام] . وقال ﷺ «عبركم قري (يعني أصحابي) ثم الذين يلونهم» ، يعني الذين أحلوا من التابعين

في شيء نسميهم «قرناً» وقد يكون القرن في الزمنية ، ولذلك حسبوا  
القرن مائة سنة ، والشر الذين يجتمعون في مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعه يقترون في شيء يجمعهم ، مهما طُل بهم الأمد <sup>(١)</sup>.

وقوله الحق ﴿وَلَقَدْ أَهَكْنَا الْقُرُونُ مِنْ نَحْنُ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله تعالى كانوا سيؤمنون ؟  
لا ، فله علم أزلي ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اصطفاً  
أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعراف - ولله المثل الأعلى - بحمد الإنسان حين يريد  
بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مفرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء  
حجرتين ، فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط  
الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمم له بناء على قدر سعته ، وإن كان  
لإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعي المهندس لدى يبنى له بيتاً حسب إمكانات  
ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس عودجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ،  
وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان الترانز والأبواب والحجرات .

والعالم قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدره أزلاً عنده  
سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتى واقع الكون على  
وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق  
الكافر ، قاله سبحانه يعلمه

وقد صح أن القلم جفّ حتى في الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم  
ما تحرى به الأمور الفهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما في

(١) الأمد العائى بالأمد انتهى الأجل قال تعالى ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ظَالِمِينَ فِيهِمْ  
الْأَمْذَقَاتُ قُرْبَهُمْ﴾ (١٦) [الحلبي] [الكتاب مادة (أمد)]

الأمور الاختيارية فقد أعطى الخلق الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً<sup>(١)</sup> ، فصمم المسألة على وفق ما علم .

وياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيطلم نفسه - أولاً - ومبق في علمه أن أهل القرون السابقة الدين أهلهم لا يؤمنون .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه ثقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحد حق الإله الأعلى في أن يكون لها واحداً ، وأن يقل ذلك لغيره . تلك هي قمة الظلم ، لذلك قال سبحانه :

﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢)

[لغمان]

وهم قد ظلموا في قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا في الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٤)

[يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم في آن واحد ، لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطري ، وملكة النفع العاجل الذاتي . فإذا تعلبت ملكة النفع العاجل ، تحرج النفس اللوامة<sup>(٢)</sup> ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهي تطلب تحقيق

(١) الغيب ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب والعيوب ما غاب عنك ولا يجب عن علم العيوب قال تعالى : ﴿يُخَوِّنُ بِالْغَيْبِ﴾ (٢٤) [البقرة] . وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي النَّاسَ لَشَوَابِ الْآخِرِ﴾ (٢٨) [الحجرات] . [لسان العرب : مادة (غيب) بصرف]

(٢) اللوامة صيغة مبالغة من اللامة . أي . كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هي التي تكثر من لوم صاحبها على أعطائه . قال تعالى : ﴿لَا أَقْبِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أَلْزَمُ بِنَفْسِي الْوَلَاةَ (٢)﴾ [القيامة]

الشهوات فقط ، لأنها نفس أمارة " بالسوء أما إن اضمأنت انتفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونعلت ما قاله الله سبحانه ، فهي نفس مطمئنة<sup>(١)</sup> . ومن يظلم نفسه فهو الذي تشع شهوات<sup>(٢)</sup> نفسه ، وهو قد أعطاهها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاء أجلاً<sup>(٣)</sup> ؛ فيكون قد ظلم نفسه .

﴿ وَلَقَدْ تَمَنَّاهُ أَنْ تُقْرَأَ مِنْ قِبَلِكُمْ لَعْنًا فَظَنُّوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مؤيدين بالمعجزات ؛ لبصروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال : ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي أنه سبحانه لو تركهم أحباء قلن يؤمنوا ، فهو الذي خلفهم وقد علم أولاً أنهم لن يحضاروا الإيمان .

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذي يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، ولو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يقهر الخلق عليه لكانت المسألة متتية .

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت في الست وتريد أن تقوم وروجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم : إن طعامكم في السلاجة ؛ لحماً وسمكاً ورجناً وزيتوناً . وبعد أن

(١) أمارة . صيغة مبالغة من الأمارة أي كثيرة الأمر والنفس الأمارة هي النفس المسيطرة والمتسلطة على صاحبها ، وقد ورد في القرآن ذكرها في قوله تعالى ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف]

(٢) النفس المطمئنة هي التي اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته ؛ فهي ثابتة وساكنة بالجراء الحسن من الله سبحانه قال تعالى ﴿ بِسَاطِئِهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [ارجع إلى ذلك راحة مؤمنة (١١٠) [الصجر] [الناس مادة اطمأ] بتصرف] . ذكر العادرون إن العروس سبعة النفس الأمارة ، والذوامة ،

واللهية ، والطمئنة ، والراعية ، والرضية ، والكاملة

(٣) تشبه الشيء شهوةً أحبه ورغب فيه واجتمع شهواته قال تعالى ﴿ ذُنُوبُهُمْ رُحْبُ الشَّهَوَاتِ مِنْ الْفَسَادِ وَالْبَغْيِ وَالْمُنْطَرِ الْمُتَطَرِّفِ مِنَ الذُّلِّ وَالْفُحْشِ .. ﴾ [آل عمران] .

(٤) الأجل بمعنى المصير والمصير والأجل الآخرة ، والمأجلة الدنيا وقال تعالى ﴿ وَرَسَعْتُكَ بِالْغَدَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَظَلَمْتَ الْغَدَابِ .. ﴾ [العنكبوت] والأجل المسمى يوم القيامة [الناس

سادة (أجل) بتصرف]

تخرج أنت وزوجتك تقول لها: إن أبناء ما لن يأكلوا إلا جيباً وريتونا ؛  
لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن في الشلاحة إلا الحق ،  
لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهري .

لكن ما دام في الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء .  
وعندما ترجع تجد أبنائك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت  
بهم الاختيار . ومثال هذا في القرآن قوله الحق :

﴿ تَبَيَّنَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ سَيَصْلَىٰ  
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴾ . [المسد]

وفي هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب "سَيَمُوتُ كَافِرًا" ، وهذا حكم  
سُعْلَنَ وَيُرَدَّدُ في الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ،  
وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير ألم يسلم  
عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبي جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم  
يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم  
يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون مه . وما كان من  
لممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكديماً للقرآن ؛ لأن الحق علم أرلأ  
سلوك أبي لهب .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ  
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أهرعية ، وإنما  
سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه البهب

وسب نزول السورة التي ذكر فيها، أن النبي ﷺ خرج إلى الطلعة مصعباً الجبل يتأذى بها  
صباحه فاجتمعت إليه قريش فقال : « أريدكم أن العلو مصعبكم أو تحسبكم أكنتم  
تصدقوني ؟ قالوا نعم قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب ألهدنا جمعنا ؟  
فأمر الله ﷻ ﴿ تَبَيَّنَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أى . مثل هذا الجراء الذى كان للأمم السابقة انى  
أهلكت فى القرون الماضية تجزى من يحدد كل شيء ؛ لأل القضايا فى  
الكون واحدة . فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت لرسل إلى أن  
تتهى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ  
لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

و﴿خلائف﴾ : جمع خليفة <sup>(١)</sup> ، وهو من يحلُف غيره . والحق سبحانه  
وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة :

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ..﴾ (٢٠) [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر ، وسميع ، وعليم ، وله كل صفات الكمال  
المطلق ، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعدى أثر قدرتك إلى غيرك ،  
وبتكك لى تستطيع أن تُعدى قدرتك إلى سواك ، فإن كنت قوياً ، لمن  
تستطيع أن تهَبَ ضِعِيفاً قدرأ من قوتك . بل كل الذى يستطيعه هو أن تهبه  
أثر قدرتك ، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً ؛ فأنت قد تحمله عنه ،  
ون كان غير قادر على المشى ؛ فأنت تأخذ يده ، لكلك لا تستطيع أن تهبه  
جزءأ من قوتك الذاتية ، فيظل هو عاجزأ ، وتظل أنت قادراً - كما أنت .

هذا هو حال الخلق : تجد غنياً وآخر فقيراً ، ويُعطى الغنى للفقير من  
غناه ، ويُعطى العالمُ للجهل بعض العلم ، لكنه لا يهبه ملكة العلم ؛  
ليعلم .

(١) وقد تجمع خليفة على علماء ، قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (٢٧) [الأمرأ]

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة لخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية في الأفلak التي صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته في الأمور التي حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التي تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . ويحدث عدو له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليفقد عني الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطي الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطي الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليعلم على الذي يؤذيه

إذن . فالخلق لا يعدون<sup>(١)</sup> صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، ونظير الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذي يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان . قسم وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم في أمره استقامة لا يتأتى لها أي خلل ، مثل . نظام الأفلak والسماء ودوران الشمس والقمر والرياح وغيرها ، ولا تعاني من أي عطب<sup>(٢)</sup> أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخل الإنسان .

(١) أعديته فعلاً ، وعدوته أعمده ، تجاوزته إلى غيره ، واستعملت الأمر على الظالم طلبت منه النصرة ، فأعداني عليه . أعاني ونصرتي للاستعداد طلب النصرة - المصباح لسير ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) العطب : الهلاك ، يكون في الناس وفي غيرهم . وفي الحديث الشريف ذكر عطب الهندى ، وهو هلاكه ، وقد يُعبر به عن آلة تشويه . تمنع من السير ، فيُحترق والمراد بالعطب هنا الفساد أو المصيب أو الخلل (اللسان : مادة عطب) . بتصرف . يكون سبحانه وتعالى " الذي خلل سبع مسنرات طباة ما قرى في خلق الرحمن من تفاوت " (٣) [الملك] .

وقسم آخر في الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ، حتى يقيمه بالقوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً في كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان بدءاً ، أما الأمور التي ليس للإنسان فيها يد فهي مستقيمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ <sup>(١)</sup> ﴾ [الرحمن]

والمرصد تحدد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق : ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذه الأمور .

وفيما لما فيه اختيار علينا أن نتدخل بمهج الله تعالى ؛ لنستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة في الأكوان العليا التي لا دخل لنا فيها .

إذن : فالذي يُفسد الأكوان هو تدخل الإنسان - فيما يحيط به ، وفيما يتنعم له ويتمتع به - على غير منهج الله ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ <sup>(١)</sup> عَلَّمَ الْقُرْآنَ <sup>(٢)</sup> خَلَقَ الْإِنْسَانَ <sup>(٣)</sup> عَلَّمَهُ الْبَيَانَ <sup>(٤)</sup> ﴾

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ <sup>(٥)</sup> ﴾ [الرحمن]

(١) الحسبان . الحساب . والشمس والقمر بحسبان أي . بحساب ومبارك حديثه الله سبحانه فلا يعدوانها وقال الزجاج : بحسبان بدل عن عدد الشهور والسين وجميع الأوقات . وقال أبو العباس : حسان مصدر حسب يحسبه حساباً وحساناً وقال الأعشى وأبو الهيثم : الحسان جمع حساب قال تعالى ﴿ فَاتْلُ الْقُرْآنَ وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ كُنُوزَ الْبَلَدِ <sup>(١)</sup> ﴾ [الأنعام] [اللسان مادة حسب] . بتصرف

(٢) البيان . ما بين به الشيء من الدلالة وغيره . ويدل الشيء بياناً : أتضح ، فهُرَيْتُ وكذلك أبان الشيء . إيانة فهو مبين . والبيان الفصاحة والإفصاح مع ذكاء ، والبيان . إظهار المقصود ببلغ لفظ قال تعالى ﴿ عَدَا بَيَانَ لِقَائِي وَخَدَى وَمَوْعِظَةَ لِنُفْسِي <sup>(٢)</sup> ﴾ [آل عمران] . وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيَّ بَيَانَهُ <sup>(٣)</sup> ﴾ [القيامة] [اللسان مادة بين] . بتصرف .



أى: هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقدِّروا أوزانكم وحساباتكم على أساسها . ويقول سبحانه :

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ (٦) وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمن]

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا في حركتكم في الكون - كما استقامت لكم الأمور العليا ؛ وازنوا كل الأمور بالعدل ؛ فلا يختل لكم ميزان ؛ لأن الذى يُفسد الكون أنكم تدخلون فيما أعطى لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله فى «افعل» و«لا تفعل»<sup>(١)</sup> ؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقد خلف الإنسان الله تعالى فى الأرض ، فى أنه - مثلاً - يحرث الأرض ويسقيها ؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بقروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطى بعبادة ربه للمؤمن ، وللكافر ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا مبيِّز المؤمن ، لا بعباء الأسباب فقط ، ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل فى

(١) نَجْمُ الشَّيْءِ : طلع وظهر . ويقال لكل ما طلع وبدا : نَجْمٌ . ولذلك اختلف المفسرون فى تفسير النجم فى الآية، فقال ابن عباس : النجم ما لم يسط على وجه الأرض (يعنى : من الثبات) . وقال سجاهد : النجم الذى فى السماء . انظر لسان العرب - مادة (نجم) وتفسير ابن كثير (٢٧٠/٤) .

(٢) لا تفعل ولا تفعل عليهما مدار التكليف الشرعية من : القرض ، والواجب ، والمندوب ، والمستحب والمكروه ، والمباح .

«افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، فإن أخذ العطاءين من الله يوق له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثاني في «افعل» و«لا تفعل» ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلقة .

ومن يُرد أن يأخذ حُسن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتباع المنهج .

إلا أن آفة الخليفة في الأرض أنه يرى بعض الأمور مستجابة له ، فيظن<sup>(١)</sup> ، ويظن أنه أصيل في الكون ، ونقول له : ما دمت تظن أنك أصيل في الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك . وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إن تمردت على أوامر الله بالكفر - مثلاً ، فلماذا لا تمرد على المرض أو الموت ؟

إذن : أنت مفهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التي تنزل عليك بالأقدار ، لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التي لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه .

ولو ظن الخليفة في الأرض أنه أصيل في الكون ، فعليه أن يتعلم مما يراه في الكون ، فأنت قد توكل محامياً في العقود والتصرفات ، فيتصرف في الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل . فبكتفت مثل هذا المحامي إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه :

(١) يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ أَلَمْ يَكُنْ مِنَّا عَبْدًا وَلَمْ نَكُنْ مِنَّا حَبَشًا وَفَعَّرْنَا عَلَاهُمَا نَهْرًا ۚ ﴾ [الكهف] ولكنه طغى بعمه الله فقال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن يُبَدِّلَهُ لِيَدَا ۚ ﴾ [الكهف] وما أظنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدَّتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ ﴾ [الكهف] .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فإذا كنتم قد خَلَفْتُمْ من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة في أن الله تعالى غالب على أمره<sup>(١)</sup> ، ولا ترمقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذي جاءوا به من الله . واركبهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم في هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار في أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا .

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية<sup>(٢)</sup> مقابل حماية المسلمين لهم .

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقى أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْرِه أحداً ، وحُمِي حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا في مجتمع تتكفل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن - ويستفح بالخدمات التي يقدمها المجتمع المسلم - أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات .

(١) لقد حثَّ الله سبحانه الناس على النظر في عاقبة السابقين وما حدث لهم في أزمانهم ، وذلك في آيات كثيرة من القرآن ، منها : ﴿فَلَمَّا خَلَّصْتُمْ مِنْ قَرَارِكُمْ فَاسْجُدُوا فِي الْأَرْضِ فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ (١٢٧)﴾ [آل عمران] . ﴿وَلَمَّا أَفْلَحَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. (١٢٨)﴾ [يوسف] . والله سبحانه قد حسم مسألة الصراع بين الحق والباطل في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [يوسف] .

(٢) الجزية : هي مبلغ من المال يوضح على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، فرضها الإسلام عليهم في مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الدِّين وحمايتهم في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها ، وهي تُجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً . ولا تُجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب . انظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ١١٢ - ١١٢) .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمتع عنه هذه الخلافة .

إذن : فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبي ﷺ على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم تؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلم دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القاتل : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١١) [يونس]

وساعة تأتي لأمر يعمله الله بكلمة ﴿ لِيَعْلَمَ .. ﴾ (١٢) [المائدة] أو ﴿ لِنَنْظُرَ .. ﴾ (١٣) [يونس]

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التي للناس فيها اختيار ، وهو القاتل :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٢٥) [الحديد]

وقد علم الحق سبحانه أولاً كل شيء ، وإذا قال الله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهود وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل : لماذا يحاسبنا الله على ما علم أولاً ؟ بل يأتي الله سبحانه بالاختبار الذي يحدد للعبد المعايير التي تتيج للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصى أن يحاسب ويُجازى .

(١) الميزان : العدل ، والميزان : القدار ، والميزان : الآلة التي توزن بها الأشياء ، وجميعه : موازين . قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ﴾ (٥٧) [الشورى] . وقال : ﴿ وَنُفِخَ الْمَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٥٧) [الأنبياء] . [اللسان : مادة (وزن) .. بتصرف] .  
راجع أصله ومخرج أحاديثه في السلسلة الشيخ / محمد السراوي المشهور بالأزهر - والاستاذ / هادي أبو العاطي .